

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk. Com.

محسن محمد

سرقة ملك مصر

دار الشروق



وادى الملوك .. بلا ملوك !

القدر وحده جاء بهذين الرجلين من إنجلترا؛ ليجتمعا فى وادى الملوك . . بالأقصر .

الأول : اللورد كارنارفون واسمه الكامل «جورج إدوارد ستانهوب هربرت كارنارفون» !

ماتت أمه وعمره ٩ سنوات، وكان أبوه وزيرا للمستعمرات مرتين .

تعلم فى أشهر كليتين فى بريطانيا، ولكنه لم يحصل على شهادة جامعية أبدا . ثرىّ يملك عزبة مساحتها ٣٦ ألف فدان .

متعدد الهوايات، والمواهب .

يهوى الطائرات والسيارات . شجع أحد مواطنيه على بناء طائرة أقلعت من عزبته . يملك سيارات فى أوروبا قبل السماح بملكيتها فى بريطانيا . وعندما سمح بذلك حملت سيارته رقم ٣ فى لندن .

يحب سباق الخيل وله حظيرة حافلة، اعتاد أن يقود أحد خيوله قبل السباق . . تفاؤلا ! وفازت خيوله لأول مرة فى ١٢ سباقا عام ١٩٠٢ وربح ٥٣٧٠ جنيها . وفى عام ١٩٠٤ ربحت خيوله مبلغ ١٢١٤٣ جنيها فى ٢٩ سباقا !

يهوى الصيد والفلاحة ويعتبر خبيرا فى التصوير، أقام بعض معارضه فقال المحترفون إنهم تعلموا كثيرا من هذا الفنان الهاوى !

يجمع اللوحات والكتب النادرة وكتب الفن، ومكتب نابليون الذى كان يجلس عليه فى منفاه بجزيرة ألبا . . وعليه أثر أظافر الإمبراطور !

تزوج وعمره ٢٩ عاما من فتاة جميلة اسمها المينا فيكتوريا مارى ألكسندرا. وشهد حفل الزفاف أصحاب الألقاب والثروات يتقدمهم أفراد أسرة روتشيلد.

أنجب ابنا وبنتا.

وساعدته ثروته على الطواف بمعظم دول العالم. وحصل على وسام من السلطان التركى عبد الحميد!

كان فى طريقه للقاء زوجته فى الريفيرا الفرنسية، عندما سقطت السيارة فى حفرة بألمانيا.

ظن السائق أنه مات فألقى عليه صفيحة ماء، فأفاق.

ولكن الحادث ترك آثارا فى صدره، ومعدته، وقدميه، فأصبح يتألم بصفة دائمة.

وقال الأطباء إن صعوبة التنفس، أو أزمة إنفلونزا يمكن أن تقضى على حياته.

نصحه الأطباء بالابتعاد عن رطوبة إنجلترا والاستشفاء جنوب فرنسا، ولكن صحته لم تتحسن وقيل له: الجو فى مصر جاف وأكثر دفئا..

وكانت سيدة بريطانية غنية هى الليدى لوسى داف جوردون قد زارت مصر لتستشفى من مرض صدرى، ونشرت كتابا اسمه «رسائل من مصر» طبع عدة مرات وأدى إلى زحف أغنياء الإنجليز على مصر.

وظهرت فى لندن أيضا دراسة مقارنة بين مدن الاستشفاء.. نيس، وسان دييجو، وصقلية، ومالطة، والجزائر، فأكدت النتائج أن مصر - كمشتى - تحجب كل هذه المدن.

وأنشئ فندق ونتر بالاس فى الأقصر ليشتهر كفنادق هذه الأيام: هيلتون وشيراتون وغيرهما!

أقيم الفندق على النيل ليضم ٤ أدوار تضم مائتى حجرة ارتفعت أسقفها. وكل حجرة لها «فراندة» تطل على النيل.

وقيل للورد:

- مصر تطيل عمر المرضى، زارها والدك فلم لا تفعل أنت؟

وهكذا جاء اللورد كارنارفون إلى مصر بعد ٤ سنوات من حادث السيارة!

* * *

فى ذلك العهد كان أغنياء الأجانب يسعون إلى امتلاك الآثار المصرية بالتنقيب عنها وشرائها، وتهريبها.

نصحه القنصل البريطانى العام فى مصر اللورد كرومر بتمويل بعض عمليات البحث عن الآثار.

وقال له عالم الآثار السير بيرسى نيوبرى أستاذ التاريخ القديم بالجامعة المصرية والخبير بالمتحف المصرى:

ـ أفضل اكتشاف قبر فرعونى على الفوز فى سباق الدربى الشهير فى بريطانيا.

أعجب اللورد بالفكرة ورأى أن ينقب عن الآثار ليحصل على مزيد منها.. بطريقة قانونية.

قام اللورد بحفائر فى أحد المواقع، ستة أسابيع، فلم يجد إلا مومياء قطة فعلق على ذلك قائلا:

ـ هذا كشف فريد!

* * *

أراد اللورد أن يكون معاونه.. بريطانيا أيضا.

هنا يتدخل القدر ليظهر البطل الثانى فى الرواية: هوارد كارتر.

ولد عام ١٨٧٣ فى قرية بإنجلترا تعدادها ٢٥ ألفا.

أبوه فقير لم يستطع إرساله ـ وهو الطفل الحادى عشر ـ إلى أية مدرسة فتعلم فى البيت، ولقنه أبوه فن الرسم بالألوان المائية.

كان متوقعا أن يظل «كارتر».. طول حياته.. يحترف هذه المهنة مثل أبيه فيرسم الحيوانات والمناظر الطبيعية.. ويبيعها، ويمضى حياته كلها فى قريته، أو المدن المجاورة، وإذا ساعده الحظ ينتقل إلى لندن.

ولكن عاد الأستاذ «بيرسى نيوبرى» إلى إنجلترا فى إجازة.

أخذ «نيوبرى» يتحدث إلى صديق له عن الحفائر التى يقوم بها فى قرية «بنى حسن» . . وقال إنه فى حاجة إلى من يساعده لنقل اللوحات التى توجد على جدران المعابد والآثار المصرية .

اقترحت زوجة الضيف عليه شابا يقيم فى قرية مجاورة هو «هوارد كارتر» .

التقى الأثرى «بكارتر» وتعاقد معه على الفور .

. . . وهكذا دخل كارتر إلى الآثار المصرية من هذا الطريق الغريب!

دربه نيوبرى ٣ شهور فى المتحف البريطانى فى لندن ، ثم جاء به إلى مصر عام ١٨٩٠ فى بعثة أثرية يمولها صندوق البحث عن الآثار المصرية التابع للمتحف البريطانى .

كان عمر «كارتر» أيامها ١٧ سنة .

ويتدخل الحظ مرة أخرى فى حياة كارتر ليعمل مع واحد من كبار علماء الآثار المصرية هو السير «ويليام فلاندرز بيترى» ٧ سنوات كاملة .

وينتهى المطاف بكارتر عام ١٨٩٩ ليعين ـ وعمره ٢٥ سنة ـ مفتشا للآثار فى صعيد مصر والنوبة ، ومقره الأقصر ، ليشرف على عديد من الحفائر ويشترك فيها . . وينقل الرسوم من جدران المعابد المصرية ، ويتقن اللغة العربية ، ويتعلم أسس اللغة المصرية القديمة .

وللمرة الثالثة يتدخل القدر فى حياة «كارتر» .

فى سنة ١٩٠٣ كان السير «بيترى» مع زوجته ، وثلاث من السيدات يساعدنه فى عمله بسقارة عندما اقتحم خيامهم فى المساء ثلاثة من الفرنسيين السكارى .

وأراد أحدهم أن يدخل خيمة النساء .

أسرع «بيترى» فأرسل إلى «هوارد كارتر» الذى جاء ومعه بعض معاونيه من المصريين العاملين فى مصلحة الآثار .

لم يتمالك «كارتر» نفسه . . ضرب أحد الفرنسيين وأوقعه على الأرض .

أسرع السكير إلى القنصل الفرنسى يشكو . خاف القنصل بولنيير أن تنشر صحف فرنسا القصة وتثير أزمة حوله فطلب إلى كارتر أن يعتذر للفرنسيين .

رفض كارتر وتدخل مدير عام مصلحة الآثار الفرنسى فقال لكارتر :

ـ أرجوك . . قدم اعتذارا شكليا وتنتهى المشكلة .

ولكن هوارد كارتر رفض . . وأصر على ذلك قائلا إنه كان يؤدى واجبه وإن الفرنسيين أولى بتقديم الاعتذار . طلب مدير الآثار من اللورد كرومر الحاكم الحقيقى لمصر التدخل .

استدعى اللورد كارتر «وأمره» بالاعتذار .

ولدهشة كرومر أبى كارتر الاعتذار وأصر على ألا ينحنى للفرنسيين السكارى !

اضطر مدير الآثار ـ إرضاء للقنصل الفرنسى ـ إلى طرد «كارتر» من مصلحة الآثار ! الذى وجد نفسه عاطلا وعمره ٢٩ عاما ، فتوجه للإقامة فى الأقصر التى يحبها .

* * *

خلال السنوات الأربع التالية اضطر «هوارد كارتر» إلى العمل مرشدا للأفواج السياحية يقف على باب فندق ونتر بالاس يبيع رسومه المائية واشتغل بتجارة الآثار والتحف .

وفى وقت الفراغ يتجول باحثا عن قبور الفراعنة !

ساعده بيترى فاستأجره . واستمر الصندوق البريطانى للبحث عن الآثار ينشر رسومه ويدفع ثمنها .

وحاول الحصول على ترخيص بالبحث عن الآثار ولكن الفرنسيين الذين طردوه من عمله ويرأسون مصلحة الآثار أبوا منحه الترخيص .

وينتقل كارتر حينا للعمل مع المحامى والمليونير الأمريكى «تيودور دافيز» الذى حصل على ترخيص بالحفر فى منطقة وادى الملوك عام ١٩٠٢ . . وظل ١٢ سنة ينقب فوجد مقابر تحتمس الرابع ، وحور محب ، والملكة حتشبسوت ، والملك سيتى . . ولكن المقابر كانت خالية ، فإن اللصوص سبقوا المليونير الأمريكى !

* * *

كان كارنارفون يبحث عمن يتولى عنه مهمة التنقيب .

وكان كارتر يبحث عن عمل فى وادى الملوك الذى نقب فيه كبار الأثريين والمغامرين.

درس كارتر كل الحفائر التى تمت فيه وعرف كل ما يمكن معرفته عن الملوك المدفونين فيه.

وكان لابد أن يحدث لقاء بين كارنارفون وكارتر فى وادى الملوك، فإن مدير الآثار أصر على عدم تسليم الترخيص للورد إلا إذا استخدم خبيرا يعاونه.

كانت العدواة قد زالت، أو هدأت حدتها، بين الإنجليز والفرنسيين بسبب خوف الاثنين المشترك من الخطر الألمانى القادم ولم يعد مدير الآثار غاضبا على كارتر.

وكان يحب اللورد الذى يتحدث باللغة الفرنسية؛ ولذلك قدم مدير الآثار كلا من الرجلين للآخر.

وهكذا التقى الرجلان لا فى عزبة «هاى كليرك» التى يمتلكها اللورد، أو فى سوق الماشية فى قرية سوافهام البريطانية التى ولد فيها كارتر، بل بين بقايا الحضارة المصرية القديمة فى الأقصر!

وبقى اللورد والرسام متعاونين ١٦ عاما، نال عنها اللورد ١٦ سطرا أشادت به فى دائرة المعارف البريطانية بينما حصل كارتر على ١٨ سطرا فى هذه الدائرة و ٤٠٠ جنيه أجرا سنويا من اللورد!

بحث الاثنان فى الضفة الغربية للنيل فى الأقصر خمس سنوات كاملة من ١٩٠٧ حتى عام ١٩١٢ ونشرا فى ذلك العام كتابا عنوانه «خمس سنوات من البحث فى طيبة».

وينتقل كارتر إلى سخا ولكن تظهر ثعابين الكوبرا لتطرده والعمال من المنطقة.

وتكون هذه مصادفة أخرى تدفعه إلى الأقصر، فى الوقت الذى يدرك فيه اليأس دافيز من منطقة وادى الملوك. وبقى عامين لا يحفر فيها وظل كارنارفون ينتظر حتى تنازل دافيز عن الترخيص.

* * *

تقدم «كارنارفون» عام ١٩١٤ إلى مدير مصلحة الآثار - يطلب ترخيصا بالتنقيب

عن الآثار فى المنطقة التى تنازل عن امتيازها تيودور دافيز . . وكان على مسافة بضعة أقدام من أخطر الاكتشافات الأثرية المصرية . . على الإطلاق .

وافق مدير الآثار على منح الترخيص الذى سلم للورد فى ١٨ إبريل عام ١٩١٥ لمدة عام ، ويجدد الترخيص سنويا حسب مشيئة المصلحة . وفى عقد الامتياز هذه النصوص :

* الحفر والتنقيب على نفقة اللورد ، والعمل يتم بعناية كارتر .

* إبلاغ باشمفتش الوجه القبلى فى الأقصر عند اكتشاف مدفن أو بناء آخر .

* المكتشف أول من يدخل المدفن أو البناء .

* منذ فتح المدفن ، وعند ظهور الحاجة ، يضع باشمفتش الآثار الحراس عليه .

* موميـاوات الملوك والأمـراء وكبار الكهنة وتوابيتهم ونواويسهم تبقى ملكا للمتحف المصرى وكذلك التحف ذات الأهمية التاريخية الكبرى .

* باقى التحف تقسم مناصفة بين مصلحة الآثار وصاحب الترخيص مكافأة لتعبه ، فيحصل على نصف الآثار أو نصف الثمن .

* المدفن السليم وجميع تحفه تئول لمصلحة الآثار .

* كل مخالفة لهذه الشروط تؤدى ، بدون إعلان أو إجراءات ، لإلغاء الترخيص ولا حق لصاحبه فى تعويض أو مكافأة .

وقال مدير الآثار للورد وهو يسلمه امتياز التنقيب :

ـ لن تجد يا سيدى اللورد من الآثار ما يعادل نفقات الحفر .

* * *

بدأ كارنارفون وكارتر يستعدان للتنقيب . .

كانت عملية البحث عن الآثار يدوية . .

الحفر بطريقة بدائية ؛ بالفئوس والمعاول والسلال (القفف) والتراب ينقل بعيدا .

وكان الأثريون ينقبون بالوادى ، يزيلون التراب فإذا وجدوا ما يدل على وجود قبر استمروا فى الحفر ، وإذا لم يجدوا انتقلوا إلى نقطة أخرى .

ولم يكن أحد يترك خريطة بالمنطقة التى حفر فيها!

وكان الحفر يتم فى فصل واحد . . هو فصل الشتاء . . ويمتد ٧ شهور ويسمى موسما . ويتقاضى العامل ٣ قروش يوميا ، ويتكلف تأجير مئات العمال للعمل موسما واحدا ٥٠٠٠ جنيه .

وجد اللورد أنه دفن نفسه حيا فى مصر ، يمضى نصف السنة أو أكثر فى عشة أقامها بالطين والرمال على تل منعزل عند مدخل الوادى أشبه بقبر أغاخان الحالى فى أسوان! ولا توجد حوله شجرة أو أعشاب ولا يرى إلا سهل الوادى وجباله التى ترتفع ١٨٠٠ قدم .

أثرت حياة الوحدة الكئيبة فى الصحراء على اللورد البريطانى الذى يمضى فيها معظم الشتاء والخريف .

كانت أيامه متشابهة رتيبة . .

يستيقظ فى الخامسة والنصف صباحا ليتناول إفطاره ثم يمتطى حماره إلى نقطة الحفر فيجد ٢٧٥ رجلا ينقلون الرديم إلى مكان بعيد . ويعملون يوميا عدا يوم الثلاثاء كما يحصلون على نصف يوم الجمعة كعطلة .

ويعود اللورد إلى العشة عند الغروب .

وخلال هذه السنوات عانى من الحر القاسى ، والحقيقة المظلمة التى كادت تجرده من الطاقة والأمل .

ولكن الحرب العالمية الأولى التى دخلتها بريطانيا فى ٤ من أغسطس عام ١٩١٤ منعت الاستمرار فى الحفر . واستقر اللورد فى بريطانيا بعد أن حول قصره إلى معسكر لتأهيل الجنود الجرحى .

* * *

رأى كارتر ـ الذى كان فى الحادية والأربعين ـ أن يعرض خدماته على الحكومة البريطانية فاختير ليكون حاملا للحقائب الدبلوماسية بين لندن والقاهرة . . بطريق البحر .

وكانت التعليمات صريحة تمنع حامل الحقيبة الذى يعمل فى خدمة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى من نقل شىء آخر . . أى منعه من التهريب!

قام كارتر بمهمته عدة مرات حتى وصل يوما إلى ميناء بورسعيد فسأله موظف الجمارك البريطانى عما إذا كان معه شىء آخر غير الحقيبة الدبلوماسية .

أجاب بالنفى .

ولكن موظف الجمارك قام بتفتيشه فعثر معه على علبة سجائر فضية .

سأله الموظف عن مصدرها فقال إن سيدة فى لندن توسلت إليه أن يحمل هذه العلبة هدية لابن أخيها فى مصر .

ولكن السيدة أبرقت لابن أخيها قائلة إن كارتر يحمل علبة السجائر .

وقعت البرقية فى يد الرقيب العسكرى الذى أبلغ السلطات فأعد الكمين لكارتر . . كما أعد قرار الفصل لمخالفة التعليمات فى أثناء الحرب!!

وهكذا عاد كارتر إلى الأقصر فى خريف ١٩١٧ وبدأ يحفر فى وادى الملوك .

كان كارتر هاويا للحفر والتنقيب والآثار ، يشم رائحة الآثار عن بعد .

أعد كل شىء بحسابات دقيقة .

رفض أسلوب أغنياء الأجانب . وقرر أن ينقب إلى الأعماق حتى يصل إلى الصخور ، وأعد خريطة شاملة للمنطقة قسمت إلى مناطق إذا انتهى من الحفر فى إحداها انتقل إلى منطقة أخرى وهكذا .

وتعلم من أستاذه نيوبرى حب الآثار ، وظل يذكر دوما كلمات أستاذه .

قال له :

ـ من خلال الآثار نرى الماضى ، حافلا بالمعانى ، يرتفع أمامنا والأرض يجب أن تحفر شبرا بعد شبر لنرى ماذا تخفيه . وكل أوقية من التراب لابد أن تفحص فحصا دقيقا ، وكل قطعة من الفخار فيها مفتاح للتاريخ .

سجل كل ما تجده ، وحذار من الملح على الآثار ، واحفظها فى الشمع خوفا من الهواء .

إن الحصول على الآثار شيء سهل، ولكنه عمل ضائع إذا لم تحفظ هذه الآثار وتنقلها سليمة. وعشرين فى المائة من الوقت يضيع فى تعبئة الآثار.

وكان كارتر يحفظ هذه الكلمات التى اعتبرت - فى ذلك الوقت - ثورة فى علم الآثار!

بدأ كارتر يحفر عام ١٩١٧ فى منطقة مثلثة تمتد من قبر رمسيس السادس إلى ميرنبتاح ورمسيس الرابع.

وقرر أن يزيل التراب عن كل شبر؛ ليصل إلى غايته فى هذا المثلث الذى يبلغ حجمه فدانين ونصف الفدان.

بدأ «كارتر» برأس المثلث عند مدخل قبر رمسيس السادس، فحفر إلى عمق ١٥ ياردة فوجد أكواخا تشير إلى أنه كان يجرى بناء مقبرة.

وفى أكتوبر ١٩١٨ بدأ موسم الحفر الثانى.

وعدل بيير لاكو مدير مصلحة الآثار عقد الامتياز فى ١٨ ديسمبر دون مبرر، ولم يفطن اللورد أو كارتر لأهمية هذا التعديل أو لما سيلحقه بهما من أضرار.

نص التعديل على «الترخيص للورد أن يفتح وينبش قبرا استكشف كارتر مدخله فى الوادى الكبير شمال وادى الملوك».

واقتصر التعديل على المادة التاسعة من الترخيص.

كانت هذه المادة تقضى بأن المقابر التى توجد سليمة تئول كل تحفها إلى المتحف المصرى.

فجاء التعديل ليفسر معنى كلمة «مدفن سليم».

قال: «ليس المعنى بكلمتى «مدفن سليم» أنه مدفن لم يمس بتاتا، بل المعنى بهما مدفن يشمل على أثاثه بحالة حسنة، ويؤلف مجموعة صحيحة، حتى ولو كان اللصوص قد دخلوه لأخذ الجواهر كما حدث فى مدفن والد الملكة تى ووالدتها».

وكان الهدف أن تحتفظ مصلحة الآثار بمحتويات أية مقبرة حتى ولو كان اللصوص قد نبشوها مادامت محتويات المقبرة سليمة بصفة عامة!!

وكان هذا التعديل هو الأساس الذى استندت عليه مصر فيما بعد!

ويتدخل القدر مرة أخرى..

رأى كارتر لسبب غير مفهوم أبدا عدم الاستمرار فى التنقيب فى ذلك المثلث وكانت قد بقيت قطعة صغيرة لم يحفر فيها .

وقال فيما بعد ـ إنه خشى أن يسد التراب قبر رمسيس السادس ، ويمنع السياح ، من دخوله . ويحرم المرشدين السياحيين ـ وهم أصدقاؤه ـ من دخولهم .

وأيما كان السبب فإنه ترك المنطقة ، وكان على بُعد متر تقريبًا من هدفه ، وأخذ يحفر بعيدًا عن المنطقة الأولى .

لم يجد كارتر شيئًا .

وظل يحفر بعد ذلك ، كل موسم ، خمس سنوات كاملة دون الوصول إلى نتيجة .

ومع ذلك ظل امتياز التنقيب يجدد سنويا ، وتم نقل ٢٠٠ ألف طن من الرمال والحصى دون العثور على شىء .

* * *

أصبح اللورد كارنارفون فى السابعة والأربعين من عمره إلا قليلا . . يجنح إلى الصمت ساعات طوالا . . يفكر فى الرحيل عن مصر لأنه لم ينجح ، وفقد حماسه للعملية كلها .

استدعى اللورد كارتر للقائه فى عزبته بإنجلترا فى صيف عام ١٩٢٢ .

وكان اجتماع الرجلين أخطر لقاء لهما منذ التقيا لأول مرة قبل ١٥ عاما .

كان الرجلان متشابهين فى كل شىء تقريبا ، طولهما متوسط ، شواربهما رفيعة ، شعرهما أسود ، ملابسهما متشابهة ، الجاكتة من التويد والقميص أبيض ، ويختلفان فقط فى القبعة .

ومن يراهما يحسبهما شقيقين أو ابنى عم أو أحدهما صورة متكررة للثانى .

إن كارتر هو الروح الأخرى لكارنارفون ، أو ما يطلق عليه قدامى المصريين «كا» .

ولكن كان هناك اختلاف أساسى بين الرجلين فى الطباع .

اللورد يكسب الأصدقاء بسهولة ، وكارتر يخسرهم بسهولة أكثر .

اللورد له أصدقاء كثيرون فى مصر من الباشاوات إلى الفلاحين ، فقد تعاطف

مع آمال الشعب المصرى فى الاستقلال، ولذلك أقام لسعد زغلول مأدبة عشاء فى عزبته بإنجلترا . . وكارتر استعمارى .

اللورد يعرف المرونة وكارتر عنيد، حاد الطباع عدوانى .

اللورد يرى الآثار صيدا وكارتر يراها لعبة حتى إنه قال :

ـ لو لم أكن أثريا لكنت بوليسا سريا .

وكان اللورد يكبر كارتر بسبع سنوات .

قال اللورد لكارتر إنه قرر التخلى عن البحث عن ملوك مصر، فإن الأزمة الاقتصادية فى أعقاب الحرب جعلت الاستمرار فى التنقيب اليائس، أمرا غالى الثمن . لقد أنفقت ٥٠ ألف جنيه فى مواسم حفر جرداء استمرت ١٥ سنة .

لم يحاول كارتر إنكار هذه الحقيقة، بل قال إنه لا يزال يأمل فى العثور على قبر فرعونى سليم .

وأخذ يتكلم عن الشتاء القادم .

قاطعه اللورد قائلا :

ـ يجب أن نتوقف .

قال كارتر :

ـ إن الفشل حتى الآن لا يؤثر فى اقتناعى بأن هناك قبرا ملكيا واحدا ـ وليس قبرا عاديا ـ لم يكتشف بعد . . وهناك دلائل على وجوده وهو قبر الملك توت غنخ آمون الذى حكم مصر فى عصرها الذهبى قبل ثلاثين قرنا .

والأدلة على وجوده كثيرة ومؤكدة . إن أسكوتلنديارد لا تتخلى عن قضية بدعوى أن الأدلة ليست حاسمة .

ويبدو أن كارتر كان يتوقع الرفض فقد أخرج من جيبه خريطة لوادى الملوك طرحها أمام اللورد قائلا :

ـ توجد منطقة صغيرة أسفل قبر رمسيس حفرنا عندها أول موسم عام ١٩١٧ ثم تركناها حتى لا نمنع الزوار من زيارة القبر .

وأضاف قائلا :

ـ دعنى أبحث موسما واحدًا فقط . وإذا لم توافق على التمويل فإنى مستعد لتحمل كل النفقات . . ولكنك صاحب الترخيص الذى ينتهى بعد عام فى ١٦ من نوفمبر ١٩٢٣ ولذلك يجب أن أستمر باسمك . .

وقال :

ـ لابد أن سيولا أو أمطارا غزيرة غيرت شكل المكان والوادى . وقد رأيت مثل هذه الأمطار فى وادى الملوك ٤ مرات خلال الـ ٣٢ سنة التى عشتها فى مصر فى سنوات ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ومرتين عام ١٩١٦ .

رفض اللورد الموافقة على الاستمرار .

قال كارتر :

ـ إذا لم أجد شيئا فأنا الخاسر وإذا وجدت شيئًا فإن الكشف سيكون باسمك .

تأثر اللورد الرياضى من هذا العرض الكريم لأسباب كثيرة منها أنه خشى ضياع كل هذا الجهد والمال سدى؛ ولأن كارتر وهب حياته كلها للحفر والتنقيب ورفض الزواج . . وأخيرا؛ لأن اللورد كان يعلم أن كارتر يملك المال اللازم للتنقيب . . وأن متحف المتروبوليتان فى نيويورك مستعد لتمويل عمليات للبحث عن آثار مصر .

فى ظل ذلك وافق اللورد كارنارفون على أن يمول عملية البحث والتنقيب .

قال اللورد لكارتر :

ـ عام واحد بنفس الشروط والقواعد القديمة .

. . إن اللورد قرر أن يدفع كل النفقات .

* * *

ورغم ذلك بقيت تتردد فى رأس اللورد كلمات المليونير الأمريكى دافيز وهو يتنازل عن ترخيصه عام ١٩١٤ قائلا :

ـ وادى الملوك . . خلا من الملوك!

نهب مصر

مصر من أوائل دول العالم التى توحدت تحت حكم ملك واحد هو الملك مينا عام ٣١٠٠ قبل الميلاد.

وحكم مصر القديمة ٣٦٠ فرعون يمثلون ٣١ أسرة ملكية خلال ٣٠٠٠ سنة تقريبا انتهت عام ٣٣٢ قبل الميلاد عندما احتل الإسكندر الأكبر مصر.

وكان الملك مقدسا حتى إن التقويم المصرى كان يبدأ بالملك وينتهى بوفاته، فيقال فى السنة الأولى لحكم الملك. . أو السنة الثانية أو الثالثة. وعندما يموت الفرعون ينتهى التقويم. وبتولى غيره يبدأ تقويم جديد.

قبل الوحدة كانت نخب ـ الكاب الآن ـ عاصمة جنوب مصر. ومدينة بوتو ـ كفر الشيخ الآن ـ عاصمة الشمال.

وفى عهد مينا كانت منف ـ ميت رهينة ـ عاصمة مصر الموحدة.

وتنقلت العاصمة لمصر حسب الظروف السياسية التى عاشتها البلاد من طيبة ـ الأقصر ـ إلى إثيت تاوى ـ إهناسيا فى بنى سويف ـ إلى قنتير وتانيس ـ صان الحجر بمحافظة الشرقية، و«سايس» ـ صان الحجر بمحافظة الغربية ـ ثم الإسكندرية، وأخيرا الفسطاط فى العصر الإسلامى.

وكانت هناك عواصم دينية بالإضافة إلى العواصم السياسية وهى منف، وطيبة، وهليوبوليس وأبيدوس.

وتعتبر طيبة، أو الأقصر، من أشهر العواصم المصرية القديمة، كانت عاصمة سياسية ودينية فى الوقت نفسه.

كانت مقرا للحكم فترة امتدت ألف عام. بدأت سنة ٢١٠٠ ق. م، فى عهد الأسرة الحادية عشرة، ولكن ألمع فترات عظمتها كانت بعد نصف قرن عام ١٥٥٥

قبل الميلاد فى عهد الأسرة الثامنة عشرة التى بدأت بالملك أحمس الذى انتصر على الهكسوس وطردهم من مصر، بعد أن ظلوا يحتلونها نحو ١٥٠ عاما.

وقد اشتهرت هذه الأسرة بملوكها المحاربين، ففى عهدهم امتدت الإمبراطورية المصرية جنوبا فى السودان وشمالا حتى نهر الفرات.

وأقيمت المعابد الضخمة فى الأقصر، وأشهرها معبد الكرنك الذى يمكن أن تضم أسواره عشر كاتدرائيات فى أوروبا.

أما معبد آمون الذى يوجد داخل الكرنك، فيمكن أن تضم جدرانه أشهر ٣ كاتدرائيات وكنائس أوروبية وهى: كنيسة القديس بطرس فى روما، وكاتدرائية ميلانو الشهيرة، وكنيسة نوتردام فى باريس.

وكان ملوك مصر يدفنون فى الجانب الغربى من المدينة وهو مقر الحكم أيضا.

ولكن ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة تحتمس الأول رأى أن تكون مقبرته على الشاطئ الغربى للنيل. وظل المعبد فى الجانب الغربى أيضا، ولكن بعيدا عن المقبرة.

قرر المحافظة على سرية مكان القبر.

وأصبح ذلك تقليدا لكل من حكم بعده. فقد استمر ملوك الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين يدفنون فى ذلك المكان ١٥٠ سنة متصلة باستثناء إخناتون الذى نقل عاصمته إلى تل العمارنة.. العمارنة الآن.

وامتدت على مسافة خمسة أميال على حافة الصحراء تلك المنطقة التى دفن فيها ملوك مصر، وأسرهم، والنبلاء، والكهنة، وكبار الموظفين، وقد أطلق عليها اسم «وادى الملوك».

والاسم ملىء بالرومانسية.

وبين جميع أسماء العجائب فى مصر.. لا يوجد ما يحرك الخيال كما يفعل هذا الاسم.

فى هذا الوادى المنعزل النائى البعيد عن أى أثر للحياة يرقد كثير من ملوك مصر بينهم أعظم ملك عرفته البلاد وهو رمسيس الثانى الذى حكم مصر ٦٧ عاما.

* * *

آمن المصريون بأن هناك حياة أخرى بعد الموت. وهذه العقيدة هى أساس كل الأديان السماوية، وإن اختلفت فكرة المصريين فى الحياة الثانية عن أديان السماء!

رأى المصريون أن الخلود يتحقق إذا لم يتحلل الجسد الميت، فقد اعتبروه قوقعة تستعمل إذا تمت المحافظة عليها.

وقالت عقيدتهم إن الموت لا يقطع الرابطة بين الروح والجسد، فكل منهما يعتمد على الآخر.

وكل تآكل فى الجسد، بعد الموت يؤدى إلى أن الروح لا تتعرف على الجسد، إذ يسرق من الروح جزءا، وتحلل الجسد يعنى فناء الروح!

ومن هنا نشأ فن التحنيط.

حرص الشعب كله على حفظ الجسد بعد الموت.

وقد فتن العالم بفن تحنيط المومياوات على الطريقة المصرية.

فى لندن أقام جراح اسمه الدكتور «بتيجرو» حفلا لإزاحة الأكفان عن مومياء مصرية فنفدت جميع التذاكر كما لو كان الحفل عرضا مسرحيا.

ورأى دوق «هاملتون» أن يحنط جثمانه بعد وفاته.

قام الدكتور «بتيجرو» بهذه العملية فى ١٨ أغسطس عام ١٨٥٢ بعد وفاة الدوق الذى كان قد جاء بتابوت حجرى مصرى لهذا الغرض.

حرص الشعب كله على حفظ الجسد بعد الموت.

وقال صامويل بيرش الذى ظل ١٩ عاما أمينا للقسم الشرقى بالمتحف البريطانى، عام ١٨٧٨ : إن المصريين حفظوا ٤٢٠ مليون مومياء خلال ٢٧٠٠ عام من التاريخ المصرى.

ولكن علماء آخرين قالوا إن الحضارة المصرية امتدت ٤٧٠٠ عام، ولذلك فإن عدد المومياوات يصل إلى ٧٣١ مليونا.

وكانت المومياوات المصرية منذ العصور الوسطى تسحق وتباع كدواء لا يقدر بثمن لعلاج كل الأمراض، وتستعمل مثل الإسبرين، ويضاف إليها بعض زيوت النباتات لعلاج الالتهابات.

أشار الشاعر الإنجليزى وليم شكسبير إلى المومياوات فى مسرحيته «ماكبث». وقال رسامو القرن السادس عشر إن إضافة مسحوق المومياوات إلى لوحاتهم يمنعها من أن تتشقق عندما تجف الألوان.

وكان ملك إنجلترا شارلز الثانى الذى عاش فى القرن السابع عشر يجمع التراب والمساحيق التى تتساقط من المومياوات يحك بها جسده لتنتقل إليه عظمة القدامى!

وفى عام ١٧٧١ حذرت دائرة المعارف البريطانية الناس فى أوروبا وأمريكا من شراء مسحوق هذه المومياوات؛ لأن ما يباع هو جثمان المجرمين لا المصريين!

وعندما تقدم العلم فى القرن التاسع عشر زالت فكرة العلاج، بمسحوق المومياوات؛ ليحل محلها استعمال المومياوات كسماد لخصوبة الأرض.

وفى كتاب ماك كون: «مصر كما هى» الصادر عام ١٨٧٧، قال إنه قبل «خمس سنوات» كانت المومياوات أول الصادرات المصرية.. يصدر منها ١٠ آلاف طن سنويا، أغلبها لبريطانيا.

وفى أمريكا احتاجوا للكتان والأكفان التى تلف بها المومياوات؛ ليصنعوا منها الورق عام ١٨٠١ فكانت المومياء تستعمل سمادا، والأكفان ورقا!

ونشرت الصحف الأمريكية عام ١٨٥٦ إعلانات لمصانع تفاخر بأن ورقها صنع من أكفان مومياوات المصريين.

* * *

وإذا كان شعب مصر قد حرص على حفظ الجسد من الموت، فإن ملوك مصر كانوا أكثر حرصا.

بنوا القبور كما بنوا القصور، والمقبرة تعتبر نافذة وصورة للحياة اليومية فى مصر القديمة.

كان الملك يبدأ بناء قبره فى السنة الأولى لحكمه ويوسع القبر عاما بعد عام .

وكانت المقبرة تضم تماثيل الملك ، وحليه الذهبية ، وملابسه وأسلحته ، وتعاويذه ؛ لأنه يريد أن يكون ، حوله ، كل ما كان يحبه ويقدره فى حياته .

شىء واحد لم يكن يسمح للملك بأن يأخذه معه إلى المقبرة وهو التاج الملكى .

وامتلأت الآنية بصنوف الطعام المختلفة ؛ ليجدها الملك عندما يستيقظ من رقدته ، كما كانت عقيدة قدماء المصريين .

ولم يكن ذهب المقابر مجرد كتل أو قضبان يصعب التخلص منها ، ولا يوجد لها مشترون ، بل كان الذهب قطعا من الحلى ، أى سلعة تجارية يقبل عليها الناس عند طرحها للتعامل .

ومن هنا زادت السرقات لسهولة بيع المسروقات .

وخوفا من طمع اللصوص فى محتويات المقابر كانت الصلوات الجنائزية العلنية تقام فى القصور والمعابد فيشهدها الناس على الشاطئ الشرقى للنيل ، أما المقابر فعلى الشاطئ الغربى .

وفى أول الأمر دفن فراعنة مصر فى حجرات سرية داخل الأهرامات . ولكن هذه المبانى الضخمة الواضحة دفعت اللصوص إلى سرقة محتويات المقابر رغم العقوبات القاسية .

ولذلك لجأ الفراعنة إلى جعل مقابرهم سرية ، ويسد القبر بالحجارة وتخفى معالمه حتى لا يتسلل إليه اللصوص .

لقد أراد ملوك مصر أن يكرموا فى مماتهم بهذا الثراء من حولهم ، ولكن هذه الرغبة وذلك الثراء ، كانا حافزين لامتهان مومياوات الملوك وسرقتهم ونهب قبورهم . . فإن الطمع فى الثروة كان أقوى من كل الأسرار !

حدث فى بعض الأحيان أن تولى إقامة القبور أسرى الحرب وقتلوا بعد ذلك ؛ منعا لإرشاد اللصوص إلى أسرار المقابر .

ولكن الأسرى لم ينشئوا كل القبور . . كما أنهم أفشوا ـ قبل وفاتهم ـ كثيرا من الأسرار ، ومن الواضح أن عمليات السرقة كانت مستحيلة دون رشوة الحراس وكبار الموظفين واشتراكهم فى الجريمة .

* * *

تراخت سلطة الدولة فى عصر الأسرة ٢٠ و ٢١ حوالى سنة ١١٥٠ قبل الميلاد .

لم يبق لمصر كثير من عظمتها القديمة . أصبح العرش ضعيفا ، فانتهز كبار الموظفين الفرصة وصار الحراس متهاونين .

وجد اللصوص الفرصة لسرقة المقابر .

لم يحترموا قداسة الموتى ، ولم يخشوا الملوك ، فنظموا العصابات وشكلت لجان للتحقيق ، لم تستطع الوصول إلى الجريمة .

وفى سجلات المحاكم القديمة وجد ما يقطع بأن قبور أمنحتب الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى قد نبشت .

وفى أوراق البردى المحفوظة بمتحف فينا ، من عهد رمسيس التاسع ، نجد قصصا كثيرة عن لصوص مقابر صدرت عليهم أحكام قاسية .

ونجد أحكاما أخرى غير رادعة ، فإن الحكام خافوا من الفضائح ولذلك تستروا على اللصوص . .

وعلى جدران المقابر والمعابد نجد نقوشا هيروغليفية تشير أيضا ، إلى جرائم نهب القبور .

ونقرأ أسماء عصابة من بينها نجار ، وناقل مياه ، وفلاح ، وعبد ، تستر عليهم عمدة المنطقة ، سرقوا قبوراً وقبض عليهم فضربوا بالسياط وألقوا فى السجن بلا طعام وعذبوا حتى اعترفوا ثم صدرت عليهم أحكام بالإعدام بعد وفاة إخناتون بمائتين وخمس سنوات .

وهناك وصف تفصيلى لمحاكمة سارق وضعت عصابة على عينيه واقتيد إلى مكان الجريمة ليعيد تمثيلها ويعترف على زملائه .

* * *

عهد تحتمس الأول إلى كبير مهندسيه المعماريين إيننى بإقامة قبره .

وتولى مائة من أسرى الحرب إقامة القبر ، وقد قتلوا جميعا .

ولكن الملك قاسى على يد اللصوص بعد سنوات من دفنه ؛ لأننا نجد حورمحب فى السنة الثامنة من حكمه ، يأمر كبار موظفيه بتجديد قبر ذلك الملك .

وقد اكتشف القبر عام ١٨٩٩ ، وجد التابوت الحجرى الضخم ، ولكن لم تكتشف مومياء الملك الذى نقل إلى قبر ابنته حتشبسوت . . ثم نقل مرة أخرى مع مومياوات كثيرة إلى الدير البحرى .

* * *

ونقلت مومياوات الملوك بعد اكتشاف محاولات السرقة للحفاظ عليها .

نقل رمسيس الثانى إلى قبر سيتى الأول هربا من اللصوص ، ثم نقل الاثنان معا إلى قبر الملكة أنحابى . ونقل إلى هذا القبر أيضا رمسيس الأول .

ونقل رمسيس الثالث من قبره ٣ مرات .

ونقلت مومياوات أحمس ، وأمنحتب الأول ، وتحتمس الثانى ، ورمسيس الثانى العظيم .

ووجدت مومياء أمينوفيس الثالث والد إخناتون ـ الذى اشتهر بقتل الوحوش ـ ولكن وجد معه جثمان ملكين آخرين .

وحملت النقوش أسماء الملوك الثلاثة ولكن لم يعرف على وجه التحديد اسم صاحب كل مومياء !

وقال مدير مصلحة الآثار فيكتورلوريه إنه وجد فى قبر أمنحتب الثانى ، مومياء أمنحتب الثالث داخل تابوت رمسيس الثالث .

وكان على غطاء هذا التابوت الأخير اسم سيتى الثانى ، مما يدل على أنه تم نقل المومياوات والتوابيت من قبر إلى قبر ! !

* * *

أصبح إخفاء المومياوات، ثم العثور عليها، وسرقتها مرة ثانية، ونقلها، لعبة وفى الوقت نفسه مأساة دامية.

ولكن اللصوص لم يهزموا سواء فى سرقة المقابر، أو الآثار المصرية بصفة عامة؛ لأنه من الصعب حماية ٤٠ ألف موقع أثرى فى البلاد!

* * *

كان فرانسوا لوريه مدير الآثار يبحث وينقب فى وادى الملوك عام ١٨٩٨ عندما وجد فى مقبرة أمينوفيس الثانى مومياوات من الأسرتين ١٨ و ١٩ منها تحتمس الرابع وابنه أمينوفيس الثالث الذى دام حكمه ٣٦ عاما قبل ميلاد السيد المسيح من ١٤١٣ إلى ١٣٧٧.

وفى عهد هذا الملك امتد نفوذ مصر إلى الفرات وأثيوبيا.

ووجدت على صدره زهورا وضعتها أيد محبة له قبل ٣٤٠٠ عام.

ولكن كل مجوهراته سرقت!

* * *

وفى عهد حريحور نقل ما تبقى من مومياوات الملوك إلى مقبرة جماعية آمنة من اللصوص.

تم النقل ليلا بطريقة سرية وبمساعدة الكهنة المخلصين وأخفيت الجثث وبقيت فى مكانها ٣٠٠٠ سنة تقريبا.

* * *

أما أسوأ عهد السرقات فكان فى أوائل القرن الثامن عشر.. واللصوص جميعا من الأوروبيين.

حفروا بأنفسهم، أو عهدوا بذلك إلى المصريين، أو أغروهم على السرقة، بأثمان كانت تبدو مرتفعة فى ذلك الحين.

* * *

كان الغزو العثماني واحتلال الأتراك لمصر حائلا منع المغامرين واللصوص القادمين من الغرب من الوصول إلى مناطق الآثار حتى القرن السابع عشر.

ولما بدأ انهيار الإمبراطورية التركية وتولى المماليك حكم مصر باسم السلطان العثماني، ظهر أول لصوص الآثار وهو أسقف بريطاني اسمه ريتشارد بوكوك.

زار مصر عام ١٧٣٧ وعبر النيل إلى الأقصر.

وكان ينزل المقابر بسلم من الحبال فتنهال عليه الرمال ولكنه يرى جماجم كثيرة - مومياوات - في وادي الملوك على ضوء الشموع فأخذ منها ما أخذ! وكان المصريون - في ذلك الوقت - يعتقدون أن الأوروبي يستطيع بسحره أن يعثر على الكنوز ويرحل بها.

ورأى الناس سرقاته الكثيرة، فهددوه بالقتل حتى اضطر إلى مغادرة البلاد..

وظل كتابه «رحلات في مصر» يجذب السياح والمغامرين واللصوص.

* * *

ولكن سرقة الآثار المصرية ونهبها على نطاق واسع بدأ بعد أن أصدر العالم والرسام الفرنسي دومنيك فيفان دينوف كتاب «وصف مصر» في ٢٤ جزءا؛ فإن هذا الأثر الأدبي جعل العالم يهتم بمصر، وجذب إليها اللصوص في عصر والي مصر محمد علي باشا الكبير الذي بدأ عام ١٨٠٥ وانتهى بوفاته سنة ١٨٤٢.

كان محمد علي حائرا بين بريطانيا وفرنسا، وهدفه إعلان استقلال مصر.

وشغل بالتخلص من خصومه في الداخل، وفتوحاته في الخارج، عن حماية الآثار.

حرص والي مصر على اجتذاب قنصل بريطانيا سولت، وقنصل فرنسا دروفيتي.

وانتهز القنصلان الفرصة فأخذا يسرقان آثار مصر على نطاق واسع.

وربما يكون محمد علي قد عرف ما يفعله الرجلان، فترك لهما سرقة «الماضي» مقابل أن يتركا له الحاضر والمستقبل!

وكانت النتيجة فى الحالتين أن سولت ودروفيتى، فى ظل الحصانة الدبلوماسية، وظروف مصر السياسية، كانا أشهر لصين للآثار فى تاريخ مصر الحديث.

عين سولت قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر عام ١٨١٥، وصل إلى القاهرة فى السنة التالية.

قام بحفائر كثيرة؛ ليحصل على آثار للمتحف البريطانى وللأصدقاء الذين ساعدوه على تعيينه فى منصبه.

نقب، وجمع كميات ضخمة للمتحف، وكميات أخرى لحسابه.

قال فى رسالته الأولى للأصدقاء:

«سأبعث إليكم بآثار لم ترها العيون»!

وعندما غرقت الشحنة الأولى بعث إليهم معزيا يقول:

«الآثار المصرية كثيرة»!

نقل التمثال النصفى الضخم لرمسيس الثانى من طيبة إلى الإسكندرية ومنها إلى لندن وقدمه للمتحف البريطانى. ورأيته يتصدر الجناح المصرى فى الدور الأرضى بالمتحف ورقمه ١٩ !

وفى عام ١٨١٨ أرسل مجموعة ضخمة للمتحف ولكن الأوصياء أبخسوه الثمن واشتروا الآثار بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه وهو يقل عن تكاليف الحفر والنقل، ورفضوا تابوت سيتى الأول فاشتراه السير جون سلون الذى دفع ثمنا له ٢٠٠٠ جنيه أخرى ووضعه فى متحفه المعروف باسمه فى لندن.

واشترى مجموعة سولت الثانية ـ التى حصل عليها من مصر خلال الأعوام من ١٨١٩ حتى ١٨٢٤ ـ ملك فرنسا بمبلغ ١٠ آلاف جنيه، وبيعت المجموعة الثالثة فى مزاد استمر ٧ أيام فى «قاعة سوثبى» للأعمال الفنية فى لندن بمبلغ ٧١٦٨ جنيها وتضم ١٠٨٣ قطعة اشتراها المتحف البريطانى، جمعها سولت خلال ٣ سنوات من ١٨٢٤، ولكنها بيعت عام ١٨٣٥ بعد وفاته.

وهذه هى قائمة ببعض الأسعار التى جاءت فى «الكاتالوج» الذى وضعه

«سوثبى» للآثار المصرية التى باعها، والتى جمعها سولت، ومنها نعرف كيف كانوا يقيّمون الآثار المصرية:

* أربعون وجها لآلهة من الخزف، بعضها دقيق صغير للغاية: ٩ شلنات أى ما يعادل ٤٥ قرشا مصريا.

* صقر برأس إنسان: ٨ شلنات.

* سلة صغيرة تحوى اليد اليمنى لمومياء أنثى على أصبعها الثانى حلية على هيئة خنفساء من الفضة: ١٩ شلنا.

* عيون مختلفة لمومياوات مرصعة بالمرمر: ٥ شلنات.

* جرس صغير من الذهب وجد على رقبة مومياء طفل: ٣٦ شلنا.

* ستة أزواج من الأقراط، حمراء التكوين، مختلفة الأحجام: ٣١ شلنا.

* زوج من العيون صنعت من البرونز، مأخوذة من مومياء تم العثور عليها فى منف: ١٢٨ شلنا.

* أوزة صغيرة على خاتم من الذهب من منف: ٨٥ شلنا.

* أدوات النجارة تتكون من «بلطتين» بأيد من الخشب وثلاثة «أزاميل» وسكينتين: ٣٢٥ شلنا.

* ٣ أصناف من الخبز: ٦١ سنتا.

* ٩٢ كرة لعب لصبى قلبها من قشر الشعير وغلافها من الجلد: ١٤ شلنا.

* صندل مرسوم بشكل جميل من منف: ٨٥ شلنا.

* مومياء طفل صغير ارتفاعها قدمان فى صندوقها، رسمت بشكل مثير للغاية بخواتم الكاحل والمعصم والذراع: جنيه إسترلينى.

* مومياء أنثى ارتفاعها ٥ أقدام بصندوقها المزين بالرسوم: جنيه إسترلينى.

* مومياء لشخصية ملكية فى صندوقين: ٣٢٠ إسترلينيا و٥ شلنات.

* مومياء لفتاة راقصة فى حالة جيدة من الحفظ: جنيه إسترلينى و٥ شلنات.

* * *

ونشر سولت عدة كتب عن «أعماله» !

وتدخل القدر ليموت فى دسوق عام ١٨٢٧ ويدفن بالإسكندرية !

كان سولت يعمل وينقب ويشترى بنفسه ولكن كان له ٣ رجال يقومون بالعمليات القذرة! وهم جيوفانى بلزونى الإيطالى، وبيركهارت السويسرى، وجيوفانى كافيليا وهو بحار من جنوا بريطانى الجنسية ويقيم فى مالطة .

* * *

أما بلزونى فهو ابن حلاق إيطالى فقير ولد عام ١٧٧٨ فى قرية صغيرة .

من أسرة إيطالية وقورة . أعد ليكون راهبا ولكن فى سن السادسة عشرة ذهب إلى روما يبحث عن الثروة . وعندما غزا الفرنسيون إيطاليا فى عهد نابليون تجول فى أوربا يقوم بألعاب السيرك، وساعده جسده الضخم على أن يرفع فى الأسواق قضيبا من الحديد يحمل ١٢ رجلا . . ويجمع التبرعات من المعجبين!

وفى فترات عطلة السيرك درس الهندسة .

تجول فى البرتغال وإسبانيا، واستقر فى مالطة يعرض على مندوب لمحمد على باشا الكبير نموذجا لساقية أجرى تجربتها أمام الوالى فى القاهرة فنجحت التجربة . ولكن الباشا رفض إتمام الصفقة .

لم يجد بلزونى ما يفعله، فتحول إلى أثرى مع زوجته الأيرلندية يبحث عن الآثار ويسرقها لحساب سولت ولحسابه الشخصى .

كان أول من دخل الهرم الثانى .

وكان دائما يقول :

ـ لن نحقق شيئا إذا لم نحاول!

وسرق لمتحف فيزوليم فى كامبردج جزءا من تابوت ضخم لرمسيس الثالث .

ووجد ٢٠ تمثالا لسخمت فى معبد توت فى الكرنك .

وعثر على قبر الملك آى فى الضفة الغربية للأقصر .

وأخذ من مقبرة فى القرنة كثيرا من أوراق البردى .

وعثر على ٦ قبور ملكية فى وادى الملوك، منها قبر سيتى الأول الذى وجد فيه التابوت الذى رفض المتحف البريطانى شراءه.

ولم يعرف «بلزونى» أبدا أنه على بُعد ثلاثين مترا تقريبا، يوجد أغلى كنوز الآثار المصرية.. مقبرة توت غنخ آمون.

ارتاد بلزونى الواحات البحرية والفيوم وسيوة واكتشف «بيرنيس» ميناء البطالسة على البحر الأحمر.

وسرق من كل هذه المواقع آثارا، قدم عشرين منها للمتحف البريطانى، وأقام بالباقى معرضا فى القاعة المصرية فى بيكاد يللى بلندن عام ١٨٢١.

وكان يحطم المقابر والمعابد ليحصل منها على ما يريد، وقد أمضى خمس سنوات فى مصر والسودان.

ولم يخجل بلزونى مما فعله، بل نشر جرائمه فى كتاب يحمل اسم «حكاية» عن سرقاته للآثار المصرية خلال ٤ سنوات بدأت عام ١٨١٥.

فى هذا الكتاب قال إنه فى البداية ألقى بسلة مصرية فى النيل ظنا منه أن التيار سينقلها إلى الإسكندرية فلما غرقت أنقذها..

وأهدى تمثالين مصريين لسخمت وضعا فى مجلس مدينة «بادوا» التى ولد فيها!

وزار النيجر وفى طريقه إليها مات عام ١٨٢٣.

* * *

روى بلزونى قصة دخوله إحدى المقابر المليئة بمومياوات الفراعنة، قال: «جعلنى الهواء الخانق فى ممر المقبرة على وشك الإغماء.

وملأ الغبار السرادب، وتسرب إلى عينى وأذنى، وكانت رئتاى على وشك الانفجار من محاولة طرد الرائحة التى تنبعث من المومياوات وهى ترقد فى أكوام مما يثير الفزع.

وبدا الفلاح شبه العارى الذى يمسك بالشمعة لينير الطريق أمامى كأنه، بدوره، مومياء.

وبعد الجهد الذى بذلته فى الممرات الخالية من الهواء أخذت ألتمس مكانا أجلس فيه، وعند انحنائى وقعت مومياء أمامى.

سقطت فوقها، وتطايرت عظام، وخرق وقطع خشبية فى عاصفة كثيفة من الغبار حتى عجزت عن الحركة.

وكان هناك ممر آخر يختنق بالأتربة فلم أستطع شق طريق عبره، ولم أتمكن من منع نفسى من مسح وجوه بعض المصريين من قدامى الموتى، وتحطمت مومياء أخرى وغطتنى بوابل من العظام.

كانت أغلب المومياوات تتراكم فوق بعضها، منها ما يرقد معتدلا والآخر مقلوبا».

ورغم هذه الصورة المرعبة فإن جيوفانى بلزونى.. سرق المومياوات!

* * *

أما السويسرى فهو جون لويس بيركهارت.

درس اللغة العربية فى جامعة كامبردج البريطانية، وأقام فى مصر ٣ سنوات من عام ١٨١٤ حتى عام ١٨١٧، وكان يسمى الشيخ إبراهيم.

سرق آثارا وألف كتابا اسمه «رحلات فى النوبة»، ومات فى سن الثالثة والثلاثين ودفن بالقاهرة!

وكان كافيليا مالكا لباخرة فى البحر المتوسط، وهو ربانها أيضا، قام بحفائر عند أهرامات الجيزة وأبو الهول واكتشف الممرات بين مخالبه ونقل الآثار المسروقة إلى إنجلترا.

ولم يقصر كافيليا نشاطه لحساب سولت بل عمل أيضا لحساب ضابط بحرى اسمه الكولونيل فايس الذى قدم أوراق البردى للمتحف البريطانى. وهذا المتحف كان قصرا للورد مونتاج فى لندن.

صدر قانونه عام ١٧٥٣، وأدخلت عليه تعديلات كثيرة آخرها عام ١٩٦٣.

وقانونه يمنع التصرف فيما لديه من آثار . . أى أنه لا يرد قطعة من الآثار حصل عليها بأية وسيلة إلا إذا كانت مزدوجة!

* * *

كان برناردينو دروفيتى قنصل فرنسا العام الدبلوماسى الثانى الذى سرق آثار مصر وهو إيطالى ولد قبل بلزونى بعامين .

تجنس بالجنسية الفرنسية واشترك فى حملة نابليون فى مصر ، وعمل قنصلا عاما لفرنسا فى مصر فترتين .

الأولى منذ ولاية نابليون حتى عام ١٩١٤ والثانية تسع سنوات من عام ١٨٢٠ ، فقد فصلته الحكومة ثم أعادته للعمل لأنه كان صديقا لوالى مصر .

جمع دروفيتى أكبر مجموعة من أوراق البردى عرضها على فرنسا فرفضت شراءها . ولم يتردد ـ وهو قنصل لفرنسا ـ فى عرضها على ملك سردينيا الذى دفع ثمنا لها ٤٠٠ ألف ليرة إيطالية وقدمها لمتحف تورينو .

وتضم هذه الصفقة قوائم بأسماء ملوك مصر .

واشترى منه متحف برلين عام ١٨٣٦ مجموعة ثانية بمبلغ ٣٠ ألف ليرة ، أما المجموعة الثالثة فاشتراها شارل العاشر بربع مليون فرنك وقدمها لمتحف اللوفر فى باريس .

وهذا المتحف بناه لويس أغسطس ملك فرنسا ليكون مقرا لملوكها ومركزا للأكاديمية .

فلما قامت الثورة الفرنسية فتح عام ١٧٩٣ للجمهور ، وبعد غزو بلجيكا فى السنة التالية قام نابليون بونابرت بتخزين القطع الفنية التى حصل عليها من الدول التى اكتسحتها قواته ، داخل القصر . وقدم الفنانون الفرنسيون عام ١٨٩٦ التماسا إلى حكومة الإدارة يقولون فيه إن حكومة فرنسا بقواتها واستنارتها وفنانيها هى البلد الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يضمن سلامة المتحف ، وكل شعوب العالم يجب أن تأتى وتقترض الفن من فرنسا .

وضمت أكبر مجموعة من التحف إلى المتحف عام ١٨٩٨ بعد أن وصلت إلى باريس كنوز إيطاليا التى استولى عليها الفرنسيون .

ومتحف اللوفر مثل المتحف البريطانى لا يرد الآثار!

والمجموعات الثلاث التى باعها دروفيتى تمثل أفضل وأروع الآثار المصرية فى أوروبا بصفة عامة ومتحف اللوفر بصفة خاصة .

وكان دروفيتى صاحب نفوذ على محمد علىّ الذى اعتمد على فرنسا لمساندته ضد الإنجليز .

ولكن القنصلين عقدا معا اتفاقا مكتوبا ينص على أن تكون لدروفيتى آثار الضفة الشرقية لنهر النيل وسولت الضفة الغربية ، ينقب كل منهما فى منطقته لا بحثا عن الذهب ، بل عن الآثار المصرية التى تباع . . . بالذهب .

وفى آخر حياته عاقب القدر دروفيتى . . أو ربما تكون لعنة الآثار المصرية .

جن ونقل إلى ملجأ تورينو ، وعاش فيه حتى مات!

* * *

ولم تقتصر السرقة على قنصلى بريطانيا وفرنسا وحدهما . . إن كل قنصل استطاع أن يمد يده لآثار مصر لم يتردد فى ذلك أبدا . .

واشترك فى ذلك القناصل الفخريون أيضا .

جيوفانى أنسطاسى التاجر الأرمنى الذى جاء من سوريا واستقر فى الإسكندرية وعمل قنصلا للسويد ، والنرويج ٢٩ عاما ، جمع كمية من آثار سقارة والأقصر ، وباع صفقة ضخمة للحكومة الهولندية عام ١٨٢٨ ومجموعتين للمتحف البريطانى عام ١٨٣٩ ومجموعة ثالثة لفرنسا سنة ١٨٥٧!

وأهدى تابوتا من الجرانيت لمتحف أستكهولم . وتوجد مجموعة أوراق البردى التى حصل عليها فى متاحف لندن وليدن وباريس وبرلين .

وأوصى بالثروة التى جمعها من التجارة فى آثار مصر للأعمال الخيرية فى السويد ، كما أوصى بأن يدفن فى مدينة الإسكندرية .

ومصطفى أغا عياط المصرى الذى ظل خمسين عاما قنصلا فخريا فى الأقصر لبريطانيا وبلجيكا وروسيا كان أكبر تاجر للآثار المهربة مستغلا الحصانة الدبلوماسية.

وقد استنكرت حكومة بلجيكا عمليات تهريبه المستمرة لأوراق البردى، فعزلته من تمثيلها!

وقد بلغت به الجرأة والاستهتار أن يبنى لنفسه بيتا داخل معبد الأقصر هدمته حكومة مصر بعد وفاته.

وقنصل الدانيمرك أرسل إلى متحف كوبنهاجن الوطنى عددا من آثار مصر عام ١٨٢١.

وموظف من قنصلية السويد فى إستانبول اسمه ليدمان أرسل شحنتين لبلاده ظهرت إحداهما فى متحف أوبسالا والثانية فى متحف فورونيز. ودمرت شحنة أخرى فى إستانبول فى أثناء حريقها الشهير عام ١٨١٨.

حاول جور جليدون قنصل الولايات المتحدة فى الإسكندرية ـ وهو أول كاتب أمريكى عن مصر القديمة ـ إيقاظ الضمير الأثرى فنشر عام ١٨٤٩ كتابا اسمه «نداء إلى الأثريين فى الأوروبا عن هدم آثارمصر» طلب فيه من الجميع الرفق بآثار مصر هدما وسرقة، ولكن لم يستمع إليه أحد.

* * *

بعد مجموعة القناصل بعشرين عاما.. جاء إلى مصر أخطر اللصوص جميعا كارل ريتشارد ليبسيوس الألمانى، وهو من خبراء الكتابة الهيروغليفية ويعتبر أفضل علماء الآثار بعد شامبوليون. صحح بعض كلمات وقواعد اللغة التى اكتشفها شامبوليون نفسه!

قبل أن يجىء إلى مصر ـ ليرأس بعثة تنقيب ـ ظل ٤ سنوات يطوف متاحف إنجلترا وهولندا وإيطاليا يدرس مجموعات الآثار المصرية بها ليتعرف على صورها حتى يبدأ من نقطة جديدة.

زار مصر مرتين، الأولى ٣ سنوات بدأت عام ١٨٤٢.

وجاء للمرة الثانية عام ١٨٦٦ .

وتمت الزيارة الثالثة عام ١٨٦٩ ليشهد حفل افتتاح قناة السويس .

جاء ليبسيوس تحت شعار «نقل رسوم الآثار المصرية» .

نقب فى وادى الملوك والنوبة، وسيناء، والفيوم، والسويس، وشرق الدلتا أيضا!

وأصدر ١٢ مجلدا عن رحلاته التى جمعها، كما نشرت ٥ أجزاء أخرى بعد وفاته .

وفى هذه الكتب اعترافات بأنه أرسل لألمانيا ١٥ ألف قطعة من الآثار المصرية . ولم يقل إنه سرقها، أو هربها!

وباع ليبسيوس بعض التحف للمتحف البريطانى فى لندن، فإنه يبيع لمن يشترى، ورأيه يتركز فى أن الآثار مصرية الجنسية أما المشترون فلا جنسية لهم!

وكوفئ ليبسيوس على عمله بالاشتراك فى تصميم المتحف المصرى فى برلين واختير مديرا له .

وظهر لصوص كثيرون فى معظم دول العالم الغربى .

أدوين سميث المغامر والتاجر الأمريكى الذى استقر فى الأقصر ابتداء من عام ١٨٥٨ لمدة ثمانية عشر عاما أقرض خلالها اللصوص والتجار المحليين على ذمة سرقة الآثار .

حصل فى يناير من عام ١٨٦٢ على مجموعتين من أوراق البردى، بيعت الأولى للألمان وأهدت ابنته المجموعة الثانية للجمعية التاريخية فى نيويورك، وهى محفوظة الآن بأكاديمية الطب فى نيويورك أيضا .

واشتهر سميث الذى يعرف الكتابة الهيروغليفية بتزوير الآثار وعلم المصريين كيف يزورونها!

وهنرى إدوارد نافيل السويسرى الذى زار مصر عام ١٨٦٥ وحفر فى إدفو وأماكن أخرى ونقل تمثال الجرانيت الضخم لأمنمحات الثالث للمتحف البريطانى . ونقل أعمدة حتحور إلى المتحف البريطانى ومتحف بوسطن الأمريكى!

وأرنستوسكيا باريللى الإيطالى ومدير متحف تورينو الذى كان يرأس بعثة

المتحف للتنقيب عن الآثار فى مصر ١٧ سنة بدأت عام ١٩٠٣ نقل كثيرا من آثار مصر، وأشهر مجموعة من أوراق البردى إلى هذا المتحف.

وظهرت آثار مصرية فى تلك الفترة فى متحف بوردو بفرنسا.

* * *

وصل إلى الإسكندرية عام ١٨٦٩ أمير ويلز الذى جلس على عرش بريطانيا باسم إدوارد السابع ومعه زوجته.

اتجه إلى الأقصر وطلب من القنصل البريطانى أن ينقب له عن بعض الآثار المصرية خلال الفترة التى يزور فيها أسوان!

وكان مصطفى أغا عياط هو القنصل البريطانى فى الأقصر!

عاد الأمير من أسوان ليسمع أن مصطفى أغا قد اكتشف له ٣٠ تابوتا فى وادى الملوك.

وتبين أن التوابيت جمعت من مناطق مختلفة عن طريق الحصانة الدبلوماسية لمصطفى أغا لإدخال السرور على قلب الأمير الذى عاد إلى بلاده ومعه عشرون تابوتا فاحتفظ بما شاء ووزع الباقى هدايا على المتاحف والأصدقاء.. وبقى تابوت أحمر من الجرانيت لم يستطيعوا نقله لإنجلترا إلا عام ١٨٨٥ بعد الاحتلال البريطانى لمصر!

واكتشفت مجموعة من أوراق البردى فى منتصف القرن التاسع عشر، أراد اللصوص تقسيمها بالتساوى فقطعوها نصفين وبيعت أجزاء منها للمتحف البريطانى والأخرى لمتحف ليفربول وقسم ثالث لمكتبة مورجان فى نيويورك.

ولم تعرف الصلة بين هذه المجموعات الثلاث، ولم يتمكن أحد من قراءتها مكتملة حتى قام العالم البلجيكى جان كابار بذلك عام ١٩٣٥.

* * *

وقد سرقت الآثار المصرية بكل الطرق..

كانت توجد فى معبد الأقصر ١٣ مسلة فأهدى محمد على مسلة إلى فرنسا

ـ توجد الآن فى ميدان الكونكورد فى باريس ـ فجاءت بعثة بحرية إلى الأقصر عام ١٨٣١ لنقلها من مصر .

وأهدى محمد على مسلة أخرى إلى ملك بريطانيا جورج الرابع عام ١٨٢١ ، ولكنها لم تصل إلا فى عام ١٨٧٨ بعد رحلة طويلة وقد رحبت «التايمس» بوصولها فى مقال طويل بتاريخ ٨ أكتوبر من ذلك العام .

فقد انتظرت البعثة الفيضان لنقل المسلة عبر النيل . ولكن البعثة رأت ألا تضيع فترة الانتظار عبثا فنقبت عن الآثار المصرية فوجدت تابوتا اشتراه الدوق هاملتون البريطانى ودفن فيه !

وتوجد مسلة مصرية ثالثة فى حديقة سنترال بارك فى نيويورك .

وكل مسلة وزنها نحو مائتى طن .

ولا توجد فى معبد الكرنك الآن سوى ٣ مسلات ، أما التسع الباقية فإنها هدمت . . أو سرقت ! !

* * *

وفى العصر الحديث تعددت السرقات أيضا . .

وبلغت الجرأة باللصوص أنهم أطلقوا النار على رجال نابليون الأول عندما جاءوا إلى وادى الملوك فى أوائل القرن الثامن عشر .

* * *

عثر الأهالى فى منطقة دراع أبو النجا بالأقصر عام ١٨٦٠ على مومياء ملكة وعليها مجوهراتها .

أبلغ النبأ إلى الخديو سعيد باشا وماريبت باشا الذى أمر بحفظ الآثار ولكن مدير قنا نقلها إلى بيته فلما جاء مفتش الآثار لم يجد إلا قليلا من الحلى ، بينها سلسلة من الذهب يزيد طولها على متر ، أهداها الخديو إلى إحدى نسائه !

وكان يعيش فى مصر أمريكى اسمه باتون من جامعى التحف يشتريها ويهربها للخارج .

وفى يوليو عام ١٨٨١ استطاع باتون أن يهرب من مصر ومعه مجموعة من أوراق البردى، قال له أحد الخبراء إنها تنتمى إلى عصر الأسرة ٢١ وإنها مهمة فى تفسير بعض جوانب تاريخ تلك الأسرة.

كتب باتون بذلك إلى جاستون ماسبيرو مدير مصلحة الآثار فبعث بأحد مساعديه إلى الأقصر ليتظاهر بأنه جامع تحف.

نجح المساعد فى الاتصال بلصوص المقابر وكسب ثقتهم وأمكن القبض على رئيس العصابة فى قرية «القرنة» واسمه محمد عبد الرسول.

أحيل المتهم إلى داود باشا مدير قنا.

كان «داود باشا» يستدعى لصوص الآثار، ويملأ زيرا بالماء ويجلس فيه ولا تظهر منه إلا عيناه وفمه. ويستجوب داود باشا، وهو فى حالته هذه - اللص - الذى لا يرى من الباشا إلا عينيه.

وكان «داود باشا» يعفو عن السرقة الأولى! ثم يطلق الرصاص وهو جالس داخل الزير على اللص إذا ارتكب السرقة الثانية.

ولكن اللصوص الذين يرتكبون جرائم كبيرة كانوا يعترفون فورا؛ لأنهم يظنون أن الباشا يعرف وأن الرصاصة.. ستنطلق!

لم يعترف محمد عبد الرسول رغم التعذيب والسجن شهرين كاملين.

واشترك أهالى القرية فى الدفاع عنه والشهادة لصالحه، وأنه لم يسرق، وأنهم أيضا أبرياء..

أفرج عن محمد عبد الرسول ولكنه وعد بمكافأة ضخمة إذا اعترف.

* * *

اعترف محمد عبد الرسول بعد الإفراج عنه وحصل على ٥٠٠ جنيه مكافأة.

أرشد أميل بروكش باشا مساعد ماسبيرو إلى أوراق بردى من عهد الملكة نفرتارى.

وقاد بروكش إلى مقبرة فى الدير البحرى عبر ممر طوله ٢٥٠ قدما، وتقع على عمق ٤٠ قدما.

وفى غرفة صغيرة، وعلى ضوء الشموع رأى بروكش أكفانا ومومياوات لـ ٣٢ من ملوك مصر وملكاتها وكهنتها وعلى كل مومياء اسم صاحبها بالكتابة الهيروغليفية. أمنمحتب الأول وتحتمس الثانى وآموسيس الأول وتحتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى أعظم هؤلاء الملوك الذين امتدت سنوات حكمهم أربعة قرون، من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة الحادية والعشرين.

وتبين أن بعض المومياوات محطمة.

كما مزق كفن تحتمس بحثا عما قد يكون ملتصقا بالجثمان من الذهب!

ووجدت صور آثار سهم فى مومياء الملك «سقنن رع» ملك مصر الذى صد هجمات الهكسوس.

ولكن الأثرى لم يجد تابوتا واحداً.

ظن «بروكش» أنه يحلم فإن هذه كانت أكبر ضربة حظ فى حياته.

بقى فى المقبرة ساعتين لا يحس خلالهما بالحرارة والهواء الساخن فى صيف شديد الحرارة تحت أعماق الجبل.

إنه أول أوروبى دخل مقبرة الدير البحرى.

تحرك على الفور.

استخدم ٣٠٠ عامل قاموا بنقل المومياوات والأكفان والتماثيل وسلال الفواكه والأطعمة إلى سفينة على النيل.

وصلت السفينة إلى القاهرة وقسمت المومياوات إلى مجموعتين، الأولى تنتمى إلى الأسرتين ١٨ و ١٩ من عصر الملوك الكهنة وقيل إنهم من معاصرى النبيين داود وسليمان.

* * *

وفى كتاب المهندس حسن فتحى «الهندسة المعمارية للفقراء» روى حكاية قرية «القرنة» التى جاء منها عبد الرسول. قال «إنها أقيمت فوق مقابر مصر القديمة، قرب

الشاطئ الغربى للأقصر وقد دفع السكان وآباءهم للحياة فى هذه المنطقة قبور أجدادهم الغنية بالآثار . . ويعيش الأهالى منذ ذلك الوقت، من التنقيب عن المقابر .

وهم يعتمدون فى كسب أرزاقهم على سرقة محتويات المقابر بصورة تكاد تكون كاملة، خاصة وأن المزارع المحيطة بتجمعاتهم السكنية لاتكفى للوفاء باحتياجات هذا العدد من السكان وهى - أيضا - مملوكة تقريبا لعدد محدود من أصحاب الأراضى .

وهؤلاء السكان أصبحوا خبراء لا يشق لهم غبار فى الكشف عن المقابر السرية وهم لصوص أذكياء ومهرة ولكنهم لم يمارسوا السرقات بتعقل .

كانوا ينقبون عن الآثار بإهمال مما أدى إلى استنزاف أثمن الكنوز الفنية قبل أن تعرف قيمتها الحقيقية .

وروى حكيم أبو سيف مفتش الآثار أن أحد القرويين عرض عليه عام ١٩١٣ جوالا مملوءا بالجعارين الأثرية مقابل عشرين قرشا رفضها أبو سيف!

ولم تقتصر عمليات السطو على المقابر على سرقة الجعارين فحسب .

وعندما اكتشفت سليمة مقبرة أمينوفيس الثانى من الأسرة الثامنة عشر قام أحد الحراس بسرقة قارب مقدس كان بالمقبرة .

واشترى الفلاح بعد ذلك ٤٠ فدانا من الأرض الزراعية من حصيلة بيع الآثار .

لقد ألحق هؤلاء بالمقابر أضرارا جسيمة رغم مهارتهم، ورغم أن الإنسان يشعر بالحب نحوهم، ورغم أنهم يعيشون فى ظل فقر لا يستحقونه .

إنهم ينقبون ثم يبيعون، دون أن يعرفوا قيمة ما اكتشفوه، أو مصدره، مما يعنى خسارة كبيرة لعلم المصريات .

وهم يفعلون - أحيانا - ما هو أسوأ، فإذا وجد أحدهم بالصدفة قطعة أثرية مصنوعة من الذهب فإنه يصهرها .

وهكذا وجدت الحلى والصفائح الذهبية والتماثيل والقطع الذهبية التى لا تقدر بثمن طريقها إلى أوعية الصهر . وأصبحت مجرد سبائك ذهبية تقل قيمتها كثيرا .

وبالطبع وقع هؤلاء الفلاحون فريسة لتجار الآثار الذين يستطيعون وحدهم الاتصال بالأجانب الراغبين فى الشراء والذين انعدمت ضمائرهم فاستغلوا الوضع الحرج لسكان القرية واشتروا القطع القيمة المكتشفة بأسعار تقل كثيرا عن قيمتها الحقيقية.

إن سكان القرنة يتحملون المخاطر ويطورون مهاراتهم ويقومون بالأعمال الشاقة بينما يجلس هؤلاء التجار فى أماكنهم آمنين ويشجعون هذا التهريب وتمتلئ بطونهم بفضل هذه الآثار التى يحصل عليها سكان القرية بمجهودات شاقة».

* * *

قال نحات فرنسى، جان جاك رينو، الذى وصل إلى مصر عام ١٨٠٥ وعاش فيها أربعين عاما، إن المصريين كانوا يعجبون للمبالغ التى يدفعها الأجانب لشراء أحجار وتماثيل لافائدة منها فى رأى البائعين المنقبين.

وأخيرا، اهتدوا إلى تفسير استراحوا له وهو أن هؤلاء الأجانب وثنيون يعبدون الآلهة القديمة! لأنهم يتحسسون الأحجار، وأحيانا يرطبونها بألسنتهم ليعرفوا تكوينها.

وكان المصريون يظنون أن هؤلاء الأجانب يقبلون هذه الآثار.

وهناك تفسير آخر وهو اعتقاد المصريين بأن هذه التماثيل تحوى ـ فى قلبها ـ الذهب!

اكتشف جريبو مدير مصلحة الآثار ـ عام ١٨٩١ ـ مقبرة قرب الدير البحرى مملوءة بالمومياوات والتوابيت والأوانى والقدور والآثار والفواكه من عهد الأسرة ٢١.

أخذ فى نقل هذه الآثار يوم ١٥ من فبراير من العام نفسه وذلك حتى أوائل إبريل من العام التالى.

وعين مورجان مديرا لمصلحة الآثار، فاقترح توزيع نحو مائة من هذه الآثار ـ مجانا ـ على متاحف أوروبا وأمريكا. والغريب فى الأمر أن حكومة مصر وافقت على توزيع هذه الآثار على متاحف العالم!

* * *

لم تتوقف سرقة الآثار .

وفى ٢٥ من يوليو عام ١٩٧٢ نشر فيليب بيرتير مقالا فى صحيفة «الأورور» اليمينية الفرنسية يقول إن الفنيين السوفيت هربوا الآثار من مصر فى حقائب ثقيلة . . دبلوماسية!

وفى ٩ من إبريل عام ١٩٧٣ أذاعت وكالة الأسوشيتدبرس الأمريكية أنه خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٧٣ نهب السوفيت القبور الأثرية من مصر ونزعوا ما على الجدران من رسوم وسرقوا أوراق البردى .

وعرضوا بعض مالديهم للبيع بمبلغ مليون دولار!

ولم تذع إسرائيل ـ حتى الآن ـ ما أخذته من آثار سيناء فى أثناء احتلالها بعد عام ١٩٦٧ !

قانون ماسبيرو!

استعملت الكتابة الهيروغليفية لآخر مرة فى ٢٤ من أغسطس عام ٣٠٤ ق . م فى جزيرة فيلة عند حدود مصر الجنوبية .

واستعملت اللغة الديموطيقية ـ وهى نوع شعبى من اللغة والكتابة المصرية القديمة كتبت بها أوراق البردى ـ لآخر مرة بعد ٦٠ سنة تقريبا .

لم يحاول اليونان والرومان الذين احتلوا مصر ، فهم الكتابة الهيروغليفية التى تعبر بصور الحيوانات والأدوات وجسم الإنسان . . فصورة الصقر فى اللغة الهيروغليفية مثلا لا تعبر عن الصقر وإنما عن السرعة باعتبار أن الصقر من أسرع الطيور!

وبقيت مصر القديمة صامتة نحو ١٣٧٠ عاما؛ لأن فن أو علم قراءة لغتها القديمة ضاع فلا أحد يستطيع أن يقرأ اللغة ، أو الكتابة الهيروغليفية ، على آثار مصر من أوراق البردى ، والحجارة والفخار .

قال الأثرى الفرنسى الأب جان جاك بارثليمى عام ١٧٦١ إن الهيروغليفية إشارات لأسماء ملكية ، أما شارل دى جينى ـ فرنسى آخر ـ فقال إن مصر استعمرت الصين فى زمن ما ، ومن هنا فإن اللغة الصينية أصلها مصرى وهى الهيروغليفية!

وقال العالم الفرنسى الأب تاندو فى العام التالى ـ ١٧٦٢ ـ عن الحروف الهيروغليفية إنها مجرد صور أو إشارات ورموز تزين المبانى والتماثيل وليس مقصودا منها نقل أفكار أو كلمات أو أصوات .

ومعنى ذلك أن الهيروغليفية ليست لغة!

* * *

وجاء نابليون إلى مصر غازيا بـ ٣٢٨ سفينة و ١٨٠٠ مدفع عام ١٧٩٨ يريد احتلال «بوابة الشرق» ومعه ١٧٥ عالما وخبيرا فى الفلك والجغرافيا والجيولوجيا والفلسفة والنبات والرسم والشعر.

وكان جنود نابليون يسمون هؤلاء العلماء «الحمير» و«الأغبياء»! ولكن نابليون كان يسميهم «جنود العلم» الذى يتطلع إليهم العالم لمعرفة التاريخ المصرى.

ونقل الإنجليز حربهم ضد نابليون إلى مصر، فحاصر القائد البحرى نلسون أسطول نابليون فى «أبى قير» ودمره فى ٧ من أغسطس عام ١٧٩٨.

استطاع نابليون العودة إلى فرنسا سرا. وزحف الإنجليز إلى القاهرة بقيادة السير رالف ابركرومبى فى ربيع عام ١٨٠١ وهددوا باحتلال العاصمة المصرية، فانتقل العلماء الفرنسيون إلى الإسكندرية وأخذوا معهم الآثار المصرية التى عثروا عليها.. وبينها حجر رشيد.

* * *

اكتشفه الضابط الفرنسى بيير فرانسوا بوشار فى منتصف يوليو عام ١٧٩٩ فى جدار قلعة قديمة، أراد الفرنسيون هدمه لتوسيع القلعة بمدينة رشيد.

لاحظ الضابط أن على الحجر ٣ كتابات، أو ٣ نصوص، كتبت بثلاث لغات مختلفة: اليونانية والهيروغليفية والديموطيقية. وتنتهى الكتابة اليونانية بهذه السطور:

«... هذا المرسوم سوف ينحت على حجر صلب فى أشكال مقدسة، وفى أشكال عادية وباليونانية. ويوضع فى المعابد الأولى والمعابد الثانية والمعابد الثالثة، حيث يمكن أن توجد الصورة المقدسة للملك الذى تمتد حياته إلى الأبد».

هاجم الأتراك والإنجليز الفرنسيين بعنف، فرغب كليبر القائد الفرنسى للحملة بعد رحيل نابليون فى الوصول إلى اتفاق مشرف يسمح للفرنسيين بالانسحاب ومعهم أسلحتهم. ولكن البريطانيين رفضوا واستمرت المعارك ١٨ شهرا أخرى حتى أرغمت قوة مشتركة من الإنجليز والأتراك الفرنسيين على الموافقة على شروط الانسحاب التى وضعتها لهم فى ربيع عام ١٨٠١.

نص الاتفاق على أن يسمح للفرنسيين بالانسحاب ومعهم ممتلكاتهم ولكن المعاهدة نصت فى المادة رقم ١٦ على أن يسلم الفرنسيون كل ما جمعه المجمع العلمى المصرى. ولو أن العلماء الفرنسيين ظلوا فى القاهرة لأخذوا معهم حجر رشيد طبقا للاتفاق. ولكن المعاهدة التى عقدت بين الإنجليز والفرنسيين نصت فى المادة ١٦ على أن يسلم الفرنسيون فى الإسكندرية كل الآثار!

أصر العلماء الفرنسيون على ألا يفارقوا المقتنيات التى جمعوها وعثروا عليها فى مصر، وحاول أعضاء المجمع تهريب كل الآثار إلى فرنسا، ولكن البحرية البريطانية ردتهم ومنعتهم.

لم يفهم الجنرال مينو الذى تولى قيادة الحملة بعد اغتيال كليبر أسباب الضجة المثارة بين علمائه والإنجليز فكتب إلى الجنرال هاتشنسون قائد القوات البريطانية يقول:

«. . علمت أن بعض جامعى الآثار لدينا يرغبون فى أن يأخذوا معهم طيورهم وفراشاتهم وزواحفهم على نفس السفن التى ترغب فى شحن صناديقها. ولا أعرف ما إذا كانوا يرغبون فى وضع أنفسهم فى نفس الصناديق. لكن يمكننى أن أؤكد لك أنه إذا كانت الفكرة تستهويهم فلن أمنعهم من ذلك».

هدد الفرنسيون بتدمير كل مالديهم من وثائق ومستندات وأوراق وقالوا للبريطانيين:

- سنحرق هذه الثروات ولن نسلمها لكم كما تشتهون. وستكون جريمتكم فى هذه الحالة مثل حرق مكتبة الإسكندرية.

تراجع الإنجليز واتفق الطرفان على حل وسط وهو أن يحتفظ الفرنسيون بمعظم مقتنياتهم وأن يشحنوها لفرنسا إلا بالنسبة لحجر رشيد الذى لم يحل أحد شفرته، ولم يستطع أحد فهم لغز هذه الصور والرموز الهيروغليفية وما تعنيه.

أصر الجنرال الفرنسى مينو على عدم تسليم حجر رشيد بدعوى أنه من الممتلكات الخاصة به. ولكن الإنجليز أصروا على الحصول عليه فسلمه لهم فى أحد شوارع الإسكندرية حتى لا يعرف بذلك الجنود الفرنسيون!

وفى الوقت نفسه أصر الفرنسيون على إبقاء الصلة بينهم وبين الحجر فنسخ العلماء صورا له وحملوها معهم إلى باريس.

أسرع الجنرال البريطانى هاتشنسون بشحنه على باخرة حربية نقلته إلى ميناء «بورتسمارت» فى فبراير عام ١٨٠٢ .

وفى مارس من ذلك العام وضع الحجر فى مقر جميعة الآثار فى لندن وقدمه الملك جورج الثالث فى أواخر عام ١٨٠٢ إلى المتحف البريطانى .

رأيت هذا الحجر - طوله ١١٤ سنتيمترا وعرضه ٧٢ وسمكه ٢٨ ووزنه ٧٦٢ كيلو جراما - وهو من البازلت الأسود - فى الجناح المصرى الضخم فى المتحف البريطانى بلندن. وهو القطعة الوحيدة من الأحجار المصرية فى هذا المتحف، التى أحيطت بحاجز يمنع الناس من لمسها .

وزعت بريطانيا نسخا من نصوص الحجر على الجامعات البريطانية وجامعات أوروبا .

ولكن هذا الحجر بقى صامتا لا ينطق . ولم يستطع أحد من العلماء تفسير الكتابة الهيروغليفية التى نقشت عليه . وقال أحدهم إن مشكلة الكتابة الهيروغليفية لن تحل ، ولن تتكلم الآثار المصرية أبدا .

وعندما حاول علماء تفسير الكتابة الهيروغليفية عارضهم آخرون واتهموهم بالتزييف .

أصدر عالم مصريات فرنسى «لينوار» أربعة مجلدات خلال السنوات من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨٢١ قال فيها إن الهيروغليفية ما هى إلا نوع أو شكل من أشكال اللغة العربية .

وقال فرنسى آخر هو «الكونت كايلوس» عام ١٨١٢ إنها مزامير داود!

واستطاع توماس يانج - بريطانى - أن يقترب خطوات كثيرة من تفسير الهيروغليفية .

ويانج درس الطب فى لندن وإدنبره وكان زميلا فى الكلية الملكية وعمره ٢١ سنة

كما حصل على الدكتوراه فى الطبيعة، واختير أستاذا للطبيعة فى المعهد الملكى عام ١٨٠١ بعد ثمانى سنوات.

لاحظ يانج الذى بدأ يدرس مصر وحجر رشيد وعمره ٤١ سنة أن كلمات فى اللغة الديموطيقية تكررت فى السطرين الثانى والعاشر تتقابل مع كلمتى الإسكندر والإسكندرية فى النص اليونانى، وأن هذه اللهجة تكتب من اليمين إلى اليسار.

ووفق إلى تحديد تعريف لسبع صور أو سبع حروف هيروغليفية.

وإذا كان من سبقوا يانج قد اخترقوا «الديموطيقية» فإنه صمم على معرفة اللغة الهيروغليفية بعد أن قام بدراسة اللغة القبطية.

واستطاع أن يجد حرفا هيروغليفيا يتكرر كثيرا وحدد أنه حرف «الواو» التى تعنى الإضافة.

ووضع يانج قاموسا لمائة شخصية، وقرر أن بعض هذه الصور أو الشخصيات تكرر نفس الصوت أو نفس المعنى، أى أن صورا مختلفة لها معنى واحد، وتعرف على بعض الأسماء الملكية التى جاءت فى حجر رشيد.

ويبالغ المؤرخون البريطانيون فى تقييم أبحاث يانج ليقولوا إنهم استطاعوا أن يسبقوا الفرنسيين إلى معرفة اللغة الهيروغليفية، ولكن يانج على أى حال سبق الكثيرين.

* * *

والحقيقة التى لا يختلف فيها أحد أن حجر رشيد وكل الآثار المصرية الصامتة، استطاعت أن تتكلم وتنطق بفضل طفل عبقرى، والده بائع كتب!

الأم تقرأ للصغير وعمره ٥ سنوات صفحات من الإنجيل بصوت مرتفع. والطفل يحفظ الصفحات ويعيدها كلمة بعد أخرى.

خاف الأب من ذكاء ولده، فمنع الأم من القراءة للطفل، ولكن الصغير سرق نسخة من الإنجيل من مكتبة أبيه.

لم يكن الطفل يعرف القراءة والكتابة ولكنه يحفظ مكان الكلمات فى الصفحات ويقارن النطق بالحروف! ويلتقط مجلة تهتم بآثار مصر وفنونها ويطالع

فيها تقريرا ورسما لحجر رشيد ويصمم الطفل ـ وعمره ١١ سنة ـ على حل لغز الهيروغليفية وتفسير كلماتها، فيتعلم فى المدرسة وعمره ١٦ سنة عدة لغات. ويدرس وعمره ١٧ سنة بأكاديمية العلوم الفرنسية فى جرينوبل. ويضع فى سن السابعة عشر خريطة تاريخية لمصر التى لم يزرها! ويؤلف فى هذه السن كتابا عنوانه «مصر تحت حكم الفراعنة».

ويتعلق الشاب بالكتابة الهيروغليفية، ولكن فقره يحاصره فيمنعه من التفرغ لهذه المهمة، ويبحث ـ عبثا ـ عن ألف فرنك ليشترى ورقة بردى لعلها تساعده على الحل فيبعث لأخيه يطلب قرضا! كان فرانسوا شامبوليون عاطلا، ملابسه ممزقة، وحذاؤه بال، لا يدفع الإيجار ويمتد المرض إلى رئتيه فيؤجر حجرته للطلبة ويعطيهم دروسا، ويصحح بروفات الكتب ليعيش.

ورغم هذه الظروف كلها يؤلف قاموسا قبطيا فلما وصل عدد صفحاته إلى ١٠٦٩ صفحة، قال:

ـ القاموس يزداد «سمنة» وأنا أزداد هزالا!

ويقرأ يوما أن عالما حل لغز الكتابة الهيروغليفية فيسرع إلى المكتبة يشترى الكتاب بعد أن تعهد بدفع ثمنه فى المستقبل، فلما قرأه أخذ يضحك لأنه وجد الكتاب أكذوبة ضخمة!

ويصبح الشاب العبقرى عضوا فى أكاديمية العلوم فى فرنسا وأستاذا فى سن التاسعة عشرة يتقاضى ربع مرتب المنصب نتيجة حقد العلماء المنافسين!

وكان لابد أن تكتمل صورة هذا العالم الشاب بمنشورات ثورية يحررها ضد دكتاتورية نابليون! فنفى ١٨ شهرا بتهمة الخيانة، وعندما يعود إلى باريس يستأنف العمل فى حجر رشيد للوصول إلى سره.

وينفتح اللغز أمامه.. تدريجيا.

بدأ يقارن الصور الهيروغليفية بالحروف اليونانية، ويلاحظ تكرار الصور، فيدرك أن الهيروغليفية لغة وليست رموزا.

ويفطن إلى أن بعض الصور الهيروغليفية تكون اسمى كليوباتره وبطليموس وبذلك يعرف لأول مرة بعض الحروف الهيروغليفية، ثم الحروف جميعها.

ويكتب لأخيه:

«فعلتها»!

وهكذا نجح شامبليون عام ١٨٢٢ وعمره ٣٢ سنة فى حل رموز الكتابة الهيروغليفية بعد أكثر من عشرين عاما من اكتشاف الحجر! الذى لا يضم سوى ١٤ سطرا من اللغة الهيروغليفية، وهى سطور بعضها غير مكتمل بسبب سقوط أجزاء من حجر رشيد!

وقرأ شامبليون هذا النص الذى كتبه الكهنة عام ٩٦ ق.م تكريما لبطليموس الخامس بلغات ثلاث يعلنون فيه أنهم قرروا إقامة تمثال للملك فى كل معبد؛ لأنه قدم العطايا للمعابد المصرية.

ويزور شامبوليون مصر سنة ١٨٢٨، بعد ست سنوات من قراءته للغة الهيروغليفية وكان عمره ٣٨ سنة فيستقبله المصريون بترحيب بالغ ويقيمون له الحفلات ويهتف له الفلاحون؛ لأنه الرجل الذى استطاع «قراءة الكتابة التى وجدت على أحجارهم القديمة»!

ويظل الرجل فى مصر ٣ سنوات يطوف المعابد يقرأ ما كان سرا مغلقا ويبحث عن الحضارة التى اندثرت.

ويموت عام ١٨٣٢ العبقرى الذى جعل آثار مصر كتابا مفتوحا.

وقد ظل شامبوليون، ينفى، أنه قرأ ما كتبه يانج، وبالتالى فإنه لم يفد من أبحاثه أو يتأثر بها، وبالتالى لم تساعده على قراءة اللغة الهيروغليفية، ورد على اتهامات يانج له بالانتحال والسرقة الأدبية! بينما يصر الكتاب البريطانيون على أن شامبوليون قرأ يانج، وبالتالى تأثر به. والهدف من ذلك القول أو الادعاء بأن لبريطانيا دورا فى تفسير اللغة الهيروغليفية وفك ألغازها!

وبعد ٨ سنوات من وفاته يصدر أول قاموس للكتابة الهيروغليفية وأول كتاب عن قواعدها.

وإذا كان جان فرانسوا شامبوليون قد فرض اسمه على الكتابة الهيروغليفية فإن فرنسا فرضت ـ بذلك ـ نفسها على الآثار ومصلحة الآثار المصرية نحو مائة عام.

فى عهد محمد على باشا الكبير، والى مصر، صدر أول أمر عال ينظم قواعد حماية الآثار يوم ١٥ من أغسطس عام ١٨٣٥ وينص على أن آثار مصر جزء من تراث البلاد، وهى ملك الدولة.

وقضت القوانين الصادرة منذ ذلك الحين بأن تبقى الآثار ذات الأهمية التاريخية، والأعمال الفنية المتميزة، داخل البلاد دليلا على عظمتها وحضارتها.

وفى عصر محمد سعيد باشا وموافقته على مشروع فرديناند دلسبس بإنشاء قناة السويس، أخذ النفوذ الفرنسى يزداد، وبالذات فى ميدان الآثار، فإن دلسبس تدخل لدى الوالى سعيد باشا لإنشاء مصلحة الآثار وتشجيع البحث عنها.

ومنذ إنشاء مصلحة الآثار وتعيين مارييت مديرا عاما لها عام ١٨٥٨ احتكر الفرنسيون منصب مدير عام هذه المصلحة ونصف الوظائف القيادية حتى عام ١٩٥٢. وكانت البداية غزو نابليون لمصر الذى فشل عسكريا.. ونجح «أثريا»!!

* * *

استمر الفرنسيون يديرون مصلحة الآثار حتى بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢.

وأيدت بريطانيا حق الفرنسيين فى هذا المنصب فى الاتفاق الودى الذى عقد بين البلدين فى ٨ من إبريل عام ١٩٠٤.

والاتفاق الودى ينهى التنافس بين البلدين فى البحر المتوسط لمواجهة الخطر الألمانى القادم.

وكانت الأمور قد اضطربت فى مراكش التى تحتلها فرنسا. وهناك دولتان فقط تستطيعان التدخل فى مراكش، الأولى إسبانيا ولكنها مثقلة بنتائج حربها مع الولايات المتحدة، وبريطانيا التى لا ترغب فى زيادة أعبائها.

ومن هنا اتفقت الدولتان على تبادل حكم مصر ومراكش، أو اتفقتا على مقايضة مراكش بمصر!!

تعهدت فرنسا بألا تطالب بالجلاء عن مصر.

وبريطانيا تطلق يد فرنسا فى مراكش فلا تطالبها بالانسحاب.

ووقع الاتفاق اللورد لانسدون وزير خارجية بريطانيا وكامبون سفير فرنسا فى لندن.

والاتفاق سياسى فى المقام الأول، مفروض فيه ألا يبحث شئون الآثار وأن تكون آخر موضع يتناوله مثل هذا الاتفاق!

ولكن المادة الأولى تقول بأن بريطانيا لن تغير الحال السياسية فى مصر، وفرنسا لن تعرقل عمل بريطانيا العظمى ولن تطلب تحديد موعد للجلاء عن مصر.

وأصرت فرنسا ـ فى المادة الأولى ـ على أن يتولى منصب مدير مصلحة الآثار ـ كما كان فى الماضى ـ عالم فرنسى!

وهذا النص، بهذه الطريقة، يبين أهمية مصلحة الآثار فى نظر الفرنسيين. فهم يعترفون بأن نفوذهم السياسى تلاشى أو سيتلاشى فى مصر، ولكن نفوذهم فى مصلحة الآثار ينبغى أن يستمر!

وعلى هذا الأساس استمر الفرنسيون فى إدارة مصلحة الآثار وإعطاء تراخيص التنقيب!

* * *

شغل ستة من الفرنسيين منصب مدير عام مصلحة الآثار، منذ إنشائها حتى عام ١٩٥٢.

كانوا جميعا محبين لمصر وآثارها. أغلبهم درس الهيروغليفية والقبطية والحبشية والعبرية وألفوا عشرات الكتب، وألوف المقالات، عن مصر وتاريخها القديم، وأدبها، وموسيقاها، ونباتها، وحيواناتها وقواعد الكتابة الهيروغليفية، ونقبوا فى مواقع كثيرة بحثا عن الآثار.

ولكن اختلفت سياسة كل مدير للمصلحة عن الآخر بالنسبة لملكية الآثار.

* * *

أول مدير لمصلحة الآثار هو فرانسوا أوجست فرديناند مارييت.

والحظ وحده لعب الدور الأساسى فى تعيين مارييت - بل فى اهتمامه - بالآثار المصرية.

كانت البداية فى رحلة شامبوليون الوحيدة إلى مصر، فقد رافقه فى هذه الزيارة فنان رسم عدة لوحات للآثار المصرية وكتب مذكرات عن هذه الرحلة، فلما توفى هذا الفنان واسمه - نيستور - عام ١٨٤٢ ترك رسوماته وأوراقه لابن عمه، والد مارييت وهو محام.

قرأ مارييت هذه الأوراق فهام بالآثار المصرية وعرف هدفه فى الحياة وهو أن يزور مصر ليبقى بجوار هذه الآثار.

وخلال السنوات السبع التالية ظل مارييت يطالع أوراق قريبه ويتعلم اللغة القبطية. ويشترى كتاب قواعد اللغة الهيروغليفية الذى وضعه شامبوليون، ويتعلم هذه اللغة، ويقرأ كتاب «وصف مصر» الذى وضعه علماء نابليون «وكان يضع ابنته على حجره وابنتاه الأخريان تلعبان عند قدميه وهو سعيد بذلك، يقول: «لم أعمل أبدا بشكل أفضل من ذلك. أحب أن أشعر بأن عالمى الصغير قريب منى».

ويعين مارييت مدرسا فى كلية فى بولونيا التى درس فيها. ويتقدم لمتحف اللوفر بطلب وظيفة فى القسم المصرى قائلا:

«عضتنى البطة المصرية، وهى حيوان خطر تتملكك بطريقة عاطفية، وتجذبك إليها ويسرى فيك ترياقها فتظل مهتما بمصر إلى الأبد»!

ويعين فى وظيفة صغيرة بمتحف اللوفر عام ١٨٤٩، وهى أقل من تلك التى يشغلها فى بولونيا، ولكن أهميتها بالنسبة إليه ترجع إلى أنها تقربه من الآثار المصرية التى توجد فى اللوفر.

وتعرض على هذا المتحف مجموعة من أوراق البردى القبطية المصرية لشرائها فيكلف مارييت بالسفر لبحثها.

فى مصر رفض البطريرك بيع هذه الأوراق، فلا يهتم مارييت بذلك؛ لأنه وجد فى بيت القنصل الفرنسى وغيره من الفرنسيين مجموعات من الآثار المصرية. سأل عن مصدرها فقالوا إنها جاءت من سقارة.

انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة وأقام فى سقارة.

روى صديقه وزميله العالم الألمانى هاينريش بروجش حياة مارييت وبيته فى سقارة الذى رفع عليه العلم الفرنسى حتى لا يقتحمه أحد فقال:

«يعيش حول المنزل حوالى ثلاثين قردا، ويعسكرون فوق السطح. . وتزحف الثعابين على الأرض.

وتتجول العناكب والعقارب فى شقوق الجدران.

ويتدلى نسيج العنكبوت من السقف مثل الأعلام.

وما أن يحل الظلام حتى تأتى إلى غرفتى الصغيرة الخفافيش من الفتحات وقد جذبها الضوء. وتقلق راحتى بطيرانها المميز. وقبل النوم أثبت «ناموسيتى» فوق الأسياخ. وأترك نفسى فى رعاية الله وجميع القديسين بينما تعوى حول المنزل الثعالب والضباع والذئاب!».

وينجح مارييت فى اكتشاف معبد السيرابيوم حيث دفنت عجول أبيس المقدسة. ولكنه يصل إلى نتيجة مهمة يعلنها وهى أن المصريين عبدوا إلها واحدا!

وتستمر وزارة الداخلية الفرنسية فى مده بالمال للاستمرار فى الحفر. وعندما يتأخر وصول المال يساعده والى مصر والقنصل الفرنسى. ويبيع مارييت بعض المجوهرات التى اكتشفها ليستمر فى الحفر والتنقيب!

والقانون الصادر فى مصر عام ١٨٣٥ يمنع تصدير الآثار، يتحداه، ويتحايل عليه مارييت.

إنه يحفر ليلا، ويخفى كثيرا مما وجده من آثار وينجح فى تهريب سبعة آلاف قطعة أثرية إلى متحف اللوفر، ينقلها من القاهرة إلى الإسكندرية على ظهور الحمير!

ويكتشف ذلك منافسوه من لصوص الآثار، فيدسون له السم فى الطعام فيكاد يموت.

وتمنحه فرنسا وسام «اللجيون دونير» عام ١٨٥٢ تقديرا لجهوده فى الاكتشافات المصرية، وربما يكون تقديرا لجهوده فى مد فرنسا بالآثار المصرية المسروقة.

ويعود ماريت لفرنسا عام ١٨٥٥ فيعين مساعدا لأمين القسم المصرى فى متحف اللوفر. ويعتذرون عن منحه وظيفة الأمين إلا إذا مات شاغلها.

ويبقى عامين فى فرنسا وهو يحن لمصر.

وتجىء الفرصة عندما يرغب الأمير نابليون ابن عم الإمبراطور فى زيارة لمصر فيختار له الكونت دلسبس - صاحب امتياز قناة السويس - ماريت لمرافقته فى الرحلة ليشرح له الآثار المصرية، أو بعبارة أدق أن يختار له أيضا بعض الآثار!

ويسبق ماريت الأمير إلى مصر، فيعطيه الوالى سعيد باشا الباخرة «سمنود» ليطوف بها البلاد مع الأمير، ويمنحه حق اختيار آثار تهدى للأمير!

ويرجئ الأمير رحلته لمصر.

ولكن الأمير يساعده، لدى دلسبس، الذى يعاونه بدوره لدى سعيد باشا فيعين كأول مدير لمصلحة الآثار المصرية فى أول يونيه عام ١٨٥٦، فيحول مسجدا وبعض العشش لتصبح متحفا افتتح فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٦٣ وذلك قبل إنشاء المتحف الحالى عام ١٩٠٠.

ظل ماريت ٢٣ عاما مديرا لمصلحة الآثار، قام خلالها بالحفر والتنقيب فى ٣٥ موقعا، امتدت من النوبة وأسوان حتى البحر المتوسط وكشف عن آثار البدرشين ومعابد الأقصر وإدفو وأبيدوس ودندرة وعشرات من الأهرامات التى بنيت على هيئة مصاطب.. إلخ.

وكان لديه ٢٧٨٠ عاملا يقومون بهذه المهمة. وبذلك سجل رقما قياسيا للحفر والاكتشافات فى الشرق الأدنى كله.

ويتغير ماريت تماما بعد أن تولى هذا المنصب.

قبل ذلك كان يسرق الآثار المصرية ويهربها لفرنسا . الآن اعتبر مصر القديمة كلها ملكه الخاص ، ورثها عن آبائه ، ولكن عليه أن يسلمها لأحفاده المصريين ! ! ويرفض أن يحصل أجنبى ، حتى ولو كان فرنسيا ، على كل شىء من آثار مصر .

لقد أصبح الأمين على آثارها .

وقد وضع ماريت قاعدة عدم خروج أى أثر من مصر إذا لم يكن له نظير فى البلاد .

وبعد أن كان قانون منع تصدير الآثار المصرية حبرا على ورق خلال عشرين عاما استطاع هذا الرجل وحده تنفيذ هذا القانون .

حدث عام ١٨٦٦ أن طلب نابليون الثالث من الخديو إسماعيل بعض الآثار المصرية لتعرض بالمعرض المقام فى ذلك العام بفرنسا فرفض ماريت إلا إذا تعهدت فرنسا بإعادة تلك الآثار إلى مصر ، فأعيدت الآثار .

وعندما عرض عليه منصب أمين القسم المصرى فى متحف اللوفر يعتذر لأنه لا يستطيع مغادرة مصر وقال :

«هل سنسمح الآن بأن يمثل علم الآثار فى مصر ألمانى بعد أن ظل حتى الآن يمثله فرنسى .

إننا الآن نناضل بشدة فى مصر ضد نفوذ ألمانيا الذى يفرض نفسه فى كل اتجاه ، هل تعتقدون حقيقة ، أن أكون الأداة التى يقوم الألمان من خلالها بالاستيلاء على أحد المراكز التى يرغبون فيها بشدة فى مصر؟» .

استهوته «البطة» المصرية وفتنته وجذبته وأصبح من المستحيل بالنسبة له أن يفرط فى شىء من آثار مصر .

وتشترك مصر فى المعرض الدولى بباريس عام ١٨٦٧ ، وكان القسم المصرى رائعا .

طلبت الإمبراطورة أوجينى إلى إسماعيل باشا فى باريس أن يهديها بعض المجوهرات المصرية القديمة التى عرضت فى باريس فقال لها :

ـ هناك من هو أقوى منى فى بولاق .

. . يقصد ماربيت .

ويرفض ماربيت إهداء الأميرة المجوهرات قائلا :

ـ إذا وافقت بالنسبة لك يا سيدتى فماذا أقول غدا لإنجلترا أو ألمانيا أو النمسا .

وأقنع ماربيت الخديو إسماعيل بعدم الاشتراك فى معرض فينا عام ١٨٧٣ حتى لا تقع عينا إمبراطور النمسا على الآثار المصرية فيلح فى طلب بعضها!

وعندما طلب القنصل الأمريكى أن يصدر مسلة مصرية إلى بلاده قال ماربيت :

«هناك متحفان فى مصر أحدهما متحف بولاق ، والثانى مصر كلها التى تمتد بأطلالها على ضفتى النيل من الدلتا إلى الشلال الثانى لتكون أجمل متحف فى العالم كله . . لماذا نقلل من أهمية هذا المتحف الثانى الذى يأتى إليه العالم كله كل شتاء . هناك مبدأ عالمى مطبق فى كل المتاحف وهو أن المتحف يتلقى ولكنه لا يعطى أبدا فلتطلب مصر «فينوس» من اللوفر أو حجر رشيد من لندن أو أى أثر من مجموعة أبوت فى نيويورك . إن أحدا لن يسلم مثل هذه الهبة فلماذا تعامل مصر بشكل يختلف عن سائر المتاحف؟!» .

رأى الخديو مكافأة ماربيت . أمر بتعليم أبنائه على نفقة الدولة ومنحه ١٠٠ ألف فرنك مكافأة وأسند إليه تأليف أوبرا عايدة .

ووضعت على قبره لوحة تقول :

«إلى ماربيت من مصر . . المعترفة» .

والمقصود المعترفة بجميله أو بجهوده .

* * *

خلف جاستون كامى شارل ماسبيرو الفرنسى الراحل ماربيت فى إدارة مصلحة الآثار عام ١٨٨١ مدة خمس سنوات ، قسم خلالها المصلحة إلى ٥ مناطق يشرف على كل منها مفتش .

وماسبيرو درس اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية وعلوم الآثار والتاريخ المصرى وأصبح أستاذا للآثار المصرية فى كلية فرنسا وعمره ٢٨ سنة .

وعرضت عليه وظائف كثيرة فى عدة دول بأمريكا الجنوبية وإيطاليا .

وعندما أنشأت فرنسا مدرسة للآثار الشرقية فى مصر ؛ ليدرس فيها الراغبون عام ١٨٨١ أوفد ماسبيرو للعمل أستاذا بها . . ثم اختير مديرا للمدرسة ثم مديرا لمصلحة الآثار .

ويفاخر ماسبيرو بأنه حافظ على الآثار المصرية من السرقة والنهب فى أثناء الثورة العرابية ولكن الواضح أن أحدا من المصريين خلال الثورة لم يفكر فى اقتحام المتحف المصرى فى بولاق وسرقة آثاره!

نشر ماسبيرو عدة كتب عن مصر وآثارها ، وجمع القصص الشعبى القديم فى كتاب عام ١٨٨٢ . وظل ١٤ سنة يجمع الأغانى الشعبية فى مصر وأصدرها فى كتاب عام ١٩١٤ .

ومن المؤكد أن ما سبيرو كان محبا لآثار مصر ، ولذلك رأى ضرورة تشجيع البحث والتنقيب عنها .

ومن هنا وجد أن عمليات التنقيب التى يقوم بها الأجانب تعتبر خدمة لمصر ، فهم يقومون بعمل لا تستطيع المصلحة القيام به ، كما أنهم يحرسون المنطقة التى يعملون بها ، ويعتبر من السخافة حرمان البلاد منها!

وفى البداية كانت نصوص ماسبيرو متشددة بالنسبة لتصدير الآثار . .

فقال الأمر العالى الذى أصدره الخديو محمد توفيق فى ١٦ من مايو ١٨٨٣ باعتبار «دار الأنتيكات المصرية ومحتوياتها من أملاك الحكومة ذات المنفعة العمومية»!

ونص فى أول تصريح منح للتنقيب عن الآثار ـ عام ١٨٨٤ ـ بأن «تبقى فى مصر جميع القطع التى يعثر عليها مهما يكن نوعها ، وقيمتها والعصر الذى تنتمى إليه» .

فى هذا التصريح قيل صراحة إن الآثار تبقى ملكا للحكومة المصرية وتودع فى «متحف بولاق» .

ولكن ماسبيرو ارتكب خطأ عندما حاول التوفيق بين الفرنسيين والإنجليز ، فوعد

البريطانيين بأن يقدم لهم خديو مصر بعض الآثار التى يعثر عليها المنقبون البريطانيون كهدايا ونفذ هذا الوعد!

أهدى الخديو المستكشفين البريطانيين بعضا من آثار تل المسخوطة. وكان كل ما تكلفه الإنجليز للحفر فى هذا التل ٦٠٠ جنيه!

وتمادى ماسبيرو فى تيسيراته للأجانب.

رخص لمدير الآثار بأن يسمح للمكتشف بالحصول على جزء من القطع التى يعثر عليها والتى يمكن التنازل عنها، ولكن بشرط أن تقوم مصلحة الآثار بفحصها أولا لتعويض المنقبين عن نفقات الحفر.

وكانت هذه بداية سرقة آثار مصر بنصوص قانونية صريحة!

ولكن ماسبيرو عاد إلى فرنسا عام ١٨٨٦ بسبب حالة زوجته الصحية وظل فى باريس ١٣ سنة فخلفه فى البداية يوجين جريبو ست سنوات من عام ١٨٨٦ حتى عام ١٨٩٢.

عادى جريبو كل الأجانب عدا الفرنسيين.

وأخذ يتشدد فى منع التصدير.

وقال الأمر العالى الذى أصدره الخديو محمد توفيق فى ١٧ من نوفمبر عام ١٨٩١ بمنع الحفر إلا برخصة من مدير عموم دار التحف والحفر.

ووضعت شروط ونصوص محددة فى كل ترخيص.

«كل الآثار تبقى ملكا للحكومة المصرية.. تختار منها ما تريد فإن بقى شىء يترك للقائم بعملية التنقيب بشرط أن يقوم - بدوره - بإهداء القسم الأكبر منها للمتاحف العامة.. بلا مقابل».

وكان الهدف أن تكون آثار مصر فى متاحف العالم للدعاية ولا يستفيد بها المكتشفون!

وحدث الصدام بين الإنجليز وجريبو، فاضطر للاستقالة عام ١٨٩٢.

وتولى إدارة مصلحة الآثار جاك جان مارى دى مورجان خمس سنوات ليقوم بحفائر فى أهرامات دهشور ويكتشف مجوهرات الأسرة ١٢ ، ومصطبة سقارة، ويقود أول بعثة لاكتشاف آثار سيناء ثم يستقيل ليسجل أهم اكتشافات عمره فى إيران!

وجرت تيسيرات أخرى عام ١٨٩٣ . .

اعترفت اللائحة الجديدة بأنه يجوز تعويض بعثات التنقيب بالتنازل لها عن نصف القطع المكتشفة .

وبقى للحكومة الحق فى الحصول على كل القطع الخاصة بملوك مصر . . دون تعويض ودون اقتسامها مع المكتشفين .

ساعدت هذه التيسيرات على تدفق البعثات الأجنبية على مصر ، ولكنها كانت كارثة على الآثار المصرية فقد سمحت بنهبها على نطاق واسع !

وجاء فيكتور لوريه عام ١٨٩٧ مديرا للآثار ليبقى عامين فقط ويطاح به للأسباب نفسها التى أطاحت بسلفه جريبو فاضطر للاستقالة .

ولكن فى عهد لوريه تم الحفر فى وادى الملوك ، فاكتشف قبر تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى الذى وجدت فيه ٩ مومياوات .

وظل حب لوريه للآثار المصرية مستمرا حتى بعد عودته لفرنسا فأنشأ مدرسة للآثار المصرية فى مدينة ليون وأصدر قاموسا للغة المصرية القديمة من جزأين ضما ٢١٧٩ كلمة .

وعاد ماسبيرو لإدارة مصلحة الآثار عام ١٨٩٩ ليبقى ١٥ سنة أخرى مديرا لهذه المصلحة .

فى العهد الثانى لماسبيرو تدفق الأجانب للبحث عن آثار مصر بصورة لم يسبق لها مثيل .

* * *

رفع ماسبيرو شعار تشجيع البحث عن آثار ، فأعد مشروع قانون عجيب يدور حول هدف واحد وهو تقسيم الآثار مناصفة بين المصلحة والمكتشف .

وافق إسماعيل سرى باشا وزير الأشغال - الذى تتبعه مصلحة الآثار - على المشروع وأقره مجلس الوزراء برئاسة محمد سعيد باشا ووقعه الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٩١٢ ، فتدفق الأجانب للبحث عن آثار مصر .

وكانت مصلحة الآثار كريمة غاية الكرم مع صاحب الترخيص، بينما فى بلاد كاليونان لها تاريخ قديم لا ينال المكتشف شيئا من آثار البلاد ؛ لأنه يجب الاحتفاظ بها فى موطنها الأصلى .

وأمثلة الاستيلاء على الآثار المصرية - طبقا لقانون ماسبيرو - لا تنتهى .

نص المشروع على أن تئول إلى مصلحة الآثار مومياوات الملوك، والأمراء، وكبار الكهنة، وأعضاء البلاط الملكى وتوابيتهم وأكفانهم .

وتئول للمصلحة أيضا محتويات المقابر السليمة التى لم تمس، أى لم ينبشها اللصوص .

وإذا وجدت مقبرة تسلل إليها اللصوص، ولم يسرقوها بالكامل، فإن مصلحة الآثار تحتفظ بالمومياوات والتوابيت ذات الأهمية الكبرى من الناحيتين الأثرية والتاريخية وما يتبقى بعد ذلك من الآثار القابلة للنقل تقسم مناصفة بين المصلحة والمكتشف .

وتقوم مصلحة الآثار بعملية القسمة إلى مجموعتين يختار المكتشف إحداهما أو يحصل على ثمن مجموعته من مصلحة الآثار .

وإذا لم يقبل المكتشف نصف القيمة التى تحددها المصلحة يكون لها أن تأخذ التحف أو تتركها بأن تدفع، أو تأخذ، نصف القيمة التى يحددها المكتشف نفسه .

وجرى العرف والتقاليد على حصول المكتشف على معظم الآثار العادية وأقل من نصف الآثار المهمة!

* * *

فى أول إبريل عام ١٨٨٢ ، قبل الاحتلال البريطانى بعشرة أسابيع أعلن فى لندن عن تشكيل جمعية التنقيب المصرية للبحث عن الآثار .

كان من بين الأعضاء المؤسسين اللورد كارنارفون - الأب - رئيس جمعية الآثار .

أما الهدف الأول للجمعية، فهو محاولة الوصول إلى حقيقة الفترة الضائعة فى تاريخ مصر وهى الـ ٤٠٠ عام التى عاشها اليهود فى مصر وطريق خروجهم منها.

والهدف الثانى أن يحصل المتحف البريطانى على نصيب من آثار مصر، بطريقة قانونية سليمة لأن متحف اللوفر الفرنسى مُلئ بالآثار المصرية، كما أن هذه الآثار تملأ متاحف برلين وتورينو وفلورنسا.

تعاونت الجمعية مع السير أرنست واليس بادج الأمين المساعد للقسم المصرى فى المتحف البريطانى والسير أراسموس ويلسون الجراح البريطانى الشهير الذى مول الجمعية وتبرع لها بعشرة آلاف جنيه ـ وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان ـ لنقل مسلة كليوباتره من الإسكندرية إلى إنجلترا لتستقر على ضفاف التيمس.

والسير أرنست الفريد واليس بادج سرقا الآثار المصرية بمساعدة قوات الاحتلال البريطانى فى مصر لصالح المتحف البريطانى أولا والجمعية ثانيا.

حفر بادج فى ١٨ موقعا فى أسوان ونقل أغلب ما وجده إلى لندن فى عربات السكك الحديدية المصرية مع شحنات الجيش البريطانى بعد موافقة الجنرال السيرفرانسيس جرينفيل قائد القوات البريطانية فى مصر الذى حفر لحسابه، وباع لحسابه أيضا.

وقد جاء بادج ثلاث مرات إلى مصر فى مهام محددة وهى سرقة الآثار وفى مقدمتها مجموعة من أوراق البردى.

وساعده على سرقة الآثار فى أسوان الجنرال البريطانى دى مونت مورنسى قائد القوات البريطانى الذى أشرف على شحن الآثار من أسوان، ثم شاء الحظ أن ينقل إلى الإسكندرية فيقف مع «بادج» على رصيف الميناء ليرى الـ ٢٤ صندوقا نفسها وهى تشحن على الباخرة فى طريقها إلى المتحف البريطانى فى لندن!

ويتلقى بادج يوم ٢ إبريل عام ١٨٨٧ تهنئة المتحف على جهوده فى عالم الآثار!

وقد بدأت الجمعية عملها بالتنسيق مع ماسبيرو بطرق شتى!!

تبادلت إميليا إدواردز ـ الكاتبة الصحفية التى زارت مصر ـ الرسائل مع ماسبيرو عندما كان أستاذا شابا فى كلية فرنسا بباريس عام ١٨٧٦!

وبعد أن تولى منصب مدير مصلحة الآثار، استمرت الجمعية تتعاون معه فوافق على إهدائها أول مجموعة أثرية من «تل المسخوطة ـ قرب الزقازيق ـ عام ١٨٨٣».

ويعدل ماسبيرو القوانين لصالح الجمعية فيسمح بتصدير الآثار عام ١٨٨٤.

ويحتضن ماسبيرو عمليات التنقيب التى يقوم بها «ماثيو فلندرز بيترى» وهو أول أستاذ لعلم المصريات فى إنجلترا وهو أيضا يعمل لحساب الجمعية.

أمضى ٤٠ عاما ينقب عن الآثار فى مصر. وهو صاحب مدرسة مسئولة من الأثريين وقد كشف عن أجزاء غامضة من عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

ولكن بيترى كان أيضا لصا كبيرا لآثار مصر، وقد ساعده ماسبيرو كثيرا.

وعندما التقى بماسبيرو فى باريس قال له:

ـ سأكون ممثلا للمتحف البريطانى فى مصر وسأشترى الآثار نيابة عنه، وسأضعها جميعا تحت تصرفك وتعطينى ما لست فى حاجة إليه لأخذها إلى لندن لتوزع بين المتحف البريطانى والمتاحف الأمريكية.

وافق ماسبيرو بشرط أن يبقى الاتفاق بينهما سرا حتى يعود ماسبيرو من إجازته ولكن الاتفاق فى الحقيقة بقى سرا حتى بعد عودة ماسبيرو، الذى سمح لبيترى بالاحتفاظ بكمية كافية من الآثار وزعت بين المتحف البريطانى والمعهد الملكى للآثار فى لندن وبين متحف بوسطن الأمريكى!

قال ماسبيرو لبيترى.. فى أحد الأيام:

ـ لا تعلن فى الجمارك عما معك من قطع برونزية وجعارين وعملات، بل ضعها فى جيوبك.

نفذ بيترى، الذى كان يجمع الآثار للمتحف البريطانى، النصيحة!

وقد قدم جيمس بريستد وهو أول أستاذ أمريكى متخصص فى الآثار المصرية صورة لزميله بيترى عندما قابله فى مصر لأول مرة:

كانت ملابسه تؤكد سمعته العالمية بأن المسألة ليست مجرد إهمال بل قذارة متعمدة، كان يمعن فى أن يبدو مشعثا يرتدى بنطلونا وقميصا مهلهلين قذرين وصندلا ممزقا بلا جورب.

ومن صفاته المميزة أنه يفضل أن يحاكى مساعدوه الإهمال الذى يتسم به.

وكان طعامه سيئا للغاية حتى الأشخاص الذين لهم بنية من حديد كانوا يفضلون أن يشاركوا الفلاحين المحليين طعامهم الفاخر نسبيا من الفاصوليا والخبز .

* * *

كان بيترى يسجل فى رسائله للجمعية كرم ماسبيرو .

والحقيقة الواضحة خلال عهد ماسبيرو فى مصلحة الآثار أنه طبق القوانين بمرونة كبيرة ، فقد سمح للمنقبين بالحصول على نسبة مما يكتشفونه بشرط الاعتراف بحق المتحف المصرى فى أن تكون له أولوية الاختيار بين الآثار .

وكان يعطى المنقب الذى لا يجد آثارا بعض ما فى مخازن المتحف المصرى تعويضا له عن أمواله الضائعة .

أما وجهة نظره فهى أن هؤلاء يساعدون مصر فى الوصول إلى آثارها !

وفى لندن كانت الجمعية تعرض الآثار الواردة من مصر لتحصل على تبرعات ثم تكتب لبيترى وغيره من الذين ينقبون باسم الجمعية تطلب مزيدا من الآثار للمتاحف المحلية فى بريطانيا !

وبعد أن تولى جريبو إدارة مصلحة الآثار ، اتهم بيترى بتصدير «سرقة» ٥٠٠ ألف قطعة من الفخار المصرى بلا ترخيص !

وفى التقرير الذى نشرته الجمعية عام ١٩٨٢ عن أعمالها فى مائة سنة اعترفت بأن المتحف البريطانى كان أول من أفاد من الجمعية ثم متحف بوسطن فى الولايات المتحدة لأنه كان يتبرع للجمعية ، ثم متاحف أمريكا ، وليفربول ، وشفيلد ، وأدنبره ، ومدرسة حكومية بريطانية فى هارتر هاوس !

وفى تقرير الجمعية أنها عندما توقفت عن الحفر فى طيبة بسبب ضعف الميزانية تبرع أمريكى اسمه «لافان» بألف جنيه مقابل أن يأخذ حصة الجمعية فى نصف الآثار المصرية فوافقت الجمعية .

واقترحت الجمعية على الحكومة البريطانية إصلاح المعابد المصرية وأبواب مقابر وادى الملوك فوافقت لجنة فى وزارة الأشغال مقابل أن يقوم المتحف المصرى ببيع التحف ! ! والحصول على ثمنها لتنفيذ هذه الإصلاحات .

وهكذا ساعدت الجمعية على نهب آثار مصر!

* * *

استمرت عملية تقسيم الآثار بين المصلحة والمكتشفين طبقا لقانون ماسبيرو.

وهذه بعض الأمثلة:

* في عام ١٩٠١ . . وجد قنصل فرنسا الفخري في الأقصر إسكندر بك مقبرة لبعض الأعيان فحصل على نصف ما اكتشفه من آثار . .

* وفي نفس السنة أخذ تيودور دافيز الآثار المكررة من قبر تحتمس الرابع.

* وفي عام ١٩٠٣ أخذ دافيز تابوتا من اثنين وجدهما في قبر الملكة حاتاس وسلم التابوت لمتحف المتروبوليتان في نيويورك.

* وأخذ دافيز أيضا آثارا من قبر حور محب، وأواني فخار من قبر إخناتون.

وقدرت تكاليف الحفر التي أنفقها دافيز للوصول إلى مقبرة إخناتون ٧٥٠٠ جنيه. أما قيمة الآثار التي حصل عليها من هذه المقبرة فقد زادت على ٢٠ ألفا من الجنيهات.

ولم يعارض إسماعيل سري باشا ـ وهو من أكفأ المهندسين المصريين ـ في تنفيذ نصوص القانون وتقسيم الآثار خلال السنوات الطويلة التي أمضاها في وزارة الأشغال.

لقد ظل يشغل هذا المنصب في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، والسلطان حسين كامل، والسلطان أحمد فؤاد، الذي أصبح ملكا، وبقي وزيرا ١٢ عاما في وزارات بطرس غالي، ومحمد سعيد، ويوسف وهبة، ومحمد توفيق نسيم.

عين في منصبه منذ ١٢ من نوفمبر ١٩٠٨ وبقي فيه حتى ١٥ من مارس ١٩٢٣ باستثناء ٣ سنوات تقريبا.

قال الإنجليز في تقاريرهم الرسمية السرية إن إسماعيل سري «رجلنا في مصر»!

وكانت مصلحة الآثار تتبع وزارة الأشغال!

* * *

ظل وادى الملوك يمثل عالما من السحر والغموض والخيال لعاشقى الآثار ولصوصها وهو أيضا مكان موحش منعزل تحوم حوله الأشباح.

وصفه اللورد كارنارفون بأنه صخور، ورمال، ورديم، وحفر مملوءة بالمومياوات، جوه خانق مخيف بلا طيور أو حشرات ولا يعكس أى مظهر للحياة.

إنه شاهد على الجميع.. الرواد واللصوص معا، يعكس الطمع والجشع والفضول الإنسانى الذى انتصر وتفوق على كل حذر!

دخله أحد العلماء بحماره.. فلم يعرف طريق العودة إلا بصعوبة بالغة مع أن الإنسان يستطيع أن يطوف منطقة المقابر كلها سيرا على قدميه خلال ١٥ دقيقة.

اكتشف فى هذا الوادى ٦٤ قبرا فقط، أكبرها قبر سيتى الأول الذى يمتد فى أعماق الأرض ١٨٠ قدما وطوله ٤٧٠ قدما.

فشلت السرية فى الحفاظ على قبور الملوك، وفشلت العلانية أيضا نتيجة ضعف العرش واستهانة اللصوص من الحراس والموظفين المرتشين، بالملوك الأحياء.. والموتى.

وهكذا نهبت القبور، أغلبها.

* * *

بعد أن زار عالم الآثار الألمانى «كارل ريتشاد ليسبيوس» وادى الملوك عام ١٨٤٢ قال:

ـ هذا المكان خال من المومياوات والآثار.

ولكن «إميليا إدواردز» الكاتبة البريطانية، وأول سيدة درست علم الآثار، قالت:

ـ هذا المنجم لا يخلو أبدا.

* * *

وبقى قبر توت غنخ آمون!

الكشف

وجد سكياباريللى أمين متحف تورينو الإيطالى باب مقبرة ذات مقبض برونزى يلمع بعد أن أزيل من فوقه التراب، فوضع يده فى جيبه ثم أخرجها خاوية يردد لمعاونه:

ـ آسف.. لقد نسيت المفتاح.

فإن الأثرى ظن أن المقبض اللامع يدل على باب جديد بنى حديثا.

وهذا مثال يدل على روعة الآثار المصرية.

قال هيرودوت:

ـ المصريون أول شعب حفظ تاريخه، وهم المؤرخون الأوائل فى العالم؛ لأن ماضيهم يتمثل أمام عيونهم فى الآثار الكثيرة.

وفى السنة الأولى لمجيء كارتر إلى مصر، عندما جاء إليها وعمره ١٧ سنة، قال له أستاذه العالم الأثرى بيترى:

مصر كلها متحف، الحرارة جعلت الجو نقيا جافا بلا رطوبة وعزلت مناخ البلاد عن المناطق المجاورة وحفظت الألوان والرسومات على الجدران كأنها رسمت بالأمس، أو للتو واللحظة.

وعرف كارتر ـ وهو يعمل مع أستاذه فى تل العمارنة عاصمة إخناتون ـ الكثير عن توت عنخ آمون.

لقد توج فى تل العمارنة، ولكنه نقل عاصمة الملك إلى طيبة ـ الأقصر ـ أو بعبارة أدق أعاد العاصمة إلى الأقصر، كما كانت قبل إخناتون.

ولكن لم يجد بيترى فى تل العمارنة قصرا، ولا قبرا لتوت غنخ آمون، مما يرجح أنه دفن فى وادى الملوك.

* * *

وهناك فراعنة كثيرون أرادوا إعادة كتابة التاريخ بإزالة أسماء من سبقوهم مثل رمسيس الثانى وتحتمس الثالث ابن زوج حتشبسوت الذى أزال اسم جلالة الملكة وهى أيضا من الأسرة الثامنة عشرة التى ينتمى إليها توت غنخ آمون.

ويوجد نظير لهذه الظاهرة فى دول أخرى.

وفى الصين بعد ١٥٠٠ سنة من وفاة حتشبسوت أمر الإمبراطور بحرق الكتب على نطاق واسع.

وفى إنجلترا رأى كرومويل أن كل السجلات القديمة يجب أن تحرق ليبدأ التاريخ.. جديدا.

* * *

وكتبت كريستيان دى روشنوبل كور، أمينة القسم المصرى فى متحف اللوفر أن هذا الملك تعرض لحملة منظمة من قبل قائده وخليفته فى الملك، حورمحب، لطمس اسمه وإزالته.

ولكن آثارا كثيرة للملك توت غنخ آمون أفلتت من مطارق حورمحب، فإن المصريين عرفوا أشياء كثيرة عن هذا الملك منذ مجىء نابليون إلى مصر.

ودلت بعض الآثار عليه:

* حجر من معبد عليه شعاره الملكى وجد فى الأقصر.

* كتل من الحجارة عليها شعاره، وأعيد استعمالها للبناء فى الأقصر أيضا.

* * *

اكتشف ٦٤ قبرا فى وادى الملوك من الأسرة الثامنة عشرة أكبرها قبر سيتى الأول الذى يمتد ١٨٠ قدما تحت الأرض وطوله ٤٧٠ قدما.

وبقيت ٣ قبور من ملوك هذه الأسرة لم تكتشف، وهى قبر إخناتون ـ الذى مات فى تل العمارنة وقيل إن جثته قد مزقت ـ وحور محب الذى دفن فى ممفيس ـ ميت رهينة ـ وأخيرا توت غنخ آمون .

وكان كارتر يرى أن هذا القبر لم ينبش، ولم ينهب، ولا يوجد فى أى سجلات ما يدل على ذلك .

ورأى كارتر أن أمطارا غزيرة نزلت على منطقة القبر فغيرت معالمه وسدت مدخله فتعذر على اللصوص الاهتداء إليه .

* * *

درس كارتر نتائج جمع الحفائر التى تمت من عام ١٨٧٥ .

ورأى أن اللصوص سرقوا بعض التحف النادرة من مقبرة الملك توت عنخ آمون ولكنهم لم يسرقوا كل ما فى المقبرة ولم يصلوا إلى مومياء الملك .

وجد جورج ليجران وهو عالم آثار فرنسى وكان كبيرا لمفتشى المصلحة بالأقصر «نب خبرورع» ـ وهو الاسم الملكى لتوت عنخ آمون ـ على نصب تذكارى فى معبد الكرنك عام ١٩٠٥م، ونشر ذلك بعد عامين .

واكتُشف تمثال له وهو جالس بالحجم الطبيعى، نحت من حجر قاتم اللون لا يبعث منظره على السرور .

وعثر على بقايا أو شظايا فى الكرنك طمست بعض نقوشها تصور القارب الخاص للملك .

واكتُشفت إشارات إليه فى قبر أحد موظفيه تقول بأن قبائل معينة فى سوريا والسودان خضعت له ودفعت الجزية .

* * *

هنا تلعب المصادفات أخطر أدوارها ويتحقق كشف أثرى مهم لا فى الأقصر وإنما فى نيويورك!

حدث عام ١٩٠٨ أن زار هربرت وينلوك الأمين المساعد للقسم المصرى لمتحف المتروبوليتان الذى يرأس بعثة المتحف للتنقيب فى الأقصر، مقر المليونير الأمريكى

دافيز ، ورأى أباريق وأقداحا وقطعا فخارية وقطعا من القماش ملقاة بلا عناية ، عثر عليها دافيز فى حفرياته فى وادى الملوك .

سأل وينلوك . . المليونير عن هذه الآثار فقال إنه عثر عليها عام ١٩٠٧ فى غرفة صغيرة على مسافة ٧ أمتار تحت الأرض فى وادى الملوك تبعد ٤٥ مترا تقريبا من قبر رمسيس السادس . ويعتقد أنها كل مخلفات قبر توت عنخ آمون ، وأن القبر نهب ، وأن حراس القبور القدامى دفنوا هذه المخلفات ، من جديد ، فى هذا القبر أى تلك الحفرة !

وقال دافيز أيضا إنه يعتقد أن هذه الغرفة هى التى بقيت من قبر توت عنخ آمون ونشر كتابا بذلك اشترك معه فى تأليفه ثلاثة من الأثريين تحفظ أحدهم وقال : إنه يحتمل ، أو يقال ، أو يظن أنه قبر الملك توت عنخ آمون .

طلب وينلوك من دافيز هذه القطع لمتحف المتروبوليتان فى نيويورك فوافق ، وظلت هذه الآثار حبيسة ، مهملة فى القسم المصرى بالمتحف فى نيويورك لم يطلع عليها أحد ١١ سنة كاملة .

ودون مقدمات أو أسباب وقعت صدفة جديدة فى تاريخ البحث عن قبر توت عنخ آمون . تذكر وينلوك هذه القطع فأخذ فى دراستها .

فحص وينلوك الأوانى الفخارية العشر البيضاء ليجد أنها مليئة بالأقمشة يحمل بعضها اسم توت عنخ آمون وكذلك أكياس القش ، وأكياس النطرون ، وقناع شبيه لإنسان من الجص والقماش ، وكثيراً من أنواع الآنية المختلفة ، التى كان بعضها مكسورا بطريقة متعمدة ، وعظام طيور وحيوانات ، وبعض أكاليل الزهور ، ومكنستين ، وقارورة نبيذ مغلقة ومختومة بخاتم المقابر الملكية وعليها اسم توت عنخ آمون .

قام وينلوك بتجميع الرقائق الذهبية فشاهد ملامح لتوت عنخ آمون وهو يمارس هواية الصيد فوق محفة . وحملت رقائق ذهبية أخرى أسماء توت عنخ آمون و«عنخسن آمون» و«آى» .

وصورته صفائح أخرى وهو يجهز على سجين مقيد بالأغلال وبجواره الملكة .

وكتبت على صورة الملكة عبارة بالكتابة الهيروغليفية تقول «كل وسائل حمايته في الحياة توافرت له تماما كالشمس» .

أدرك وينلوك أهمية هذه القطع وأن بعضا منها يشكل المواد التي استخدمت في تحنيط مومياء توت عنخ آمون ، وشكلت الآثار بقايا مأدبة ، حضرها نحو ثمانية أشخاص أقيمت وقت جنازة توت عنخ آمون ، وفقا للعرف السائد .

وكشف الطين الجاف شكلا من المرمر غير المنقوش ، وعن صندوق خشبي مكسور .

وتوصل وينلوك إلى أن بعض هذه القطع خاصة بالاحتفالات التقليدية لتحنيط تمثال الملك وأن بعضها الآخر أدوات طعام في الحفل الجنائزي الذي أقيم في نهاية عملية التحنيط داخل المقبرة قبل إغلاقها على مومياء الملك لآخر مرة!

وصار واضحا لوينلوك أن هذه الأشياء سرقت في وقت قديم من مقبرة توت عنخ آمون الحقيقية وتم إخفاؤها في تلك الغرفة التي عثر عليها دافيز .

وأيقن وينلوك أن هذا هو مفتاح التهاني لحل اللغز الملكي وأن توت عنخ آمون دفن في وادي الملوك .

* * *

قال كارتر : «بدأ اليأس يتسلل إلى نفوسنا شيئا فشيئا ، وكنت مستعدا لمغادرة وادي الملوك وتجربة حظنا في مكان آخر» .

. . ولكن في هذا الوقت بالذات يبرق وينلوك برأيه إلى كارتر وكانت هذه أكبر رسالة تشجيع تلقاها كارتر .

* * *

عبر كارتر بحر المانش إلى فرنسا ، واستقل السفينة إلى مبنى الإسكندرية ودفع مقابل هذه الرحلة ١٤ جنيها بالدرجة الثانية .

وكان السفر بالدرجة الأولى من ليفربول إلى الإسكندرية يتكلف ٦٠ جنيها .

ووصل كارتر إلى الأقصر يوم ٢٨ من أكتوبر قبل موسم السياحة بشهرين، وهى المهلة الزمنية التى أتيحت له للحفر فى المنطقة الوحيدة التى لم يحفر فيها من قبل وامتنع عن التنقيب فيها مرتين : الأولى عندما كان يعمل مع المليونير الأمريكى دافيز والثانية فى السنة الأولى لعمله مع اللورد كارنارفون .

* * *

عاش كارتر فى مصر ٣٢ عاما أعزب لا يؤنس وحدته أحد فى العشة التى بناها فى وادى الملوك وأطلق عليها اسم «قلعة كارتر» .

وقبل أن يسافر إلى لندن قال للجميع إنه لن يعود إلى مصر وحده بل سيعود ومعه رفيق .

واعتقد الجميع أنه سيتزوج، ولكن عندما رست به السفينة الفرنسية فى ميناء الإسكندرية كان معه عصفور «كنارى» ذهبى فى قفص!

تفاءل خادمه بغناء العصفور وقال :

ـ سنجد قبرا مليئا بالذهب .

واستأجر كارتر فريقا من العمال للتنقيب قبل تدفق السياح .

* * *

كان أمام كارتر مثل أعلى هوالمليونير الألمانى العصامى هاينريش شليمان الذى اكتشف مدينة طروادة القديمة ـ حصارليك الآن ـ فى الأناضول (تركيا) وتبعد ستة كيلو مترات ونصف كيلو متر شرقى مدخل الدردنيل .

أبوه قسيس فقير .

وهاينريش عمل مساعدا لبقال وعمره ١٤ سنة، وقرر الهجرة إلى أمريكا فغرقت سفينته ولكنه نجا واستقر على الشاطئ الهولندى .

وفى هولندا وجد عملا .

وخلال فترة قصيرة تعلم معظم اللغات الأوربية وأضاف إليها اليونانية القديمة والحديثة، وأصبح ناجحا كرجل أعمال. سافر إلى روسيا، ثم إلى كاليفورنيا، وحصل على الجنسية الأمريكية.

وعندما أصبح فى السادسة والأربعين قرر أن يهب حياته وثروته لعلم الآثار فذهب إلى اليونان عام ١٨٧٠ بعد أن قرأ أشعار هومير، أو هوميروس، للبحث عن مدينة طروادة التى وردت فى أشعاره.

وظل شليمان يبحث عن طروادة خلال عامين فلم يجد شيئا.

وعاود البحث فى فترات متقطعة، ثم بتركيز بالغ خلال السنوات من ١٨٧٦ حتى ١٨٧٨ للعثور على مدينة طروادة التى قاد أجاممنون الحملة الإغريقية ضدها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد.

لم يجد شليمان شيئا حتى اليوم قبل الأخير.

فى هذا اليوم رأى قطعة كبيرة من النحاس ولكنه لمح بريقا يلمع تحتها فأخذ وزوجته يحفران بأيديهما ليجد ١٦,٢٥٣ قطعة من الذهب والسلاسل والتيجان والأساور وأوراقا من الفضة وأشياء كثيرة عجيبة.

وهكذا أصبحت قصة هذا الهاوى الموهوب حافزا لكل الأثريين ومنهم كارتر وكارنارفون.

وفى أول نوفمبر اتخذ كارتر قرارا مفاجئا.. أن يعود إلى التنقيب فى نفس المنطقة التى توقف عندها فى عام ١٩١٧ عند مدخل قبر رمسيس السادس.. ليجد أكواخ العمال الذين اشتركوا فى بناء ذلك القبر.. وكان قد شاهدها قبل ٥ سنوات تبعد ١٢٠ ياردة عن الحفرة التى وجد فيها دافيز بعض آثار عنخ آمون.

وربما تكون أكواخ العمال التى أقيمت فوق قبر رمسيس السادس جعلت الكثيرين يمتنعون بدعوى أن هؤلاء العمال لا بد قد بحثوا تحت هذه الأكواخ قبل إقامتها، ولم يجدوا شيئا.. وأنه من المستحيل أن يكون موظفو مدينة الموتى قد سمحوا بإقامة أكواخ للعمال فوق قبر فرعون مصر!

* * *

بعد ٣ أيام ـ يوم ٤ من نوفمبر ـ وصل كارتر، على ظهر حماره إلى منطقة الحفر ليجد العمال صامتين على غير عادتهم. أسرع إليه رئيس العمال صائحا :

ـ وجدنا درجة، أى سلمة منحوتة، وسط الصخور.

ومعنى ذلك أن هناك أملا فى أن تقود هذه الدرجة إلى سلالم أخرى. . . أى إلى قبر. .

وفى ظل هذا الأمل استمرت عملية الحفر بجنون.

فى الصباح التالى ـ ٥ من نوفمبر ـ اكتشفت ٤ درجات أخرى فزاد الأمل فى وجود قبر من الأسرة ١٨ تحت الصخور. . فهذه طريقة الدفن فى عصر تلك الأسرة.

واستمر الحفر. . ليزداد ظهور السلالم.

وفى المساء أصبح عدد السلالم ١٦ درجة.

شاهد كارتر حطام ممر يحدد المدخل فقام بتطهيره.

لمح الجزء العلوى لباب من الحجارة عليه خاتم هيروغليفى بحجم اليد هو خاتم مدينة الموتى فى وادى الملوك.

أيقن كارتر أنه وجد قبرا لم يسرق، فعاد إلى مدينة الأقصر ليبرق يوم ٦ من نوفمبر إلى اللورد قائلا: «أخيرا، اكتشاف رائع فى الوادى، مقبرة بأختام سليمة. كل شىء مغلق انتظارا لوصولك. تهانينا».

ولو أن كارتر واصل الحفر لوجد ختم توت عنخ آمون واسمه الملكى «نب خبرورع». . ولكنه اهتم بتوسيع المكان لرؤية أجزاء السلالم، ونزل ٣ درجات أخرى فوجد حائطا من الأسمنت وعليه الخاتم الملكى لتوت عنخ آمون.

اتصل اللورد تليفونيا بعالم الآثار السير آلان جاردنر الذى كان يتناول الغداء مع زوجته فى لندن وقال له بصوت متهدج.

ـ تلقيت برقية من كارتر.

وتلا اللورد نص البرقية وقال لجاردنر :

ـ هل تسافر معى إلى مصر لا بد أن هناك نقوشا هيروغليفية تحتاج للدراسة .

قال جاردنر :

ـ أتمنى ذلك . ولكنى أريد قضاء عيد الميلاد مع أولادى . سأسافر إلى الأقصر فى أوائل العام الجديد .

أبرق اللورد إلى كارتر بعد يومين بأنه سيعود إلى مصر فورا مع ابنته .

ولو أن ذلك حدث هذه الأيام لكان اللورد قد وصل إلى مصر بالطائرة خلال ساعات . ولكن الرحلة كانت تستغرق أسبوعا على الأقل عام ١٩٢٢ فإن المسافر يستقل السفينة من إنجلترا إلى فرنسا عبر بحر المانش .

ويستقل القطار من الساحل الفرنسى الغربى إلى مدينة مارسيليا ، ثم الباخرة مرة أخرى إلى الإسكندرية ، ومنها إلى الأقصر بالقطار !

وخلال الأيام التالية منذ بداية اكتشاف المقبرة ٤ من نوفمبر حتى جاء اللورد عاش كارتر فى قلق .

ـ هل ستتكرر تجربته مع قبر تحتمس الثالث .

لقد اكتشف ذلك القبر ثم وجده خاليا لأن الملك بدأ فى بنائه ثم عدل عنه .

ـ هل سيكون هذا مجرد مخزن لبعض حاجيات الملك أو مومياء كما حدث لعشرات من المنقبين .

أم سيجد قبرا من أسرة ملكية .

إنه ـ أى كارتر ـ جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٩٠ وبدأ يحفر لحساب اللورد ١٥ عاما بدأت سنة ١٩٠٧ فهل سيجد أخيرا ما يبحث عنه .

وهل ستأتيه ضربة الحظ التى عاش ينتظرها .

بقى كارتر أسبوعين ينتظر حضور اللورد وابنته من لندن يوم ٢٠ من نوفمبر . . وينتظر مصيره الأثرى !

* * *

وصل اللورد كارنارفون وابنته الليدى إيفلين - ٢٠ سنة - وحدهما إلى ميناء الإسكندرية، أما زوجته فمنعها المرض من الحضور.

فى محطة سكة حديد الأقصر كان فى استقبال اللورد وكريمته يوم ٢٣ من نوفمبر مدير قنا.

واستقل الثلاثة.. الحمير ٦ أميال حتى وصلوا إلى وادى الملوك.

وواصل العمال الحفر يوم ٢٦ من نوفمبر لينزلوا ٣٠ قدما أخرى بعد الباب الأول.

ويتدخل ركس إنجلباك - كبير مفتشى الآثار فى الوجه القبلى - ليقول إنه تلقى تعليمات من بيير لاكو مدير مصلحة الآثار بأن يحضر دخول المكتشفين إلى المقبرة.

.. ورغم أن الترخيص ينص صراحة على حق الباحث فى أن يدخل وحده إلا أن «إنجلباك» رفض ذلك تماما.

ويستمر الحفر حتى المساء.

وصل العمال إلى الباب الثانى وهو يشبه تماما الباب الأول. ولكن على هذا الباب الجديد.. ختم توت عنخ آمون.

وصف كارتر مشاعره فى تلك اللحظة، فقال:

«مدخل مختوم، إذن فالأمر صحيح!

إن سنوات عملنا الدءوب سوف تكلل بالنجاح فى النهاية..

إنها لحظة مثيرة بالنسبة للحفار.

وجدت نفسى وحدى - باستثناء العمال الذين ينتمون إلى بلدى - بعد سنوات من العمل العقيم على شفا ما يمكن أن يتضح عن يقين أنه اكتشاف عظيم.

أى شىء.. أى شىء بالمعنى الحرفى للكلمة.. قد يكون وراء هذا الممر أو المدخل. تطلب الأمر أن أستعين بكل طاقتى للسيطرة على نفسى حتى لا أحطم الباب وأفحص هنا وهناك.

بعد ثلاثين قدما أسفل الباب الخارجى ، وصلنا إلى باب ثان مختوم يكاد يكون نسخة من الباب الأول . .

ببطء . . وبدا لنا أنه بطء يائس أخذنا نشاهد إزالة بقايا حطام ممر تسد الجزء الأسفل من المدخل إلى أن وجدنا ، فى النهاية ، الباب كله أمامنا بغير عائق» .

ويجد كارتر من الشواهد ما يدل على أن أجزاء من هذا الباب قد فتحت بعد ١٠ أو ١٥ سنة من وفاة الملك وأعيد إغلاقها مرتين فإن وجود خاتم الموتى يقطع بأنه وضع بعد اكتشاف السرقة .

فرح كارتر بذلك لأن فيه دليلا يساعده على اقتسام نصف الآثار طبقا للترخيص الذى أصدره ماسبيرو . . أما إذا كان القبر سليما ، فإن كل الآثار تضيع على كارتر .

تصرف كارتر بذكاء .

بعث بمذكرة مقتضبة إلى «مفتش الآثار» «ركس إنجلباك» يبلغه فيها أن كل شيء أعد لدخول المقبرة فى الصباح التالى .

ولم يرسل المذكرة إلى مقر إقامة المفتش إنجلباك . . بل أرسلها إلى مصلحة الآثار مساء حيث لا يوجد أحد .

* * *

انصرف العمال مساء ٢٦ من نوفمبر عام ١٩٢٢ بعد أن وجدوا الباب الثانى الذى يدل على أنه المدخل الحقيقى لمقبرة الملك توت .

وبقى كارتر واللورد وابنته وأحد المساعدين وهو كالندر .

أخذ كارتر عصا من الحديد وأخذ يدق بها على الباب .

قال كارتر فى كتابه :

جاءت اللحظة الحاسمة .

بأيد مرتعشة صنعت ثقبا صغيرا فى الزاوية العليا على يسار الباب . . . ظلمة وفضاء شامل فى المساحة التى يمكن أن يصل إليها قضيب حديدى نستخدمه فى

تحسس المكان . . هذه الظلمة والفضاء كشفا أنه بصرف النظر عما يوجد خلفهما . . فهو فراغ وليس مملوءا مثل الممر الذى فرغنا من تنظيفه .

لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى المنطقة فأمسكت شمعة أشعلتها .

تم تطبيق اختبارات كإجراء احتياطى ضد احتمال وجود غازات سامة .

وتم توسيع الثقب قليلا ، ودفعت الشمعة ، وأطللت برأسى .

فى البداية لم أر شيئا وتسرب هواء ساخن من الحجرة تسبب فى اهتزاز لهب الشمعة .

أما الآن ، وعيناى تتكيفان تدريجيا مع الضوء بدأت تفصيلات الحجرة فى الداخل تتضح ببطء بين الضباب . . حيوانات غريبة ، تماثيل وذهب .

فى كل مكان رأيت بريق الذهب .

وفى اللحظة الراهنة لابد أن يكون الخلود قد تجلى أمام الآخرين الذين وقفوا على مقربة من المشهد .

أصابنى الذهول بشلل فى لسانى .

وعندما عجز لورد كارنارفون عن تحمل الإثارة أكثر من ذلك سألنى فى قلق :

ـ هل تستطيع أن ترى شيئا؟

عجز لسانى إلا أن يقول :

ـ نعم ، أشياء مذهلة .

. . وعلى ضوء الشمعة المضطرب رأيت ما لم يره إنسان على امتداد ثلاثة آلاف وخمسمائة عام . إنه أعظم ما اكتشفه رجال الآثار .

كان يوم الأيام . أروع أيام حياتى . ولا أعتقد أنى سأراه مرة أخرى .

* * *

كان القبر على مسافة قريبة جدا من حفرة دافيز وعلى نحو متر واحد تقريبا من المنطقة التى توقف عندها كارتر قبل خمس سنوات .

لقد تعذب، وكان النجاح قريبا منه مرتين.

لقد انفتح أمامه أخيرا الكنز أو ـ كما قيل ـ كهف على بابا.

إنه أول من وجد قبرا ملكيا كاملا.

* * *

تسرب نبأ الكشف إلى الصحافة.

نشرت الأهرام صباح ٢٨ من نوفمبر:

«اكتشف اللورد كانارفون من أغنياء إنجلترا فى أثناء بحثه عن الآثار فى صحراء مقام الملوك فى الشاطئ الغربى للنيل بالأقصر، حفرة لملك من فراعنة مصر».

لم تهتم حكومة مصر بحفرة لفرعون قديم!

قالت صحيفة التايمس صباح يوم ٢٩ نوفمبر:

«كشف لورد كارنارفون ومستر هوارد كارتر أمام مجموعة كبيرة عما يبشر بأن يكون أشهر اكتشاف أثرى مصرى خلال القرن كله».

ووصف توماس هوفنج سر الكشف فى تلك اللحظة، قال:

«بعد سنوات محبطة من العمل العقيم أدى التوصل إلى أروع وأغرب اكتشاف فى تاريخ الآثار المصرية كلها إلى فورة حماس. وباستطاعة المرء تخيل الموقع: حجرة صغيرة مظلمة تضم مئات وآلاف من الأشياء يتكلف كل واحد منها موسما بأكمله ـ سبعة أشهر كاملة ـ من الحفر.. بيت كنوز من الأشياء الرائعة ـ الأثاث، والأعمال الفنية.. كانت المجموعة يتقمصها شعور يشبه الحيرة. لقد مر دهر قبل أن يقف إنسان آخر حيث كانوا يقفون وإن كان ذلك يبدو كما لو كان بالأمس فقط».

ويكفى أن نطالع ما كتبه شارلز بريستد فى صحيفة «شيكاغو ديلى نيوز» الأمريكية لنعرف أهمية الكشف. وهذا الصحفى هو ابن عالم الآثار المصرية الأمريكى البروفيسور جيمس هنرى بريستد.

قال:

«سأظل طول حياتى أتذكر صورة هذه المجموعة الصغيرة من الرجال وهم يقفون منتظرين بعيون لامعة، بينما كارتر يرتكن بيده اليسرى على الركن الأعلى من الرقعة البيضاء. وفجأة أزاحها، ومن خلال قضبان الصلب رأينا مشهدا عجبا.. مشهدا غير معقول.. من حكايات الجن.. حجرة مسحورة من دار أوبرا - من أحلام مؤلف موسيقى عظيم.

وقبالتنا كانت هناك ثلاث أرائك، كان الملك يتمدد عليها وكل ما حولها صناديق لحفظ النفائس وعلب للمجوهرات وأوان رخامية للزهور وكراسى ومقاعد محلاة بالذهب أكداس من ثروة الفرعون الذى مات منذ حوالى ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عاما قبل أن تولد كريت، وقبل أن تولد اليونان وقبل أن تجول روما فى خاطر. وقبل أن يبدأ أكثر من نصف تاريخ الحضارة.. فى الضوء المبهر فى قبالة حائط الحجر الجيرى الأبيض كانت تتألق ألوان جميع هذه الأشياء فى خفوت. مزيج من البنى والأصفر والأزرق والكهرمان والذهب والخمرى والأسود».

وقالت التايمس فى افتتاحيتها فى اليوم التالى إن كارتر وزملاءه شاهدوا ما لم تقع عليه عين منذ اثنين وثلاثين قرنا - تابوت ملك دفن قبل خمسمائة عام من أشعار هوميروس حينما كان أفراد شعب إسرائيل يعبدون عبدا فى مصر..

نشرت قرينة اللورد مقالا فى صحيفة «ويكلى ديسباتش» التى تصدر فى لندن تحدثت فيه عن تضحية كارتر بفنه كرسام للبحث عن القبر. وروت قصة الكشف فقالت إنها وزوجها اعتادا قضاء فصل الشتاء سنويا فى مصر للتنقيب وذلك منذ عام ١٨٩٨ باستثناء فصلين فقط وسنوات الحرب أيضا.

وقالت: «لا يستمتع بلذة الحفر إلا من كان هاويا للآثار وهو مثل البحث عن ماسة ثمينة تعلم أنها فى البيت ولكنك تقلب كل شىء رأسا على عقب وبعد أن تيأس تماما.. تجدها أمامك».

وقالت: «التنقيب عمل شاق للعمال الذين يحفرون من الفجر حتى الغروب فى الصخور والحجارة والرمال.. وهؤلاء الذين عرقوا يسعدهم هذا الكشف».

ولم تذكر السيدة المينا أن العامل كان يتقاضى ثلاثة قروش يوميا مقابل هذا العرق!

* * *

كان اللورد كارنارفون قد طلب إلى المارشال اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى إيفاد أحد رجال البوليس الحربى البريطانى إلى الأقصر لنقل خيمتين أخذهما اللورد من الجيش البريطانى ليجلس فيهما نهارا، لمراقبة العمال فى أثناء الحفر.

اختير جاويش اسمه ريتشارد أدامسون - ٢٥ سنة - للقيام بهذه المهمة لإبعاد أدامسون عن القاهرة.

وكان الجاويش يتولى حراسة متهم اسمه إبراهيم حسن مسعود كاتب حسابات اتهم بمحاولة اغتيال توفيق نسيم باشا رئيس وزراء مصر فى ١٢ من يونيو عام ١٩٢٠.

واستطاع الجاويش أن يستدرج الشاب وأن يعرف منه أسرارا كثيرة عن الجهاز السرى الذى يغتال البريطانيين والمتعاونين مع الإنجليز.

وقد صدر الحكم بإعدام الطالب المتهم فشنق. وخاف الإنجليز أن يتعقب الشباب الوطنى، الجاويش فأبعد إلى الأقصر فى مهمة مؤقتة.

وظن أدامسون أنه سيعود إلى القاهرة فى وقت قريب، ولكن عثر على المقبرة فطلب منه كارتر البقاء خارجها للحراسة.. طوال الليل.

ظن الجاويش أنه سيقضى أياما فى الأقصر ثم يعود إلى القاهرة. ولم يدرك أبدا أن حياته سترتبط بهذه المقبرة، وأنه سيقيم داخلها - وحده مع الآثار - أحيانا للحراسة. وأنه سيبقى ملازما لها عشر سنوات كاملة!

سأله كارتر:

- ماذا تطلب؟

أجاب:

- طعاما.. وفونجراف، وبعض الأسطوانات من فندق «ونتربالاس».

وأرسل له كارتر.. ما طلب..

وبدأت تدوى فى الوادى، لأول مرة منذ آلاف السنين، الموسيقى الصاخبة!

التسلل.. خلسة !

فى مذكرات كارتر وأحاديثه قال إن المكتشفين الأربعة ظلوا يسلطون الضوء على قطعة أثرية بعد أخرى. فشاهدوا على الحائط آثارا تدل على وجود باب مغلق، وإنهم انسحبوا بعد ذلك وغادروا المنطقة كلها وعادوا إلى الأقصر. ليكتب رسالة إلى «إنجلباك» مفتش آثار الوجه القبلى ليشهد عملية دخول المقبرة طبقا لترخيص التنقيب.

وروى قصة تلك الدقائق السحرية فقال إن الأربعة ظلوا ساعات طويلة خلال الليل يتجادلون حول الباب الجديد وما يمكن أن يكون وراءه ويتساءلون:

ـ ترى هل وصل اللصوص إلى حجرة الدفن نفسها.

وقال إنهم لم يناموا إلا قليلا.

* * *

كان إنجلباك فى مهمة بقنا ولذلك تخلف عن الحضور فى اليوم التالى، وجاء بدلا منه موظف صغير فى مصلحة الآثار اسمه إبراهيم حبيب أفندى.

ولكن الشكوك ثارت فى نفس إنجلباك لهذه الخدعة، إذ المقرر أن يحضر ممثل لمصلحة الآثار افتتاح أية مقبرة.

أسرع إلى الأقصر بعد أن تلقى رسالة كارتر وهبط إلى منطقة الحفر فى وادى الملوك.

وجد فجوة فى الباب الخارجى.

أسرع إلى كارتر قائلا:

ـ هذا خرق للعقد .

حاول كارتر أن يتخلص من المسئولية قائلا :

ـ لقد أحدثنا فتحة صغيرة فقط لننظر منها إلى الداخل . ولم يتم المساس بالأختام في أعلى الباب .

قال إنجلباك :

ـ ولكن أحد الأختام الموجودة على الركن الأسفل نزع وأعيد لأنه لم يتلف .

لم يرد كارتر .

رأى إنجلباك أن يكتفى بهذه الملاحظة ولا يفعل شيئا آخر .

ولكنه أبلغ شكوكه إلى ويجين السكرتير بدارالمندوب السامى عندما التقيا يوم ٧ من فبراير ١٩٢٣ فى الأقصر .

وسجل ويجين شكوك إنجلباك فى مذكرة رسمية تضمنت نص الحديث وهى محفوظة بمركز الوثائق البريطانية فى منطقة حدائق كيو بضواحى لندن .

وفسر ويجين عدم قيام إنجلباك باتخاذ عمل حاسم بأنه لم ينظر إلى الأمر على أنه تم دخول المقبرة والاستيلاء على بعض ما فيها من آثار بل ظن أن ما جرى هو مجرد استخفاف شخصى به .

وقدر ويجين حقيقة المشكلة بأنها تكمن فى نزعة الغيرة الشريرة بين الأثريين . أى بين كارتر وإنجلباك .

وقد تكون هناك غيرة بين الأثريين .

ولكن الحقيقة أن إنجلباك كان غيورا أيضا على آثار مصر .

* * *

إنه مهندس بريطانى لعبت المصادفة دورا مهمّا فى حضوره إلى مصر .

جاءها للنقاهة مثل كارنارفون عام ١٩٠٩ وعمره ٢١ عاما فعشق الآثار وقرر الإقامة بمصر ودرس الهيروغليفية والقبطية والعربية .

عمل مساعدا للأستاذ بيرتى فى بعض حفائره. وجند فى الحرب العالمية الأولى ثم أرسله اللورد اللنبى إلى سوريا وفلسطين لدراسة المواقع الأثرية.

واختير عام ١٩٢٠ مفتشا للآثار فى الوجه القبلى.

وفى عام ١٩٣١ اختير أمينا للمتحف المصرى وبقى فى هذا المنصب عشر سنوات حتى استقال. وقد استطاع أن يضع سجلا لمائة ألف قطعة من الآثار يضمها هذا المتحف. وعاش إنجلباك حتى سن الثامنة والخمسين.

وفى تقرير ويجين سكرتير دار المندوب السامى عن إنجلباك عام ١٩٢٣ قال ويجين:

«ذهلت لمقدرة إنجلباك وحماسته فى علم الآثار وهو غيور على مهنته».

ولكن الغيرة لم تكن ـ وحدها ـ مصدر شكوك إنجلباك فى كارتر.

وكانت الحقيقة شيئا آخر غير ما ذكره كارتر!!

فى مذكرات ميرفن هربرت ـ وهو أخ غير شقيق للورد كارنارفون ـ قال إن إيفلين ابنة اللورد قالت له إنها وأباها، ليلة الكشف، دخلا الحجرة الثانية من حجرات المقبرة ـ حجرة الدفن ـ وإنهما فتحا ثقبا فى جدار المقبرة، قاما بسده بعد ذلك.

وروت إيفلين «لعمها»: «إن العمال يعرفون ذلك ولكنهم لن ينطقوا بحرف».

وقالت المذكرات أيضا إن اللورد كارتر كان عصبيا للغاية يوم افتتاح غرفة الدفن خوفا من اكتشاف الثقب. وبدا اللورد كتلميذ صغير.

وروى هذه الحقيقة أيضا توماس هوفنج بالوثائق والمستندات فى كتابه «توت عنخ آمون: القصة التى لم تنشر من قبل».

وتوماس هوفنج عمل بمتحف المتروبوليتان أكثر من ستة عشر عاما. وكان مديرا له عشر سنوات.

وهو الذى نظم عرض ٥٥ قطعة من آثار الملك توت عنخ آمون فى ٦ مدن بالولايات المتحدة عام ١٩٧٧ بمناسبة مرور ٥٥ عاما على اكتشاف المقبرة.

وقد رغب فى معرفة دور متحف المتروبوليتان ومساعداته لكارتر فى تصوير، وترميم، وحفظ، ونقل، الآثار فاطلع على كل أوراق المتحف ومستنداته فاكتشف دور المتروبوليتان فى شراء آثار الملك الفرعونى التى سرقها اللورد أو كارتر أو الاثنان معا.

ورأى هوفنج أن ينشر قصة السرقة فى التقويم ـ الكاتالوج ـ الذى يعده المتحف للقطع الـ ٥٥ التى جاءت من مصر ليضاعف الدعاية للمتحف ولأن الحقيقة لابد أن تقال ولأنها مشوقة ومثيرة!

ولكن مجلس الإدارة رفض ذلك بالإجماع.

وقد استقال هوفنج من منصبه، وأسس شركة مع زوجته ثم ألف كتابه عن توت عنخ آمون وعرضه على أشتون هوكنز نائب رئيس مجلس إدارة المتحف للشئون القانونية فوافق على النشر فصدر الكتاب فى العام التالى.

وقد اختير هوفنج عام ١٩٨١ رئيسا لتحرير مجلة «كونويسير» الأمريكية الشهيرة.

قابلته فى مكتبه بالمجلة فقال لى إن متحف المتروبوليتان يضم أكثر من ٣٥ ألف قطعة من الآثار المصرية بعضها، سرق، وهرب من مصر.

انتقل هوفنج إلى لندن وقرأ مذكرات هوارد كارتر التى كتبها فى ٣ مجلدات بخطه وهى تتضمن قصة هذا الاكتشاف المهم، والوحيد، فى حياته.

وتوقف هوفنج عند لقطة واحدة، أو عبارة واحدة جاءت فى مذكرات كارتر:

قال كارتر: «إنه عندما فتح باب المقبرة وأطل عليها.. أغلقها ثانية حتى الصباح التالى حتى لا يدخل المقبرة وحده.. بل ليكون فى صحبته مفتش من مصلحة الآثار».

وقال هوفنج: «إنه شك فى صدق هذه الكلمات لأنه ـ أى هوفنج ـ كان ينقب عن الآثار فى جزيرة صقلية عندما وجد ألف قطعة أثرية فى بطن الأرض فلم يتمالك نفسه وأخذ يزيل التراب بيديه العاريتين ليرى الآثار».

وفى هذا الكتاب قال توماس هوفنج إن هوارد كارتر كان صادقا فى شىء واحد وهو أنهم لم يناموا إلا قليلا . . أما فيما عدا ذلك فإن ما قاله كارتر كان أكذوبة ضخمة لأن الثلاثة أمضوا الليلة كلها داخل المقبرة!

* * *

صور هوفنج ما جرى فى تلك الليلة داخل المقبرة على نحو ما استخلصه من روايات ومستندات كثيرة .

وطبقا لرواية هوفنج فإن مجرى الأحداث كان على النحو التالى :

أخذ اللورد كارنارفون يدفع كارتر ويجذبه قائلا :

ـ دعنى ألقى نظرة .

ولكن كارتر لم يتحرك . . تجمد فى مكانه أمام الثقب .

وأخيراً انتزعه كارنارفون من مكانه كما تنتزع «الفلة من الزجاجة» وأخذ اللورد ينظر إلى الحجرة وبعده الليدى إيفلين ، وأخيرا بيكى كالندر الأثرى البريطانى مساعد كارتر .

إن المكتشفين الأربعة لم يصدقوا عيونهم . . وشعروا بالحيرة لأنهم اخترقوا محرابا أغلق ٣٠٠٠ سنة .

وبدأ كارتر يزيد الثقب اتساعا بينما أسرع مساعده كالندر ليأتى بمصابيح كهربائية .

ومن المؤكد أن «كارتر وكارنارفون» لم يصدقا أنهما سيعثران على كل تلك الاكتشافات داخل الحجرة الصغيرة التى بدت كأنها متحف كامل امتلأ بالكنوز .

وربما يكون اللورد هو الذى أقنع كارتر بإزاحة بعض الحجارة ليتسنى لهم الدخول .

وربما تكون إيفلين هى التى ألحت على كارتر .

إن أحدا لن يعرف هذه الحقيقة أبدا . .

إن اللورد كتب مقالا ـ لم ينشر ـ ذكر فيه أن كارتر أوجد فتحة تتسع لدخولهم إلى المقبرة بصعوبة .

دخلت إيفلين أولا لصغر حجمها وتبعها الباقون .

ويستطيع الإنسان أن يتخيل القصة . .

مئات ومئات الأشياء كل منها يساوى موسما كاملا من الحفر سبعة شهور كاملة .

إن هذا الكشف كان مفاجأة سعيدة بعد سنوات من اليأس والاكتئاب والمواسم العارية منذ عام ١٩٠٧ حتى عام ١٩٢٢ .

إن مساحة الحجرة ١٢ قدما عرضا و٢٦ قدما طولا وارتفاع السقف ٧ أقدام ونصف قدم .

إن عصورا مرت دون أن تطأ قدم إنسان المكان الذى يقفون فيه الآن . . ومع ذلك يبدو الأمر كما لو كان بالأمس فقط .

لقد تحققوا أنهم صنعوا تاريخا ، وأنهم على وشك حل أكبر لغز فى علم الآثار وتاريخها كله . . بالإضافة إلى التوتر الذى أصابهم باعتبار أنهم صائدو كنز . . وكانوا أيضا خائفين أن يضبطوا متلبسين .

باختصار كانوا فى حيرة . . إنهم علماء . . ويجب أن يكونوا حذرين . . ولكنهم لا يستطيعون مقاومة إغراء جمع هذه التحف .

لقد أحسوا أنهم اقتربوا كثيرا من مشاعر قدامى اللصوص الذين سرقوا مقابر الفراعنة من قبل .

فتنتهم رائحة القبر . . العطور القديمة والزيوت . . ورائحة الأخشاب والورود التى احتفظت بأوراقها . . وأمامهم كل شىء . . التماثيل والمقاعد . . والسلال ، والمصابيح ، والذهب ، والمجوهرات . . والقلادات ، والأوانى ، وكل شىء .

دخل كارتر الممر . . ثم إلى حجرة الدفن حيث تابوت الملك .

وأخذ الجميع ما أخذوه من القبر وأغلقوه ثانية، ثم عادوا إلى الأقصر على ظهر الحمير . . صامتين .

* * *

وهكذا ينتهى هوفنج إلى نتيجة مهمة، وهى أن كارنارفون وابنته وكارتر سرقوا فى تلك الليلة بعض آثار مقبرة توت عنخ آمون .

ولكن ما الدليل؟

* * *

إن آثار توت عنخ آمون ظلت تشد انتباه العالم منذ عام ١٩٢٢ حتى اتخذت مصر خطوة مهمة بنقل بعض هذه الآثار لتعرض فى الخارج وتراها الشعوب .

وقد عهد إلى توماس هوفنج عرض هذه الآثار فى المدن الأمريكية . ومن هنا كان اتصاله بالملك توت .

. . بدأ توماس هوفنج يفتح الصناديق القادمة من مصر ليكتشف صدفة عجيبة . . أوعدة صدف .

وجد بعض آثار توت . . تشبه مجموعة من الآثار المحفوظة بمتحف المتروبوليتان . . ولا خلاف بينهما أبدا . .

أخذ الرجل يشك . . ويقارن . . ويصور .

وحتى يزيح الشك أخذ يفحص كل الأوراق والمستندات والعقود الخاصة بالآثار الموجودة فى نيويورك .

ومع كل ورقة بدأ الشك يتضاعف .

وجاء هوفنج إلى مصر ورأى الـ ٥٠٠٠ قطعة من آثار توت عنخ آمون المحفوظة فى المتحف المصرى . كما شاهد المقبرة فى الأقصر .

ومن هذه البداية كان البحث والتنقيب الذى أوصله إلى حقيقة مهمة وهى أن مساعدا لوزير الخارجية الأمريكية فى السنوات من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٤ كان مهتما بأمور المتحف المصرى .

وهذا المساعد هو «ألن دالاس» الذى أصبح بعد ذلك مديرا للمخابرات الأمريكية وهو شقيق «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكى الشهير الذى سحب تمويل السد العالى عام ١٩٥٦ .

وطلب قراءة المجلدات المحفوظة فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك وفيها كل الوثائق الخاصة بآثار توت عنخ آمون .

ولكن قيل له :

ـ لا تطالع هذه المجلدات . . إنها خاصة بلعنة الفراعنة . . وقد تصيبك !

ولكنه وجد أن المجلدات تضم المراسلات ، والصور ، والأكاذيب ، التى أحاطت بعملية شراء متحف المتروبوليتان لآثار توت عنخ آمون .

* * *

وهناك أدلة أخرى على أن كارتر دخل المقبرة ليلا :

الدليل الثانى يوجد فى ٣ مقالات نشرت فى المجلة العلمية لمصلحة الآثار المصرية ابتداء من عام ١٩٤٢ بواسطة الفريد لوكاس وهو بريطانى جاء به المرض أيضا إلى مصر مثل اللورد كارنارفون ، فإن مصادفات كثيرة كانت وراء اكتشاف قبر توت عنخ آمون وترميم آثاره !

. . . ظل الفريد لوكاس ٨ سنوات يعمل مساعداً كيميائيّا فى معامل لندن الحكومية حتى أصيبت رئته فنصحه الأطباء بالسفر إلى القاهرة ليكون كيميائيا بمصلحة الآثار ومديرا لمعامل مصلحة المساحة .

كتب ونشر ٦٥ بحثا عن الآثار المصرية .

وكان لوكاس قد حصل على إجازة مدتها ثلاثة شهور قبل الإحالة إلى المعاش فتفرغ للعمل مع كارتر فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٢٢ ، بعد شهر من اكتشاف المقبرة . وظل ١٠ سنوات يقوم بالعبء الأكبر فى ترميم الآثار والمساعدة فى نقلها سليمة من وادى الملوك إلى المتحف بالقاهرة .

وقد مات لوكاس فى سن الثامنة والسبعين .

ولكن لوكاس كتب ٣ مقالات فى مجلة مصلحة الآثار المصرية يرد بها على مذكرات كارتر ومجلداته . . بعد وفاة كارتر .

قال لوكاس :

إن كارتر كتب يقول إن لصوص مقابر الفراعنة تسللوا إلى المقبرة . . وهناك سر غامض يحيط بهذه العملية .

عندما دخلت الحجرة لأول مرة يوم ٢٠ من ديسمبر ١٩٢٢ لاحظت طريقة إخفاء الثقب الذى قيل إن اللصوص تسللوا منه . . إن اللورد كارنارفون وإيفلين وكارتر دخلوا هذه الحجرة . . يقينا قبل افتتاحها الرسمى الذى تم بعد ٣ أيام . . أى فى ٢٩ من نوفمبر .

إن الثقب فى حجرة الدفن ليس مشابها للثقب فى الباب الأول . . ولا يوجد ما يقطع بأن موظفى المقابر الرسميين فى عهد الفراعنة هم الذين أعادوا إغلاق الثقب بعد أن اكتشفوا وصول اللصوص إليه .

وقد أشرت إلى ذلك فى حديث مع كارتر بعد انضمامى للبعثة فاعترف لى أنه فتح حجرة الدفن .

وفى عدد آخر من المجلة كتب يقول لوكاس إنه «رأى صندوق العطور فى بيت كارتر قبل افتتاح حجرة الدفن . . وقد أعاده كارتر إلى حجرة الدفن بعد افتتاحها رسميا وسجل بين آثارها» .

ويقول هوفنج إن السبب فى عدم اهتمام أحد بالمجلة العلمية لمصلحة الآثار المصرية يرجع إلى عدم رغبة العلماء فى هدم سمعة هوارد كارتر ولأن المجلة مجهولة لا يدرسها إلا أساتذة الآثار المصرية . . أو ربما لم يصدق العلماء أن مثل هذا العمل يحدث عام ١٩٢٢ ويعترف به أحد المشاركين فيه بعد ربع قرن كامل .

وفى المجلد الأول لكارتر عن قبر توت عنخ آمون . . يقول «إن المجموعة ـ أى كارتر واللورد وابنته والمساعد كالندر ـ توجهوا إلى القبر فى ساعة مبكرة من صباح ٢٧ من نوفمبر أيضا» .

وعندما جاء موظف مصلحة الآثار ـ إبراهيم أفندى حبيب ـ كانت آثار اقتحام المجموعة للمقبرة قد أخفيت أو أزيلت تماما .

والدليل الثالث مقال كتبه اللورد كارنارفون لصحيفة «صان» ـ الشمس ـ البريطانية ولم ينشر ، وجده هوفنج فى أوراق اللورد .

فى هذا المقال يروى اللورد دخول أو اقتحام الحجرة وما رآه فيها .

وهناك دليل رابع :

رسالة كتبتها الليدى إيفلين ـ ابنة اللورد كارنارفون ـ إلى كارتر يوم ٢٧ من ديسمبر ١٩٢٢ أى بعد ٣١ يوما من دخول المقبرة .

فى هذه الرسالة المحفوظة قالت الليدى الشابة ـ التى فتنت بكارتر ـ كلمات إعجاب ضخمة وقالت إنه عندما يعاود المرض أباها تعيد له قصة دخول المقبرة ليلا : وكيف سمح لها كارتر بذلك ، وهذا هو الحادث الوحيد الذى لا يمكن أن ينساه أبدا .

ومن سطور الرسالة يتضح غرام الشابة المؤقت بالأثرى القديم . . وكانت إيفلين فى العشرين . . وكارتر فى التاسعة والأربعين .

وفى يوميات مرفين هربرت ، يصف شقيقه اللورد ، قال إن الليدى إيفلين ابنة اللورد كارنارفون اعترفت له بأنها وأباها وكارتر دخلوا الحجرة الثانية للمقبرة ، أى حجرة الدفن ، بعدما اكتشفا أنهما لا يستطيعان مقاومة ذلك . وقد أحدثا ثقبا صغيرا فى الجدار ، قاما بسده بعد ذلك ، ومروا من خلاله ، وكانت العملية غاية فى الإثارة .

وهناك دليل خامس على دخول الأربعة المقبرة ليلا .

سافر اللورد كارنارفون ـ فى ديسمبر ـ إلى لندن ـ بعد إعلان الاكتشاف فاستقبل كالفاتحين لأنه بعد ١٦ سنة من البحث استطاع الوصول إلى قبر سليم لأحد فراعنة مصر .

وبعد يومين من وصول اللورد إلى لندن استقبله ملك بريطانيا جورج الخامس فى قصر باكنجهام .

وبعد المقابلة صرح المتحدث الرسمى باسم القصر « إن اللورد أبلغ صاحب الجلالة أنه سيكتشف جثمان الملك بعد فتح التابوت» .

ولم تكن حجرة الدفن التى يوجد بها التابوت قد فتحت بعد، مما يثبت أن اللورد دخل الحجرة الأولى . . وحجرة الدفن الملكية أيضا ! . . بل إن اللورد صرح للصحافة البريطانية بأن مومياء الملك ستبقى فى مكانها داخل المقبرة ! !

كان عبد الخالق ثروت يرأس الوزارة . ويتولى حسين واصف باشا منصب وزير الأشغال .

وكان ثروت باشا مهتما بإصدار الدستور . أما الملك أحمد فؤاد فيجد أن هذا الدستور يحد من سلطاته .

ومن هنا بدأ الملك يضيق بثروت باشا «ويختلق» الفرص للتخلص منه .

نقلت إلى صاحب الجلالة إشاعة تقول إن رئيس وزراء مصر على اتصال بخديو مصر السابق عباس حلمى الثانى الذى خلعه الإنجليز عن العرش عام ١٩١٤ . ولا يزال هذا الخديو يرى أنه أحق بالعرش وأولى .

وأخذت الصحف تنشر الإشاعة ليعلم رئيس الوزراء أن الملك غاضب منه .

ولم يجد عبد الخالق ثروت باشا بدا من الاستقالة فقدمها يوم ٢٩ من نوفمبر ١٩٢٢ . وهو اليوم الذى اختاره اللورد كارنارفون موعدا لافتتاح المقبرة .

ولذلك لم توجه الدعوة لرئيس وزراء مصر أو وزير الأشغال حسين واصف باشا الذى شغل المنصب عشرة شهور فقط لاستقالتهما .

ووجهت الدعوة للورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر فيعتذر عن عدم الحضور دون أن يذكر السبب وهو أن أية أزمة وزارية تلزم المندوب السامى البريطانى البقاء فى القاهرة ليتابع الأحداث ويكون له رأى فى تشكيل الوزارة الجديدة .

وتحضر قرينة اللورد اللنبى وحدها حفل الافتتاح مع عدد محدود من الشخصيات المحلية بينهم عبد العزيز فهمى مدير ـ محافظ ـ قنا، وكين بويد مدير

الإدارة الإفرنجية بوزارة الداخلية ومحمد بك فهمي مأمور مركز الأقصر الذى عين قوة حراسة المكان.

* * *

لم تبلغ مصلحة الآثار بموعد الافتتاح.

ولم توجه الدعوة إلى بيير لاكو مدير مصلحة الآثار، وبول توتنهام مستشار وزارة الأشغال للشئون الثقافية والأثرية.. يوم الافتتاح بل فى اليوم التالى ٢٠ من نوفمبر.

وربما يكون السبب فى عدم توجيه الدعوة للاكو وزميله إهمالا. وربما يكون السبب أن كارنارفون وكارتر يعتبران المقبرة.. مقبرتهما، لأنهما صاحبا الكشف وهما اللذان مولا العملية.. ووصلا إلى هذه النتيجة بجهدهما.. وحدهما.

وتجاهل الرجلان صحافة مصر كلها.. وصحافة الدنيا كلها ووجها الدعوة لصحفى واحد فقط لحضور حفل الافتتاح ودخول المقبرة.. وهذا الصحفى هو آرثر ميرتون مراسل صحيفة «التايمس» البريطانية فى مصر وصديق كارتر.

ونشرت «التايمس»، وحدها دون صحف العالم، نبأ اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون.

وقالت إنها أحرزت هذا السبق الصحفى «بعداء جرى من وادى الملوك إلى مقر مكتب التلغراف التابع لشركة إيسترن بالأقصر».

وقال ميرتون إنه: «أهم اكتشاف مثير فى القرن العشرين» وأعظم اكتشاف أثرى مصرى «وأن الآثار تقدر بملايين الجنيهات».

وأذاعت وكالة الأستوشيتدبرس للأنباء على العالم فى اليوم نفسه ٢٥٠ كلمة قالت فيها نقلا عن جريدة التايمس البريطانية إن هوارد كارتر اكتشف بعد ٧ سنوات من الحفر والتنقيب فى وادى الملوك قبر الملك توت عنخ آمون.

* * *

نشرت صحيفة التايمس البريطانية النبأ فى الصفحة رقم ١١ وهى صفحة الأخبار المهمة، فإن التايمس كانت تخصص الصفحة الأولى للإعلانات الصغيرة، أو ما يسمى فى مصر الإعلانات المبوبة!

ولم تنشر «التايمس» الأنباء فى الصفحة الأولى إلا ٣٢ مرة فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فى مناسبات قومية مثل انتصار بريطانيا فى معركة الطرف الآخر بقيادة نلسون ضد نابليون فى ٧ من نوفمبر ١٨٠٥ وفى أثناء الحرب العالمية الأولى وبالذات أيام الآحاد.

وجرت صحف لندن على هذه القاعدة.

ولكن «الديلى تلجراف» نشرت الأنباء فى الصفحة الأولى عام ١٩٣٩ و«الجارديان» سنة ١٩٥٢، أما «التايمس» فقد نقلت الأخبار إلى الصفحة الأولى بدلا من الإعلانات ابتداء من ٣ من مايو عام ١٩٦٦.

أما صحيفة «نيويورك تايمس» التى نقلت نبأ الكشف عن التايمس البريطانية فإنها نشرته فى الصفحة الأولى.

* * *

حققت برقية «التايمس» إثارة لم تهدأ أبدا، ولم تتوقف قط!

وأقامت حاجزا من العداء بين كارنارفون ومصلحة الآثار المصرية وصحافة العالم، ولم يستطع المليونير والأثرى هدم هذا الجدار فقد نشرت بعض الصحف المصرية والعالمية أن مصلحة الآثار عرفت نبأ الكشف من الصحف!!

* * *

ولم تعرف صحافة مصر تفصيلات الكشف التى انفردت بها التايمس.

نشرت صحيفة «الأهرام» المصرية فى ٣٠ من نوفمبر ١٩٢٢. أنه وجدت فى المقبرة أشياء أثرية عظيمة لا تقدر بمال.. لملك عرف أن اسمه «تهوتان» من ملوك الأسرة الثامنة عشرة أو «تويتان خيمن» يقصد مراسل الصحيفة توت عنخ آمون.

ويقال إن قيمة هذه الآثار التاريخية تقدر بثمانية ملايين من الجنيهات تقريبا.

* * *

أوفدت الصحف المصرية مندوبيها من القاهرة لمتابعة الكشف فكتبوا يقولون: «لم ندخل المقبرة»!

ونقلت صحافة القاهرة الأنباء من الذين دخلوا المقبرة سواء كانوا المدعوين الرسميين أو العمال.

وقالت إنه تم اكتشاف ملك وملكة وابنهما.

ورددت الصحف مرة أخرى اسم الملك بأنه «تويتان خيمن».

وقال مراسل مصرى فى قنا إنه يلفت نظر الرأى العام لذلك ويطلب من الحكومة أن تنتدب مندوبين لحصر الكنز والاستيلاء عليه لأنه يقدر بملايين عديدة من الجنيهات.

وتدفق الصحفيون الأجانب على الأقصر يريدون نصيبهم من أخبار المقبرة!!

ولكن اللورد كارنارفون منع رجال الصحافة وكبار أعيان الأقصر وبعض الموظفين من مشاهدة الكنز الأثرى الأعظم ميراث أجدادهم!!

* * *

فى اليوم نفسه الذى أعلن فيه الكشف أعدم فى اليونان خمسة من رؤساء الوزارات السابقين وأحد الجنرالات بتهمة الخيانة العظمى.

وكان الاتهام الحقيقى الموجه إليهم أنهم المسئولون بأعمالهم، عن انتصار الأتراك على اليونان.

وتدخل الوزير البريطانى المفوض لدى حكومة اليونان لمنع الإعدام ولكن رفض تدخله فقطعت بريطانيا علاقاتها باليونان.

ونصح القائم بالأعمال الأمريكى حكومة اليونان، ولكن أحدا لم يستمع لنصيحته.. وكان القائم بالأعمال الأمريكى شابا اسمه جيفرسون كافرى الذى أصبح سفيرا للولايات المتحدة فى مصر عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

ولم يستطع الملك جورج ملك اليونان وقف تنفيذ أحكام الإعدام فطلب الرحيل من بلاده ولكنه أسر داخل قصره.

ورغم خطورة هذه الأحداث وأهميتها لأوروبا وأمريكا فإن نبأ اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون غطى على أخبار اليونان.

وتراجعت أنباء عالمية مهمة وقعت فى ذلك اليوم مثل مظاهرات الهند، والثورة فى أيرلندا، والصراع داخل الكرملين، ومعارك العرب والصهاينة فى فلسطين والحرب الأهلية فى الصين وأزمة وزارة البرتغال، وضعف الفرنك الفرنسى، وإدانة ناشر صحفى أمريكى لأنه أعلن عن كتاب لتنظيم النسل.. واعتبار نظرية داروين غير شرعية وغير قانونية فى ولاية فلوريدا.

وكلما توالت أنباء الكشف غطت أخبار المقبرة على أحداث عالمية كبرى شهدها العالم فى ذلك العام مثل زحف موسولينى على روما، وتشكيل حكومة فاشية، وإعلان مصطفى كمال للجمهورية التركية واستقالة رئيس بولندا، واغتيال الفيلد مارشال البريطانى السير هنرى ولسون وإعلان قيام اتحاد الجمهوريات السوفيتية وقيام جمهورية أيرلندا الحرة وإعدام واحد من أشهر سياسييها وكتابها وهو أرسكين تشيلدرز.

إن الفرعون المصرى الذى رحل قبل ٣٠٠٠ عام جعل مصر تزحف إلى الصفحة الأولى من صحف العالم وفرض اسمها على الدنيا التى أصبحت تهتم بمقبرة بمدينة الأقصر بصعيد مصر دفن فيها توت عنخ آمون.

صاحب الجلالة !

ركزت الصحف المصرية - فى صفحاتها الأولى - اهتماما بالغا بالتاريخ المصرى القديم.

ونشرت الصحف العالمية حكايات كثيرة عن مصر القديمة وحضارتها العظيمة المستمرة وأهمية طيبة، أو الأقصر، لأن معظم الآثار المصرية الخالدة وجدت فى مدينة الموتى أو «وادى الملوك» بينما خلف المصريون القدماء قليلا من آثارهم فى منفيس.. «ميت رهينة».

* * *

عرف المصريون الاستقرار السياسى منذ توحدت بلادهم فى عهد مينا عام ٣١٠٠ قبل الميلاد باستثناء فترتى انتقال.

الأولى استمرت حوالى ١٢٨ سنة فقد انقسمت البلاد إلى أقاليم تحكم محليا.

وفى بعض هذه السنين وجد ٧٠ ملكا حكموا سبعين يوما!

أما فترة الانتقال الثانية فقد دامت حوالى ٢٤١ عاما..

وخلال هذه الفترة احتلت مصر بحكام أجانب هم الهكسوس.

وكان الهكسوس قد تغلبوا على جيش مصر باختراعين حربيين جديدين فى ذلك الحين: العجلة، والسهام المركبة.

وجاءت المملكة المصرية الحديثة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة التى ينتمى إليها توت عنخ آمون.

كان عدد سكان مصر مليونى نسمة.

ومتوسط عمر الفرد ٣٠ سنة.

وعرف الشعب بالنظافة. الفرد، وحتى الفقير، يستحم مرة واحدة فى اليوم، ولو بإلقاء نفسه سابحا فى النيل والكاهن يستحم ٤ مرات.

وكان الناس يطلقون على مصر «الأرض السوداء» إشارة إلى تلك الرقعة الضيقة المزروعة التى امتدت على جانبى نهر النيل.

وتميزت مصر، عن غيرها من البلاد، بأن المرأة تكاد تتساوى بالرجل فى المركز الاجتماعى وفى كل الحقوق.

أجورهما متساوية.

ولها حق التصرف فى أملاكها بالبيع والشراء وإقامة الدعاوى.

وكانت الزوجة تلقب بسيدة البيت وبالأخت تعبيرا عن المحبة.

وكان ملوك مصر القدامى يتزوجون بناتهم، والأخ يتزوج أخته، للاحتفاظ بنقاء دم الآلهة كما يرون، لأن الملوك جميعا من الآلهة.

ولكن الملك لا يتزوج بأمه.

حكمت الأسرة الثامنة عشرة مصر فى القرن الخامس عشر نحو ٢٥ سنة.

بدأت عام ١٥٥٥ ق. م.

انتهت عام ١٣٠٤ قبل الميلاد.

وكان عدد ملوك هذه الأسرة ١٤ ملكا بدأت بالملك أحمس الذى طرد الهكسوس، وحرر مصر من الاحتلال.

ولكن أحمس استطاع تدريب المصريين على استعمال السهام المركبة والعجلات الحربية وزود الجيش بوحدات من العجلات الحربية يجيد جنودها استعمال السهام الجديدة. وقسم جيش المشاة إلى ٢٥ وحدة تضم كل منها مائتين من الجنود. وأصبح للجيش قيادتان إحداهما فى منفيس والأخرى فى طيبة.

وخلال المائة والخمسين عاما الأولى من حكم هذه الأسرة، تحققت انتصارات

عسكرية مدوية وتوسعت الإمبراطورية المصرية على يد ملوك محاربين عظام . . واستمرت هذه الإمبراطورية ٨٤٣ عاما . . أى بعد الأسرة الثامنة عشرة!

أحمس قاد ٣ حملات فى النوبة .

وأمنحتب قام بحملات ضد الليبيين والآسيويين .

وتحتمس الأول قاد الجيوش المصرية فى النوبة ، وفلسطين ، وسوريا ، ووصل بها إلى نهر الفرات .

والملكة حتشبسوت أشهر ملكة مصرية فى ذلك العصر شهد حكمها ٤ حملات إحداها ضد النوبة .

أما أشهر ملوك تلك الأسرة فهو تحتمس الثالث الذى حكم مصر نحو ٤٦ سنة وحارب الآسيويين وانتصر عليهم ١٧ مرة وامتد نفوذه إلى ملك آشور وبابل والحيثيين فى آسيا الصغرى وأخضع هذه الدول له ثم السودان .

وعين أمراء جددا على ممتلكات مصر الجديدة ، وجاء بأبنائهم وأشقائهم إلى مصر ليتعلموا ، فإما أن يحبوا مصر ، أو يصبحوا ـ بطريقة غير مباشرة ـ رهائن .

وقد سماه المؤرخون المعاصرون بأنه شبيه نابليون ؛ فقد اتبع أسلوبه فى حملاته فى كل مكان . يصحب معه الكتاب والرسامين والعلماء والمهندسين يسجلون كل جديد من نباتات وحيوانات وأبنية . وكان معه مراسلون يسجلون المعارك خطوة بخطوة ، وقد أخضع النوبيين فى الجنوب والآسيويين فى الشمال والشرق ، والليبيين فى الغرب ، وبعض جزر البحر المتوسط . . أيضا .

وأقام ملك آخر هو أمنمحات الثالث منطقة عازلة من حلفائه تفصل بينه وبين أعداء مصر .

وأصبحت طيبة أشهر مدينة فى العالم القديم ، ومصر أول إمبراطورية .

* * *

فى عهد هذه الأسرة شاع الرخاء ؛ كان الذهب كالتراب من المناجم ، فى مصر والنوبة . وكان الملوك يقومون بتخزين الذهب ويستوردونه أيضا ويطلبونه من أعدائهم فدية وجزية ويمدون به حلفاءهم .

ولم يكن معروفا قيمة واردات مصر فمعظمها يصل مصر تقربا وخوفا.

وكان مظهر الرخاء واضحا فى المعابد الكبيرة، والتماثيل الضخمة، التى بنيت فى عهد هذه الأسرة.

ولم يتميز عهد هذه الأسرة بالانتصارات العسكرية فحسب. ففى زمنها تحققت أول حركة للإصلاح الدينى، وأول محاولة للتوحيد فى العالم القديم!

تولى أمنحتب الرابع الذى عرف باسم إخناتون ملك مصر وحكم ١٧ سنة.

لم يكن حاكما إداريا أو قائدا عسكريا بل كان شاعرا حالما، اتهم بأن به مسا من الجنون. تزوج فى سنة حكمه الأولى من نفرتيتى.

* * *

كانت الوحدانية معروفة فى مصر منذ البداية، يؤمن بها كل متعلم.

وكان كل حكام المصريين يؤمنون بتعدد الآلهة. عدا واحد فقط، إخناتون ومعناه «المفيد لاتون» أو «سرور آتون».

وكانت لدى أبيه، من قبل، مجرد ميول نحو التوحيد، ولكن أمنحتب الرابع صمم على أن يحقق الثورة الدينية التى بدأها أبوه على نطاق ضيق جدا. ألغى الديانة القديمة (آمون)، وأغلق معابد آمون، ومحا اسمه من الآثار.

وبدلا من مجمع الآلهة الذى كان قائما، أمر بعبادة إله واحد فقط، هو آتون إله الشمس. لذلك اعتبرت حركته للإصلاح الدينى، أول حركة للتوحيد، فى العالم.

وكان إخناتون يقول:

«الله وحده، يودع الأرواح فى الأشباح. أنت الخالق، تخلق ولا تخلق، خالق السموات والأرض».

ويقول: «ما أعظم أعمالك التى عملتها، إنها خافية على الناس.

أنت الإله الأوحد، لا شريك لك فى الملك.

لقد خلقت الدنيا كما شئت!».

وأعلن الملك أنه لا يرى أن طيبة، معقل عبادة آمون، جديرة بأن تكون عاصمة ملكه، بل تكون العاصمة على ضفاف النيل بين طيبة ومنفيس.

واختار أرضا صحراوية لم تَطَأها قدم، اشترك فى بنائها ١٠٠ ألف فنى ومهندس وعامل فى عامين لتضم ١٠٠ ألف نسمة وتكون مدينة الحب، والفن، والجمال وتمثل عالما أسعد.

وأقام المصانع فى هذه المدينة لتقدم أدوات البناء.

قال الخبراء إنها أول مدينة مصرية أقيمت بتخطيط دقيق وإن أساس مبانيها القوى الذى أقيم بالحجارة المنحوتة من الصخور لا يزال يحتفظ بمكانته حتى الآن، وإنها أشبه بعاصمة البرازيل «برازيليا» التى بنيت فى القرن العشرين.

وأقام الملك قصره الضخم على أرض طولها ٨٠٠ ياردة وعرضها ٢٧٥ ويقع فى نهاية الطريق الملكى الذى يمر بكل المبانى المهمة.

اختير اللون الأصفر ـ لون الشمس ـ لطلاء كل حجرات القصر.

.. وانتقل إخناتون فى سنة حكمه الخامسة إلى عاصمته الجديدة «أخت آتن» وهى تل العمارنة.. أو العمارنة الآن.

وقرر الملك تغيير اسمه إلى إخناتون..

أحدثت القرارات.. تغيير الديانة والعاصمة واسم صاحب الجلالة ـ اضطرابات واسعة، وهاجم البعض الكهنة فى معابد آمون.

ورفض الجنود طاعة أوامر ضباطهم.

واتسعت أعمال الشغب.

لم يسمح الملك لرعاياه بالركوع أمامه.

ولم يؤمن إخناتون بتعدد الزوجات فألغى نظام الحريم.

* * *

ولكن نفرتيتى لم تنجب إلا ٦ إناث.. ثلاث منهم فى السنوات الثلاث الأولى للزواج.

وأدرك إخناتون أن ذلك سيحدث تعقيدات فى وراثة العرش، فتزوج من محظية أنجبت له ولدين: سمنخ كارع وتوت عنخ آمون.

ولكن قبل أن ينقضي وقت طويل، كان معظم أنصار إخناتون قد هجروه وتخلوا عنه، بل حتى نفرتيتى تحولت ضده أيضا، وانهار الزواج الذى كان كاملا. وتبعها فى موقفها الكاهن الأكبر.

صمد إخناتون.

ولكن القضية أصبحت خاسرة، تحدد مصير الملك وبدا أنه مقضى عليه.

بدأت المؤمرات على إخناتون. وكان من بين المتآمرين طبيبه الخاص. وقيل إنه أعطاه دواء مسموما ليموت.

قال علماء الآثار: ربما يكون إخناتون قد ترك وحده فى تل العمارنة بينما قام ابنه سمنخ كارع بمهمة الوصاية على العرش وحكم باسم إخناتون - فى أثناء حياته - فى طيبة.

وكان سمنخ كارع مريضا تزوج فى الرابعة عشرة من أخته غير الشقيقة مريت آتون، ابنة نفرتيتى، وهى فى الثالثة عشرة من عمرها.

وقد اكتشفت مقبرة إخناتون فى التلال المطلة على الوادى. وكانت تحمل نقوشا تقول:

«كنت أرغب فى أن أدفن فى تلال إلى الشرق - لا إلى الغرب - كما كان معتادا.. فإن الشرق كان مملكة آتون المشرق»!

* * *

قال المؤرخون إن إخناتون مزق الدولة وجعلها تتدهور. وعند وفاته تحققت المؤمرات والدسائس التى كان يخشاها.

كان كهنة آمون يريدون أن يولوا كبيرهم ميكانكوس العرش، ولكن نفرتيتى وأنصارها هزموهم ووضعت نفرتيتى على العرش الابن الباقى توت عنخ آمون، الذى تزوج أخته غير الشقيقة عنخسن آمون (وهى ثالثة بنات نفرتيتى).

وكان الملك الصغير فى التاسعة من عمره، وزوجته فى التاسعة من عمرها .

* * *

لا يوجد شيء محدد يكشف الستار عن حقيقة توت عنخ آمون، كل ما يقال عنه يبدأ دائما بكلمة «ربما» و«من المحتمل» و«يعتقد» و«يظن» إلى آخر الكلمات والتعبيرات التى تثير الشكوك .

كان الملك العاشر من ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

جلس على العرش وعمره ٩ أو ١٠ سنوات .

وحكم ٩ سنوات من عام ١٣٣٩ إلى ١٣٤٨ قبل الميلاد، لذلك أطلق عليه لقب «الملك الطفل» .

وقيل إنه حكم سنة ١٣٤٣ أو من عام ١٣٢٥ إلى عام ١٣٣٤ وكان عمر الأهرامات، وهى التى تمثل مصر القديمة، ألف عام، ولم يكن الجمل ـ سفينة الصحراء ـ قد وصل ؛ فإنه جاء بعد ألف عام مع كتائب الغزاة من روما .

ظل زواج توت عنخ آمون و«عنخسن آمون» عقيما .

وفى السنوات الأربع الأولى ظلت العاصمة فى تل العمارنة ثم نقلها إلى طيبة .

وأعاد عبادة آمون وتغير اسمه من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون «ولذلك سمى بعد ذلك بالمتمرد الذى قاد الثورة المضادة ضد عبادة الشمس» .

وقد فرح شعب مصر بإعادة الديانة القديمة .

وربما يكون قراره هذا من تلقاء نفسه وربما يكون الوصى على العرش «آى» أو الكهنة قد ضغطوا عليه لإعادة العاصمة إلى طيبة وإعادة ديانة آمون .

وهناك احتمال صراع بين الملك والكهنة الذين نجحوا فى استعادة سلطاتهم ونفوذهم . . وسمحوا للملك الصغير بالبقاء على العرش، ولكن بعد تغيير اسمه إلى توت عنخ آمون، وزوجته إلى عنخسن آمون بدلا من عنخسن آتون .

ولكن هذا التحول من ديانة إلى أخرى تم بطريقة سليمة ؛ فلم يحاكم

تـوت عنـخ آمـون أولئك الذين عبـدوا ، أواسـتـمـروا يعـبـدون ، آتون ـ إلـه الشـمـس ـ وعرف عهده بالتسامح الدينى .

وإذا كان الوزير «آى» قد محا اسم إخناتون فإن توت عنخ آمون لم يشترك فى ذلك . ولهـذا يعتبر أكبر إنجاز له أنه ترك آثار إخناتون ، وبذلك كتب عنه المؤرخون وعلماء الآثار أكثر من أى فرعون مصرى آخر .

وعرف المؤرخون أنه فى مصر نشأت أول ديانة للتوحيد فى العالم القديم . . وأن هذا الملك اختار عقيدة دينية يقبلها المصريون وغير المصريين . . أى تتجاوز حدود مصر . . ولكن نتيجتها انهيار ممتلكات مصر فيما وراء البحار ، أو ضياع المستعمرات وتبديد الإمبراطورية المصرية .

* * *

اختلفت الآراء فى سياسة الحكم فى عهد الملك توت عنخ آمون .

قـال البعض إنه كان دميـة يحركها آخـرون ، أقويـاء ، مجربـون وضعـوه على العرش .

وقالوا إنه كان يهتم بصيد الوحوش والأسماك والنعام وإنه جمع حوله أكبر كمية من الذهب وأضخم مجموعة من التحف والأثاث جمعها فرعون مصرى .

وبينما قيل إنه حاكم ضعيف ، قيل أيضا إنه شيد معابد فى النوبة وأقام هياكل فى الأقصر وكان يصدر فى كل يوم قانونا للأرض . وحقق العدل وبنى سفنا محملة بالذهب تسير فى النيل لتلقى عليه الأضواء . وكان الشعب يرقص فرحا .

ومن الرسوم التى وجدت على جدران مقبرة توت عنخ آمون ، ومن اللوحات والقطع الأثرية التى وجدت فيها نعرف أن توت عنخ آمون قام بحملة عسكرية فى فلسطين ولبنان بقيادة القائد حور محب .

وجىء بالأسرى والرقيق من هذه الحملة لبناء المعابد .

ويحتمل أن الملك نفسه اشترك فى الحرب رغم صغر سنه ، فإن أمنمحات الثانى حارب فى آسيا وعمره ١٨ سنة .

وفى المقبرة دفنت مع الملوك سهام مركبة، ربما يكون قد استخدمها فى القتال.

ولعل أهم ما فى المقبرة، إذا تركنا الذهب والفن جانبا، ٣ قطع - منها الخنجر - صنعت من الحديد إشارة إلى أن مصر فى عهده انتقلت من عصر البرونز إلى عصر الحديد.

ودلت الزهور التى وجدت على التابوت، وهى أزهار العنبر وتفاح الجن، وقد احتفظت ببعض ألوانها، على أن توت عنخ آمون مات فى مارس أو إبريل وهو موسم ظهور تلك الزهور!

ولا بد أن الملكة هى التى وضعت زهور الوداع فهى آخر من غادرت المقبرة.

وقد ضمت الجثمان بين ذراعيها فلصقت به الأتربة التى عفرت بها الملكة والأرملة ثيابها ثم أنشدت:

«أنا زوجتك، أيها العظيم، فلا تهجرنى.

أيسرك، أيها الأخ، أن أبتعد عنك.

وكيف أبتعد عنك وحدى؟

أقول، سأصحبك. أنت الذى كنت تحب أن تحادثنى».

وفى الرسوم على كرسى العرش آثار حب عظيم ربط بين الملك والملكة، نلمسه رغم فاصل الزمن الضخم بيننا وبينه.

ها هى الملكة تضيف اللمسة الأخيرة فى زينة الملك قبل أن يباشر مهامه فى القصر.

وها هى الملكة - فى أثناء الصيد - تقدم له سهما وتشير إلى بطة سمينة.

وها هى الملكة تحيط الملك بذراعيها فى قارب فى أثناء رحلة فى النيل وكأنها تخفف عنه متاعب الدولة والحكم.

وفى اللوحات والآثار التى تركها الملوك فى مقابرهم نجد أن توت عنخ آمون يتميز ويتفوق عليهم فى أن هناك لمسة إنسانية فى آثاره.

أبدت «ماريان آيتون» المتخصصة فى التاريخ وتاريخ الفن وآثار عصر الملك توت عنخ آمون اهتماما خاصا بالتابوت الحجرى للملك .

وهى ترجح أنه لم يكن التابوت الأصلى الذى بدأ الملك توت فى بنائه ليدفن فيه عند وفاته وأنه فى الغالب صنع أصلا لسلفه المباشر سمنخرع . وتم الاستيلاء عليه وتعديله ليناسب توت عنخ آمون ، وأن بعض الأشياء الأخرى من أدوات الدفن لتوت أخذت هى الأخرى من مقبرة سلفه .

وهناك افتراض آخر وهو أن يكون الوزير «آى» هو المالك الأصلى للتابوت الحجرى وأنه اتفق على تنفيذه لنفسه خلال حياة توت . واستولى على التابوت الجرانيتى الذى أمر بإعداده لنفسه .

والمتفق عليه عموما بين علماء الآثار أن المنطقة التى دفن فيها توت عنخ آمون لم تكن المقصودة بأن تكون مقبرته ، لكنها أعدت لدفنه عندما مات فجأة وأن المقبرة التى دفن فيها الملك «آى» بعد ذلك هى التى كانت معدة لدفن الملك توت الذى استولى على المقبرة والتابوت الجرانيتى .

* * *

ظل زواج توت عنخ آمون و«عنخسن آمون» عقيما .

وفى السنوات الأربع الأولى ظلت العاصمة فى تل العمارنة ثم نقلها إلى طيبة .

وأعاد عبادة آمون وتغير اسمه من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون .

كان اسم توت معروفا لعدة مئات من علماء الآثار ودارسيها فى العالم . وربما كان هناك خمسمائة شخص آخرون يتذكرون أنهم سمعوا أو قرءوا عنه من حين لآخر .

ولكن قبل انتهاء عام ١٩٢٢ أصبح اسم الملك المصرى القديم توت عنخ آمون معروفا تماما لعدة مئات من علماء الآثار المصرية ودارسيها فى العالم ، وربما كان هناك خمسمائة شخص آخرين يتذكرون أنهم سمعوا أو قرءوا عنه . أصبح اسمه

مألوفا للآلاف فى جميع أنحاء العالم . . مألوفا أكثر من أعظم الأسماء فى التاريخ المصرى : تحتمس ورمسيس ، وهى حقيقة غريبة ، فإن فترة ملكه كانت قصيرة .

* * *

فحص اثنان من الأطباء مومياء توت عنخ آمون فى نوفمبر عام ١٩٢٥ وهما الدكتور صالح حمدى مدير الصحة بالقومسيون البلدى بالإسكندرية والدكتور أرشيبالد دوجلاس ديرى أستاذ علم التشريح بكلية الطب بالجامعة المصرية بالقاهرة .

قرر الطبيبان عمر توت عنخ آمون بأنه حوالى ١٨ سنة ، أو بالقطع أقل من عشرين سنة .

وكان تقديرهما أيضا أن طوله وهو على قيد الحياة كان خمس أقدام وست بوصات أى ١٦٨ سنتيمترا .

وعلى شاكلة إخناتون . . فإن توت عنخ آمون له جمجمة عريضة ولها قاعدة مسطحة إذا نظرنا إليها من جانبها تشبه حبة الفاصوليا .

ووجد هذا الشكل غير الطبيعى لدى المرضى الذين يعانون من مرض اسمه «باجيت» .

وفى حالات أخرى مرتبطة باللين فى عظام الجمجمة .

ومع ذلك فإن هذا الشكل الغريب للجمجمة ليس دليلا نهائيا على مرض فى الجهاز العصبى المركزى .

ولاحظ تقرير الطبيبين أن جميع أطراف توت عنخ آمون ملفوفة برباط كل على حدة وأن جميع أصابع يديه وقدميه لفت فى أربطة كل على حدة .

وتركت العينان مفتوحتين إلى حد ما ، والرموش طويلة جدا وسليمة تماما . وتجويف الجمجمة فارغ .

والأنف ، جزء منها أصبح مسطحا نتيجة ضغط أربطة الرأس ـ ووضعت فيه

مواد نباتية بالطريقة التى يستخدمها صناع التحنيط بعد استخراج محتويات المخ عبر العظمة الأنفية كما لاحظ هيرودوت.

ولاحظ الفاحصون فى آخر فقرة من التقرير:

«على الخد الأيسر.. وفى مقدمة شحمة الأذن يوجد منخفض مستدير يملؤه الجلد ويشبه ندبة الجرح».

وقالوا «ليس ممكنا القول ما طبيعة الأذى الذى أصاب صاحب الجلالة».

* * *

إن الطبيبين لم يحددا طبيعة الجرح أو أسبابه أو علاقته بالوفاة.

قال الدكتور صالح حمدى بك فى حديث مع الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس تحرير جريدة «السياسة»:

* تحديد السن عرف من اتصال رءوس العظام.

* التصاق الجثمان بالتابوت المصنوع من الذهب الخالص لم يسمح باستغلال الأشعة ـ أى الفحص بالأشعة ـ كما أن ظهور العظام بين للعين المجردة كل ما كانت فى حاجة لرؤيته، والعين المجردة أدق نظرا وأصدق نتيجة.

* حفظت حالة الوجه شكلها أكثر من باقى الجثمان. وهذا يدل على أن أهل تلك العصور كانوا يضعون صور الوجه على التابوت، مطابقة لصورة الميت.

* * *

وفى عام ١٩٦٨ جرى فحص مومياء الملك بجهاز أشعة متنقل داخل المقبرة.

التقط الدكتور رونالد هاريسون أستاذ التشريح بجامعة ليفربول ومساعده الدكتور كونوللى خمسين صورة للمومياء.. حددت ـ كما يقولون ـ سر وفاة صاحب الجلالة.

قال الدكتور هاريسون إن الوفاة ليست نتيجة السل، أو مرض فى خلايا المخ، أو التهاب الشرايين بل نتيجة حادث أو اغتيال أو صدمة عنيفة بضربة من هراوة أو

سقوط من مكان مرتفع أو إصابة فى الجانب الأيسر من الجمجمة. وربما يكون قد سقط من فوق حصان أو وقع على الأرض، أو ربما يكون القتل سببا للوفاة كما قال «فان اندا» مدير تحرير نيويورك تايمس.

ومع ذلك يوجد رأى آخر يقول إن الإصابة ربما تكون قد حدثت عقب الوفاة.

وجد أن حور محب محا ـ أو أمر أحد رجاله أن يمحو ـ اسم الملك توت، ووضع اسمه ـ أى حور محب ـ مكانه.

قال «فان اندا» على الفور إن هذا يدل على جريمة قتل.. وإن حور محب لا شك قتل الملك واحتل مكانه، وذلك ليس غريبا فى مصر القديمة.

ووضع مدير تحرير الصحيفة استنتاجاته أمام الدكتور «فيليب حتى» عالم التاريخ القديم الذى يقوم بالتدريس فى جامعة برنستون فأيدها. ونشر «فان اندا» ذلك فى صحيفة «النيويورك تايمس».

وقال عالم الآثار الفرنسى ليجران إنه اشتبه فيما فعله حور محب ولكنه لم يصل إلى جريمة القتل.

ولكن الدكتور «بوب برابر» عالم الآثار المصرية الأمريكى، والأستاذ بجامعة لونج أيلاند فى نيويورك قدم نظرية جديدة، مختلفة تماما فسر بها مصرع صاحب الجلالة.

قال فى كتاب أصدره عام ١٩٩٨ عنوانه «مقتل توت عنخ آمون» إن صاحب الجلالة قتل فى يناير عام ١٣٢٣ قبل الميلاد وإن القاتل هو وزيره الأول، والوصى على العرش، ومعلمه وهو «آى».

«وبراير» أمضى عشرين عاما يبحث المصريات، ووجه اهتماما خاصا بدراسة الأمراض فى العالم القديم ولذلك فحص عدة مومياوات، كما قام بتحنيط بعض الجثث كجزء من بحثه فى وسائل التحنيط عند قدماء المصريين بهدف معرفة حقيقة ما جرى فى مصر فى تلك الفترة.

وقد تفرغ عامين كاملين لمتابعة مصرع توت عنخ آمون، حتى قال إنه أصبح مجنونا بملك مصر الفرعون!

صور «برايـر» الأحداث على النحو التالى :

فى السنة التاسعة عشرة من حكم الملك ، كان ينام وحيدا فى غرفته على سرير خشبى . وكان الملوك ينامون فى قصور وحدهم ، أو فى غرف نوم مستقلة ، عندما تسلل إلى الحجرة رجل ، قد يكون «آى» وقد يكون شخصا آخر وضرب الملك بآلة حادة جعلته يصاب بغيبوبة وظل عدة أسابيع فى هذه الحالة .

عرض «برايـر» صور الأشعة التى التقطها الدكتور هاريسون عام ٧٨ على الدكتور «جيرالد ايروين» أستاذ الأشعة فى مستشفى جامعة «وينشوب» فى نيويورك الذى فحصها ثم قال إن المنطقة التى وقعت فيها الإصابة هى التى تصل بين الرقبة والعمود الفقرى . وهى منطقة تتوافر لها الحماية ولا يمكن أن تقع الإصابة من السقوط بل تحققت من ضربة من الخلف أو والملك نائم على جنبه .

ومعنى ذلك أن الملك ضرب .

والأشعة لا تثبت أنه وقعت جريمة قتل ، ولكن الأحداث ، هى التى تكشف عن القاتل والباعث على الجريمة .

إن الأخ الأكبر لتوت «وهو سنخرع» توفى قبل عامين من وفاة توت الذى جلس على العرش وعمره عشر سنوات ، وكانت زوجته «عنخسن» فى العاشرة من عمرها أيضا وكلاهما ولدا لإخناتون وإن كان بعض المؤرخين يشكون فى أن توت ابن لإخناتون !

كان بجوار الملك كبير رجال الحاشية «آى» وهو معاصر لجد توت وقد خدم جيلين من الأسرة المالكة .

و«آى» هو أعلى موظف فى الدولة ، ويد الملك اليمنى والكاتب الملكى ووالد الإله ومعلم الملك ويمكن أن يكون بديلا لأبيه .

ويقال إن لـ «آى» يدا فى إزاحة إخناتون ، وإنه كان يحكم البلاد فعلا نيابة عن توت عنخ آمون ، وباسمه ، فلما أراد «توت» أن يحكم بنفسه كان لا بد أن يختفى فإن «آى» لم يوافق على أن يتخلى عن النفوذ الذى مارسه من قبل .

والمستشارون الثلاثة الكبار للملك هم «آى» والقائد حورمحب ومايا ولكن «آى» كان الوزير الأول، أى رئيس الوزارة.

* * *

اكتشف الخدم محاولة اغتيال صاحب الجلالة، وظل الأطباء يعالجونه، بينما «آى» الذى يشرف على الحرس الملكى يستعد لمراسم دفن الملك، واختار قبرا لأحد الأفراد ليدفن فيه الملك. وهذا هو السبب فى أن الرسوم لم تحفر على الجدران بل رسمت لأن الوقت لم يتوافر لعملية الحفر.

ولأن القبر عادى وليس ملكيا فهذا قد يكون السر فى عدم عثور اللصوص عليه.

استغرقت عملية التحنيط سبعين يوما ووضع جثمان صاحب الجلالة فى ٣ توابيت، كل منها بداخل الآخر وأغلقت التوابيت ولم ير أحد وجه الملك ٣٣ قرنا.

بعد وفاة توت عنخ آمون أرسلت أرملته إلى ملك «الحيثيين» «شوبيليوليوما»، الذى يحكم سوريا، وصاحب النفوذ الضخم فى آسيا.

قالت رسالة الملكة الأرملة:

«مات زوجى وليس لى ابن، ويقولون إن لك أبناء كثيرين، فإذا أرسلت إلى ابنا من أبنائك فإنه سيصبح زوجا لى.

ولن أقبل بحال من الأحوال، الزواج من أحد رعاياى لأنى أكره ذلك».

شك ملك الحيثيين فى الأمر وظنه خدعة فبعث رسولا أيقن من صدق الملكة التى كتبت رسالة ثانية للملك، قالت:

«لماذا تقول إنهم يريدون خديعتى؟

إذا كان لى ابن فهل أكتب إلى أجنبى وأكشف عن مصيبتى ومصيبة بلادى؟!

إنك أهنتنى بقولك هذا. إن زوجى قد مات وليس لى ابن. فهل يتحتم على أن أتزوج من أحد رعاياى؟

إنى لم أكتب لأحد سواك» .

أرسل ملك الحيثيين ابنه الأمير «زانانزا» ليتزوج الأرملة وليمد نفوذه إلى مصر .

ولكن حورمحب أمر رجاله بقتل الأمير فى أثناء الرحلة .

والسبب واضح ، فهو قائد الجيش الذى حارب الحيثيين ويرفض أن تتزوج ملكته من ابن ملك الحيثيين .

وتعتبر هذه الرسالة دليلا على أن «عنخسن آمون» لم تكن مجرد زوجة عادية بل إنها أرادت أن تكون ملكة تحكم !

التفسير الوحيد أنها لا يمكن أن تطلب زوجا إلا إذا كانت هناك صلات بين مصر والحيثيين .

وقال العلماء إنها لا يمكن أن تطلب الزواج من ابن ملك أجنبى إلا إذا كانت تخاف حقيقة على عرشها .

ولكن «برابر» يرى أنها كانت خائفة من «آى» الذى يريد الزواج بها ليصبح ملكا . وقد رأت أن الزواج من ابن ملك الأعداء أهون الشرين ، أى أفضل بالنسبة لها من الزواج من «آى» .

* * *

كان الحيثيون من هواة تسجيل التاريخ والمذكرات .

وفى الحفائر التى تمت فى تركيا ، وجد أرشيف الحيثيين وقد تبين منه أنهم سجلوا ـ على الطين ـ رسالتى صاحبة الجلالة .

وقد عبرت صاحبة الجلالة أرملة توت عن مخاوفها .

وهنا يثور سؤال :

ـ كيف تكون الملكة خائفة وهى أقوى شخصية فى البلاد؟

ولماذا تكيد للملك العدو؟

* * *

على جدران قبر الملك توت توجد لوحة، رسم، لكبير الكهنة، وهو يضع على رأسه تاج الملك.

والكتابة التى تحدد شخصيته القاهرة تبين أنه «آى».

ولا يمكن أن يجرؤ على أن يرسم صورته على قبر الملك إلا إذا كان قد أصبح أقوى رجل فى البلاد. وقد تزوج أرملة الملك وجلس على العرش ٤ سنوات.

* * *

الدليل على جلوس «آى» على العرش وزواجه من «عنخسن» وجده عالم الآثار المصرية البريطانى بيرسى نيوبيرى فى أحد متاجر بيع العاديات فى مصر عام ١٩٣١.

وجد نيوبيرى خاتما نقشت عليه صورة «آى وعنخسن» مما يقطع بأنهما تزوجا.

لم يشتر نيوبيرى الخاتم ولكنه نقل الصورة المحفورة عليه.

وقد وجد برايز خاتما شبيها له فى المتحف المصرى فى برلين.

* * *

اعتاد ملوك مصر أن يحفروا أو يرسموا صورة زوجاتهم الملكات على قبورهم حتى ترافقهم الزوجات فى رحلتهم إلى العالم الآخر.

ولكن لا توجد صورة عنخسن على جدران قبر توت مما يرجح أن آى رفض الموافقة على ذلك حتى لا ترافق زوجها الأول فى رحلته الخالدة.

ولا توجد صورة «عنخسن» على جدران قبر آى، بل توجد صورة زوجته الأولى «تاى» وإن كان اسمها المكتوب قد كشط أو زال ولكن «برايز» يرى أن اسم عنخسن طويل ولكن الاسم الممسوح صغير مما يؤكد أنها تاى.

والسبب فى عدم ظهور صورة اسم عنخسن يرجع فى رأى «برايز» إلى أن تاى كانت قوية الشخصية. وأن آى قد قتلها أيضا.

ولا يوجد تفسير سوى ذلك للملكة التى تزوجت ملكين مصريين، ولم يعثر على قبرها أبدا أو لأنه لا وجود لهذا القبر، فقد أراد «آى» محو اسمها من التاريخ!

* * *

فى تحليل الدم المتجلط فوق الجرح تبين أنه من فصيلة نادرة وهى نفس فصيلة إخناتون مما يرجح رأى هوارد كارتر، قبل نصف قرن تقريبا، وهو أن الملك توت ابن غير شرعى لإخناتون، فقد لاحظ كارتر التشابه القوى، وغير العادى، بين صورة توت عنخ آمون وإخناتون.

ومعروف أن نفرتيتى لم تنجب لإخناتون سوى ٣ بنات تزوج توت عنخ آمون إحداهن.

ونظرا لوفاة الملك المفاجئة فقد دفن فى هذا القبر الصغير الذى يبدو أن وزيره «آى» قد أعده لنفسه.. لأن مدة التحنيط وهى سبعون يوما لا تكفى لإعداد القبر المناسب.

وقد جرت التقاليد على تكريم الوزراء وأسرهم بدفنهم فى وادى الملوك.

ولأن الصدف كثيرة فى وفاة، أو اكتشاف، قبر توت عنخ آمون فإن إحدى الصدف أيضا أنه دفن فى هذا القبر الصغير ليسهل الكشف عنه سليما فإن باقى القبور الملكية ـ الضخمة ـ نهبت قبل اكتشافها.. سواء فى عصور ما قبل الميلاد، أو فى العصر الحديث.

وفى رأى كارتر أن أهم ما فى حياة توت عنخ آمون، أنه مات، وأنه دفن، وأن قبره قد اكتشف.

ولكن «إدوارونت» أستاذ علم المصريات فى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو قال إن القطع الذهبية، والثراء غير العادى، الذى وجد فى قبر توت عنخ آمون والذى تجمع خلال فترة قصيرة من وفاته المفاجئة جاء من تبرعات وهبات من شعب مصر لا من القصر الملكى والأسرة المالكة وحدها.

وقد يكون تعبيرا عن الأسى لوفاة ملك شاب.

وقد يكون تعبيرا عن العرفان بالجميل من شعب مصر لإعادة عبادة آمون.

ولم يقل العالم الأمريكى إنه ربما يكون السبب فى اكتشاف هذه المقبرة وحدها كاملة لم تنبش ولم تنهب ولم تسرق لأنها ليست لملك بل لأنها عطاء وميراث شعب مصر..!

حكومـة فى حكومـة !

عجز اللورد كارنارفون عن مواجهة السيل المتدفق من الصحفيين .

وفى الوقت نفسه أراد الحصول على الدعاية وعلى المال لتعويض ما أنفقه خلال عشر سنوات من البحث والتنقيب . . وليحصل أيضا على ربح .

فكر اللورد فى فيلم يصور المقبرة يكسب فيه ٢٠ ألفا من الجنيهات ، وعرض الأمر على شركتى «باتى ومتروجولدوين» .

قدمت الشركتان للورد سيناريو خصب الخيال ، يقارن بين الماضى والحاضر ، ويظهر فيه المصريون المعاصرون الذين يشبهون أسلافهم من عهد الملك توت عنخ آمون !

وفكر اللورد فى إصدار كتاب من أربعة أجزاء يباع الواحد منها بثمن يتراوح بين ثمانية جنيهات ونصف جنيه والطبعة الشعبية بنصف الجنيه . وتكون حقوق النشر للورد وحده .

وفكر أيضا فى عقد مزاد بين الصحف . وتحصل على حق النشر الصحيفة التى تدفع مبلغا أكبر . ولكن خشى اللورد أن يتهم بالاستغلال والتجارة .

ورأى أن جريدة «التايمس» البريطانية أفضل صحيفة بالنسبة له تتولى عنه إذاعة أخبار الكشف وصوره .

قصد اللورد إلى مقر الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن يسأل عن تفصيلات الاتفاق بين «التايمس» والبعثة التى وصلت إلى قمة جبل «إيفرست» ليجد أن الصحيفة دفعت ١٥٠٠ جنيه لأفراد البعثة مقابل ١٥ برقية طويلة . وحصلت الصحيفة ـ وحدها ـ على حقوق نشر كل الأخبار . .

وفكر كارتر ـ من ناحيته ـ فى أن يكون الامتياز لصحيفة لا تحجب عنه حقه فى نشر مذكرات وكتب ومحاضرات وصور.

* * *

أدرك جوفرى دوسون رئيس تحرير صحيفة «التايمس» أهمية الكشف فتوجه، دون موعد، إلى عزبة اللورد كارنارفون يعرض عليه يوم ٢٣ من ديسمبر ١٩٢٢ أن تكون الصحيفة وكيلة عن اللورد وممثلة له ونائبة عنه ومحتكرة لحق أخبار الكشف وصوره.

وقال دوسون للورد:

ـ ستتعامل فى هذه الحالة مع صحفى واحد هو مندوب «التايمس» مما يوفر وقتك ووقت كارتر ومعاونيه فيتفرغون للحفر والتنقيب وترميم الآثار المكتشفة بدلا من الإجابة على الأسئلة نفسها كل يوم لعشرات الصحفيين.

تذكر اللورد قصة زميل له جاء خادمه ـ فى أثناء أزمة سياسية ـ يقول:

ـ سيدى، يوجد ثلاثة من الصحفيين بالباب، ورجل مهذب ـ جنتلمان ـ من صحيفة «التايمس».

أى أن ممثل التايمس يختلف عن مندوبى الصحف الآخرين.

تذكر اللورد هذه القصة فوعد بدراسة الموضوع.

ولكن «أسماك القرش الصحفية» ـ على حد تعبير اللورد ـ تابعته فى عزبته وانهالت عليه المكالمات التليفونية تطلب مزيدا من أخبار الملك توت فقد انطلق السباق الجنونى نحو المقبرة واللورد وكارتر.. وتوت عنخ آمون.

* * *

وجد اللورد كارنارفون فى النهاية أنه لا مفر له من التعاقد مع التايمس فى ١٠ من يناير ١٩٢٣ على احتكار حق نشر كل سبق صحفى عن مقبرة توت عنخ آمون وتتولى الصحيفة بيع الأخبار والصور لمن تشاء من الصحف ووكالات الأنباء وتحصل مقابل ذلك على ٧٥٪ من الثمن ويحصل اللورد على الـ ٢٥٪ الباقية.

دفعت «التايمس» للورد ـ مقابل ذلك ـ مبلغ ٥٠٠٠ جنيه.

وبعد وفاة اللورد فى ٥ من إبريل ١٩٢٣ تعاقدت «التايمس» مع أرملته لاستمرار احتكار الأخبار مقابل ٢٥٠٠ جنيه أخرى.

وتحملت الصحيفة نفقات إيفاد اثنين من المراسلين وأحد المصورين إلى الأقصر وكلفها كل ذلك ٨٥٦٠ جنيها.

وكان إيراد الصحيفة من بيع الأخبار والصحف ٥٩٠٣ جنيهات وتحملت الفرق وقدره ٢٦٥٧ جنيها ولكنها سبقت غيرها من الصحف بأنباء الكشف الأثرى ٨ سنوات كاملة.

وفى الوقت نفسه باع اللورد لشركات أخرى حق إصدار الكتب، والصور، وأفلام السينما.. إلخ، فإن كل شىء خاص بالملك توت عنخ آمون كان يباع!

إن هذا العقد جعل «التايمس» تفوز بأكبر وأهم سبق صحفى عن الآثار فى القرن العشرين!

* * *

كتب اللورد كارنارفون إلى كارتر فى يوم الاتفاق مع التايمس يقول:

«أخشى أن تكون قد عانيت من الصحافة وقد حزمت أمرى أن عرض «التايمس» أفضل شىء، فهى أول صحيفة فى العالم وتحظى بقوة، وتسهيلات، أكبر من أية صحيفة أخرى».

وبعث كارتر إلى آرثر ميرتون يطلب منه الانضمام إلى فريق الكشف ليصبح واحدا من أعضائه يدخل ويخرج من المقبرة وقتما يشاء.

رد ميرتون قائلا:

«أقبل العرض بالانضمام إلى هيئة تحريركم.

وكما تم الاتفاق بيننا، فإنى سأمثلك فى وادى الملوك فى جميع أمور النشر المتعلقة بالعمل فى مقبرة توت عنخ آمون، طبقا للاتفاق الذى عقد بين اللورد كارنارفون والصحيفة».

ولم يبلغ اللورد مصلحة الآثار باتفاقه مع التايمس إلا بعد إتمام التعاقد!

احتجت الصحافة المصرية والعالمية على الاتفاق الذى قصد به احتكار «التايمس» لنشر الاكتشاف التاريخى العظيم.

وكان أول من احتج جيرالد ديلينى مراسل وكالة رويتر للأنباء وهو صاحب نفوذ قوى لصلته بوزراء مصر وبالمندوب السامى أيضا.

طلب ديلينى من اللورد اللنبى المعتمد البريطانى فى مصر التدخل. ولكن اللورد كان يعرف مدى قوة «التايمس» واتصالها بالدوائر الحاكمة فى لندن فاعتذر وأبلغ اللورد كارنارفون بذلك صراحة!

وتوجه مندوب صحيفة «مورننج بوست» التى تصدر فى القاهرة باللغة الإنجليزية إلى لاكو مدير مصلحة الآثار يسأله أخبار الكشف.

رفض لاكو أن يتكلم أو ينطق بحرف مما دعا الصحيفة إلى شن حملة ضد الاحتكار الصحفى.

وظلت صحافة مصر تطالب لاكو بأن يسمح لها بدخول المقبرة المصرية.. ورجا لاكو كارتر أن يتخذ موقفا لينا مع صحافة البلد التى ينتمى إليها الملك..

قال لاكو لكارتر.

ـ خصص يوما واحدا، مرة واحدة لزوارنا ومعهم الصحفيون المصريون.

رفض كارتر.. بغطرسة.

* * *

قالت صحف مصر إنها حرمت من أن تنقل لقرائها أخبار كنز أجدادهم العظماء.. فالآثار مصرية، خلفها فرعون مصرى وموجودة فى أرض مصرية.. ومع ذلك فإن صحافة مصر مضطرة أن تكتفى بالتقاط ما تتكرم به عليها جريدة غير مصرية وهى «التايمس» الإنجليزية.

وأخذت الصحف المصرية تتكلم عن سرقة الآثار المصرية بواسطة هوارد كارتر وتطالب بحقها فى دخول مقبرة الموت المقدسة.. وتثير قضية الاستعمار البريطانى

بواسطة كارتر والمندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى، والعجز الفرنسى، والضعف المصرى رغم أن تصريح ٢٨ فبراير ٢٢ الخاص باستقلال مصر قد صدر . . ولكن مصر ليست مستقلة بدليل أن صحفيا مصريا واحدا لا يستطيع دخول مقبرة ملك مصر!

ولكن كارتر ظل يرفض أن يلين .

وهبط إلى مصر مراسلو الصحف الأجنبية من أوربا وأمريكا فوجدوا أنفسهم ـ كما قالوا ـ أمام جدران صامتة لا تنفتح أمام وجوههم، وأمام رءوس كأنها فقدت النطق. وليس لديهم سوى بيانات مفككة يتضمنها البلاغ المقتضب الذى تنشره إدارة المطبوعات .

وقال الصحفيون لو أن هذه الآثار كانت قد اكتشفت فى بلاد غير مصر لكانت الحكومة قد دعت المراسلين الأجانب على نفقتها لاستجلاء تلك الكنوز للفت نظر العالم إلى الأمة التى تملك تلك الآثار .

وقال مراسل وكالة «رويتر» للأنباء إنه لم يجد جوا فاسدا كجو الأقصر منذ دخوله الصحافة قبل عشرين عاما .

وتلقى مراسلو الصحف فى الأقصر برقيات من صحفهم بخرق حصار كارنارفون وجماعته مهما كلفهم الأمر وأن يبذلوا فى سبيل ذلك ما يريدون . . لأنها معركة تمثل نضال الصحافة فى سبيل حريتها ضد جماعة أرادوا العبث بها .

* * *

بدأت حملة ضخمة فى الصحف المصرية والبريطانية بالذات ضد احتكار «التايمس» .

حملت الصحف العالمية والمصرية على الحكومة المصرية واعتبرتها مسئولة عن تخلف صحافة مصر والعالم ـ عدا «التايمس» ـ عن نشر أنباء ما فى المقبرة من عجائب!

وعقد الصحفيون الأجانب اجتماعا عاصفا بحجرة مراسل «الديلى إكسبريس»

فى فندق ونترىالاس بالأقصر وقرروا وضع الخطط التى تكفل منع مندوب التايمس من الانفراد وحده بأخبار الكشف.

حضر الاجتماع مورتون من «الديلى إكسبريس» وآرثرويجال عن «الديلى ميل» وأوفارل عن «الديلى تلجراف» وفالنتين وليامز عن وكالة «رويتر» للأنباء، وتايلور عن «سفنكس» وهؤلاء جميعا من الإنجليز.

ومن الأمريكيين برادستريت عن «نيويورك تايمس» والدريخ من «نيويورك تريبيون».

أبرق الصحفيون إلى بيير لاكو مدير عام مصلحة الآثار محتجين على احتكار التايمس وقرروا الاتصال باللورد كارنارفون يطلبون تسهيلات لهم. كما اتصلوا بالمندوب السامى البريطانى وهاجموا «علم الآثار التجارى» الذى يحمل لواءه كارنارفون وصحيفة التايمس!

ولجأ الصحفيون إلى كل الوسائل لعرقلة مراسل تلك الصحيفة.

* * *

كتبت صحيفة «الديلى إكسبريس» البريطانية أن «تحول العلم إلى تجارة يعتبر دعارة»!

. . وكتبت تحت عنوان «شركة توت عنخ آمون ليمتد».

«بينما نكن تقديرا للإخلاص والإصرار اللذين أسفرا عن ثمار مهمة - لأعمال اللورد كارنارفون فمن الصعوبة قبول الطريقة التى رآها مناسبة لاستغلال اكتشافه.

إن المقبرة ليست ملكا خاصا له.

إنه لم يحفر بحثا عن عظام أجداده فى جبال ويلز، بل عثر على فرعون فى أرض المصريين.

وعندما أعطى احتكارا لصحيفة بالذات عن كل أخبار المقبرة فإنه أثار ضده كل الصحف ذات النفوذ فى العالم».

* * *

وصل إلى مصر آرثر ويجال عالم الآثار البريطانى .

قام بعدة حفائر مع كارتر لحساب المليونير الأمريكى دافيز ، وألف عدة كتب عن مصر القديمة منها «حياة إخناتون فرعون مصر» و«حياة كليو باترا» و«أمجاد الفراعنة» .

وقد عمل مفتشا للآثار المصرية تسع سنوات ولكنه أرغم على الاستقالة فى ظروف غامضة ، فقد اتهم بالاشتراك فى صفقات أثرية مريبة ، وجاء إلى مصر بعد الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون ليكتب مقالات لصحيفة «ديلى ميل» البريطانية .

بعث ويجال بمذكرة إلى أموس المستشار القضائى للحكومة المصرية قال فيها :

«إن العقد الذى أبرمه كارنارفون مع «التايمس» يشكل خطرا على علم المصريات ، وسيؤدى حتما إلى فضيحة ، وربما إلى وقف الحفائر الأوروبية أو الأمريكية . ومن مصلحة العالم ألا يتكرر مثل هذا الخطأ .

إن اللورد كارنارفون تلافى خلال سنوات عمله فى مصر تحقيق كسب ، وكان عمل اللورد علميا وفوق مستوى الانتقادات ، ولكن اكتشافه أثار اهتماما عاما . أصبح «خبطة» صحفية غير عادية على الإطلاق .

وقد حول اكتشافه كله إلى مكسب تجارى .

إنه سيطلق على مصر مجموعة من المتلهفين على النهب من الحفر ، ولمواجهة ذلك ستضطر الحكومة المصرية إلى إصدار قوانين جديدة ضد كل من يقومون بالحفريات .

ولا حاجة بى لبيان مدى الإساءة التى وجهت للعقلية المصرية .

إن السرية فى حد ذاتها ستجبر الحكومة على معاداة كل الحفائر مستقبلا» .

وقال ويجال إن اللورد كارنارفون «ربح من عملية بيع حقوق النشر والصور مبلغ مائة ألف جنيه وحول علم الآثار المصرى إلى أكبر عملية استثمار قام بها فى حياته» .

ومن حق اللورد أن يبيع قصته الشخصية لصحيفة «التايمس» ولكن ليس من حقه ، ولا من سلطته ، أن يبيع القبر !

لم يكتف ويجال بهذه المذكرة، بل كتب إلى كارتر رسالة تحذير تاريخها ٢٥ من يناير ١٩٢٣ محفوظة بمتحف متروبوليتان فى نيويورك قال فيها:

«كنت مسئولا، أنا نفسى، عن بعض الاكتشافات الجميلة الكبيرة، وبالتالى يمكن التعاطف مع المصاعب التى تصادفها مع الزوار والصحافة.

إنى حريص على البقاء بعيدا عن «هذه الحرب»... التى يبدو أنها ستصبح واسعة إلى الحد الذى يضر بصورة خطيرة بالمصالح البريطانية فى مصر.

تحركنى رغبتان: الحفاظ على المكانة البريطانية فى مصر، ومساعدة علم المصريات.

إنك وكارنارفون ارتكبتما خطأ مروعا عندما ظننتما أن المكانة البريطانية الدائمة لا زالت قائمة فى مصر، وأن بمقدور علماء الآثار الأجانب أن يفعلوا ما يحلو لهم.

إنكما عثرتما على هذه المقبرة فى الوقت الذى يمكن لأى شىء أن يتسبب فى انفجار الموقف السياسى.

إن الدبلوماسية الحساسة هى الطريق للتعامل مع الأهالى على نحو صحيح.

يقول المصريون إنكما أهنتما بلادهم، وأنتما متهمان بأسوأ أنواع الإساءات».

* * *

حاصر ويجال كارتر فى وادى الملوك.

وبصورة منفعلة ومباشرة أظهر طبيعة الكراهية التى تمكن كارتر وكارنارفون من إثارتها لدى الصحافة العالمية ولدى المصريين.

رد كارتر قائلا:

ـ المصريون لا يعرفون شيئا عن الحفائر العلمية المسئولة ويفتقرون إلى الكفاءة والموظفون لا يهتمون إلا بألاعيب السياسة.

قال ويجال:

ـ قد لا يروقك ذلك! ولكنه لا يحقق المصلحة البريطانية، ومن الضرورى إشراك المصريين فى هذا الاكتشاف، وفوق كل ذلك أن اللورد كارنارفون

منح «التايمس» حقوقـا احتكاريـة مما أحدث عاصفة هائلة فى شارع الصحافة فى لندن.

لقد اتهمتهما بالإثراء على حساب «قداسة الأموات» المصريين، وبامتهان العلم للكسب الشخصى، وبيع حقوق تملكها الأمة المصرية والعالم. وإبعاد كل من يحاول كتابة كلمة عن الموضوع.

وقال ويجال:

ـ وفقا لنظامكم فأى عالم للآثار يجىء هنا... سيمنع من دخول المقبرة أو الحصول على معلومة واحدة، ولن يقتصر الأمر على خسارة العلم لمشورته أو علمه، بل إن الجمهور سيخسر فرصة للحصول على معلومات مباشرة. إن كل الصحف الأخرى تعتقد أنكما و«التايمس» عار على التقاليد الصحفية.

واستمر ويجال يهاجم كارتر وينتقده بعنف:

ـ عثرتما على مقبرة تخص الحكومة المصرية. وهى فى مكان عام وتحت نظر الأهالى والسياح الأجانب مباشرة. وهى مقبرة تضم الموتى المقدسين. إنه اكتشاف لا يخصكما بل يهم العالم عامة، ومصر خاصة. إنها مصر التى تضطرم كراهية لإنجلترا.

حاول كارتر الدفاع عن موقفه متعللا بضيق المكان ووجوب السهر على الآثار من كل ما يلحق بها من عطب وللتدخل المستمر من جانب لاكو، وتدفق الزوار الصحفيون والسياح، الذين يتجمعون عند مدخل المقبرة، أو حول العمال المصريين وهم يعملون.

وأضاف كارتر:

ـ ضرر الصحافة يضارع الضرر الناجم عن النشاط السياسى للوطنيين.

رد ويجال:

ـ النار قد تحرق مصر كلها. والموقف يتسم بخطر هائل على بريطانيا.

لقد خلقت عاصفة من الكراهية البغيضة بعملية خانها التوفيق، أولها: استهانتك بالحكومة عند فتح مقبرة فرعون جاء من العدم ليصبح ـ فى نظر

الأهالى ـ ممثلا للوطنية، وثانيها: دخولك فى تعاقد مالى، يضطرك إلى إبعاد رجال الصحافة وعلماء الآثار، وإلى التصرف مثل قطاع الطرق الذين أقسموا على السرية، ومثل اللصوص بالنسبة للأهالى.

ورجاه أن يتخذ بعض الإجراءات بأن يجعل كارنارفون يصدر بيانا بأنه لن يكسب من التايمس وأن يترك كل الصحفيين يدخلون المقبرة، بحيث يستطيعون الدعاية للعمل الممتاز الذى يقومان به للحفاظ على الآثار.

وأن يعطى لكل الصحفيين ـ والمحليين بوجه خاص ـ الحقائق الأساسية فى أقرب وقت ممكن بعد فتح الحجرة الداخلية للمقبرة فى اليوم نفسه الذى تحصل فيه التايمس على الأخبار وليس بعد ذلك.

وقال:

ـ المشكلة أكبر من مجرد حفائر، بل يتعين وضع مسألة الوطنية والعلاقات الإنجليزية ـ المصرية فى الاعتبار.

حاول تهدئة الصحافة المحلية نظرا للوضع السياسى المتوتر.

* * *

دافعت التايمس عن موقفها وقالت إن هناك عقود احتكار صحيفة مشابهة.

* الأستاذ ماك اليستير تعاقد مع صحيفة «الديلى تلجراف» البريطانية لتنفرد بنشر أنباء وصور حفائره فى فلسطين.

* سبق أن تعاقدت «التايمس» نفسها لنشر نبأ محاولات الجنرال بروس صعود قمة جبال إيفرست فى آسيا.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة الهدف منها ألا يتعطل باحث بالحديث إلى الصحافة.

وليس لدى كارنارفون أو كارتر وقت لكتابة البرقيات إلى «التايمس» ولذلك تركت هذه المهمة إلى «ميرتون» مراسل الصحيفة.

واضطرت التايمس إلى تبرير موقفها فى اجتماع لاتحاد أصحاب الصحف فى لندن:

قال مالك الصحيفة :

«لست هنا لأقدم اعتذارا عن شيء فعلناه ولا لتوضيح حقيقة أنه لو لم تحصل «التايمس» على العقد لكان قد ذهب إلى الخارج .

كانت هناك اعتراضات على حصولنا على حقوق الأخبار والصور المتصلة بالحفريات ، وأقترح حقا تنظيم مقاطعة لنا .

ولست قلقا إزاء عدم قانونية الاقتراح ، ولست قلقا بشكل جاد إزاء الاقتراح نفسه .

ولكنى فى دهشة من أنه اقترح فى هذا المجلس فرض قيود على الصحف .

وإذا كانت معلوماتى صحيحة فإن الاعتراضات كانت على أساس أن الحفريات تمثل مصلحة قومية .

وأزيد على ذلك القول إنها تمثل مصلحة دولية .

ولكن هل هذا سبب لإدانة تعاقدنا؟

إن «اللورد كارنارفون» لم تكن لديه رغبة فى كسب أموال من وراء العقد ـ فأى أموال يتم الحصول عليها من وراء العقد لن تذهب إلى جيبه ، وإنما مقابل جزء من النفقات التى تكبدها . . » .

* * *

كانت حملة الصحافة المصرية والعالمية عامل ضغط على وزارة الأشغال مما جعلها ترى أنه لابد من توزيع أخبار الكشف على كل الصحف طبقا لقاعدة المساواة . . لا الاحتكار!

طلبت الوزارة من كارتر السماح لمجموعة من الصحفيين بزيارة المقبرة يوم ٢٦ من يناير ١٩٢٣ فوافق بعد إلحاح مستمر من جانب الوزارة ورجال مصلحة الآثار .

ولم يجد عبد الحميد سليمان باشا وكيل وزارة الأشغال مفرا من الاجتماع باللورد كارنارفون يوم ٧ من فبراير بعد شكوى الصحفيين إلى قلم المطبوعات التابع لوزارة الداخلية .

حضر الاجتماع روس تايلور المستشار القانونى فى وزارة الأشغال وكين بويد مدير الإدارة الأجنبية بوزارة الداخلية وجلين عن دار المندوب السامى البريطانى ولاكو مدير مصلحة الآثار.

بدأ عبد الحميد سليمان باشا الاجتماع بأن طلب من اللورد إقامة اتصال بالصحفيين أو إذاعة بيان عليهم يوم افتتاح المقبرة.

احتج اللورد كارنارفون بأنه ليس ملتزما بشىء إزاء الصحافة.

وقال:

- كل اهتمامى يدور حول ضمان سلامة محتويات المقبرة وكنوزها لإشباع نهم الصحافة للأخبار.

وأضاف:

- سئمت الموضوع كله وخدش آخر يدفعنى إلى الكف عن العمل فى المقبرة بقية العام..

كتم لاكو غضبه وقال:

- أثارت الدعاية التى صاحبت الكشف اهتماما دوى فى مصر كلها. للمرة الأولى يهتم المصريون جميعا بكنوزهم القديمة، وأكدت الصحف أن هذه ثروة قومية، ومن حق شعب مصر - قبل غيره - معرفة المعلومات الكاملة عنها.

أيد عبد الحميد سليمان باشا هذا الرأى.

ولكن اللورد اعترض.

وامتد النقاش والجدل فدعا عبد الحميد سليمان باشا الحاضرين إلى استراحة وفنجان شاى.

استؤنف الاجتماع للوصول إلى اتفاق يرضى اللورد الذى قال إن ترخيص التنقيب يعطيه وحده حق إذاعة أنباء الكشف والأبحاث العلمية.

وأخيرا اتفق على أن يحضر ممثل قلم المطبوعات التابع لوزارة الداخلية افتتاح غرفة الدفن المحدد له ١٧ من فبراير ١٩٢٣ ويبعث من الأقصر إلى القاهرة، بقطار المساء بيانا رسميا عن محتويات المقبرة يمليه اللورد كارنارفون.

وتبلغ وزارة الداخلية هذا البيان للصحف المحلية فى اليوم التالى بعد أن تكون «التايمس» قد سبقت بالأخبار .

قال اللورد وهو يعلن موافقته :

ـ لا يهمنى ماذا تفعلون ما دمتم تبعدون عنى مندوبى الصحف الملاعين!

واتفق على أن يكون عدد الزائرين للمقبرة ٢٠ شهريا بترخيص من وزارة الداخلية يوم الثلاثاء وهو يوم عطلة المنقبين الأسبوعية .

* * *

شكا اللورد كارنارفون لجلين الذى يمثل دار المندوب السامى البريطانى من ضعف الحكومة المصرية مع الصحافة وعدم حصوله على التأييد الكافى من دار المعتمد .

ويكتب جلين إلى رئيسه اللورد قائلا :

ـ سمعت فى الأقصر والقاهرة أن كارنارفون يضع دار المندوب السامى البريطانى فى جيبه وأن اللنبى يستمع إلى كل ما يقوله اللورد .

* * *

ويشكو عبد الحميد سليمان باشا لفيرنيس السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى ما يلاقيه من كارنارفون والصحافة قال :

ـ لولا الأزمة الوزارية التى تعصف بمصر هذه الأيام لزرت دار المندوب السامى . إنى فى حيرة : أمامى الشيطان أواجهه أو أغرق فى أعماق البحر .

أريد الإلهام من اللورد اللنبى وأتمنى أن يتدخل .

ولكن اللورد لا يتدخل ويترك الصراع ملتهبا بين اللورد كارنارفون وكارتر، مع الصحافة البريطانية . . قبل غيرها!!

أصدرت إدارة المطبوعات بلاغا رسميا تحاول فيه إرضاء كارنارفون وكارتر . . والصحافة وشعب مصر والسياح أيضا .

قال البلاغ :

«قررت وزارة الأشغال العمومية إرضاء الجمهور الراغب فى الاطلاع على ما استكشف من الآثار بوادى الملوك بدون وقوع تعطيل فى أعماق الحفر الواجب السير فيها بأقصى ما يمكن من السرعة على أن يراعى منذ الآن فصاعداً الأسلوب الآتى فيما يختص :

(١) بالبلاغات للصحف .

(٢) بزيارة القبر .

أولا : لا يسمح للصحفيين أو مراسلى الصحف أو الزوار بزيارة القبر من تلقاء أنفسهم بل عليهم أن يقدموا طلبا إلى وزارة الأشغال ثم يزوروا القبر معا لفيفا واحدا فى أيام معينة .

وسيكون عدد الطلبات لكل لفيف محددا بالنظر إلى ضيق المكان .

وثانيا: يتلقى مندوب قلم المطبوعات! بالحكومة المصرية من رئيس مفتشى مصلحة الآثار المقيم بالأقصر جميع البيانات العامة عن سير العمل وما يحتويه القبر ، وتبلغ هذه البيانات بعد ذلك إلى قلم المطبوعات لإبلاغها للصحف على السواء .

وفيما خلا هذا البلاغ الرسمى العام سيكون لمتولى أعمال الحفر الحرية التامة فى أن يوافى أية جريدة أو أية مجلة يختارها بجميع البيانات العلمية والصور التى يرغب فى نشرها .

وليس لمصلحة الآثار أن تتدخل فى هذا الشأن بين متولى الحفر والصحف .

* * *

كتب كارتر محتجا إلى لاكو :

«تعاقدنا مع «التايمس» لنحمى أنفسنا من إلحاح مراسلى الصحف ونتعامل مع صحيفة واحدة ذات توزيع عالمى ، بدلا من أن نتعامل مع عدد كبير من ممثلى الصحف المنفردين .

وإنى مضطر للدفاع بكل السبل الممكنة عن نفسى وعن المصالح التى أمثلها .

وسيعرف العالم مدى عدم كفاية الحماية التى تقدمها الحكومة لأصحاب الامتيازات وعدم اهتمامها بأولئك الذين يعملون للمصلحة العلمية وبتشجيعها المستمر لقطاع من الصحافة كسب استنكارا من العالم المفكر للطريقة الممقوتة التى هاجم بها اتفاق التايمس لأغراضه الخاصة .

ولكل هذه الأسباب ، فإنه من الواضح أنه من مصلحة الحكومة المصرية أن يتوافر للوكيل الحماية فيما يتعلق بهذا التعاقد .

والطريقة الوحيدة التى يمكن بها توفير الحماية له لا تكون بإصدار البيان المقترح وإنما بالاعتماد عليه فى إظهار كل المعلومات إلى العالم من خلال الهيئة التى أقيمت بالفعل ، وإنى أثق مخلصا أن ما قلته سيضع الحكومة فى الاتجاه الذى تكمن فيه أفضل مصالحها .

وقد حاولت طوال الوقت أن أكون متهاونا وما من أحد يريد تسوية أكثر منى ولكن إذا أصرت الحكومة على نواياها فإنى سأكون مضطرا لاتخاذ إجراء ضدها .

ولا أدافع فى هذا الشأن عن مصالح رؤسائى ، وإنما عن مصالح العالم العلمى كله» .

* * *

وصفت صحيفة «الديلى تلجراف» البريطانية : سباق الصحفيين فى وادى الملوك :

«كان الطريق المؤدى إلى الوادى الضيق العميق الذى تحيطه الصخور . . . مزدحما بالعربات والحيوانات من كل نوع يمكن تصوره .

وكان المرشد والصبية من أصحاب الحمير وباعة العاديات الأثرية وباعة الليموناده يثيرون ضجة هائلة . . .

وعندما أزيلت آخر الأشياء من الممر بدأ مراسلو الصحف اندفاعهم المتحمس ، عبر الصحراء إلى ضفاف النيل ، على ظهور الحمير والخيول والجمال ، وفى المركبات الرملية ، فى سباق للوصول قبل الآخرين إلى مكاتب التلغراف» !

وعبر فكرى أباظة عن هذا كله فكتب يقول :

هناك في ذلك الوادى المفعم بالخفايا والأسرار ـ وادى الملوك ـ قامت «حكومة» مطلقة مستبدة على أنقاض الحكومة الفرعونية القديمة. والحكومة المصرية الحديثة هى حكومة اللورد كارنارفون والمستر كارتر ليمتد!!

هل ينازعها منازع داخل حدود «الوادى»؟!

أليست هى التى تنقب بلا رقيب وتنقل بلا رقيب وتنظم بلا رقيب؟!

أليست هى التى تسمح وتشرح، وتمنع وتمنح؟!

أليست هى التى تدعو وزراء مصر ـ منّا منها وكرما ـ لرؤية ملوك مصر، وموظفى وزارة الأشغال ومصلحة الآثار لمشاهدة الآثار؟!

رأس مال هذه الحكومة أيها القراء رأس مال عظيم. إنها تتاجر متاجرة رابحة فى الجماجم والعظام والأموات. جماجم وعظام أجدادنا رحمة الله عليهم.. وعلينا!!

يستغل اللورد كارنارفون رفات أجدادنا أمام عيوننا ويأبى ذوقه السليم ووجدانه الكريم أن يتكرم على الأحفاد بأخبار الأجداد، ففى أى قرن نعيش ولأى حكومة نخضع.

أكتب ما أكتب الآن والمعركة بين الصحفيين دائرة فى مقبرة، سيتطاحنون داخل القبر بالجواهر واللآلئ والعظام الملوكية، قنابلهم التى يتقاذفونها جماجم المرحومين، وسهامهم أذرعتهم ونبالهم عيونهم فالضحايا نحن ـ وهم!!

تالله لو كانت جثة الملكة «فيكتوريا» هى قبلة الأنظار وتطلع إليها الأجنبى؛ لسار على جثث الإنجليز جميعا، ولعبر بحارا من دمائهم، قبل أن يصل إليها وهى فى مرقدها الأخير.. ذلك لأن النفوس غير النفوس. والحكومة غير الحكومة!!

صدقت شريعة الهنود. إنهم يحرقون الموتى، تكريما لهم ودرءاً للخطر عن أجسادهم الهامدة. فلنحترق أيها المصريون أمواتا، فلنحترق أحياء ذلك أولى وأجدر. والسلام».

وكان عنوان فكرى أباظة: حكومة فى حكومة!

سحـــــر الماضـــى

أثار الكشف دويا سياسيا فى مصر والعالم، فرض حضارة مصر على الصحافة والإذاعة والسينما فلم يكن التليفزيون قد ظهر بعد!

كان يسود مصر شعور بخيبة الآمال، ويلفها إحساس بالفشل، ويبدو المستقبل حافلا بالكآبة للشعب كله.

كان الملك أحمد فؤاد يحكم مصر.

اختاره الإنجليز عام ١٩١٧ فى أثناء الحرب العالمية الأولى. فلما انتهت الحرب قامت ثورة ١٩١٩ تريد إلغاء الحماية البريطانية وتطالب بالاستقلال.

قبض على سعد زغلول فى ٨ من مارس ١٩١٩ ونفى إلى مالطة وعين الفيلد مارشال اللنبى معتمدا بريطانيا على مصر.

وكان اللنبى قد قاد حملتين عسكريتين فى فلسطين وسوريا ودخل القدس فاتحا بعد هزيمة الأتراك.

وقد أطلق عليه زملاؤه فى الجيش البريطانى لقب «الثور» لعناده.

وكان أول ما طلبه «الثور» من الحكومة البريطانية الإفراج عن سعد زغلول فوافقت. وأعلن اللورد النبأ فى ٧ من إبريل.

ولكن حدث الانقسام فى الوفد، واختلف سعد زغلول وعدلى يكن، وفشلت مفاوضات عدلى يكن رئيس الوزراء فى لندن؛ لأن الإنجليز أظهروا حقيقة نواياهم فى استمرار الاحتلال.

أمر اللورد اللنبى باعتقال سعد زغلول باشا، وفتح الله بركات باشا، وعاطف بركات بك، ومصطفى النحاس بك وسينوت حنا بك، ومكرم عبيد بك، إلى

جزيرة سيشل وغادروا مصر فى ٣٠ من ديسمبر عام ١٩٢١ . واعتقل الإنجليز أفواجا متتابعة من قيادات الوفد .

ولكن مصر لم تهدأ ، ورفض الزعماء قبول رئاسة الوزارة ، فاستقال اللورد اللنبى واضطرت الحكومة البريطانية إلى إصدار تصريح ٢٨ من فبراير عام ١٩٢٢ بإعلان استقلال مصر مع ٤ تحفظات .

وتولى عبد الخالق ثروت باشا رئاسة الوزارة المصرية ولكن اللورد اللنبى ظل صاحب النفوذ الأول والكلمة العليا فى مصر .

وبقى سعد ورفاقه معتقلين ـ بأمر الإنجليز ـ رغم الاستقلال .

ولم يصدر الدستور؛ لأن الإنجليز اعترضوا على بعض نصوصه الخاصة بالسودان . واعترض الملك فؤاد على النصوص الخاصة بحقوق الشعب!

وكان ظلام اليأس من المستقبل يحتوى مصر كلها .

وفجأة انبعث من أعماق الأرض ضوء الماضى على هيئة آثار توت عنخ آمون .

اندفعت الكتابات الوطنية تحاول إحياء الروح القومية ، وتثير كل القضايا .

كتب توفيق مفرج فى مجلة اللطائف المصورة برقية على لسان توت عنخ آمون إلى سعد زغلول .

فى هذه البرقية يقول الملك المصرى :

«من المسجون فى قبر إلى المسجون فى قصر .

من فرعون مصر إلى رجل مصر .

أنا فى وادى الملوك وأنت على جبل الملوك (كان سعد أيامها سجينا فى جبل طارق) .

من توت عنخ آمون إلى الزعيم الذى يحبه شعبى :

٣٠ جيلا تنتظرك يا زغلول . إن حبك لمصر أشد حرارة من وادى الملوك ، وكلانا أسير يا سعد» .

ويثير الدكتور محجوب ثابت ـ الذى أصبح بعد ذلك نائبا فى مجلس النواب ـ قضية السودان من خلال تاريخ البلدين فى عهد الأسرة الثامنة عشرة عندما كانت مصر مالكة للسودان .

وتأخذ كل مصرى هزة الطرب والعجب ـ كما تقول الصحف ـ ويفخر المصرى أن يمت بالنسب إلى أولئك العظام الذين دانت الشهرة لسطوتهم، وإلى أولئك الصناع الماهرين الذين تركوا من بديع التحف، ما يحدث ـ بعد ألوف السنين ـ بخبرتهم، ومهارتهم، وإبداعهم من كل فن وصناعة .

ويقول يوسف كدوانى من أسيوط على لسان الملك توت عنخ آمون :

«هزوا الأقلام أيها الكتاب .

وحركوا العواطف أيها الخطباء .

يا شعبى لا تستكينوا على الذل، ولا تلينوا للحوادث» .

ويصور أحمد الشيخ عضو مجلس مديرية الغربية توت عنخ آمون وهو يحاسب وزراء مصر :

«إن الملك الفرعونى يحيا بعقلية الأسرة الثامنة عشر التى افتتحت الشام والسودان فيقول لعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء السابق :

ـ كم من الممالك افتتحتم؟

يرد ثروت باشا :

ـ لقد أعلنا استقلال البلاد .

ويبدو على فرعون الغضب :

ـ ومتى كانت مصر غير مستقلة . من الذى اعتدى على استقلالها؟

ثروت باشا (وجلا) :

ـ اعتدت إنجلترا على مصر .

فرعون : ولم قبلت الوزارة وحالة البلاد هكذا؟

ثروت باشا : جاهدت حتى أعلن استقلال البلاد .

الدكتور محجوب ثابت : ولكن السودان يامولاى ضاع .

فرعون : بأى وجه تتشرف بمقابلتى بعد أن نزعت روح مصر منها؟

ويظل الملك توت عنخ آمون يحاسب الوزراء ثم يقول لهم :

ـ يلوح لى أيها الوزراء أن الرئاسة والزعامة فى مصر هى سبب الشقاء والبلاء فأقلعوا عن هذا .

ويسخر محمود رشاد رئيس المحكمة السابق فى الصفحة الأولى من الأهرام من إنجلترا على لسان توت عنخ آمون الذى ينظر إلى من حوله فى افتتاح المقبرة ويسأل عنهم ، فيقدمهم له رجال الآثار بأسمائهم وجنسياتهم بادئا باللورد وكارتر قائلا إنهم من إنجلترا .

يتساءل الملك :

ـ إنجلترا ! ما سمعنا فى أيامنا باسم دولة مثل هذه الدولة .

يقول الأثرى :

ـ هى دولة عظيمة تكونت مع الزمن وأصبحت الآن صاحبة الحول والطول فى الدنيا .

ويقدم له ملكة بلجيكا فيقول فرعون :

ـ لم أسمع أيضا باسم بلجيكا مدة حكمى !

وهكذا .

* * *

ويعزى الأثرى المصرى سليم حسن شعب مصر فى انتهاك حرمة القبور قائلا فى صفحة الأهرام الأولى :

«إذا كان فى نبش المخدع ما يؤلم روح الملك فإن فيه ما يثير روحا جديدة فى أمة بأسرها .

وجاء الكشف الجديد مؤيدا بالبراهين القاطعة أننا شعب تاريخه من أمجد التواريخ ومدنية لا تقل عن مدنية أوروبا الحاضرة» .

وهبطت الجموع إلى وادى الملوك لمشاهدة الآثار . . المثيرة .

ولم تكن هناك أماكن كافية لهذه الأعداد الضخمة . . فلم يكن يوجد فى الأقصر سوى فندقين : ونتر بالاس ، والأقصر .

واضطر الفندقان إلى إقامة العشش والخيام فى الحديقتين المجاورتين لإيواء النزلاء .

ولأن صعيد مصر لا يتعرض للمطر ، فإن أحدا لم يرفع صوته بالشكوى لهذه الإقامة الصعبة !

واضطرت الحكومة المصرية لفتح مكتب بريد ، ومكتب صحفى ، وخط تلغراف جديد ، يصل المدينة بالقاهرة ثم بالعالم .

واستأجر الصحفيون كل «الفلوكات» فى المدينة ، والمدن المجاورة ، وأصبح سباقهم عبر النيل من الأقصر إلى وادى الملوك وكأنه يمثل معركة النيل الجديد .

ولم تكن هناك وسيلة مواصلات من شاطئ النهر إلى الوادى على امتداد ستة أميال فركب الصحفيون الحمير !

وأضيف قطار آخر من القاهرة إلى الأقصر أطلق عليه قطار توت عنخ آمون .

وبدأ المصريون المقيمون خارج مصر ، وبعضهم يدرس فى الخارج يكتب إلى صحف القاهرة قائلين :

«إن عملنا - كما تصوره صحافة العالم - قاصر على حراسة المقبرة وخدمتها ، لأننا لم نكتشف المقبرة ، ولا نحفظ ولا نرمم شيئا من آثارها ، إن الأجانب وحدهم يقومون بكل العمل .

إننا لم ندرس علم المصريات والآثار . وقد حان الوقت للتخصص فى ذلك .
وأخذت بعض صحف مصر تطالب ببيع ذهب المقبرة لسداد ديون مصر التى أدت إلى الاحتلال البريطانى» .

وأعلن الملك فؤاد فى برقية لكارنارفون وكارتر أن المصريين سيجنون «الربح» من هذا الكشف . . فإن كلمة «الربح» سيطرت ، فى البداية ، على مشاعر بعض المصريين !

تدفقت الأفواج . . السياحية على الأقصر ، فإن الشعوب المختلفة وبالذات فى أوروبا وأمريكا ، جنت بهذه الآثار .

وحملت السفن الضخمة ، عابرة المحيطات ، السياح الأمريكيين ، والإنجليز ، واليابانيين إلى مصر . وقالت الإحصاءات إن أكثر من نصف ركاب السفن المتجهة إلى هذه المنطقة من العالم يقصدون الأقصر !

وأصبحت الصحف تنشر كل يوم أسماء القادمين إلى المدينة ، كما تنشر الصحف الاقتصادية أسماء البواخر التى تصل إلى الموانى .

فى أسبوع واحد كان بين القادمين لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا الذى وافق على إصدار تصريح ٢٨ من فبراير عام ١٩٢٢ بإعلان استقلال مصر . ووصلت فى الأسبوع نفسه مغنية أوبرا وممثلة مسرح وعشرات من أعضاء الكونجرس الأمريكى . وزار المقبرة أيضا اثنان من كبار الصحفيين البريطانيين بيفربروك وروذرمير .

وأصبح السياح مثل الطيور التى تتجه جنوبا فى فصل الشتاء ، فقد وصل الجميع إلى الأقصر ، بالسكة الحديد والبواخر النيلية . وجذبت المقبرة السياح الذين اعتادوا زيارة بيت لحم ، مهد السيد المسيح فى عيد الميلاد .

كان السياح يصلون إلى المقبرة فى الخامسة والنصف صباحا على ظهور الحمير والعربات والسيارات .

وأعلنت شركة عربات النوم الأمريكية أن اللورد كارنارفون تعهد بالسماح للسياح الأمريكيين بمشاهدة المقبرة .

ولم يستطع اللورد تكذيب ذلك ، فإن الحكومة المصرية أعلنت أنها ستوفر للسياح الراحة وطيب الإقامة وسهولة الانتقال .

وانتعشت أعمال وكالات السياحة ، والسفر ، والمرشدين السياحيين ، والأثريين ، والفنادق وتجار الآثار ، ومزيفيها ، ووسطائها أيضا ! وأعلنت بعض شركات السياحة أنها حصلت لعملائها على حق دخول المقبرة دون أن تتصل بكارتر أو تحصل منه على تصريح !

وعلقت صحيفة «فيلادلفيا ليدجر» الأمريكية على هذا كله بقولها :

«حقق توت عنخ آمون لمصر الحديثة، ما لم يحققه فى حياته وزمانه»!

وكان الأغرب من هذا كله وصول بعض أعضاء الكونجرس الأمريكيين إلى مصر . . بعضهم يريد من القبر مساعدة فى الانتخابات .

وبعضهم يكتب لكارتر قائلا : «إن الناخبين سيأسفون لأننى قطعت ٧٦٠٠ ميل وجئت إلى هنا دون أن أطل على صاحب الجلالة»!

وتلقى كارتر ألوف الطلبات التى تتضمن الرغبة فى زيارة الموقع . . ونصائح عن طريقة الحفر، والتماس إرسال بعض الآثار من الذهب . . أو حبات من تراب أو رمل المقبرة .

وتنكر الموظفون المصريون والرسميون والصحفيون على هيئة سعاة التلغراف وكعمال مشتركين فى عملية الحفر ليحظوا بنظرة إلى حجرة الملك توت .

وكان الجميع يقفون خارج المقبرة ساعات طويلة والحرارة ٤٥ درجة مئوية يلتقطون صور العمال وهم ينقلون كل أثر .

* * *

دهش كارتر لكثرة أصدقائه الجدد! لقد عاش خمسين عاما تقريبا وحيدا يكتفى اكتفاء ذاتيا . وفجأة أصبح كل إنسان يدعى صداقته ويقول إنه كان يعرفه دائما : «هوارد الصديق القديم»!

كانوا فى البداية مئات ثم ألوفا جاءوا بخطاب توصية حتى يكون لهم شرف رؤية المقبرة، لأنها بعكس كل المقابر الأخرى فى وادى الملوك لم تكن مفتوحة للفرجة!

وفى الفنادق الفاخرة فى الأقصر كان الموضوع الرئيسى الوحيد : التوصية، اذهب إلى مستر فلان وفلان فهو صديق شخصى لهوارد كارتر .

وكل صباح عندما ترسل الشمس أول أشعتها المنخفضة على التلال المطلة على الوادى تمر جماهير غفيرة أمام بيت كارتر لترى أعجوبة أعاجيب العالم كما أصبحت تسمى .

كانوا يجيئون فى عربات تجرها الخيول، وعلى الحمير، وعلى الأقدام مزودين بمعدات الإقامة فى المعسكرات، يتكدسون على طول الحائط الذى أقيم حول مدخل

المقبرة. وتحت المظلات المقامة عاليا كان الرجال يتجاذبون أطراف الحديث والسيدات يغزلن «التريكو» والعاملون فى الفندق يحضرون سلال الرحلات.

وكانت بداية يوم كارتر كل صباح:

«مستر كارتر.. ما سبب وفاة توت عنخ آمون؟»

«مستر كارتر.. لماذا كانت هناك كنوز كثيرة موضوعة فى مقبرة توت عنخ آمون؟»

«مستر كارتر.. كيف تم إعداد مومياء توت عنخ آمون؟»

«مستر كارتر.... مستر كارتر!»

لقد أغار السياح وعشاق الثقافة من كل أنحاء العالم على أشهر المكتشفين للآثار.

وكلما زاد رد فعل كارتر فى العدوانية والفظاظة كلما تضاعفت منزلته.

وكان السياح الذين توافدوا على الأقصر من جميع أنحاء العالم يحاولون بكل حيلة ممكنة التعرف به والدخول إلى المقبرة، وباع مكتب السفريات الأمريكى مجموعات للسياح تتضمن صورا للمقبرة دون الاتصال بكارتر، ورابط السياح فى انتظاره وعرضوا دفع مبالغ كبيرة لإلقاء نظرة على المقبرة، وحاول أحدهم دخولها مرتديا زى عامل برقيات وتقمص آخر زى بائع ليمونادة.

وتجمع الناس حول باب دخول المعمل وعند مدخل المقبرة، يحاولون أن يظفروا بنظرة إلى الرجل العظيم أو بلمسة لذراعه، فمن الذى أدى إلى شهرة من؟ كارتر لتوت عنخ آمون أم توت عنخ آمون لكارتر؟

* * *

وادعى أحد أقباط مصر واسمه بقطر اثناسيوس أنه الوريث شرعا لكنوز توت عنخ آمون.

قال:

«عودوا إلى أوراق البردى التى توجد فى المقبرة لتتابعوا الأنساب.

وقد أمكن فى السنوات الأخيرة معرفة سلالة الإمبراطور شارلمان الذى مات فى أوائل القرن التاسع».

واضطرت السيدة كمبول التى تتبعت سلالة شارلمان فى أيرلندا إلى التصريح لصحيفة «دبلن هيرالد» بأنها مستعدة لفحص أوراق البردى؛ لتتبع أنساب توت عنخ آمون.

وقالت الصحيفة إن السيدة كمبول اشتهرت بالجلد والصبر!

قال آرثر ميرتون مراسل صحيفة التايمس:

«أصبحت الأقصر كلها بلاطا لصاحب الجلالة.

لقى التكريم فى كل مكان وتردد اسمه على جميع أنحاء المدينة ودوى فى الشوارع ودار به الهمس فى الفندق.

وفى المتاجر المحلية يعلن توت عنخ آمون عن كل شىء: الفن والقبعات، والعجائب، والصور وربما يصل الأمر إلى الآثار.

ووضع كل فندق فى الأقصر فى قوائم الطعام صنفا «على طريق توت».

ولكى يكون لك شأن فى طيبة عليك أن تبين الصلة بالملك القديم.

إن الناس ـ الذين لا يعرفون بعضهم إلا معرفة سطحية ـ يشتبكون فى الحديث عن الأحلام التى تراءت لهم أمس عن توت عنخ آمون.

وهنا أيضا رقصة توت عنخ آمون». وقال:

«إن توت عنخ آمون عاد ملكا حيا يحكم الأقصر»!

فى كتابها عن «توت عنخ آمون» قالت السيدة كريستيان ديروش نوبل كور أمينة القسم المصرى فى متحف اللوفر الفرنسى وترجمة أحمد رضا ومحمود خليل النحاس:

«حل الكد والإعياء بالمنقبين من جراء الطلبات المتلاحقة التى تنهال عليهم من عظماء الناس الراغبين فى زيارة المقبرة، أو من سياح شديدى العناد واللجاجة. كان

كل إنسان يريد الفرجة. ويشعر ـ عن حسن نية ـ بالإساءة تنال منه إذا لم يستقبل بالحفاوة اللازمة. ولم يعرض عليه كل ما استخرج من المقبرة.

وكان كل إنسان يريد أن ينفذ، بأى ثمن، إلى داخل هذا النطاق الذى تبلورت بين جدرانه المطلية بالملاط عمل آلاف السنين التى احتفظت لهؤلاء الرواد برسالات خيالية رائعة.

ولم يسلم العلماء المنقبون من متاعب الرجوات والاحتجاجات والتدخلات والحملات الصحفية.

وتخلف عن كل هذه الضجة، المجد والفخار العالمى، لتوت عنخ آمون».

* * *

تساءلت صحيفة الديلى إكسبريس البريطانية:

ـ ما حديث السهرة فى لندن هذه الأيام؟

وأجابت الصحيفة:

ـ إن توت عنخ آمون سيظل حديث الناس خلال القرن العشرين.

وأعلنت الصحيفة بانبهار:

«وصلت قبعة توت عنخ آمون وكان من الممكن رؤيتها فى محل بشارع ريجنت فقد اقتبست النماذج المصرية لأغطية الرأس، كما كان يرتديها فرعون».

ووضعت هذه الأغطية على رءوس تم اختيارهن للزفاف الملكى البريطانى فى ٢٦ إبريل ١٩٢٣.

ونشرت صحيفة «لندن نيوز» المصورة صورة كعكة الزفاف الملكى فقالت:

«إن النماذج المصرية والحديثة تحظى بالشرف مع ثياب العرس هذا الربيع».

وبعد أربعة أيام قالت «الإكسبريس» إن الموضات المصرية هى التى تشكل الموضة الجديدة للأثاث هذا الموسم «وهى» الجدران الرمادية الهادئة الغامضة التى تمثل خلفية مناسبة للطلاء الأسود والذهبى للموبيليا.

وكتب كثيرون فى لندن عن «الصحوة المصرية» فقالوا :

ـ الأثاث وغيره من محتويات مدفن فرعون يتميز بتصميمات متفوقة ونوعية ممتازة حتى أصبحت نموذجا بين يوم وليلة .

وانتشر تقليد طراز النيل .

وتحلت السيدات الأنيقات بأقراط كليوباتره التى اتخذت سمة مصرية ، بينما أنتج مصممون مثل «بيير لوجرين» مقاعد مصرية . وظهرت الشارات المصرية على كل شىء من «طفايات» السجائر إلى السينما !

وأدى اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون والشهرة التى أحيطت بها إلى مرحلة جديدة من «طابع النيل» . والفنون الصناعية الحديثة تأثرت إلى حد ما بالكشف المصرى ، ومن الزينات الهندسية الزاهية الألوان إلى التكوينات الهرمية .

وأنتجت علبة بسكويت على شكل وعاء جنائزى وعلى جانبيها مصريون قدماء يحملون الهدايا . وعلبة أخرى متعددة الوجوه على غطائها صورة للفرعون كما كان يظهر فى العشرينيات وتضم حلوى ملونة بلون المومياوات !

وقبل فترة «جنون توت عنخ آمون» كان تأثير «طراز النيل» ـ ككل ـ محصوراً فى جامعى التحف وعشاق الفن والخبراء فى الديكور الداخلى .

وبعد اكتشافات مقبرة توت وصل الطراز المصرى إلى قاع الشارع للمرة الأولى فى فرنسا .

فمواد الزينة والحليات المنتجة على نطاق واسع والمصنوعة من (الملامين) والبلاستيك مع الهيروغليفيات والأسطوانات المجنحة وخنافس الجعران والمسلات والأشكال المدرجة ظهرت فى المحلات إلى جانب العلب المرتبطة بتوت وعبوات السجائر والأشكال الأخرى .

ووصل تأثير توت إلى موسكو بعد وفاة لينين زعيم الاتحاد السوفييتى فى ٢١ يناير ١٩٢٤ فتم تحنيطه بالطريقة المصرية القديمة !

* * *

لم يتوقف الاهتمام بآثار توت عنخ آمون .

أثار الكشف اهتماما ضخما فى كل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا .

أخذت الصحف تخصص كثيرا من أعمدتها يوميا لنشر أنباء الكشف .

وتوجه مندوبو الصحف إلى كل من يدعى معرفة الآثار المصرية القديمة لمحادثته ونشر آرائه .

قالت صحيفة «نيويورك تايمس» : أصبح الأمريكى العادى يعرف عن الملك توت عنخ آمون وزوجته وميلاده وعمره ، كما يعرف لعبة «البيس بول» . . وقالت إن الكشف يفوق كهف على بابا ومصباح علاء الدين . وأعلن العالم الأثرى «جيمس بريستد» أن الاكتشافات الأثرية التى تمت فى اليونان تعتبر شيئا مبتذلا إذا قارناها بتوت عنخ آمون .

وفى البيوت ، والفنادق ، والقطارات ، ودور الملاهى ، وفى كل مكان ، أخذ الناس يتحدثون عن «الملك العظيم» !

وفوجئت مكاتب السجل التجارى بطلبات تسجيل «ماركة توت عنخ آمون» على بضائع كثيرة . وأقيمت عدة قضايا بين الأمريكيين كل يحاول احتكار الاسم لسلعته .

وأعلن فندق بنسلفانيا أن قائد الفرقة الموسيقية هو الأمريكى الوحيد الذى يستطيع عزف موسيقى توت .

وأثرت صور الآثار المصرية فى زينة المرأة والفنون الجميلة .

وازدحمت أقسام الآثار المصرية فى المتاحف بالزائرين من الخياطين وصناع الحلى حتى الحلاقين للقيام بثورة فى الملابس والأزياء .

ونقشت مصانع الأدوات الخزفية الآثار المصرية على مصنوعاتها .

وظهر شعار مصر فى كل مكان .

فى مسرح بالاس قدمت عارضات الأزياء ملابس توت .

وعلى شاطئ ميامى ظهر ثوب استحمام توت .

والمظلات والعصى عليها اسم ملك مصر، وأرسلت إحداها للرئيس الأمريكى.

وباع محل «ماسى» أكبر محلات نيويورك «عرائس توت».

وفى شارع ٣٨ بنيويورك عرضت حقائب توت.

وفى معرض الزهور فازت زهرة قرمزية بجائزة الملك توت، وبيعت بذور هذه الزهرة بخمسين دولارا للرطل الواحد.

وفى مقابر نيوأورليانز أعلن «الحانوتية» عن الدفن بطريقة توت!

وظهرت «غلاية توت» وسجاير توت، واضطر المجلس التشريعى فى ولاية ألاباما إلى إصدار تشريع يعاقب من يزور منتجات الملك المصرى!

وانتشرت محاولات الانفراد بالاستخدام التجارى لتوت ـ توت ـ توت.

واتخذت شركة اسم توت عنخ خيام وهو مزج ماكر بين توت وعمر الخيام.

وأعلن أن بيت الموضة «ليفكوفيتش وبيتوفسكى» فى نيويورك اتصل باللورد كارنارفون يعرض عليه ما لا يقل عن ٠٠٠ , ١٠٠ دولار للاستئشار بحق إنتاج ملابس ومطرزات وألوان على طراز كل الأشياء التى وجدت فى المقبرة. وعندما لم يتلق بيت الموضة ردا رفع المبلغ إلى ٠٠٠ , ٢٣٠ دولار.

وقالت صحيفة «نيويورك تايمس» إن الرواج الكبير المفاجئ فى تجارة الحرير يمكن أن يعزى إلى توت عنخ آمون.

وانتشر جنون توت فى يوم وليلة مما أدى إلى إجراء التعديلات اللازمة فى الموضة لتتحول إلى كم من تشكيلات التصميمات والألوان فاق كل شىء.

وحذر رئيس اتحاد مصممى الأزياء من المبالغة فى تصميم الأزياء على طريقة ملك مصر، فإن زيا أشبه بالمومياء كان يؤدى إلى ضيق التنفس لمن يرتديه.

وأخرج مدير متحف المتروبوليتان الأشياء التى اكتشفها المليونير دافيز قرب المقبرة الملكية وعرضها المتحف لإغراء الزائرين حتى ظن الناس أن هذه القطع نقلت مباشرة من قبر الملك إلى نيويورك.

وقلدت متاحف أمريكا هذه الفكرة وتسابقت متاحف بروكلين وسنسناتى وكارنيجى وسان دييجو فى عرض ما لديها من الآثار المصرية .

وكانت باريس رائدة موضة ملابس المرأة ، ولكن الأمريكيين الذين سافروا إلى باريس - بعد اكتشاف المقبرة - لاحظوا أن أمريكا سبقت فرنسا فى موضات أزياء الفراعنة . .

وقدم مصمم الأزياء الفرنسى ليون باسكت مجموعة أزياء إيزيس ، فإن تأثير المقبرة كان أوضح ما يكون فى عروض الأزياء .

وقدمت موضة كليوباتره وكأنها خرجت من بين جدران المقبرة بزى جديد .

وفى لندن أعلن المعرض الإمبراطورى عن تقديم نموذج مصغر للمقبرة فزار المعرض ٢٠٠ ألف يوم الافتتاح .

وانتقل التأثير إلى الأدب ، فظهر الفنان بوريس كارلوف فى أدوار الرعب التى تجرى فى أجواء مصرية .

واستمر تأثير الكشف فى الروايات فقدمت فيكتوريا هولت «لعنة الملك» .

وقدمت إنجلترا رواية «الغول» .

وقدمت برلين «انتقام فرعون» .

وقبل سنوات فى هوليود كان «سيسيل دى ميل» المتمكن فى دراسة القصص ذات الاهتمام الإنسانى من كل نوع قد بدأ يعد فيلمه وملحمته «الوصايا العشر» لشركة باراماونت .

وعندما عرض الموضوع لأول مرة على أدولف زوكر فى خريف عام ١٩٢٢ لم يكن مدير الشركة متحمسا على الإطلاق . قال : «رجال مسنون يرتدون ملابس المائدة ويطلقون اللحى؟! إن فيلما كهذا يجر علينا الخراب ياسيسيل . . وكم سيكلف؟» .

رد دى ميل قائلا «مليون دولار . . فكر فى الأمر . . ستكون أول شركة سينمائية فى التاريخ تفتح وتغلق البحر الأحمر» .

فرد زوكر: وقد أكون أنا أول مدير يفتح ويغلق شركة باراماونت السينمائية.

ولكن بعد اكتشاف المقبرة أنتج الفيلم فى ديسمبر ١٩٢٣ وتكلف ١,٥ مليون دولار وحقق أرباحا بلغت ٤ ملايين دولار.

بعد ذلك تحول دى ميل إلى التاريخ المصرى القديم عام ١٩٣٤ مخرجا «كليو باتره».

وقدمت هوليود رواية «المومياء»، ثم «يد المومياء» عام ١٩٤٠ و«لعنة المومياء» عام ١٩٤٥ وفى عام ١٩٧٤ ظهرت رواية «قلعة كارنارفون».

وتلقى اللورد برقيات من مؤسسات فى اليابان وسويسرا تطلب حق تسجيل رسوم المقبرة واستغلالها ولكن اللورد اعتذر قائلا إن الرسوم ستكون متاحة للجميع.

* * *

رأت مصر بعد حوالى نصف قرن تقريبا عرض هذه الآثار فى دول العالم المختلفة وتوجيه الدخل لإنقاذ معبد أبو سمبل وآثار النوبة.

عرضت خمسون من هذه الآثار فى اليابان عام ١٩٦٥ فى معرض نظمته صحيفة «أساهى» وفى باريس فى القصر الصغير، وقد نظمته الحكومة الفرنسية عام ١٩٦٧ وفى الاتحاد السوفييتى.

وجاء الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون زائرا لمصر عام ١٩٧٤ فطلب من الرئيس المصرى أنور السادات عرض هذه الآثار فى الولايات المتحدة تعبيرا عن النوايا الحسنة والعلاقات الطيبة بين البلدين بعد أن ظلت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بينهما عدة سنين.

وعقد اتفاق بذلك وقعه كل من إسماعيل فهمى وزير خارجية مصر ونائب رئيس وزرائها وهنرى كسينجر وزير الخارجية الأمريكى.

ولكن مصر طلبت التأمين على هذه القطع الأثرية كما حدث فى كل الدول.

ولم يكن القانون الأمريكى يسمح بأن تدفع الحكومة الأمريكية أقساط تأمين لإحدى الشركات أو تتعهد بذلك.

وأصرت مصر . .

وكان الحل فى إصدار قانون ، وافق عليه الكونجرس الأمريكى ، يسمح لمجلس الفنون والإنسانيات بدفع تعويض قدره ١٥٠ مليون دولار إذا أصيبت هذه الآثار بأضرار .

واستقال نيكسون وتولى الرئاسة الأمريكية جيرالد فورد فوقع قانونا بذلك فى ٢٠ من فبراير عام ١٩٧٥ .

وجاءت إلى ميناء الإسكندرية سفينتان حربيتان أمريكيتان من الأسطول السادس إلى ميناء الإسكندرية لتنقل هذه الآثار إلى الشاطئ الأمريكى . . وهذه أول مرة فى تاريخ الأسطول السادس يقوم بشحن مجموعة من الآثار .

عرضت الآثار فى ٦ مدن أمريكية هى واشنطن ، ونيويورك ، وشيكاغو ، ونيوأورليانز ولوس أنجلوس وسياتل .

ومن الولايات المتحدة نقلت الآثار بالسيارات إلى كندا .

وتولت ٦ طائرات ألمانية شحن هذه الآثار لتطوف مدن ألمانيا الغربية .

وتتابعت عروض الدول التى تطلب آثار توت عنخ آمون .

ولم تتوقف هذه العروض أبدا!

هنيئا.. للعيون التى رأت

لم يكن كارتر مستعدا لهذا الاكتشاف الضخم .

إن القطع الأثرية ظلت فى مكان لا يدخله الهواء أكثر من ٣٠٠٠ سنة . . ودخول الهواء سيؤدى إلى تفتتها وربما تتحول إلى تراب . .

كانت كل قطعة فى حاجة إلى ترميم لتتماسك قبل نقلها من مكانها . .

وعلى سبيل المثال فإن ثوبا ملكيا واحدا . . وفيه مئات من الخيوط الذهبية ، يحتاج إلى عمل شهرين كاملين حتى يمكن نقله .

وكان كارتر فى حاجة إلى خبراء فى الكتابة الهيروغليفية يقرءون ما كتب على الجدران . وفى حاجة إلى معمل كامل . . وطاقة كهربائية ؛ لأن الكشف تم على ضوء مصابيح الغاز !

وكان فى حاجة إلى من يسجل كل أثر برموزه . . وإلى تصوير كل تحفة قبل نقلها .

وكان فى حاجة إلى غرفة تحميض لطبع هذه الأفلام . .

كان كارتر فردا وأثريا واحدا أمامه ٥٠٠٠ قطعة آثار ، عمر كل منها أكثر من ٣٠٠٠ سنة .

ففى الغرفة الأولى فقط ـ وقد أطلق عليها الغرفة الخارجية ـ تكدست كل الأمتعة الشخصية للملك وعددها ٥٠٠ قطعة ، وهى التى يحتاجها فى العالم الآخر . . بينها عربات الملك وسلاحه وأثاث مغشى بالذهب ، ومطعم بالعاج والزجاج الملون ، وعلب الجواهر والملابس مكومة فوق بعضها . وصورة للملك مع زوجته .

وصورة توت عنخ آمون جالسا ـ دون اكتراث ـ على عرش آخر ، بينما تقوم الملكة بدهان كتفه بالزيت ، وبينهما قرص الشمس تنتهى أشعته بأيد إنسانية رمز عبادة آتون التى مارسها إخناتون ، فى عاصمته تل العمارنة .

ووجد قوس الصيد المحلى برءوس تسعة من الأسرى وصورة للملك وبصحبته الملكة يصيد الطير ويقف إلى جانبه شبل أسد . والزينة التقليدية للأمتعة والتحف الملكية . . . . .

* * *

فكر كارتر فى الاستعانة بمصلحة الآثار ورجالها ولكنه وجد الموقف قد تغير تماما فى هذه المصلحة .

مات أحد أبناء ماسبيرو مدير المصلحة فى الحرب العالمية الأولى فساءت صحة الأب .

واضطر للاستقالة والعودة إلى فرنسا حيث توفى فى ٣٠ من يونيو عام ١٩١٦ وعمره سبعون عاما فى أثناء حضوره الجلسة الأخيرة لمؤتمر الشرقيين فى باريس .

وتولى إدارة مصلحة الآثار فرنسى آخر هو بيير لاكو الذى يجيد اللغة المصرية القديمة وتخصص أيضا فى آثار مصر وأصدر أول كتاب عنها عام ١٨٩٤ .

وظل لاكو مديرا لمصلحة الآثار حتى عام ١٩٣٦ ثم عاد إلى فرنسا ليشغل كرسى شامبليون فى كلية فرنسا بباريس ويوالى نشر أبحاثه ودراساته عن آثار مصر حتى عام ١٩٥٨ ومات عام ١٩٦٢ فى سن التسعين .

وكانت سياسة لاكو مختلفة تماما عن ماسبيرو .

إنه يرى الاحتفاظ بآثار مصر . . داخل مصر . .

وهو ـ فى البداية ـ يشك فى كارتر .

ورأى كارتر ألا يستدعى أحدا من رجال المتحف البريطانى فى لندن مع أنهم أكثر دراية وخبرة .

وكان السبب فى ذلك الخوف من أن ينسب هؤلاء كل شىء لأنفسهم. ولم يبق أمام كارتر إلا متحف المتروبوليتان فى نيويورك.

* * *

أنشئ المتروبوليتان عام ١٨٧٠ وأقيم فى ضاحية مانهاتان بمدينة نيويورك. أسسه عدد من كبار رجال المال والصناعة فى المدينة، ويختلف عن كل المتاحف الكبرى فى أن الملوك والنبلاء لم ينشئوه ولم يجمعوا له التحف بل أهداها وأقرضها له، إلى الأبد، الأمريكيون الأثرياء!!

وفى المتحف الآن ٣ ملايين تحفة فنية تمثل التطور، وفيه أكبر مجموعة من التحف والآثار المصرية والإسلامية فى أوروبا وأمريكا. وبه ألف موظف وعامل و١٩ جناحا وقسما.

وهو أحد ٦ متاحف كبرى فى العالم الغربى هى المتحف البريطانى فى لندن، والهيرميتاج فى لننجراد، واللوفر فى باريس، وبرادو بمدريد والفاتيكان فى روما..

وقد أهدت مصر إلى المتحف معبد «دندور» تقديرا لمساهمة الولايات المتحدة فى إنقاذ آثار النوبة كما أقيم به معرض آثار توت عنخ آمون عام ١٩٧٨.

وكان متحف المتروبوليتان فى أوائل القرن ثريا.. ترك له صاحب ملايين اسمه جاكوب روجرز ١٠ ملايين دولار يستفيد بريعها فى شراء الآثار.

أنشأ هذا المتحف قسما للآثار المصرية عام ١٩٠٦ عهد بإدارته إلى ليجو الذى طلب إلى آرثر ميس أن ينقب لحسابه عن الآثار المصرية. وكان المتحف ينفق سنويا ٦٠ ألف جنيه للبحث عن هذه الآثار، ويدفع ٤٠ ألفا للمطبوعات الأثرية عن مصر، بينما ميزانية مصلحة الآثار المصرية ٤٧ ألف جنيه تدفع منها مرتبات الموظفين وتكاليف البحث عن الآثار وصيانتها وترميمها!

* * *

وكانت هناك أسباب كثيرة دفعت كارتر للاستعانة بمتحف المتروبوليتان.

أولها: أن كارتر وكارنافورن لديهما علاقات مالية مع هذا المتحف ظلت سرا لسنوات طويلة.

وثانيها : أن رجال المتحف ساعدوا كارتر فى الوصول إلى اكتشاف المقبرة عندما أطلعوه على ما قام به وينلوك .

وثالثها : أن رجال المتحف لديهم الخبراء الذين يصلحون للعمل المطلوب : التصوير والترميم، والحفظ ، وترجمة النصوص الهيروغليفية، وعدد منهم يقيم فى الأقصر وصعيد مصر ، ينقب عن الآثار .

وافق متحف المتروبوليتان على أن يضع إمكاناته ، ورجاله والأمناء العاملين فى القسم المصرى بالمتحف سواء كانوا فى مصر أو نيويورك فى خدمة كارنارفون وكارتر والكشف الجديد .

وهكذا أصبح لدى كارتر فريق من الخبراء .

«آرثر ميس» خبير حفظ الآثار .

«هارى بيرتون» أفضل مصور للآثار وكان أسطورة عمره ، يجمع بين العلم والفن فى كل صورة .

«جيمس هنرى بريستد» أستاذ علم المصريات بالمعهد الشرقى فى شيكاغو .

و«بريستد» درس الصيدلة . ولكنه هوى التاريخ المصرى القديم فانتقل من الولايات المتحدة إلى ألمانيا ليدرس التاريخ المصرى القديم مع أدولف آيرمان أول أمريكى يحصل على درجة الدكتوراه فى المصريات .

ولم يكن هدفه القيام بحفريات بقدر ما كان اهتمامه بترجمة وتفسير ما تقوله وتكشف عنه الآثار المصرية . وقد ظل ١١ سنة يتجول فى مصر ، يترجم ما كتب على الآثار ويشرحه ويقتل صمته وهو يكتب تاريخ مصر القديمة فى خمس مجلدات .

والسير «آلان جاردنر» ـ البريطانى ـ أستاذ الكتابة الهيروغيليفية وخبيرها العالمى الأول فى ذلك الوقت .

وانضم إليهم «ألفريد لوكاس» رئيس قسم الكيمياء بمصلحة الآثار المصرية . .

ولم يكن ذلك عملا خيريا من المتحف تشجيعا للبحث عن الآثار المصرية ، بل كان عملية دقيقة تمت بحسابات هدفها أن يحقق كل منهما أقصى ما يمكن تحقيقه

من المكاسب الفنية والمالية والتاريخية، فإن الكشف لم يحدث من قبل فى تاريخ الآثار، أوالفن، فى أى من بلاد الدنيا.

وكان المتحف على يقين من أنه بعد حصول اللورد وكارتر على نصف الآثار فإنهما سيقدمان بعضها هدية للمتحف تقديرا لمساعداته القيمة.

* * *

سمحت مصلحة الآثار باستخدام قبر سيتى الأول وقبرين مجاورين كمعامل للتصوير وترميم الآثار وحفظها، وأطلق عليها اسم «الورشة».

واشترى كارتر بابًا من الحديد وزنه طن ونصف طن لإغلاق مقبرة توت عنخ آمون وأدوات كيميائية لترميم الآثار.

وأصبح مشهدا مثيرا نقل قطعة أثرية من مقبرة توت عنخ آمون إلى قبر سيتى الأول لتصويرها.

كانت الآثار تنقل على «نقالة» وكأنها إنسان مريض.

وكان السياح يلتقطون مئات الصور لهذه العملية المثيرة!

* * *

كان يرأس الوزارة المصرية منذ ٣٠ من نوفمبر ١٩٢٢ - أى منذ اليوم التالى لافتتاح المقبرة رسميا - محمد توفيق نسيم باشا، الذى لم تعمر وزارته سوى عشرة أسابيع سلمت خلالها للإنجليز بالتنازل عن نصوص الدستور الخاصة بالسودان.

وكان إسماعيل سرى باشا يشغل منصب وزير الأشغال.

ولكن أزمة وزارية ظهرت مرة أخرى بسبب مشروع الدستور المصرى.

وجه الإنجليز إنذاراً إلى الملك فؤاد لحذف المواد الخاصة بالسودان فى مشروع الدستور.

قبل الملك الإنذار وحذف ما طلب الإنجليز حذفه.

استقال محمد توفيق باشا رئيس الوزراء يوم ٩ من فبراير ١٩٢٣ بعد أن خضع للملك والإنجليز.

حدد اللورد كارنارفون يوم ١٧ من فبراير ١٩٢٣ لافتتاح غرفة الدفن. وهو يوم كانت فيه مصر بغير وزارة. تماما كما حدث يوم ٢٩ من نوفمبر ١٩٢٢ عند افتتاح المقبرة نفسها فإن وزارة مصر فى ذلك اليوم كانت قد استقالت، ولم تشكل وزارة جديدة.. بعد! ومن الغريب أن تتكرر المصادفة مرتين!!

* * *

جاء مئات المصريين والسياح إلى المقبرة منذ الصباح الباكر على ظهور الحمير، والخيل والعربات، وسيرا على الأقدام.. كل يريد أقرب مكان إلى المقبرة ليشاهد الحدث الضخم الفريد فى التاريخ!!

فى الغرفة الأمامية أعدت المقاعد لكبار الضيوف.

تخلف الملك أحمد فؤاد عن الحضور.

وكان مقرراً دعوة عشرين فقط ولكن الرقم تضاعف إلى أربعين، جلسوا فى صفوف متراصة وكأنهم يشهدون مسرحية.. وركزت الأضواء على جدار غرفة الدفن!!

ووصل اللورد اللنبى وقرينته واثنان من الأمراء عمر طوسون ويوسف كمال، وخمسة من رؤساء الوزارات السابقين حسين رشدى، ومحمد سعيد، وتوفيق نسيم، وعدلى يكن، وعبد الخالق ثروت، وإسماعيل صدقى الذى تولى رئاسة الوزارة فيما بعد والسيرجون ماكسويل القائد البريطانى العام السابق فى مصر والوزراء المفوضون للدول الكبرى، وبيير لاكو مديرعام مصلحة الآثار وكبار رجال المصلحة وابنة اللورد كارنارفون.

وتخلفت ملكة بلجيكا إليزابيث الثانية وولى عهدها الأمير ليوبولد ـ اللذان جاءا من بلجيكا خصيصا لهذه المناسبة، واستقلا قطارا خاصا من الإسكندرية ـ إلى اليوم التالى، فقد مرضت الملكة وقيل إنها خشيت من الحرارة والزحام.

ونشرت بعض الصحف أنها «اللعنة».

ولكن صاحبة الجلالة تحدت اللعنة وأمضت شهرا فى مصر تبرعت خلاله بمبلغ ١٨٠٠ جنيه وزارت المقبرة فى اليوم التالى وعقدت مؤتمرا صحفيا عن أهمية الكشف . . ثم دخلت المقبرة زائرة ٣ مرات بعد ذلك ! !

وكان موكبها المؤلف من ٧ سيارات حدثا مهما فى الأقصر ! !

* * *

قال اللورد كارنارفون للصحفيين وهو يتجه إلى المقبرة :

ـ سنقيم حفلا موسيقيا وسيغنى كارتر أغنية لنا .

وفتح كالندر ـ مساعد كارتر ـ الباب الحديدى الضخم الذى سماه الصحفيون «باب البرج الحصين» ! !

بدأ الحفل بخطاب قصير للورد كارنارفون شكر فيه العاملين فى المقبرة ، وكان أغلب الشكر للأمريكيين الذين تطوعوا بالمساهمة فى الحفظ والترميم والتسجيل والتصوير . . مجانا . . ! !

وكان اللورد شديد الانفعال يخشى أن تكتشف عملية دخوله مع كارتر خلسة وسرا . . مساء ٤ من نوفمبر عند الاكتشاف .

وتلاه كارتر بخطاب عن الجهود التى بذلها حتى عثر على قبر الملك .

ثم بدأت أول «مسرحية» من نوعها فى تاريخ الاكتشافات الأثرية ! !

* * *

أخذ كارتر معوله يكسر به الجدار الذى يفصل بين الحجرة الخارجية وحجرة الدفن . استغرق ذلك حوالى عشر دقائق قبل أن يجد فتحة يبلغ عرضها قدما واحدا وارتفاعها ثمانى أو عشر بوصات . . حتى يستطيع النظر من خلالها بمساعدة كشاف كهربائى «بطارية» .

أزال كارتر الجزء العلوى من الحائط .

ورأى ـ كما قال ـ :

«على بعد متر من الباب، وبقدر ما يستطيع المرء أن يرى، يحجب مدخل الغرفة ما يبدو حسب كل الظواهر أنه حائط من الذهب . . كان الجانب الخارجى للمقاصير التى تحتوى على التابوت الحجرى والمومياء.

وكان منقوشًا على الغشاء الذهبى النصوص والرموز السحرية التى يحتاجها توت عنخ آمون لحماية نفسه فى رحلته خلال العالم الآخر. وفى جدران المقاصير حول التابوت الحجرى وضعت الأشياء السحرية التى يحتاجها فى أثناء الرحلة.

ورقدت سبعة مجاديف سحرية جاهزة لعبوره مياه العالم الآخر. ومصابيح منحوتة من الحجر الجيرى الشفاف، ولها مساند نحتت بكل رقة فى صورة سيقان اللوتس . . أعدت لتضىء طريقه. والبوق الفضى الذى ربما كانوا يحملونه أمامه . . عند استعراضه لجيوشه وجد راقدا إلى جانب المقصورة . . وأوانى من العطور والدهون نحتت فى صور رقيقة كانت معدة لاستعمال الملك.

وأعطى ألبرت ليتجو الأمريكى صورة لما يجرى فى الداخل.

قال:

«وقفنا جميعا نرقب كارتر فى صمت - حتى إن المرء كان يستطيع أن يسمع صوت ارتطام الإبرة بالأرض.

ورأيت بالقرب منى ما بدا وكأنه أحد جوانب ضريح عظيم أو منصة تابوت طليت باللون الأزرق اللامع والذهب» . .

* * *

استمرت عملية هدم الجدار ثلاث ساعات وصفها مراسل صحيفة «الديلى تلجراف» البريطانية الذى كان يجلس فى الخارج تحت أشعة الشمس الحامية . . فقال:

«طوال الساعات الثلاث كانت كل كبيرة وصغيرة تتم ملاحظتها.

أحيانا يكون هذا الشىء قطعة من البناء تم إحضارها، وأحيانا أخرى كنا نسمع صيحات تعجب من السيدة إيفلين ابنة اللورد!!

وفى بعض الأحيان الأخرى كنا نسمع صوت ضربات «الأزميل» أو المطرقة .

وزادت إثارة المشاهدين عندما رأوا العمال يخرجون كتلا من البناء وسلالا من الأنقاض الصغيرة» .

* * *

وفى أول الأمر أخذ كارتر وكارنارفون يشقان طريقهما بصعوبة خلال الحيز الضيق بينما انتظر الجميع عودتهما . . وعندما رجعا أعربا عن ذهولهما مما شاهداه .

وقام الضيوف بالدخول . . اثنان معا فى كل مرة .

التفت لاكوالى جاردنر وهو بدين قائلا :

ـ الأفضل لك ألا تحاول الدخول .

ولكن جاردنر دخل مع البروفيسور بريستد .

وكان بريستد قد غادر فراش مرضه ليشهد هذه المناسبة الفريدة فى التاريخ .

وكتب يصف تلك اللحظة :

«فى القلب الساكن للجبل ظل الملك راقداً هناك طيلة ثلاثة آلاف سنة تقريبا منذ هبطت زوجته درجات السلم إلى حجرة الدفن للمرة الأخيرة ، وربما تكون هى التى وضعت الكفن بأصابعها على جسده .

وربما تكون هى التى وضعت فى مدخل الحجرة المفضية إلى المدفن باقة من الزهور البرية الرقيقة التى وجدناها ماثلة أمامنا . . وكان هذا بمثابة إيماءة الحب والأسى الأخيرة التى قدمتها إلى الملك الراحل . .

ولما أصبحنا فى مواجهة مقدمة الضريح ذى البوابتين الكبيرتين .

فتح كارتر البابين . فأصبح بإمكاننا رؤية ما بداخل هذا الضريح الذى يبلغ طوله ١٧ قدما وعرضه ١١ قدما» .

قال كارتر عندما رفع غطاء التابوت الحجرى : «خرجت آهة إعجاب من شفاهنا . . فتابوت ذهبى للملك الشاب من أبدع ما أخرجه الصانع كان داخل التابوت الحجرى» .

وعلى حاجبه وُضع إكليل صغير من الزهور، ربما هدية من ملكته.

وقال ليتجو:

«يا له من مشهد!!

عرفنا أننا وحدنا رأينا الآثار المقدسة والمعدات الجنائزية لملك مصرى. وجعلنا غطاء النعش نتحقق من أننا فى حضرة الملك الذى مات من عصر مضى. وكانت الأقفال فوق الأبواب المغلقة.. لم تفض.

كان الضريح سليما لم يمس، وكانت أبوابه تحمل أختامها الأصلية دون خدش.. مما يشير إلى أن اللصوص لم يصلوا إليه..

وأدركنا أننا أول من يطأ أرض هذا الضريح الذى لم يدخله إنسان، والذى توجد به أشياء لم يمسها أحد منذ سجى الملك الطفل فيها منذ ثلاثة آلاف مضت من السنين.

وعندما سحبنا المزاليج الأبنوسية للضريح العظيم.. ارتدت الأبواب إلى الخلف كما لو كانت قد أغلقت بالأمس فقط.. وكشفت النقاب عن ضريح آخر يشبه طراز الضريح الأول لم يمسسه أذى والمطعم أيضا باللون الأزرق.

وكانت للضريح أبواب وضعت عليها مزاليج مشابهة. ولكن يوجد عليها ختم سليم يحمل اسم توت عنخ آمون وصورة لابن أوى مضطجعا على أعداء مصر التسعة.

ولا تستطيع الكلمات أن تصف مشاعرى عندما وقفت.. مذهولا تماما عن كل شىء..

لم أشعر بالإثارة العصبية، بل أحسست برهبة مذهلة.. ولأول مرة طوال خبرتى فى مشاهدة ودخول غرف الدفن القديمة.. شعرت بحضور الموت».

وكان كارتر أكثر الجميع إحساسًا برهبة الموت.

قال:

«فى كل العصور، وبالنسبة لجميع الأجناس ظل الموت طيفا متشحا بالغموض الكثيف باعتباره القضاء المحتوم الذى لا مناص للإنسان من مواجهته.

وظلت الجهود الرامية إلى إلقاء الأضواء على الظلام الذى يكتنفه الموت جهودا تدعو إلى الأسى والحزن. ولذلك كانت حياة الإنسان المصرى وفنه معنيين بهذه المشكلة التى لا حل لها.

حاول العقل البشرى دائما تهدئة المخاوف الإنسانية، وتطلع هذا العقل الفضولى إلى أن يجد فى معتقداته سلوى له.. لتوفير بعض الحماية من الأخطار التى تحفل بها هاوية المجهول المظلمة.

ولكن المصرى القديم سعى دائما ـ على عتبات الموت ـ إلى الحصول على الراحة فى الحب والحنان اللذين يربطانه بالحياة ـ وهو مسعى طبيعى كشف النقاب عن نفسه فى الطقوس الجنائزية القديمة!!».

وأضاف كارتر:

«لم نكن راغبين فى كسر الأختام؛ لأن إحساسًا بالتطفل غمرنا بشكل كبير، وربما تزايد من جراء تأثير الغطاء الكتانى الذى وضع على الضريح الداخلى.. وشعرنا بأننا فى حضرة الملك المتوفى وأنه يجب علينا توقيره.

ربما تكون قد مرت ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة على آخر مرة وطأت فيها قدم هذا المكان الذى نقف فيه. والآن وأنت تلاحظ علامات الحياة الحديثة حولك ـ إناء الدهان الممتلئ لنصفه بالباب، والمصباح المسود وبصمة الإصبع على السطح المدهون حديثا وإكليل الوداع الملقى على العتبة ـ إنك تشعر كما لو كانت كلها قد وضعت بالأمس فقط.. إن الزمن يمحى بتفاصيل صغيرة حميمة كهذه».

كتب كارتر: «إن تسليط الضوء على الآثار هو تجربة جديدة ومذهلة للغالبية منا».

كل الطرق تؤدى هذه الأيام إلى توت عنخ آمون وفى أى وقت يسير فيه المرء على ضفة القناة الرائعة بمحاذاة المدافن الوطنية المؤدية إلى وادى الملوك يرى طابورا لا ينتهى من الناس على الحمير. أو كاريتات على الطريق، أو على التل كلهم يسيرون فى اتجاه المقبرة التى تم اكتشافها مؤخرا أو فى الاتجاه القادم. والصبية فى كل منحنى يقدمون لك تماثيل من الجبس لتوت عنخ آمون وهى بالمناسبة يمكن أن تمثل أى ملك آخر أيضًا.

وعبر آرثر ديجال، وهو العالم الأثرى، عن مشاعره فى صحيفة الديلى:

«عندما ترددت أول هبة عبر الحجرة اجتاحتنى رعشة كما لو أن شيئًا اشتعل فى عروقى. وتخيلت أننى أرى الفرعون فى الظلمة فى الجانب الآخر من المدخل وقد قام فجأة من مرقده الطويل وأخذ ينصت.. كان الاعتقاد المصرى القديم أن نوم الموت يستمر ثلاثة آلاف عام وبذلك يكون الوقت قد أزف، وقد يكون قدخيل إليه أن يوم البعث قد جاء»...

اعتمد المراسلون فى الأقصر على الإشاعات.

قال أحد العمال الوطنيين: إنه تم العثور على ثمانى مومياوات.

وقال عامل آخر إنه تم العثور على ثلاث مومياوات.

وأدت هذه المعلومات الزائفة التى أوعز بها كارتر إلى إرباك الصحف ـ عدا التايمس ـ وانتشرت الإشاعات والنبوءات فى مصر والعالم.

والنبوءات لا حَدّ لها.

نشرت الأهرام أن كارتر سيقوم بتهريب مومياء الملك إلى لندن.

وبين الإشاعات أن ٣ طائرات هبطت إلى وادى الملوك ليلا وحملت الآثار وطارت إلى مكان مجهول.

وسخر مراسل صحيفة الديلى تلجراف من أسلوب معاملة الصحفيين فقال:

«يكفى أن تظهر أنك لست صحفيا حتى يسمح لك بدخول المقبرة»!

وكتب مراسل مصرى من الأقصر:

«عومل رجال الصحافة فى المقبرة كما يعامل الصبية. وإذا كان فى هذه المعاملة تفريط فى حق، فإنما هو حق الرأى العام لا فرق بين الأجنبى منه، والوطنى.

لم نتمكن من خطف الأسرار من طيات ضمير الواقفين عليها ومن ظلمات مدفن ذلك المصرى القديم.

وقضى على الجمهور بألا يعلم من أخبار المدهشات المكتشفة إلا ما يعطيه لورد كارنارفون لمراسل التايمس، وما يجود به قلم المطبوعات المصرى.

ركبنا الحمير مسافة ثمانين دقيقة لنطل من كوة على منظر ذلك الصندوق الكبير المذهب الموجود فى الغرفة الأولى.

هذا كل ما رأيناه . . فهنيئا للعيون التى رأت أكثر من ذلك».

* * *

واستمرت أنباء المقبرة تجذب اهتمام العالم . .

* * *

كان مراسل «التايمس» هو الصحفى الوحيد الذى دعى للحضور.

ولم يسمح اللورد لصحفى آخر بالحضور. قالت الصحف المصرية إن ذلك كان تنفيذاً للصفقة التجارية المعلومة.

وكان لذلك تأثير بالغ على الصحفيين الذين بلغ استياؤهم درجة بعيدة . . وصمم اللورد على عدم الأخذ برأى أحد مهما اشتدت الحملة.

وثارت بعض الصحف الإنجليزية «كالديلى ميل» و«الديلى إكسبريس» و«المورننج بوست» وعهدت إلى أحد المحامين إقامة دعوى على اللورد أمام قاضى الأمور المستعجلة.

ولكن رئى أنه لا يمكن عقد جلسة مستعجلة قبل موعد الافتتاح فعدلت الصحف عن إقامة الدعوى . . . مؤقتا.

بعد أيام من الافتتاح لم يجد مراسلو الصحف شيئا مثيرا يكتبونه عن المقبرة يبررون به بقاءهم فى الأقصر، فبعث مندوب جريدة «النيويورك تايمس» إلى صحيفته يقول:

«تسلل فأر ضخم إلى مقبرة توت عنخ آمون أحس به الأثريون فتوقفت أعمالهم، وقد وضعوا مصيدة، ووضعوا قلوبهم على أيديهم. خوفا على المقتنيات الثمينة من فأر يتجول حرّا فى أثمن ما لدى مصر من آثار قد يحطمها» .

* * *

ومرة أخرى غطت أخبار المقبرة على الأحداث العالمية الكبرى التى جرت فى ذلك العـام . . . زلزال طوكيـو وولاية أوكـلاهومـا الأمـريكيـة والقـتلى الذين بلغ عددهم ١٢٠ ألفا . . وفشل انقلاب هتلر فى ميونيخ ، وانهيار سعر المارك الألمانى ، حتى أصبح الدولار يساوى ٤ ملايين مارك وعـزل ملك اليـونان جورج الثـانى ، وانتخاب حاييم وايزمان رئيسًا للمؤتمر الصهيونى العالمى . . وانتخاب مصطفى كمال رئيسًا لتركيا . .

* * *

بدأ شحن أول مجموعة من القطع الأثرية وعددها ٥٠٠ ، تم ترميمـها ونقلت على ٩ سيارات إلى محطة سكة حديد الأقصر ، ٥ أميال ونصف ميل ، ثم ٥٠٠ ميل على النيل حتى استقرت عـلى الشاطئ قرب المتحف المصرى بالقاهرة ؛ لتعرض على الجمهور .

وتكررت القصة القديمة التى وقعت فيها قبل نصف قرن .

رأت الفلاحات الصناديق تخرج من المقبرة محملة بالآثار ، فأخذن يندبن ويبكين . . ربما على انتهاك حرمة القبور . . وربما على ضياع مقبرة كاملة بآثارها . . كان يمكن أن تضاف إلى قائمة السرقات الطويلة ! !

وفـــاة اللـــورد

استقل اللورد كارنارفون الباخرة من ميناء الإسكندرية يوم ١٤ من ديسمبر عائداً إلى بلاده ليستقبله ملك بريطانيا جورج الخامس فى قصر باكنجهام يوم ٢٢ من ديسمبر ويستمع باهتمام إلى وصف الحفائر والاكتشافات المهمة التى أجراها اللورد فى مصر خلال ستة عشر عامًا متتالية .

وكان ذلك تكريمًا للورد ، لم يحظ كارتر بمثله ، فلم يستدع أبدًا إلى قصر ملك بريطانيا .

وفى قوائم «الإنعامات السامية» بالألقاب التى تعلن فى بريطانيا فى بداية كل عام خلت قائمة يناير عام ١٩٢٣ من اسم كارتر بينما منح لقب لمدير مصلحة الجمارك فى نيوزيلندا !

أما فؤاد ملك مصر فلم يكرم أيّا من الرجلين مكتفيا بعبارات الثناء التى أغدقها عليهما قائلا : «إن اسميهما سيبقيان خالدين فى تاريخ مصر القديمة وعلم الآثار» .

ولكن اللورد كارنارفون خلال إقامته القصيرة فى لندن ، بعد الكشف ، لم يهنأ بالشهرة .

بعث إليه الكونت لويس هامون «قارئ اليد» الشهير يطلب منه عدم دخول مقبرة توت عنخ آمون مرة أخرى .

وفى هذه الرسالة قال هامون إن أميرة مصرية تراءت له محذرة اللورد لأن دخول المقبرة سيعرضه للمرض ، وسيطارده الموت فى الأقصر ، إذا استمر يحفر فى الوادى .

وقال هامون : «إن عصيان هذه النصيحة سيلحق الخطر باللورد» .

وكان كارنارفون يعرف هامون، فهو الذى تنبأ بيوم وفاة الملكة فيكتوريا، واغتيال ملك إيطاليا، ومحاولة اغتيال شاه إيران فى باريس.

وهامون تعرض لغضب أسرته فكان يتسمى باسم آخر هو «شييرو»؛ لأن أسرته ترى أنه لا ينبغى لأحد أفرادها أن يقرأ الكف.

وتحت الاسم المستعار قرأ هامون كف سارة برنار الممثلة الفرنسية الشهيرة، ومارك توين الكاتب الأمريكى، وجوزيف تشمبرلين السياسى البريطانى.

خاف اللورد فرأى أن يستشير منجما آخر هو «فيلما» الذى تنبأ باغتيال قيصر روسيا وابنه فى الثورة البلشفية!

قرأ «فيلما» يد اللورد، ثم نظر فى كرته البللورية وقال:

ـ أرى خطراً كبيراً أمامك.

زاد اضطراب اللورد، فانصرف ليعود بعد فترة ليسمع تحذيراً جديداً من «فيلما العظيم» كما كان يسمى فى ذلك الأوان!

قال له:

ـ هل تستطيع أن تكشف شيئا آخر؟

أجاب فيلما:

ـ أرى الخطر يتضاعف. وفى راحة يدك أجد خط الحياة يعادل عمرك الآن ـ ٥٧ سنة ـ إن الصور تتتابع أمامى واحدة بعد الأخرى.. معبد مصرى، ورجل وقور مصرى جرد من كبريائه.

... ربما يقصد الملك الذى اكتشف قبره.

وأضاف فيلما:

ـ لو كنت مكانك لانسحبت ببيان علنى ألتمس فيه عذراً.. بدلا من الانطلاق نحو كارثة.

قال اللورد:

ـ يجب أن أتم ما بدأت. إنها مغامرة أتحدى فيها القوى الخفية.

روى هذه الوقائع كاتب بريطانى هو بارى وين فى كتابه «خلف قناع توت عنخ آمون» نقلا عن ابن اللورد كارنارفون قائلا : «إن الإيمان بالسحر وقراءة الطالع كان طابع تلك الأيام» .

* * *

ولم تكن هذه أول مرة يوجه فيها للورد هذا التحذير .

* * *

شاهد العالم الصحفى آرثر ويجال اللورد يدخل المقبرة يوم افتتاحها قال :

- إذا استمر اللورد بهذه الروح فإنى أعطيه ستة أسابيع فقط يعيشها !

وقال فلاح من صعيد مصر :

- هؤلاء الناس يبحثون عن الذهب ، ولكنهم لن يجدوا إلا الموت !

عاد اللورد إلى الأقصر ومعه سيارة «فورد» تعتبر من أوائل السيارات التى عبرت النيل إلى الضفة الغربية فى وادى الملوك .

وهللت صحيفة التايمس لوصول السيارة إلى المدينة واعتبرتها حدثًا مهما أدى إلى كثير من الإثارة بين السكان .

فوجئ اللورد فى الأقصر بابنته الليدى إيفلين تبلغه بأنها تحب صديقه وشريكه هوارد كارتر .

انفجر اللورد فى ابنته غاضبا يعاتبها ؛ لأنها تحب رجلا يكبرها سنا ويقل عنها فى الطبقة الاجتماعية .

وقال اللورد إن كارتر الذى يعمل عنده ليس زوجًا مناسبًا لابنته .

وتوجه اللورد على الفور إلى عشة كارتر يلومه .

قال كارتر إنه لا يميل إلى إيفلين وليس لديه وقت لغرام ؛ لأنه يحب عمله الأثرى .

قال اللورد إن ذلك زاد إيفلين هيامًا .

تحول العتاب إلى كلمات غاضبة، وتبادل الرجلان السباب.

ولم يجد كارتر ما يقوله إلا أن يأمر اللورد بمغادرة العشة. فلما لم يخرج كارنارفون طرده كارتر.

أقسم اللورد أنه لن يعود إلى هذه العشة أبدًا.

عرف بالأمر العالمان الأثريان جيمس هنرى برستد والسير آلان جاردنر فحاولا التوفيق بين الرجلين دون جدوى.

وفشل وينلوك رئيس بعثة متحف المتروبوليتان أيضًا، وتنبأ بأن القطيعة بين كارنارفون وكارتر ستكون أبدية.

فى رسالة كتبها جيمس بريستد فى ١٣ من مارس ١٩٢٣ قال إن الانفصال أصبح محتومًا بين الصديقين، الشريكين.

علقت صحيفة «ستار» اللندنية على الأزمة بين الرجلين «حيث توجد الجثث تتجمع النسور وهذا ما حدث حتى عند قبر الفرعون توت عنخ آمون».

وقالت: «.. النسور تسير على طريقة النسور فيما يتعلق بالجثث.. فتنهمك فى مرح فى نقر عيون بعضها.

وتقول الحكومة المصرية إنها المالكة. وتقول نسور أخرى فى نشيد جماعى إننا الملاك. طبعا وتبدأ الأجنحة فى التحليق».

ومضت «ستار» تقول: «هناك شيء غير لائق يكمن فى الخطة الأصلية لنهب مقبرة والعبث فى مومياء فرعون ميت يتم بدعوى ظاهرية هى مصلحة العلم.

ويصبح الأمر مسليًا عندما يتشاجر خبراء علم الآثار فيما بينهم حول الغنائم مثل الكلاب الضالة التى تتزاحم على جثة ممزقة».

ولم تكن صحيفة ستار تعرف سر الصراع بين اللورد وكارتر!

* * *

قال لى توماس هوفنج المدير السابق لمتحف المتروبوليتان إنه اطلع فى الأوراق الخاصة للورد فى عزبته فى هاى كليرك فى إنجلترا على الرسائل الغرامية التى بعثت بها الليدى إيفلين إلى كارتر .

وقال إن الفتاة التى كانت فى الحادية والعشرين تعلقت بكارتر وكان فى التاسعة والأربعين لأنها رأت فيه نجمًا تتحدث عنه الصحف وتشير إليه .

وقال هوفنج إن الأسرة التى سمحت له بالاطلاع على الأوراق الخاصة طلبت منه عدم نشر الرسائل ، وهددت بمقاضاته ، فرأى أن يكتفى بالإشارة إليها تلميحًا فى كتابه خاصة ، وإن الليدى إيفلين التى كانت على قيد الحياة فى ذلك الوقت ظلت مريضة نحو عشر سنوات لا تستطيع مغادرة الفراش .

ولكن كانت نتيجة المشادة الحادة بين اللورد وكارتر أن أحدهما لم يتحدث بعد ذلك إلى الآخر . . . قط !

* * *

بعد يومين بعث اللورد برسالة صلح إلى كارتر قال :

«عزيزى كارتر . .

يتنابنى اليوم حزن شديد ولا أعرف ما يجب أن أفكر فيه أو أفعله ، وقد رأيت إيفلين التى أخبرتنى بكل شىء .

لم يعد لدى شك فى أنى أتيت ببعض التصرفات الطائشة ، وأشعر بالأسف الشديد لذلك .

وأعتقد أن حالة من الهياج والقلق أثرت على ولكن هناك شيئا واحدًا فقط أريد قوله وآمل أن تذكره دائمًا مهما كانت مشاعرك فى الوقت الحاضر أو فى المستقبل وهو أن مشاعرى نحوك لن تتغير أبدًا .

إنى رجل قليل الأصدقاء ، ومهما حدث فلن يكون هناك شىء قادر على تغيير عواطفى تجاهك .

وعادة يتميز الوادى بالضوضاء الشديدة ونقص الهدوء وعدم القدرة على الحفاظ

على الأسرار؛ وهو الأمر الذى جعلنى أشعر بأنه لا ينبغى على أن أقابلك بمفردك على الإطلاق رغم أننى أتوق كثيراً إلى لقائك والحديث الممتع معك .

وقد شعرت بالراحة بعد أن كتبت إليك هذا الخطاب .

صديقك المخلص

كارنارفون»

ورغم هذه الرسالة فإن اللورد ربما يكون قد فكر فى الاستغناء عن خدمات كارتر إلى الأبد . . رغم ثقة اللورد بأن كارتر وحده يستطيع استكمال عمله فى المقبرة .

ولا يعرف أحد ما الذى كان يحدث لو أن اللورد طرد كارتر !

ولكن القدر يتدخل مرة أخرى!

وتجىء اللعنة لصالح هذا الكشف الغريب!

* * *

زار اللورد أسوان، وأقام فى فندق «الكاتاراكت» الشهير ودخل معبد «فيلة»، ثم عاد إلى الأقصر يوم ٦ من مارس .

تردد يومين على وادى الملوك فلدغته بعوضة ـ فى خده الأيسر ـ قيل إنها من الوادى وقيل إنها من الأقصر؛ لأن الوادى لا يعرف البعوض .

ولم ينتبه اللورد فى البداية لخطر البعوضة، فهو رجل اعتاد زيارة مصر بانتظام خلال العشرين سنة الماضية، ومر بموسى الحلاقة على الجرح فتسمم من التراب أو من ذبابة . . واللورد لا يدرى!

وجدته ابنته يرتجف من البرد فأجرت له علاجًا مؤقتًا أدى إلى تحسن صحته . وظن أنه شفى ولكنه انتكس مرة أخرى فنقلته ابنته، وهو مغطى ببطانية، إلى القطار ثم إلى القاهرة يوم ١٤ من مارس للعلاج .

أقام اللورد بفندق الكونتننتال وساءت حالته يوم ١٧ من مارس ولكن ابنته بعثت فى اليوم التالى برسالة إلى كارتر قالت فيها إن أباها مريض بالأنفلونزا .

وفى اليوم التالى أعلن رسميّا مرض اللورد وقال البيان: «إن المرض جاء نتيجة عضة حشرة»!

نشرالنبأ فى الصفحات الأولى من الصحف لأن كل أعمال وحركات اللورد أصبحت تحت الأضواء.

* * *

فى رسالة تالية قالت إيفلين إن صحة والدها تتدهور ولا يستطيع الحركة.

وتوالت الرسائل على كارتر من القاهرة. . .

ألبرت ليتجو يقول إن البعوضة مؤذية وإن اللورد مصاب بالتهاب رئوى.

* * *

أبرقت إيفلين تستدعى والدتها من بريطانيا.

استقلت الأم طائرة من لندن إلى مطار «لى بورجيه» فى باريس، وكان الطيران شيئًا جديدًا، مما استرعى انتباه الصحافة إلى خطورة مرض كارنارفون.

ومرضت الليدى فى باريس، وأتمت الرحلة بالقطار من باريس إلى مرسيليا وبالباخرة إلى الإسكندرية فوصلتها يوم ٢٦ من مارس.

ويكتب ريتشارد بيتيل سكرتير اللورد - وأبوه لورد أيضًا - إلى كارتر: إن كارنارفون فى حالة خطرة وإن الجرح تسمم، ودماء اللورد تسممت، ودرجة حرارته ارتفعت، ولم تنخفض، ويخشى أن يصبح المرض خطيرًا جدًا.

أبرقت إيفلين إلى طبيب الأسرة الأسترالى جنسون للحضور من لندن.

وأرسلت تستدعى أخاها الضابط بالجيش من الهند. بعد أن بدأت أسنان الأب تتساقط.

* * *

كان الابن يلعب «البولو» أمام اللورد ريدنج نائب ملك بريطانيا فى الهند

عندما تلقى البرقية فأمر ريدنج بإلحاق عربة بقطاره الخاص ليستقله الابن من دلهى إلى بومباى.

ووافقت قيادة الجيش على منح الابن إجازة ٣ شهور، فترك زوجته فى الهند، ليسافر وحده.. مسرعًا.

وكان مدير أكبر شركات الملاحة البريطانية «ب أند أو» حاضرًا، فقال إن إحدى سفنه ستبحر غدًا من بومباى إلى السويس وإنه سيأمر بتخصيص مكان للابن رغم أن الباخرة كاملة العدد.

وأبرق المدير إلى القبطان لمضاعفة سرعة الباخرة إلى ٢٢ عقدة فى الساعة، ومضاعفة عدد العمال فى عدن الذين يزودون السفينة بالفحم حتى لا تتعطل فى الميناء.

قال أحمد شفيق باشا: «إن الباخرة كانت تقل الحجاج المسلمين فى طريقهم إلى السعودية فأخذوا يبتهلون إلى الله أن يشفى اللورد»!

فى السويس وجد الابن زورقًا خاصًا أقله إلى رصيف الميناء بأمر من اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر.

وفى الطريق إلى القاهرة كان الابن يحدث نفسه: «إنه لم يعرف أباه منذ صغره فقد تعلم فى مدرسة داخلية ثم التحق بالجيش عقب تخرجه، ولم ير أباه إلا ليلة عيد الميلاد عند زواجه عام ١٩١٦».

* * *

وجد الابن أبا لا يعرفه ولكن يتشبث بالحياة كما فعل قبل عشرين عامًا فى ألمانيا عند إصابته فى حادث السيارة.

طال شعر الذقن، والعيون الحمراء، والزبد يتصاعد من الفم.

ـ أنا ابنك.

رد الأب قائلا:

ـ هل تذكر كيف كنا نحارب الإيطاليين وهم يفرون أمامنا كالفئران؟

نظر الابن إلى أبيه فى دهشة؛ فالأب لم يلتحق بالجيش بسبب ضعف صحته ولم يشارك أبدًا فى حرب.

تطلع الابن إلى الممرضة التى أشارت إليه بأن أباه يهذى.

وأدرك الابن أنه قطع المسافة كلها من الهند ليجد أبا لا يستطيع التعرف على أحد.. حتى ولده!

وأحس بالاكتئاب فهذا أبوه أمامه.. سياسى مغامر، ورجل أعمال، وفنان، وجامع تحف، وصاحب حظائر الخيول وقد أضاف إلى هذا كله موهبة جديدة فى الحفر والتنقيب ومع ذلك فإنه يهذى ويردد:

ـ سمعت النداء وأنا مستعد!

ويردد:

ـ عصفور يخدش «يخربش» وجهى.

وهى كلمات كتبت على قبر «نخيت» لمن يفعل أى شىء.. لقبر!

فى الثانية من صباح ٥ من إبريل ١٩٢٣، أيقظته الممرضة من نومه قائلة:

ـ لقد مات.. منذ خمس دقائق.

وقالت شهادة الوفاة التى صدرت فى القاهرة والمحفوظة فى «قلعة هايكلير» فى إنجلترا إن اللورد مات وعمره ٥٧ سنة ـ ولد فى ٢٢ يونيه ١٨٦٥ ـ وإن الوفاة تمت فى الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة يوم ٥ إبريل عام ١٩٢٣.

وفى الطريق إلى حجرة أبيه أطفئت الأنوار فى الفندق، وفى القاهرة كلها، فأضاء بطاريته ليجد أمه راكعة بجوار السرير تبكى.. وتصلى.

بعد دقائق عادت الأنوار مرة أخرى.

وكان طبيب الأسرة يهبط فى اللحظة نفسها من السفينة فى بورسعيد.

وفى اللحظة ذاتها أخذت كلبة عرجاء اسمها «سوزى» يملكها الابن فى عزبة

الأسرة فى إنجلترا ـ تعوى ـ وتطلق صيحات مرعبة ثم ماتت ساعة وفاة اللورد . . مع مراعاة فروق التوقيت!

* * *

نشرت صحيفة «التايمس» نبأ الوفاة فى طبعتها الأخيرة .

وأبرزت صحف العالم نبأ وفاة اللورد بطريقة حجبت أنباء عالمية مهمة فى ذلك اليوم مثل إعدام السوفييت للبولنديين ، واحتلال الفرنسيين أراضى فى منطقة «الروهر» الألمانية!

وربطت صحف القاهرة فى الصباح التالى بين وفاة اللورد وإطفاء الأنوار وزعمت أن ذلك تم بأمر من الملك توت!

وقالت إن كارنارفون رفض تحذيرات الملك المستمرة من اقتحام قبره وأن الملك قد انتقم .

تلقى الابن رسالة من اللورد اللنبى يطلب منه الحضور فى العاشرة صباحًا .

قال اللنبى :

ـ رأيت أن أقدم لك تفسيراً عما نشرته الصحف عن أنوار القاهرة التى أطفئت أمس وقدم المهندس الكولونيل كورنوول مدير الكهرباء الذى روى له القصة . قال :

كنت فى سريرى عندما دق جرس التليفون من المدير المناوب الذى ذكر أن عطلا لا يعرف سببه وقع فى محطة القاهرة وطلب منى الحضور .

أخذت فى ارتداء ملابسى عندما عادت الأضواء فجأة ولكنى ذهبت إلى المحطة ولم أجد تفسيراً أو جوابًا مقنعًا للعطل .

إن القاهرة أضيئت بالشموع والقناديل ونجوم السماء ساعة وفاة اللورد . . لسبب مجهول .

قال مورتون مراسل صحيفة الديلى إكسبريس البريطانية إن المصادفة الغريبة فسرت على نطاق واسع على أنها روح الشر .

* * *

صدم الناس فى مصر من وفاة اللورد الفجائية . . واعتبر العالم الأثرى السير وليم فلندرز بيترى هذه الوفاة مصيبة وكارثة .

وقال العالم نيوبرى الذى التقط كارتر من إحدى قرى إنجلترا، إنه فى كل تاريخ الحفريات لم تقع مثل هذه المأساة .

وتساءل الأثريون عمن يمول عملية التنقيب بعد وفاة اللورد الذى اضطلع وحده بعبء التمويل خلال ١٦ سنة .

* * *

أعلن فى القاهرة رسميا أن الالتهاب الرئوى والتسمم فى الدم أديا إلى وفاة اللورد الذى أوصى بأن يدفن فى الخلاء فى عزبته فى بريطانيا ولا يدفن فى الكنيسة الصغيرة داخل العزبة .

نقل جثمان اللورد إلى المستشفى لتحنيطه كما حنط جثمان الملك المصرى!

ولكن تأخر وصول الجثمان إلى إنجلترا، فقد مرض كارتر وفزعت الأرملة السيدة المينا وبقيت فى مصر حتى شفى كارتر .

وصحبت السيدة المينا جثمان اللورد على سفينة فألغى عدد من المسافرين رحلتهم عليها تشاؤمًا وخوفًا .

ودفن اللورد يوم ٣٠ من إبريل فى تل يطل على قلعة «هايكلير» .

وكان اللورد قد كتب فى وصيته التى حررها يوم ٢٩ أكتوبر ١٩١٩ بأن تكون جنازته بسيطة وألا تتكلف عملية الدفن أكثر من ٥٠ جنيها .

وقالت الوصية إن اللورد لا يريد حزنًا ولا نعيًا .

ولكن الوصية كانت محررة قبل الاكتشاف المثير!

بعد الدفن مباشرة ظهرت سيدة اسمها «ويلما» قالت لابنه :

ـ لا تقترب من قبر أبيك، إنه سيحمل إليك الحظ السيئ .

ولم يزر الابن قبر أباه قط!

. . ومات اللورد دون أن يعرف ما إذا كانت مقبرة وادى الملوك تحتوى على مومياء الملك المصرى، ودون أن يتطلع إلى ملامح الفرعون الذى أثرت حياته ووفاته على اللورد وأسرته.

وبعد وفاة اللورد بيومين نشرت صحيفة «التايمس» المقال الأخير الذى كان كارنارفون قد بعث به من الأقصر.

بدأ اللورد هذا المقال قائلا:

«لقد وصلنا الآن إلى مرحلة النهاية».

وكان يقصد بذلك نهاية موسم التنقيب، لا نهاية الحياة!

وفى هذا المقال تمنى «أن تبقى مومياء الملك فى مكانها الذى ظلت فيه ٣٠ قرنًا».

وأقيمت الصلوات على روح اللورد فى القاهرة ولندن وحضرها وزراء من هنا وهناك، وأبرق ملك بريطانيا معزيًا. . وكذلك سعد زغلول.

* * *

استمرت صحف القاهرة تربط بين اكتشاف المقبرة ووفاة اللورد.

قالت إن إصبعه جرح من آلة أو حربة مسمومة داخل المقبرة. . وإن السم كان قويًا بدليل أنه احتفظ بتأثيره ثلاثة آلاف عام.

وقالت إن نوعًا من البكتريا نما داخل المقبرة يحمل المرض والموت.

كتب كلير شريد ان فى صحيفة «ورلد»:

«دفع اللورد الثمن لأنه جرؤ على مد يده إلى شرقى ميت، وكل مومياء فى أوروبا لها تاريخ شرير مع الذين يعترضون طريقها».

وفى باريس قال الفلكى لانسيلان:

«لقد انتقم توت عنخ آمون».

وتحدثت منافسته السيدة فرايا فقالت:

«تقدم علم الروحيات فى مصر وذهب اللورد ضحية للروح المزودجة للملك توت».

ولكن السير آرثر كونان دويل مؤلف شخصية شيرلوك هولمز قال :

«تستطيع المومياء المصرية أن تشع روحًا شريرة ، وربما يكون السبب فى وفاة اللورد . . لعنة الفراعنة»!

وقالت صحيفة التايمس تنعى اللورد :

«إنه لن يرى ملامح الملك الفرعوني الذى ظل يبحث عنه ستة عشر عامًا، أيد أخرى ستزيل الأكفان، وعيون أخرى سترى بعد ۳۰۰۰ سنة، لأول مرة، مومياء الملك.

إنه لم يحصل على الجائزة التى تمناها».

. . وقد تكون هذه هى اللعنة التى أحاطت باللورد . .

وعلى أية حال فقد لاحقته اللعنات . . ؛ لأن كل أوراقه الخاصة احترقت فى أثناء غارات الألمان على لندن عام ١٩٤٠ .

كتبت صحيفة نيويورك تايمز نبأ الوفاة فى الصفحة الأولى تحت عنوان بارز وقالت : نشرت وفاة اللورد على نطاق واسع ، النظريات عن انتقام الفرعون.

وكتبت الصحيفة خبراً صغيراً عن مرض الزعيم السوفييتى الكبير لينين وتوقع وفاته فى أية لحظة!

وقالت صحيفة «الديلى إكسبريس» البريطانية بعد ٤٨ ساعة من الوفاة تحت عنوان عريض :

«جامعو الآثار المصرية فى رعب . اندفاع لتسليم الآثار المصرية للمتحف البريطانى . خوف لا مبرر له» .

وقالت الصحيفة إن الناس وجدوا الخلاص فى التنازل عن الآثار التى أخذوها فى وقت من الأوقات من المقابر المصرية ـ أو اشتروها من مصر ـ تبركًا! وشحنوا كنوزهم من التماثيل والآثار المصرية إلى المتحف البريطانى ، الذى تلقى أيضًا أجزاء

بشرية قال أصحابها إنهم أخذوها فى وقت من الأوقات من المقابر المصرية أو اشتروها من صعيد مصر . . !

وطالب الجميع بوضع الآثار المصرية فى دواليب زجاجية محكمة ، داخل المتحف ، وفى أماكن بعيدة . . منعزلة !

وطلب السياسيون الأمريكيون فحص مومياوات الفراعنة فى المتاحف ، وفى كل مكان ، خوفًا من أن تحتوى على الميكروب الذى أودى بحياة اللورد ! !

ولكن رجال المتحف البريطانى وجدوا فى هذه الخرافات ، والأساطير ، وأحاديث اللعنة ، نعمة كبرى لأن المتحف ـ عن هذه السبيل ـ جمع كثيراً من الآثار المصرية ! !

وحاول رجال المتحف القضاء على مخاوف الناس فقالوا :

ـ لو أن اللعنة حقيقية ما عاش أثرى واحد ، ولو قلنا إن ساحراً مصريًا يملك منذ آلاف السنين القدرة على قتل رجل ـ الآن ـ فإن ذلك يحمل اللعنة أكثر مما تحتمل .

قال رئيس تحرير مجلة «السحر» . . رالف شيرلى . . ربما يكون أحد المصريين قد ضاق بما فعله اللورد من دخول المقبرة فوضع السم فيها .

رد أحد مشاهير الكتاب «الجرنون بلاكوود» :

«ولماذا يؤثر السم فى رجل واحد فقط» ؟

ولكن هذا المنطق لم يعجب عالمًا فرنسيًا فقال :

«كارتر خبير له حصانة يعرف ما يلمس ، وما لا يلمس ، أما اللورد فليس خبيراً ، ولذلك قتل» !

* * *

وزار الأستاذ «لايجستر» المنوم المغناطيسى المشهور وادى الملوك مع بعض الصحفيين فاختطف ذبابتين ، إحداهما من مدافن أمنحتب ، والثانية من مدفن توت عنخ آمون .

وقدمهما للتحليل الكيميائى البكتريولوجى فلم يظهر فى الذبابة الأولى شىء غير عادى، وظهر فى الذبابة الثانية ـ المأخوذة من مدفن توت عنخ آمون ـ آثار سم شديد التأثير يحدث احتقانًا فى الجهاز التنفسى.

سئل لايجستر:

ـ هل يرى فى ذلك إيضاحًا للأسرار الغامضة عن موت لورد كارنارفون.

قال:

ـ ربما كان فيه دليل على ذلك.

وقال عن حكايات اللعنات:

ـ إنها قد تكون حديث خرافة ولكن قوة الأسرار لا تنكر.

وقال:

ـ هناك فى أعماق تلك المقابر الفرعونية حقائق غريبة قوية يدركها الخبراء بالأسرار الغامضة من المصريين.

وقد وقفت بإزائها مضطربا وشعرت بعاطفة احترام فى أعماق نفسى وجاذبية كبيرة.

سئل:

ـ هل شعرت بتأثيرات أخرى معنوية ونداءات من عالم غير منظور.

قال إنه يدرس أمرًا لا يستطيع تفسيره حتى الآن.

ولم يعرف أبدًا إذا كان المنوم المغناطيسى أراد استغلال حكاية اللعنة ليزيد شهرته ولكن حكاية الاحتقان فى الجهاز التنفسى أثر زيارة المقابر ترددت علميًا.. فيما بعد.

* * *

وبدأ يقال إن كل آثار مصر الفرعونية تحمل فى ثناياها اللعنة؛ لأن أحدًا لم يسمع عن وفاة إنسان نتيجة عضة بعوضة فحسب دون أن يصاب بالملاريا أو الحمى الصفراء...

نشرت صحيفة «ديلى ميل» التى تصدر فى لندن يوم ٦ إبريل عام ١٩٢٣ قصة عن البعوضة الرهيبة التى «ربما وقفت فيما مضى على وسائل التحنيط المدفونة مع توت عنخ آمون».

وحاول البروفيسور بيرسى نيوبرى المتخصص فى الآثار المصرية القديمة الرد على ذلك فقال:

- فى وادى الملوك نفسه لم يكن هناك بعوض بحيث تتم اللدغة المسمومة فى الأقصر.

ولكن أغرب ما فى هذه القصة أن البعوضة عضت اللورد فى خده الأيسر..

... والإصابة التى وجدت فى مومياء توت عنخ آمون كانت فى خده الأيسر أيضًا!!

لعنة تحمى الفرعون!

وجدت على صخرة فى مدخل مقبرة توت عنخ آمون هذه الكلمات بالكتابة الهيروغليفية: «لتضمر اليد التى ترتفع فى وجه هيكلى، وليحيق الدمار بأولئك الذين يهاجمون اسمى وقاعدتى وموميا واتى التى هى صورى، وسرعان ما ستحمل أجنحة الموت أولئك الذين يدخلون هذه المقبرة»!

وفى المعابد والمقابر المصرية وجدت كلمات تهدد «بالويل» الذين ينتهكون حرمة القبور. وقد توفى الكثيرون من الذين لهم دور فى اكتشاف مقبرة الملك توت عنخ آمون، فقال المصريون والأجانب إن «لعنة» الملك توت عنخ آمون.. حلت بهم!

بدأت حكاية «اللعنة» بعصفور الكنارى الذهبى الذى حمله كارتر معه عند حضوره إلى الأقصر.

وعندما اكتشفت المقبرة، أطلقوا عليها، أول الأمر، اسم «مقبرة العصفور الذهبى».

وسافر كارتر إلى القاهرة ليستقبل اللورد كارنارفون فوضع مساعده كالندر العصفور فى الشرفة ليحظى بنسمات من الهواء.

ويوم افتتاح المقبرة سمع كالندر استغاثة ضعيفة كأنها صرخة إنسان، فأسرع ليجد ثعبان كوبرا يمد لسانه إلى العصفور.. داخل القفص.

قتل كالندر الثعبان ولكن العصفور كان قد مات!

وعلى الفور قيل إن «اللعنة» بدأت مع فتح المقبرة، فإن ثعبان الكوبرا يوجد على التاج الذى يوضع فوق رأس تماثيل ملوك مصر.

وقيل أيضًا إن هذه بداية انتقام الملك من الذين «أزعجوه» فى مرقده.

واعتبرت صحيفة «النيويورك تايمس» وفاة العصفور «حادثًا فريدًا» بينما رأى عالم الآثار جيمس هنرى بريستد . . أن شيئا رهيبًا فى الطريق!

* * *

بعد وفاة اللورد انتشرت قصص اللعنة، وتعددت أقوال الصحف عن انتقام الفراعنة و«أرواحهم» التى تتعقب جامعى الآثار.

وأعطى عالم المصريات الفرنسى الأستاذ مادرو ثقلا لحكاية لعنة الفراعنة . . وذلك بعد عام من وفاة اللورد.

عَقد مؤتمرًا صحفيًا أعلن فيه أن القرن العشرين رفض المعتقدات المصرية القديمة عن حضارة مصر.

وقال: إن قبر توت عنخ آمون هو أول قبر لفرعون مصرى، لم ينهب، ولم ينبش، ولم يسرق خلال ثلاثة آلاف عام، وقد ترك فيه الكهنة المصريون وسائل حماية الفراعنة من الذين ينتهكون حرماتهم.

وأخذ مادرو يعدد أسماء أولئك الذين ماتوا بعد دخولهم المقبرة، أو ماتوا نتيجة لعنة الفراعنة بصفة عامة، الملك توت أو غيره:

* وانتحر إيفلين هوايت عالم الآثار المصرية بجامعة ليدز فى ظروف غامضة بعد أن ترك رسالة يقول فيها «حلت بى اللعنة»!

* ومات ليون باسكت مصمم الأزياء الفرنسى الذى صمم مجموعة إيزيس ليلة افتتاح العرض.

* ومات جورج بنيديت أمين قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر بضربة شمس وهو يغادر مقبرة الملك توت.

* وكازانوفا الأستاذ بكلية فرنسا، الذى حفر فى وادى الملوك، مات فجأة.

* الكولونيل أوبرى هربرت، وهو نصف شقيق للورد حضر افتتاح المقبرة ومات فى نفس سنة وفاة كارنارفون.

وفى السنة ذاتها مات الأثرى المصرى أحمد كمال وعالم المصريات الأمريكى هنرى جودبير.

وفى العام التالى ١٩٢٤ :

أرشسيبولد دوجلاس ريد خبير الأشعة .

وفى عام ١٩٢٦ :

المليونير الأمريكى جورج جاى جولد صديق اللورد الذى سافر إلى الأقصر فدخل المقبرة ليشاهد الكشف الشهير، وفى الصباح التالى أصيب بحمى ومات فى المساء .

وأدرن أمبر عالم الآثار الأمريكى الذى أراد إنقاذ مخطوط ألفه عن «كتاب الموتى» المصرى من بيته وهو يحترق . . فاحترق معه!

وممرضة اللورد كارنارفون ماتت فى الثامنة والعشرين وهى تضع طفلها الأول .

وقال مادرو :

- يجب ألا نرفض هذه الروحيات أو الخرافات، أو السحر، بمجرد هزة كتف!

وأضاف :

- إن المصريين خلال سبعة آلاف عام مارسوا تقاليد سحرية ولابد أنهم ركزوا قوة ديناميكية لمنع إزعاج الموتى وإقلاق راحتهم!

وفى كتاب الصحفى الألمانى فيليب فاند نبرج «لعنة الفراعنة»، روى حكايات كثيرة غامضة عن قتلى ومرضى من رجال الآثار .

ولم يجد الأطباء تفسيراً إلا القول بأن هؤلاء «قتلتهم» أو «أصابتهم» لعنة الفراعنة . .

حضر الاحتفال بافتتاح غرفة الدفن يوم ١٧ من فبراير ١٩٢٣ أناس كثيرون، مات منهم ١٣ .

وقال فاندنبرج إنه منذ اكتشاف المقبرة حتى عام ١٩٢٩ مات ٢٢ شخصاً كانت لهم صلات مباشرة، أو غير مباشرة، بالتنقيب والحفر وكشف المقبرة وفحص وترميم آثارها .

* * *

استمرت حكاية اللعنة تروج . .

قالت الكاتبة البريطانية مارى كوريللى إن لديها كتابًا باللغة العربية من معلم لويس السادس يقول فيه :

«توجد فى القبور المصرية أسلحة سرية تقتل سارقى القبور» .

ومارى كوريللى ألفت قصصًا وروايات كثيرة عن عالم الأرواح طبعت إحداها ٤٠ مرة .

وهذه الكاتبة لم تتزوج ، وبررت ذلك بأن لديها ٣ حيوانات : كلب ينبح صباحًا ، وببغاء يسب عصرًا ، وقط يعود متأخرًا كل مساء!

رد على مارى كوريللى السير واليس أرنست بادج أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى قائلا : «توجد نسخة من هذا الكتاب فى المتحف . وقد مات مترجمه عام ١٦٦٧ ولا يمكن أن يكون معلمًا للويس السادس الذى مات عام ١١٣٧ !

* * *

استقرت عام ٢٩ فكرة اللعنة تمامًا بالنسبة للذين ارتبطوا بوادى الملوك .

أضيف للقائمة :

* الليدى إليزابيث كارنارفون ، عضتها حشرة .

* السيدة الأمريكية إيفلين جريللى التى انتحرت عند عودتها لشيكاغو بعد زيارة المقبرة .

* لافلير أستاذ جامعة ماك جيل الكندى الذى كان ضيفًا على كارتر بعد زيارة المقبرة .

* الدكتور جوناثان كارفر أحد مساعدى كارتر .

* ريتشارد بيتل سكرتير كارنارفون الذى وجد ميتًا على كرسيه بنادى «ماى فير» .

* اللورد ويستبرى ـ والد ريتشارد بيتل ـ الذى انتحر بعد سماع نبأ وفاة ابنه

بإلقاء نفسه من الدور السابع فى بيته قرب قصر بكنجهام ـ وقد ترك رسالة يقول فيها :

«لا أستطيع مغالبة رعب أكبر ولا أظن فائدة فى بقائى» .

* فى أثناء موكب جنازة ويستبرى مات صبى فى الثامنة من عمره تحت عربة الموتى .

* إدجار ستيل الموظف بالقسم المصرى بالمتحف البريطانى الذى مات فى حجرة العمليات بمستشفى بلندن .

* وزار على كامل فهمى بك المقبرة وبعد عودته إلى لندن قتلته بالرصاص زوجته مرجريت مساء ٩ يوليو عام ١٩٢٣ .

* ارتفع رقم ضحايا اللعنة ـ عام ١٩٣٥ ـ إلى ٢٤ شخصًا .

* * *

وتلقى كارتر رسائل كثيرة تشرح له كيف يواجه اللعنة .

ونصحه أحد الأيرلنديين بإلقاء زيت ونبيذ ولبن على المقبرة وإغلاقها !

ومرة أخرى حاول مسئول عن المتحف البريطانى القضاء على هذه الخرافة فقال :

«لو كانت اللعنة صحيحة لكانت وباء يجتاح الناس» !

* * *

حاولت جامعة بنسلفانيا الأمريكية تكذيب الإشاعة بطريقة علمية فقالت :

« . . قبل خمس سنوات اكتشف قبر نبش عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد فكانت رائحته سيئة ، حتى أن أحدًا لا يستطيع العمل فيه أكثر من ساعة يوميًا وتنطفئ أية شمعة لأنه لا يوجد أكسجين يساعد على إضاءتها . وغاز المقبرة يؤدى إلى الوفاة» .

ونفى عالم الآثار البلجيكى جان كابار ما قيل عن اللعنة .

قال إنه لا توجد كلمات فى مقابر الملك توت عنخ آمون تذكر أن الموت سيأتى على أجنحة سريعة لكل من يلمس قبر الفرعون .

وقال العالم الألمانى جورج ستانيدون مدير المعهد المصرى فى ليبزج إن معظم الوفيات السابقة لا علاقة لها بالمقبرة.

وأعلن هربرت وينلوك عام ١٩٣٤ أن الأرقام وحدها تكذب موضوع اللعنة وهى التى تتكلم، وشرح الأرقام قائلاً:

* فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٢٢ حضر الافتتاح الرسمى للمقبرة ٢٢ شخصًا مات منهم ٦ فقط حتى عام ١٩٣٤.

* وفى ١٢ من فبراير عام ١٩٢٤ شهد فتح التابوت ٢٢ شخصًا أيضًا مات منهم اثنان حتى ديسمبر.

* وفى ١١ من نوفمبر ١٩٢٥ حضر ١٠ أشخاص عملية نزع لفائف الأكفان، وتعرية المومياء وفحصها بالأشعة وقد ظلوا جميعًا على قيد الحياة، حتى عام ١٩٣٤.

ولكن مات فى عام ١٩٣٤ نفسه كل من ألبرت ليتجو صديق كارنارفون وكارتر، وآرثر ويجال مفتش الآثار السابق، الذى وصف لعدة صحف، افتتاح القبر وغرفة الدفن، وكان قد أيد بشدة مارى كوريللى فى تحذيراتها.

وقصد جامع التحف اللورد هارنجتون الذى اشترى مومياء مصرية إلى السودان وهناك قتله فيل وأزالت الأمطار آثار قبره تمامًا.

* العالم البريطانى فلندرز بيترى الذى أمضى سنوات «يحفر» فى منطقة الأهرام، مات فجأة فى القدس عام ١٩٣٢ وكان قادمًا من القاهرة.

* والأستاذ الأمريكى جورج ريزلر الذى كان أول من أذاع من داخل الأهرامات عام ١٩٣٩، انهارت قواه فجأة داخل مقبرة أم خوفو عام ١٩٤٢ ونقل شبه مشلول خارج الهرم ليموت فى معسكر قريب.

* * *

ولم تقتصر اللعنة على الوفيات التى وقعت بعد العثور على قبر الملك توت

عنخ آمون، بـل التصـقت اللعنة بقبـور الفراعنة ومـوميـاواتهم جـمـيعًـا . . قبل الاكتشاف . . وبعده .

* العالم الفرنسى جان فرانسوا شامبليون الذى «قرأ» حجر رشيد وعرف اللغة الفرعونية مات بعد عامين من زيارته لمصر وعمره ٤٢ سنة .

* الفرنسى بروسير ماريلها الذى سافر مع المسلة المصرية التى أقيمت فى ميدان الكونكورد فـى باريس مـات وعـمـره ٣٦ سنة ، وهنـرى كـورينج الأمـريكى الـذى سافر أيضـا مع المسلة المصريـة التـى أقيمت فى حديقـة سنترال بـارك فى نيويورك .

* ريتشـارد ليسبيوس الألمانى سارق المقابر المصرية من وادى الملوك ، عـمّر أطول من زملائه رجـال الآثار . فقـد مـات فى الرابعة والسبعين ، ولكنه أصيب فى أواخر سنوات حياته بأزمة قلبية أعقبها شلل ومات بالسرطان عام ١٨٨٤ .

* والعـــالم الألمانى جـــورج مـــوللر فتن بالآثار المصـــرية وهـو طفل وتـعلـم الهيروغليفية فى المدرسة ، قام بحفائر فى طيبة وأبو صير . درس مراسم الدفن وأمضى مـعظم سنواته فى مصـر داخل مـقابر الفـراعنة وعـمل ملحـقـا علمـيا للسفارة الألمانية بالقاهرة وهو فى الثامنة والعشرين . . مات بالحمى ـ وعمره ٤٤ سنة ـ عندما كان فى رحلة إلى أوبسالا .

* تيودور بلهارس العالم الألمانى الذى اكتشف ميكروب البلهارسيا فى مصر أهدى لجامعة فريبورج شحنة من الجماجم المصرية عام ١٨٥٧ .

زار وادى الملوك ، فلمـا عـاد إلى القـاهرة أصـيب بالحـمى وعـاش فى غـيـبـوية أسبوعين أعقبتها الوفاة عام ١٨٥٨ .

* * *

* وحـدث يوم ١٤ من إبريل عـام ١٩١٢ أن أبحـرت البـاخرة تيتـانيـك فـى رحلتـهـا الأولى من ميناء سوثهامـبتن فى إنجلترا إلى نيـويورك فـاصطدمـت بجبل من الجليد .

كانت تقل ٢٢٠٠ راكب وتحمل شحنه ضخمة من الطعام ٤٠ طنا من البطاطس و١٢ ألف زجاجة مياه معدنية و٧٠٠٠ جوال من البن و٣٥ ألف بيضة .

غرق ١٥٠٠ راكب ولكن أمكن إنقاذ الباقين .

وقال خبراء الملاحة إن الخطأ يرجع إلى ربان الباخرة إدوار سميث .

ولكن البعض قال ، بعد اكتشاف مقبرة الملك توت ، إن اللورد كارنارفون شحن على السفينة مومياء كاهنة فرعونية من عهد أمنحتب الرابع وأن لعنة الفراعنة حلت بالباخرة!

* وجن عالم الآثار المصرية الألمانى هاينريش بروكش قبل أن ينتحر عام ١٨٩٤ .

أتقن بروكش قراءة اللغة القديمة وهو فى السادسة عشرة من عمره وكان يعامل المومياوات المصرية برقة كأنها أحياء .

بعد الإقامة الطويلة فى مصر تغير بروكش تماما ، وعند عودته إلى ألمانيا أخذ يردد أن أباه كان أميرا مع أنه كان «أومباشى» .

وأخذ يشترى قطع آثار مقلدة ويزعم أنها حقيقية ، وشكا للصحف من اضطهاد مزعوم لحق به . . قبل أن ينتحر .

* وأصيب بالهلوسة والجنون العالم الألمانى جوهان داميشين ، الذى كان ينقل رسوم المقابر والمعابد الفرعونية ، طلب إليه الناشرون وضع دليل عن مصر العليا ، فلما انتهى منه رفضوا نشره لأنه لا يستحق النشر .

وطلبوا إليه إعداد الجزء الخاص بمصر فى كتاب عن تاريخ العالم ، فكتب ٣٠٠ صفحة قال إنها مقدمة للجزء الخاص بمصر . . ورفضوا نشرها أيضا .

وقد فسر ما أصاب داميشين بأن المصريين القدامى أصابوه بعلمهم لا بلعنتهم عن طريق عقار من عقاراتهم المتقدمة .

* * *

فى عام ١٩٣٨ اكتشف صيدلى سويسرى هو الدكتور ألبرت هوفمان عقار الهلوسة . كان يعمل فى شركة أدوية عندما ابتلع ـ دون أن يدرى ـ ذرات من بعض

المواد الطبية فأحس بأعراض الهلوسة. راجع هذه المواد وأعاد تحليلها واكتشف العقار.

وربما يكون داميشين قد أمسك ببعض الآثار المصرية ومست أصابعه شفتيه فتسللت إليهما المادة الطبية المصرية القديمة فأصابته بالجنون!

* وجيوفانى بلزونى الذى سرق الآثار المصرية مات بحمى فى الباخرة التى كانت تنقله على الساحل الإفريقى.

أصابته الحمى وأحس بيد الموت تقبض عليه وقال لمن حوله: أعرف أنه لم تبق لدى سوى ساعات قليلة أعيشها.

وخلع الخاتم من إصبعه وطلب أن يسلموه لزوجته.

* * *

فى عام ١٩٦٦ وافق الرئيس المصرى جمال عبدالناصر على شحن مجموعة من آثار الملك توت عنخ آمون، وبينها قناعه، إلى فرنسا لعرضها فى المتحف الصغير بناء على طلب الجنرال ديجول.

عارض الأثرى المصرى محمد إبراهيم فى تصدير هذه الآثار للخارج، ثم عاد فوافق لأنه لم يكن يملك إلا الموافقة.

ولكن ابنته أصيبت فى حادث.

وفى الليل جاء من يقول له، فى الحلم، إنه يجب أن يستمر فى الاعتراض، وعلى ذلك طلب من الحكومة المصرية إعادة النظر فى الأمر، ولكن أحدا لم ينتبه إلى هذا الطلب ولم يستجب له المسئولون.

توجه يوم ١٩ من ديسمبر عام ١٩٦٦ إلى السفارة الفرنسية يطلب من السفير المصرى الاتصال بالجنرال ديجول ليسحب عرضه أو يعتذر عن قبول المعروضات.

استمع رجال السفارة باهتمام ثم قالوا للأستاذ المصرى:

ـ أنت كرجل علمى يجب ألا تصدق هذه الخرافة.

وعند خروج محمد إبراهيم من دار السفارة صدمته سيارة ومات بعد يومين .

* * *

بقى من الذين شهدوا افتتاح المقبرة وغرفة الدفن وفحص المومياء بالأشعة اثنان فقط عام ١٩٧٠ .

الأول هى السيدة إيفلين ابنة اللورد كارنارفون وقد ظلت مريضة خلال السنوات العشر الأخيرة من حياتها .

والثانى ريتشارد آدامسون رجل البوليس الحربى البريطانى الذى كان يحرس المقبرة عند افتتاحها وحتى أنهى كارتر عمله سنة ١٩٣٢ .

كان آدامسون قد بلغ السبعين من عمره عندما أدلى فى أواخر عام ١٩٧٠ بحديث إلى التليفزيون قال فيه :

ـ لم أؤمن لحظة واحدة بخرافة اللعنة .

وغادر استديو تليفزيون نورويتش فى إنجلترا فصدم جرار سيارة التاكسى التى يستقلها وألقاه فى الطريق وتفادته عربة لورى مرت على بعد أشبار من رأسه!

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يدين فيها آدامسون اللعنة .

ماتت زوجته بعد ٤٨ ساعة من حديثه الأول .

وفى المرة الثانية كسر ظهر ابنه فى حادث سيارة .

وبعد الحادث الثالث عند استديو نورويتش قال آدامسون :

ـ كنت ـ حتى الآن ـ أنكر أية علاقة للعنة بما حدث لى ولأسرتى . ولكنى أعيد التفكير الآن!

* * *

وفى الطائرة الحربية ـ بريطانيا ـ التى شحنت بها آثار توت عنخ آمون لعرضها فى لندن عام ١٩٧٢ ركل الضابط الفنى لانسدون بقدمه الصندوق، الذى يضم القناع الذهبى وهو يقول ـ متفاخرا لزملائه :

ـ ركلت أغلى شىء فى العالم . .

وبعد فترة كان يصعد سلما انهار تحته فجأة، وكسرت رجله وظل فى «الجبس» لا يستطيع حراكا خمسة شهور كاملة .

وتبادل خمسة من ضباط وجنود الطائرة الجلوس فوق صندوق القناع متتابعين وهم يضحكون ساخرين . .

* ملاح الطائرة الملازم جيم ويب دُمر بيته فى حريق أفقده كل ما يملك .

* ومضيفة أجريت لها عملية جراحية فى رأسها أدت بها إلى الصلع الكامل .

* والمضيف الأومباشى بريان رونسفول ـ ٣٥ سنة ـ الذى لعب الورق فوق صندوق القناع أصيب بأزمتين قلبيتين خلال السنوات الأربع التالية .

* وقائد الطائرة «ريك لورى» مات بأزمة قلبية عام ٧٦ وعمره ٤٠ سنة . وقالت زوجته دولوريس لى :

ـ قتلته لعنة توت عنخ آمون .

* والمهندس كين باركنسون مات أيضا بأزمة قلبية .

وقالت زوجة باركنسون :

ـ الأزمة القلبية الأخيرة عام ١٩٧٨ قتلته وهو فى الخامسة والأربعين .

واستمر الناس فى كل مكان يتابعون الحديث عن اللعنة .

أقام ضابط شرطة ملازم أول اسمه جورج لابراش ـ ٥٦ سنة ـ دعوى أمام محكمة كاليفورنيا يطالب فيه الولاية بتعويض ١٨٤٠٠ دولار عما أصابه من أضرار نتيجة لعنة الملك الفرعونى القديم .

وقال الضابط إنه كان يحرس القناع الذهبى للملك فى مدينة سان فرانسسكو لمدة شهر كامل خلال عام ١٩٧٩ .

خلال تلك الفترة كان يقف على مسافة متر واحد تقريبا من القناع وظل ينظر إليه فأحس بأنه ينوم مغناطيسيا .

أصيب بأزمة قلبية وظل ٨ شهور لا يغادر الفراش .

وعندما جاء أطباء الشرطة لفحصه لم يجدوا به مرضا أو أثرا لأزمة قلبية.

ومن هنا رفضوا اعتبار ذلك إصابة عمل لأنهم لم يستدلوا على شيء.. ووصل بهم الأمر إلى اتهامه بادعاء المرض.

قال الضباط إن «اللعنة» لا يمكن اكتشافها في التحاليل الطبية، ولا صور الأشعة، ولذلك يريد من القضاء إثبات أن «اللعنة» حقيقة ويطالب بالتعويض عنها.

وجمع المحامي كل ما قيل عن «لعنة الفراعنة» وقدمها للقضاء باعتبارها مستندات أساسية ينبغي الاعتراف بها!

* * *

أصابت اللعنة شخصا آخر، لم تقتله، ولكنها أنهت حياته المهنية وهو آرثر ميرتون مراسل صحيفة «التايمس» البريطانية التي احتكرت نشر أخبار كشف المقبرة، وكان أول من دخلها من الصحفيين.

ساءت صحة ميرتون، واضطر لإجراء عملية جراحية بعد فترة قصيرة من الكشف، كما أصيب بالتهاب الكبد، ومع ذلك كان مضطرا للعمل.

وفي أول نوفمبر ١٩٢٩ تلقى ميرتون قرار جريدة التايمس بفصله. وبنى القرار على أسباب عدة منها أنه يبالغ في كشوف المصروفات التي ينفقها في عمله الصحفي وتتحملها الصحيفة، كما أنه في تغطيته لأخبار فلسطين كان مخيبا لآمال رؤسائه.

اضطر ميرتون إلى إقامة دعوى قذف ضد الصحيفة استغرق نظرها عامين، كان الصحفي خلالها ينتقل بين المقبرة في الأقصر ونادي «التيرف» في القاهرة.

استعانت الصحيفة في دفاعها بتصريح قاله للصحيفة الدكتور حامد محمود وزير مصر المفوض السابق في لندن أعلن فيه أن اللورد كارنارفون وهوارد كارتر كانا يدفعان مبالغ لميرتون لخدماته كما أن القصر الملكي المصري كان يدفع له مبلغ مائتي جنيه شهريا ومنحه أيضا مكافأة قدرها ألف جنيه.

ولم يذكر الوزير المفوض السابق شيئا عن الخدمات التى كان يقدمها ميرتون لقصر الملك أحمد فؤاد فى أثناء عمله فى الصحيفة .

* * *

وأخيرا رأت التايمس حسم الخلاف مع ميرتون فوافقت على أن تدفع له تعويضا قدره عشرة آلاف جنيه ، ثم اكتشف المحامون أنهم أخطئوا وأضافوا صفرا إلى الرقم وأن المبلغ الصحيح هو ألف جنيه فقط .

وفى نهاية الأمر دفعت له الصحيفة ٥٩٣٦ جنيهًا تعويضا وحذفت عبارات القذف من ملفه وأشادت بخدماته المخلصة وعمله فى مصر .

واستمرت حكاية «اللعنة» حتى عام ١٩٨٠ .

أنتجت محطة «ن . ب . س» الأمريكية برنامجا تليفزيونيا اسمه «توت» الملك الطفل ، اشترك فيه الفنان العالمى أورسون ويلز وساهمت فى إخراجه الكاتبة جون ريج التى أصدرت بعد ذلك كتابا عنوانه «يوميات الملك الطفل توت عنخ آمون» .

صور الفيلم فى القاهرة والأقصر ليجمع بين قصة الملك ، وحكاية الكشف عن قبره .

استقل أحد الممثلين وهو «يان ماكشين» سيارة موديل ١٩٢٢ ، تشبه تلك التى كان يستعملها هوارد كارتر وكانت بجواره الممثلة «إيفامارى سانت» فى طريقهما إلى مكان المقبرة .

اندفعت السيارة فجأة من قمة تل ، وتوقفت «الفرامل» عن العمل .

ألقى الممثل روبرت فريزر بنفسه من السيارة المسرعة .

واستطاع كهربائى ضخم أن يجذب الفنانة ويخرجها من السيارة ، أما الممثل «يان ماكشين» فقد أطبقت عليه عجلة القيادة عندما اصطدمت السيارة بشجرة وكسرت ساقه فظل متعطلا عن العمل سنة كاملة وطالب بتعويض مليون دولار .

وقالت الممثلة «جوان كولنز» إنها اعتذرت عن التمثيل فى الفيلم خوفا من اللعنة التى تحققت وأصابت زميلها !

* * *

فـى كتـاب «لعنة الفراعنـة» يقـدم فـيليـب فـاندنبـرج أكـثر مـن تعليـل عـلمى للعنة الفراعنة.

بـدأ الملك مينا زراعـة النبـاتات السـامـة فـى مصـر عـام ٣٠٠٠ قبل الميـلاد وسجل تأثيرها.

ومن القصص المعروفة أن كليوباتره نجحت فى مزج أنواع مختلفة من السموم وجربتها على العبيد فماتوا.. وعندما عاش البعض أجرت تجارب أخرى كثيرة حتى تتأكد أن سمومها تقتل.

وكان مارك أنتونى لا يأكل - حتى مع كليوباتره - إلا بعد أن يتذوق أحد رجاله الطعام ولا يموت.. سما!

ذاق العبد كأسا من النبيذ قدمتها كليوباتره فبدأ مارك أنتونى يحتسيها.

أرادت ملكة مصر مداعبته فأخذت وردة من شعرها ووضعتها فى القدح، وعندما رفعه مارك أنتونى إلى شفتيه أوقفته كليوباتره وطلبت من العبد أن يشرب منه.. فمات.

قالت كليوباتره لمارك أنتونى:

- كان السم فى أوراق الزهرة. وأردت أن أبين لك أنى أستطيع قتلك مهما اتخذت من احتياطات.

وهذه القصة، وغيرها، تبين أن لعنة الفراعنة يمكن أن تجىء من السموم التى يبقى تأثيرها آلاف السنين.

إن حورمحب طمس وحطم كل آثار من سبقوه إلا القبور، لا نقاء أو طهرا، بل خوفا من سمومها وما تركه فيها السحرة ولذلك بقى قبر الملك توت عنخ آمون.

وبعض أنواع البكتريا فى قبور الفراعنة يبقى تأثيرها قرونا عندما تتعفن الزيوت والأطعمة والصمغ مع الجسد عندما يتحلل. وقد ثبت من تشريح المومياوات وجود خلايا بكتريا حية فيها.. كما أن بعض هذه الخلايا يصبح أشد ضراوة بعد الموت.

قال عالم الذرة لويس بولجارينى عام ١٩٤٩:

هناك احتمال قوى بأن قدامى المصريين استعملوا الإشعاعات النووية لحماية

أماكنهم المقدسة، وربما تكون أرض المقابر قد غطيت باليورانيوم أو أضيفت مادة مشعة من اليورانيوم والذهب إلى صخور المقابر يمكن أن تقتل الإنسان.

وأكد فيليب فاندنبرج أن المصريين عرفوا تحلل الذرة وأنتجوا غازا للأعصاب يحمى القبور ووضعوا نظما دفاعية لحماية القبور بهذه الغازات كما يفعل المعاصرون بأجهزة الإنذار المبكر المختلفة.

والأهرامات أيضا، بطريقة تصميمها، تطلق قوى وطاقات قد تكون مدمرة.

وهذا كله يعبر عنه، غير العلماء، بكلمة واحدة هى «اللعنة».

* * *

فى عام ١٦٥٦ دخل عالم جيولوجى من جنوب إفريقيا كهفا على عمق ١٥٠ مترا تحت الأرض فى روديسيا فشاهد آلاف الوطاويط المحنطة.

أحس العالم واسمه الدكتور «جون وايلز» بضيق فى التنفس فغادر الكهف.

بعد أيام أصيب بالتهاب رئوى ونقل إلى المستشفى.

وجد الطبيب المعالج أن مرض العالم يرجع إلى نوع غريب من الفطريات، أرسلها إلى الولايات المتحدة لتحليلها؛ لأنه قرأ عن ميكروب مماثل وجد لدى الرواد الذين دخلوا كهوفا فى بيرو.

تبين من التحليل أن الميكروب واحد. . ومن هنا بدأ الشك فى أن يكون الميكروب نفسه هو الذى أدى إلى مرض أو موت الذين دخلوا قبور الفراعنة.

وأكد هذه النظرية الدكتور عزالدين طه أستاذ البيولوجيا بطب القاهرة.

عقد مؤتمرا صحفيا فى ٣ من نوفمبر عام ١٩٦٢ أعلن فيه أنه فحص موظفى المتحف المصرى ورجال الآثار وعماله؛ فوجد أن البعض منهم مصاب بالتهاب فى الجهاز التنفسى نتيجة فطريات لابد أنها وجدت فى قبور المصريين القدامى وآثارهم.

وفى إبريل عام ١٩٩٢ زار الأقصر والمتحف المصرى بالقاهرة مذيع التليفزيون البريطانى «بى. بى. سى» كريستوفر فراى لنج ليعد ويقدم برنامجا فى خمس

حلقات عن «وجه توت عنخ آمون» يذاع بمناسبة مرور سبعين عاما على الكشف.

روى فراى لنج ما جرى له فقال:

ـ أحيانا كادت هذه الأحداث تنجح فى تحدى سخريتى من «لعنة الفراعنة» منها: الأضواء التى تنبعث فجأة عندما ذكرت لأول مرة اللعنة وأنا أقف أمام التابوت الحجرى ذى الغطاء الزجاجى لتوت عنخ آمون.

وعندما بدأت تعليقى بجانب القناع الذهبى المشابه لوجه الفرعون فى المتحف المصرى بالقاهرة تألم مدير المتحف فجأة من حصوة المرارة، وهو المرض الذى عانى منه هوارد كارتر نفسه فى أوائل العشرينيات.

وحدث خلال التصوير أن انقطع الكابل الرئيسى الذى يتعلق به المصعد فى فندق بالقاهرة حيث كنا نقيم، فسقط المصعد من ارتفاع ٢١ طابقا، وكنت به مع المخرج فتوقفت عن التنفس بضع ثوان.

وبعد يوم من التصوير فى المقبرة المليئة بالفضلات الجافة للخفافيش أصيب جميع أفراد الطاقم تقريبا بالتهابات فى الجفون وقد أرجعوا ما أصابهم «ألتراكوما» إلى انتقام الملك توت نفسه..

وبذلك انتعشت من جديد حكاية «لعنة الفراعنة»!

* * *

ولكن..

هناك حقيقة مهمة وهى أن معظم الذين قيل عنهم إن «لعنة» الفراعنة «الملك توت عنخ آمون» قتلتهم أغلبهم من الأجانب وليست لهم علاقة بعملية التنقيب والحفر.. إنهم مجرد زوار.

يبقى شخص واحد وهو اللورد كارنارفون.

إنه الرجل الذى جاء إلى مصر بحثا عن جو دافئ بعد حادث سيارته فى ألمانيا.

وقد أنفق المال للتنقيب عن المقبرة ثم مات، فكأن كل دوره اقتصر على عمليات التمويل وبعد أن أدى دوره اختفى بالموت بينما «بعث»! توت عنخ آمون!!

وباختفاء كارنارفون فقد كارتر شخصية ذات نفوذ قوى مؤثر على المسئولين بدار المندوب السامى البريطانى وفى الوزارة المصرية ومصلحة الآثار . . وكان يمكن لكارنارفون أن يضغط على حكومة مصر لتسلمه بعض آثار المقبرة .

أما أولئك الذين اشتركوا فى عمليات التنقيب والترميم والحفر ونقل آثار الملك توت عنخ آمون فهؤلاء عاشوا حتى أتموا مهمتهم . .

وهذه بعض الأسماء . .

* هوارد كارتر : اكتشف المقبرة عام ١٩٢٢ عاش بعدها ١٧ سنة ومات عام ١٩٣٩ وعمره ٦٦ عاما .

* هارى بيرتون : المصور الذى التقط ١٨٠٠ صورة لكل الآثار وصور أيضا تشريح المومياء عاش ١٨ سنة بعد افتتاح المقبرة ومات عام ١٩٤٠ وعمره ٦١ سنة .

* وآرثر ميس : مساعد كارتر وشريكه فى تأليف المجلد الأول عن العملية كلها والذى مات فى فندق اللورد كارنارفون .

* كل الذين قالوا إن اللعنة لحقت بميس لم يذكروا أبدا أنه مات بعد اكتشاف المقبرة بستّ سنوات كاملة . . فقد توفى سنة ١٩٢٨ وعمره ٥٤ عاما .

* وألبرت مورتون ليتجو : أمين القسم المصرى بمتحف المتروبوليتان فى نيويورك ، ورئيس بعثة المتحف للبحث عن الآثار المصرية ، وهو الذى رحب باشتراك أعضاء بعثة المتحف من علماء الآثار والعمال الفنيين ، عاش ١٢ سنة ومات عام ١٩٣٤ .

* وعاش السير فلاندرز بيترى ٢٠ عاما بعد افتتاح المقبرة ومات وعمره ٩٢سنة .

* وهربرت وينلوك : الأمين المساعد للقسم المصرى بمتحف المتروبوليتان وعضو بعثته للتنقيب عن الآثار المصرية فى الأقصر ، وصديق كارتر الأول أو الوحيد ، كان أول من أبرق إلى كارتر يقول إن الآثار التى اكتشفها المليونير الأمريكى تيودور دافيز تؤكد أنها للملك توت عنخ آمون . . وكانت برقية وينلوك أهم حافز لكارتر للاستمرار فى البحث والتنقيب وصولا إلى المقبرة .

عين وينلوك مديرا لمتحف المتروبوليتان عام ١٩٣٢ . وعاش بعد افتتاح المقبرة ٢٨ سنة ومات سنة ١٩٥٠ وعمره ٦٦ عاما .

* وإدوارد روبنصون : مدير متحف المتروبوليتان عند الاكتشاف والذى أعطى الموافقة النهائية على اشتراك رجال المتحف فى مساعدة كارتر . . عاش روبنصون ٩ سنوات بعد الكشف ومات عام ١٩٣١ وعمره ٧٣ سنة .

والأسماء كثيرة .

* جوستان ليفيفر : كبير أمناء متحف القاهرة ـ حينئذ ـ عاش ٣٥ سنة بعد الكشف ومات فى الثامنة والسبعين من عمره .

* والتر هوسر : المهندس المعمارى ، ومساعد وينلوك فى مصر وفى مقبرة الملك توت ، عاش بعد الكشف ٢٧ عاما ومات وعمره ٦٦ عاما .

* وجان كابار : عالم الآثار البلجيكى الذى دعا ملكة بلاده لزيارة المقبرة يوم افتتاح غرفة الدفن ورافقها يومئذ ، عاش ٢٥ سنة أخرى ويوم وفاته كان فى السبعين من عمره .

* وألفريد لوكاس : مدير معمل الكيمياء بمصلحة المساحة المصرية والذى رمم كل آثار الملك ، عاش ٢٣ عاما بعد الكشف ومات وعمره ٧٣ سنة .

* وإنجلباك : مفتش آثار الوجه القبلى والذى ظل يتردد على المقبرة يوميا لحمايتها من السرقة ، عاش بعد اكتشافها ٢٤ سنة ومات وعمره ٥٨ عاما .

* والسير آلان جاردنر : الذى فك الرموز الهيروغليفية التى وجدت على جدران المقبرة ، عاش ١٧ سنة ومات فى السابعة والسبعين .

* وعاش ١٣ سنة أخرى بعد الكشف حتى الثامنة والسبعين كل من هنرى جيمس بريستد عالم الآثار الأمريكى الذى بلغ السبعين ، وكيبيل مساعد لاكو .

* والمهندس آرثر كالندر : مساعد كارتر عاش ٩ سنوات أخرى .

* وأخيرا بيير لاكو : مدير مصلحة الآثار الذى أصر على الحفاظ على كل آثار الملك فى مصر طال عمره ! بعد الجميع ؛ عاش ٤١ سنة أخرى بعد افتتاح المقبرة . ويوم مات كان فى التسعين من عمره .

وبعد . .

إن مؤلفى قصص الألغاز وكتاب القصص الشعبية بشكل عام الذين أجرت معهم الصحف ـ بعد الكشف مباشرة وخلال السنوات التالية ـ أحاديث ساعدوا على نسج هالة من الغموض حول قصة الكشف الأثرى وخاصة حول مصرع لورد كارنارفون .

لقد طوروا الصلة بين توت عنخ آمون واللعنة . بل قللوا الاهتمام العام بالأشياء الرائعة التى نقلت من المقبرة . وحين فعلوا ذلك كانت تظهر قصص فى الصحف الشعبية حول طلاسم تحمل رسائل بالهيروغليفية تحمى المقبرة من المتطفلين عبر العصور .

وترجع صيغة اللعنة إلى بدايات التاريخ المصرى ، وكان المصريون القدماء يرون أن انتهاك حرمة المقابر جريمة شنعاء ؛ لأن المقبرة والمومياء هما القوة التى تحفظ الحياة التى يعيشها الإنسان بعد وفاته . وكان الغذاء والماء فى المقبرة أيضا معدان للروح وليس للجسد . وكان إتلاف ونهب المقبرة أو المومياء يجعل الروح بلا مأوى وبلا اسم . وكان ذلك أسوأ جزاء يمكن أن يلحق بمصرى .

فى الأسرة السادسة (٢٤٢٣ ـ ٢٢٦٣ قبل الميلاد) كتب على الحائط : «كل من يدخل هذه المقبرة . . سأنقض عليه ، وسيعاقبه الإله العظيم» .

وبعد ألف عام أعد أورسو مدير المناجم الثرى هذه الكلمات لتكتب وتنحت على تمثال جنائزى أعد له : «كل من وضع يده على ممتلكاتى وكل من انتهك حرمة مقبرتى أو نقل موميائى سيعاقبه إله الشمس ، ولن يورث أشياء لبنيه ولكن يكون له فرح فى الحياة وستتدمر روحه إلى الأبد!» .

حاول كارتر أن ينفى حكاية اللعنة المصاحبة لكشف المقبرة ، وكذلك الآثار المصرية بصفة عامة فقال : «شعور عالم الآثار المصرية القديمة ليس شعور الخوف بل الاحترام والرهبة ، وهو مضاد تماما للتطير الأحمق الذى ينتشر بشكل كبير جدا بين الناس الانفعاليين الباحثين عن الإثارة الطبيعية» .

وقـد اختـرعـت قـصص غـريبـة عن الأخطـار المحـدقـة فى المقبـرة للقـضـاء علـى المتطفلين!

ربما لا يوجد مكان فى العالم بعيد عن المخاطر مثل المقبرة، فقد أثبت العلماء أنها معقمة. وينبغى أن يرفض كل إنسان عاقل هذه «الاختراعات» باحتقار.

وأكد ذلك آرثر ديجال الذى قام بدراسة خاصة عن التطير المصرى بشكل عام والخاص بتوت عنخ آمون بشكل خاص.. فقال: «إن موضوع اللعنة المرتبطة بالمقبرة لتخويف لصوص المقابر فى تلك الفترة حيث قد يلجئون إلى العبث بالمومياء بحثا عن المجوهرات، أو يتلفون المقبرة بشكل تضيع معه هوية الميت».

ولكن كارتر نفسه كتب فى مذكراته يقول:

«على التلال خلف منزلى (فى غرب طيبة) رأيت اثنين من ابن آوى فى طريقهما إلى الأرض المزروعة. ربما كان لهما صغار فى التلال أو كان من المبكر لهما أن ينزلا الأماكن المزروعة والمأهولة، لكن كان أكثر ما يثير الاهتمام أنه بينما كان أحدهما عاديا فى اللون والحجم كان الآخر أسود تماما ـ ولم أكن قادرا على القول بأنه ذكر أم أنثى، إذ لم يقتربا لأكثر من ٢٥٠ ياردة ـ وكان أطول كثيرا من زميله وهزيلا يشبه الشكل الذى يوجد على الآثار وإن كان ذيله ليس كثيفا تماما. كان ذلك أول نوع ملون من «ابن آوى» الذى أراه فى مصر على مدى ٣٥ عاما خلال خبرتى فى الصحراء. وبدا لى كأنه ابن آوى المصرى الأصلى القديم الذى نعرفه اليوم فقط باسم «أنوبيس».

أما هربرت دينلوك الذى عين مديرا لمتحف متروبوليتان فى نيويورك عام ١٩٣٢ فقال:

«إن الصلة بين حوادث موت بعض الأشخاص وبين فتح المقبرة وهمية. فإن أيا من محتويات المقبرة لم ينتقل إلى المتحف البريطانى. ولو كان السياح هدفا للعنة فعلينا أن نذكر أن عددا كبيرا منهم الآن أصبحوا مسنين ويسافرون إلى مصر للاستشفاء».

وخطب السير رايدر هاجارد فى لندن يلقى كلمة أمام نادى روتارى فى لندن فقال عن عنوان «السحر الأسود»:

« كل هذا الهراء عن نهاية لورد كارنارفون نتيجة للسحر لغو خطر . خطر لأنه سوف يقوى الموجة الصاعدة من التطير التى يبدو أنها تعم العالم اليوم . هل تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يسمح لفرعون الذى ليس فى النهاية سوى مخلوق بشرى يضع تاجا على رأسه أن يقتل الناس بوسائل السحر ويترك ما يسمى فى الدوائر الروحانية قوة من قوى الطبيعة وهو الشيطان؟ إذا أمكن أن يحدث ذلك فلنترك كل أمل لأننا فى الواقع نكون فى فراغ مظلم » .

وعلى أية حال فمن الواضح أن لعنة الفراعنة غريبة للغاية .

إنها لم تمس إنسانا كان له دور لصالح الكشف ، ولم تمس عاملا مصريا واحدا اشترك فى الحفر ، أو فى نقل محتويات المقبرة ، بل تركت هؤلاء جميعا يعيشون حتى يتم كل منهم عمله فى كشف آثار الملك ، وحفظها ، وترميمها ، ونقلها إلى المتحف المصرى فى القاهرة!

المـــواجهـــة

رجل واحد أدرك أهمية المقبرة، منذ اللحظة الأولى، وفكر فى مستقبل آثار توت عنخ آمون، ومن الأولى بامتلاكها.

هذا الرجل هو السير أرنست واليس بادج؛ الذى ظل ٥١ عاما أمينا للقسم المصرى بالمتحف البريطانى، زار مصر عدة مرات للتنقيب عن الآثار وجمع كميات هائلة منها للمتحف البريطانى. واستعان بالجيش عندما قامت عقبات فى طريق سرقته لآثار مصرية فى منطقة الأهرامات.

كتب فى صحيفة «التايمس» البريطانية مقالا طويلا عن مصر وتاريخها، وتوت عنخ آمون، وذلك بعد ٢٤ ساعة من افتتاح المقبرة رسميا.

قال:

«تنص القوانين الخاصة بأعمال البحث والتنقيب التى يقوم بها الأجانب فى مصر على أن يكون للمكتشف نصف الآثار التى يعثر عليها.

وكانت هذه القوانين تسرى بكرم وسخاء فى عهد ماسبيرو.

ورجاؤنا أن تطبق هذه القوانين أيضا فيما يتعلق بالآثار التى اكتشفت اليوم. وأملنا أن يحذو مدير المتحف المصرى حذو ماسبيرو فى معاملته للورد كارنارفون.

إن العامل يستحق أجره. ولكن اللورد كارنارفون اشتغل ١٦ عاما بدون أجر وفوق ذلك أنفق مبلغا من المال».

ولكن السير أرنست واليس بادج كان يعتقد أن مصر لم تتغير منذ نقب عن الآثار وسرقها.

قال فى مقاله :

« إن الأمر يعتمد على اللورد اللنبى . . . وحكومة مصر »!

إن بادج ظن أن المندوب السامى البريطانى يستطيع أن يحصل لبريطانيا على ما تريد من آثار الفرعون .

* * *

كانت هذه مجرد بداية تابعها اللورد كارنارفون وهوارد كارتر بإصرار .

أدلى اللورد بحديث إلى صحيفة «التايمس» قال فيه : إن القبر نبش فى عهد رمسيس التاسع ، أى بعد أكثر من مائتى عام من وفاة توت عنخ آمون . وما دام القبر غير سليم وسرق فإن من حق المكتشف الحصول على نصف الآثار طبقا لقانون ماسبيرو .

وزعم كارتر أنه وجد «ختم» رمسيس التاسع على المقبرة ؛ مما يقطع بأن القبر سبق نبشه وإعادة ختمه مرة أخرى .

ورأى اللورد كارنارفون أن يستغل متاحف العالم الكبرى للضغط على حكومة مصر فقال إنه «لا يريد هذه الآثار لنفسه بل يريد أن يهدى جزءا منها إلى المتحف البريطانى ومتحف اللوفر ومتحف الفنون «المتروبوليتان» فى نيويورك» .

وجاء العالم الأثرى جيمس هنرى بريستد ليؤكد هذه الحقيقة من خلال مراجعة النقوش الهيروغليفية فى المقبرة فقال إنه وجد ختمين ؛ الأول للملك توت عنخ آمون والثانى لمدينة الموتى الملكية مما يدل على أنه جرت محاولة لسرقة المقبرة وأعيد ختمها .

ولكن بريستد قال إنه راجع الأختام فوجدها من عهد الأسرة الثامنة عشرة التى ينتمى إليها توت عنخ آمون ، أى أن السرقة تمت فى عهد هذه الأسرة لا فى عهد الأسرة ١٩ التى ينتمى إليها رمسيس التاسع .

ولكن اللورد وكارتر لم ينشرا شهادة بريستد ؛ لأنهما يريدان إثبات أن القبر سرق بعد وفاة الملك توت بمائتى عام أو أكثر مما يؤكد حقهما فى نصف الآثار .

* * *

أذاعت وكالات الأنباء على العالم فى ٣ من ديسمبر عام ١٩٢٢ أن قيمة الآثار تقدر بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه وهو رقم ضخم بحسابات ذلك الزمان إذا عرفنا أن كل ما أنفقه اللورد خلال ١٦ سنة من الحفر لا يتجاوز ٥٠ ألف جنيه.

وبدأ اللورد يحلم بنصف هذا المبلغ، وهو الذى فكر فى وقف الحفر فى ذلك الموسم حتى لا ينفق خمسة آلاف جنيه!

* * *

استمرت المطالبة بنصف الآثار عن طريق الصحف البريطانية والأمريكية بدعوى أن المقبرة ليست سليمة. وما دام اللصوص قد دخلوها مرتين ونبشوها يصبح من حق كارنارفون الحصول على نصف الآثار.

قالت «التايمس»: القانون يقضى بأن تنقل الأشياء الثمينة إلى متحف القاهرة، وتأخذ الحكومة نصف الباقى، ويأخذ الذى عثر عليها النصف الآخر.

وكتب الأثريون البريطانيون يطالبون بضرورة إعطاء المكتشف حصة وافرة من الآثار، وحثوا الحكومة البريطانية على التدخل لدى حكومة مصر للتنازل عن جزء من الآثار.

اضطرت وزارة الأشغال المصرية إلى إذاعة بلاغ رسمى فى ٢١ من ديسمبر ١٩٢٢ تعلن فيه أنه ليس من حق اللورد الحصول على شىء من محتويات المقبرة؛ لأن الترخيص ينص على حق المصلحة فى كل الآثار.

قال البيان:

« كثر تحدث الصحف عن نبأ الاكتشاف وعلق عليه بعضها بما لا يطابق الواقع فوزارة الأشغال العمومية تنشر الآتى إثباتا للحقيقة:

للآثار المكتشفة أهمية جليلة وقيمة عظمى من الوجهة الفنية فإنها مجموعة كاملة سليمة.

وقد اتخذ كل ما يلزم من التدابير لحراسة المكان حراسة دقيقة ريثما يتم الاستعداد لنقل المحتويات بما ينبغى فى هذه الأحوال من العناية الخاصة ووسائل الاحتياط

التام. فهناك عمال اللورد كارنارفون الذين اكتشفوا هذه المقبرة ومعهم خفراء مصلحة الآثار يعاونهم جنود من بوليس مديرية قنا.

أما مصير الآثار المكتشفة فليس هناك - خلافا لما أظهرته بعض الصحف - ما يدعو إلى إزعاج الرأى العام المصرى بشأنه.

ولبيان ذلك نذكر أن لائحة الآثار المصرية تنص على إعطاء المكتشف نصف ما يعثر عليه من الآثار (مع استثناء أشياء معينة قضت اللائحة بحفظها للحكومة المصرية).

ولكن نظرا لما تعلمه وزارة الأشغال العمومية من أهمية منطقة وادى الملوك من الوجهة الأثرية، ولما كان منظورا من العثور على آثار قيمة فقد نص صراحة فى الترخيص المعطى للورد كارنارفون على ألا يكون له حق فى الاستيلاء على شىء مما قد يعثر عليه.

وقد قبل اللورد كارنارفون هذا النص عن طيب خاطر فكان عمله فى هذا برهانا جليا على تنزهه عن المطامع المادية وتفانيه فى خدمة العلم ومحبة الفن.

ولقد أشارت بعض الصحف إلى أن اللورد كارنارفون يطمع فى إحراز هذا الكنز الثمين. ولكن وزارة الأشغال العمومية لا تعلم عنه وعن عامله الفاضل المستر كارتر أنهما أظهرا أى رغبة فى الاستئثار بشىء منه.

وعما قريب تتخذ التدابير اللازمة لنقل هذه العاديات إلى دار الآثار المصرية بالقاهرة. وتنظر الحكومة، بعد ذلك، فيما اقترحته لجنة حفظ الآثار نحو مكافأة اللورد كارنارفون اعترافا بجليل خدمته للتاريخ».

ولكن كارتر جمع مساعديه وأعلن يوم ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٢ أن القبر لم يمس، وأنه اقتحم بعد ٢٥ سنة من وفاة الملك توت، وأن أحدا لم يدخله منذ عام ١٣٧٧ ق.م.

وقال إنه واثق من أنه سيجد مومياء الملك.

وكان هدف كارتر من ذلك تأكيد حقه فى نصف الآثار.

ولكن المصريين فسروا هذا البيان بأنه دليل على أن المقبرة نبشت ولكنها لم تسرق، وأنها سليمة. فقد بقيت لا تمس ثلاثة آلاف عام؛ ولذلك فإن قانون ماسبيرو يقف مع وزارة الأشغال ولا يساند وجهة نظر كارتر بأى حال.

وأدركت ذلك صحيفتا الديلى إكسبريس البريطانية والنيويورك تايمس الأمريكية فوجهتا اللوم إلى كارتر لأنه ببيانه.. خسر قضيته.

ولكن السير فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى وقف مع كارتر ليحول المناقشة فى اتجاه آخر.

كتب يقول إن نصف الآثار حق مقرر للورد وله أن يحتفظ بهذه الآثار وأن يهدى هذا النصف أو بعضه لمن شاء.

وكان كينيون يقصد من ذلك أنه لا نقاش فى نصيب اللورد ولا جدال فى حقه فى إهداء نصيبه.. للمتحف البريطانى أو متحف المتروبوليتان الأمريكى!

ردت الصحافة المصرية بأن هذه الآثار مرآة الماضى، يرى فيها المصريون عجزهم الحالى وقصورهم.

وقال بعض الكتاب إن للآثار لوائح وقوانين تنص على إعطاء مكتشفيها حصة منها فيما عدا الآثار التى لا نظير لها فتبقى فى مصر.. واللوائح والقوانين لا تنطبق على الآثار التى وجدت فى وادى الملوك، لأن بين الحكومة المصرية واللورد عقدا ينص على أن جميع الآثار التى توجد فى المقابر السليمة تكون ملكا للحكومة المصرية.

ويتعين على الحكومة أن تتمسك بهذا العقد ولن يؤثر فيها بعض الصحفيين الإنجليز، وإذا استخدمت الحكومة المصرية حقها فى الاستيلاء على أملاكها فلا يحتمل أن تحصل المتاحف الأخرى على نصيب من هذه الآثار.

وتكتب صحيفة مصرية بأن من حق اللورد وكارتر ومساعديهما الحصول على أوسمة وإقامة تماثيل لهم، ولكن الآثار يجب أن تبقى لمصر.

ونشرت صحيفة «مورننج بوست» البريطانية أن الحكومة المصرية لا تجد مندوحة من الإذعان لصحافة مصر.

وجد بيير لاكو مدير مصلحة الآثار أن ظروف مصر السياسية لا تساعده على الوقوف فى وجه كارتر، ورأى أن تأجيل البت فى ملكية الآثار ومناصفتها أفضل من أى قرار!!

رأى اللورد كارنارفون أن يقطع الشك باليقين.

طلب اللورد من لاكو مدير مصلحة الآثار ما اكتشف من آثار مناصفة بينهما أى بين اللورد والمصلحة.

أخذ كارنارفون يؤكد وجهة نظره قائلا:

- نصوص العقد واضحة. إن اللصوص دخلوا المقبرة من قبل ولذلك فإن حقى واضح فى نصف الآثار.

رد لاكو:

- بل إن المقبرة لم تمس أبدا، ولذلك فإن كل ما فيها يئول للمصلحة.

طال الجدل فى هذه النقطة ولكن لاكو قال:

- لنرجئ عملية التقسيم حتى يتم ترميم الآثار ونقلها إلى المتحف المصرى فى القاهرة.

وأضاف تلميحا:

- لابد من حصولكم على أية حال على نصف الآثار المكررة التى اكتشفت.

ورفض لاكو أن يحدد عدد الآثار ونوعها واكتفى بالإشارة العامة المبهمة.. الغامضة.. اطمأن اللورد إلى هذا الوعد خاصة وأن لاكو قال له:

- كلما قمتم بعمل ضخم فى ترميم الآثار كلما أخذتم نصيبا أكبر!

* * *

أبلغ اللورد ذلك إلى ليتجو فى لندن الذى بعث برسالة إلى إدوارد روبنصون مدير متحف المتروبوليتان فى نيويورك وقال له:

- إننا سنساعد اللورد فى حفظ وترميم ونقل الآثار. وقد تعهد بأن يعطينا بعض الآثار.

رد روبنصون قائلا :

ـ لابد من استمرار بعثة المتحف فى مصر فى التنقيب عن آثار الأسرة ١١ .

أجاب ليتجو :

ـ إننا سنستمر فى الحفر . ولكن ما سنأخذه من اللورد أفضل من كل حفائرنا فى الماضى والمستقبل . إن اللورد متأثر من مساعدتنا له .

ويتمادى متحف المتروبوليتان فى مساعدة كارنارفون وكارتر والآمال تراود رجال هذا المتحف فى آثار توت عنخ آمون خاصة وأنهم يمسكون بأيديهم كل يوم هذه الثروة الضخمة ويعدونها ويعبئونها ويشحنونها للمتحف المصرى بالقاهرة !

* * *

عقد كارتر ـ من ناحيته ـ عدة اجتماعات سرية مع لاكو لبحث ملكية الآثار الذى قال له :

ـ سيكون من حقكم اختيار مجموعة ممتازة من الآثار .

طلب كارتر ، وهو ذكى حريص ، من لاكو تسجيل ذلك الوعد كتابة .

قال لاكو :

ـ تكفيك كلمتى . ولا أريد علانية فى هذا الأمر .

اطمأن كارتر وأبلغ ذلك للورد الذى اجتمع بليتجو وقال له :

ـ ثق أنى سأراعى كثيرا متحف المتروبوليتان .

فرح ليتجو وكتب لروبنصون فى نيويورك قائلا :

ـ أرجوك حفظ هذه المسألة سرّا بيننا . لا تبلغ هذا الأمر لمجلس إدارة المعهد عدا اثنين ـ وسماهما بالاسم ـ لأنهما يكتمان الأسرار .

وفى متحف المتروبوليتان فى نيويورك توجد هذه الرسالة التى كتبها ليتجو وقال فيها : «كان كارنارفون بسيطا ورائعا وهو يبلغنى ذلك» !

* * *

أصبح اللورد وكارتر والمتحف البريطانى ومتحف المتروبوليتان على يقين من أن نصف الآثار فى طريقها إليهم، فبدأ كارتر يدلى بتصريحات يبدى فيها أمله فى أن تظل مجموعة الآثار متكاملة فى المتحف المصرى!

وكان كارتر ـ فى هذه التصريحات ـ مناورا يريد إثبات حسن نيته لتبادله وزارة الأشغال المصرية حسن النوايا وتهبه نصيبا أكبر من الآثار.

ولكن رسائل اللورد السرية لكارتر من لندن أكدت أن الأثرى كان يحاول سرا مع لاكو الوصول إلى نصف الآثار!

* * *

عاد اللورد كارنارفون إلى مصر ومات بعضّة البعوضة، وبقى كارتر وحده بعد أن فقد مساندة اللورد ونفوذه وصلته باللنبى والدوائر المسئولة فى لندن والقاهرة.

لاحظ بيير لاكو أن كارتر يسجل الآثار بطريقة تثير الشكوك.

إنه يسجل فى دفاتر المتحف المصرى بالقاهرة بعض الآثار التى ينبغى أن تئول إلى حكومة مصر.

ويضع فى قوائم خاصة الآثار المكررة مما يوحى بأنها ملكية مشتركة بين المصلحة والمكتشف. وهى طريقة مقنعة لإثبات حقوق اللورد.. فيما بعد..

وبالإضافة إلى ذلك فإن كارتر يصف بالتفصيل كل شىء فى هذه القوائم حتى يؤكد عملية الازدواج والمطالبة وإثبات الحقوق.

وتزداد المشاكل بين كارتر والصحافة حول عقد التايمس واحتكارها للأنباء الصحفية الخاصة بالمقبرة، وحق كارتر فى اختيار من يدخل المقبرة ومن لا يدخلها.

أعد بيير لاكو نصوصا فى عقود التنقيب الجديدة تتضمن حق الحكومة المصرية المطلق فى الإشراف على عمليات الحفر.. وللحكومة المصرية وحدها منح دخول مناطق التنقيب للأجانب. وأيضا حق الحكومة المصرية فى النشر عن هذه العمليات.

وبعث لاكو بالنصوص الجديدة إلى كارتر قائلا:

ـ يريد وزير الأشغال كشفا بأسماء معاونيك .

رد كارتر :

ـ إنى حر فى استخدام من أشاء ما دمت ملتزما بنصوص الترخيص .

قال لاكو :

ـ لابد من أسماء مساعديك حتى يوافق الوزير على دخولهم المقبرة .

حاول كارتر الاعتراض ، ولكن لاكو قال :

ـ لن يدخل أحد المقبرة إلا بإذن من الحكومة المصرية لضمان أن يدخل المؤهلون الذين يعملون فى هذا الكشف العلمى ولإبعاد الفضوليين .

ولكن لاكو لم يستطع أن يفرض رأيه أو يغير العقود ، فقد استقال محمد توفيق نسيم باشا رئيس وزراء مصر يوم ٩ من فبراير عام ١٩٢٣ بعد أن وافق على كل التعديلات التى طلبها الجنرال اللورد اللنبى على دستور مصر وأسقط من هذا الدستور كل المواد الخاصة بالسودان .

وبقيت مصر بلا وزارة خمسة أسابيع عندما اختار الملك يحيى إبراهيم باشا رئيسا للوزارة .

وكان يحيى إبراهيم فى الحادية والستين من عمره .

بدأ حياته كاتبا فى وزارة العدل وانتقل للتدريس فى مدرسة الحقوق ، وأصبح أستاذا ثم وكيلا لها ثم انتقل إلى وزارة العدل قاضيا بمحكمة الإسكندرية ، وتوالت تنقلاته وترقياته السريعة ، فتولى منصب رئيس محكمة الاستئناف ، ويختار وزيرا للمعارف فى وزارة يوسف وهبة باشا فى ٢٠ من نوفمبر ١٩١٩ وهى وزارة شكلت بعد الثورة وأعلن رئيسها أنها وزارة إدارية لا شأن لها بالأمور السياسية .

وعندما أسندت رئاسة الوزارة إلى محمد توفيق نسيم باشا فى أول ديسمبر عام ١٩٢٢ تولى يحيى باشا وزارة المعارف أيضا . .

ولما لم يجد الملك أحمد فؤاد رئيسا للوزراء خلال الأسابيع الخمسة التى أعقبت

استقالة توفيق نسيم، وجد أن يحيى إبراهيم يصلح لرئاسة الوزارة فى تلك الفترة الحرجة!

وفى تقارير اللورد اللنبى قال إن «يحيى باشا يفعل دائما ما يؤمر به، وإنه يصبح عنيفا عندما يجد من يؤيده وإنه خاضع لحسن نشأت باشا رجل الملك»!

وتسند وزارة الأشغال إلى حافظ حسن باشا مدة شهرين ثم يتولاها فى ١٥ من مارس ١٩٢٣ عبدالحميد سليمان باشا زوج ابنة إسماعيل سرى باشا.

ورأى المندوب السامى فى وزير الأشغال الجديد يتلخص فى «أن علاقته بالإنجليز طيبة ومرضية للغاية بل إنه يتمادى فى إعلان ذلك».

* * *

تقدم كارتر نيابة عن الليدى المينا أرملة اللورد كارنارفون إلى عبدالحميد سليمان باشا يطلب الترخيص بمواصلة التنقيب فى المقبرة لمدة عام آخر، لأن كل التراخيص السابقة صدرت باسم اللورد.

عقدت عدة اجتماعات فى مصلحة الآثار بالقاهرة وفى الإسكندرية لمناقشة الطلب.

عارضت المصلحة فى انفراد «التايمس» وحدها بأخبار الكشف، ولكن كارتر رأى أن يتغلب على الاعتراضات بتعيين آرثر ميرتون مراسل التايمس عضوا فى فريق الكشف الأثرى بحيث يستطيع دخول المقبرة وقتما يريد دون أن يثير اعترضا من أحد، ولكن لاكو أصر على حق الصحفيين المصريين فى الحصول على الأخبار فوافق كارتر بشرط واحد وهو أن يوزع بيانا مكتوبا عليهم بعد أن يبرق مراسل التايمس برسالته إلى لندن.

واضطر لاكو إلى أن يكتب إلى عبدالحميد سليمان باشا وزير الأشغال قائلا:

« إذا أصر كارتر على عدم احترام إرادة الحكومة فيما يختص بزيارة أصدقائه ومساعديه للمقبرة فيجب أن تطلق يد مصلحة الآثار لمنع هذه الزيارات بقوة البوليس».

وقال مدير الآثار :

« . . ويجب رفع المسألة إلى القضاء، فإن هناك أحوالا يصبح الصبر فيها جريمة من الجرائم وإنها لضربة قاضية لسلطة الحكومة وهيبتها أن تعمد دائما إلى التهديد وألا تعول أبدا على العمل .

ومن لا يحسن أن يدافع عما يعتقده حقا من حقوقه يكن قد سلك أضل سبيل لإدراك هذا الحق» .

وطلب لاكو أن تتولى مصلحة الآثار مراقبة زيارات أصدقاء كارتر للمقبرة وتحديد عدد مساعديه ولكن كارتر رفض .

كتب إليه لاكو :

«تلك هى المرة الأولى التى تجد فيها مصلحة الآثار صعوبات وعقبات فى سبيل البحث عن الآثار» .

ولم يكتف لاكو بذلك، بل طلب إلى وزارة الأشغال أن يوقع كارتر عقدا جديدا واضحا، بعد انتهاء العقد القديم، يحدد موقفه، وموقف الحكومة، منعا لأى إشكال .

اشتدت حملة الصحف المصرية والأجنبية ضد كارتر ومصلحة الآثار المصرية ووزارة الأشغال لأن مراسل التايمس وحده، يدخل المقبرة على هواه .

ولكن كارتر تمادى . .

قامت مصلحة الآثار بطبع دليل جديد للمتحف المصرى، فأضافت إليه أسماء القطع التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون، ونقلت إلى المتحف، فاحتج كارتر بدعوى أن المصلحة افتأتت على حقوقه بنشر تلك المعلومات .

وطلب كارتر حذف هذه المعلومات وهدد برفع قضية على مصلحة الآثار دفاعا عن حقوق ورثة اللورد .

هنا فقط رفض عبدالحميد سليمان باشا تهديدات كارتر!

ولكن وزير الأشغال عبدالحميد سليمان تدخل وفرض رأيه قائلا لرجال مصلحة الآثار :

ـ تولوا أنتم الصحافة الأجنبية وسأتولى شخصيا صحافة مصر .

ويجتمع عبدالحميد سليمان باشا ـ تحت ضغط الحملات الصحفية ـ بكارتر ويقول له :

ـ سبب المشكلة هو آرثر ميرتون مراسل التايمس فلو أنك منعته من دخول المقبرة وحده ، وسمحت له بالدخول مع الصحفيين الآخرين لانتهت الأزمة .

قال كارتر :

ـ آسف ، لا أستطيع الامتثال للقيود التى تريدون فرضها على .

تدخل توتنهام وكيل وزارة الأشغال وأخذ كارتر معه إلى مكتبه وقال له :

ـ إن ما يطلبه وزير الأشغال منك هو مجرد تنازل سياسى محدود. إنه يعطى حكومة مصر إشرافا روتينيا محدودا وربما يفيدك ذلك .

ولكن كارتر أنهى الحديث . . ففى تلك الأيام لم تكن حكومة مصر تملك أمورها أو أمور آثارها ومقابر أجدادها .

ورغم ذلك وافق الوزير فى ١٢ من يوليو ١٩٢٣ على منح ترخيص التنقيب لأرملة اللورد حتى أول نوفمبر ١٩٢٤ على أن يجدد بعد ذلك . . إذا لم يكن العمل قد تم . . محافظة على ذكرى اللورد كارنارفون .

قال الترخيص :

« تحتفظ مصلحة الآثار باستعمال حقها فى الرقابة بكيفية لا تفسح المجال لشىء من تعليقات الصحف فى السنة الماضية ، وتحمى المنقب بقدر الإمكان من الزيارات العقيمة . ويفهم طبقا أن النشر محفوظ كله ، بحسب المألوف ، لليدى كارنارفون . . . أى التايمس » !

* * *

رأى لاكو أن الخلافات كلها تدور حول نقطة واحدة وهى اقتسام الآثار

مناصفة . . فإن اللورد كارنارفون ، ومن بعده كارتر ، أشارا فى أكثر من مناسبة إلى حقهما فى نصف الآثار باعتبار أن المقبرة سبق نبشها وسرقتها .

ووجد لاكو أن منح امتياز النشر للتايمس والإصرار على أن من حق كارتر وحده السماح بدخول الزائرين المقبرة ، كل ذلك بهدف التمهيد لحقيقة واحدة وهى أن يفعل كارتر فى المقبرة ما يريد بقصد الوصول فى النهاية إلى نصف الآثار .

ووجد لاكو من ناحيته أنه قد حان الوقت لتحديد المواقف .

بدأ يكتب خطابات متتابعة إلى كارتر .

الأول فى ١٠ من ديسمبر ١٩٢٣ .

والثانى فى ١٦ من ديسمبر ١٩٢٣ يقرر فيه ملكية الآثار .

وعندما لا يجد لاكو ردا يكتب الخطاب الثالث فى ١٠ من يناير ١٩٢٤ .

قال لاكو بحزم :

« الحكومة لا تناقش بل تبلغك قرارها بعد أن استشارت إدارة قضايا الحكومة» .

أما القرار ـ كما حدده لاكو ـ فهو أن كل آثار مقبرة توت عنخ آمون ملكية عامة . . وهى حق للمصلحة وحدها ، ولا توجد حقوق فيها . . . للسيدة الميناكارنارفون . . !

* * *

رأى كارتر أنه مع تولى عبدالحميد سليمان باشا وزارة الأشغال وبعد حصول أرملة اللورد على ترخيص جديد أن يدخل المعركة الحاسمة مع لاكو للحصول على نصف الآثار .

واعتقد كارتر أنه سيكسب المعركة حتما .

وبدأ يحشد أنصاره .

كتب أربعة من كبار علماء الآثار العالميين وهم آلان جاردنر وجيمس بريستد وألبرت ليتجو وبرسى نيوبرى ـ رسالة إلى لاكو بتاريخ ١٣ من يناير ١٩٢٤ شكوا فيها مما يتعرض له كارتر من مضايقات .

قالوا فى هذه الرسالة :

« إنك بحكم موقعك ـ كمدير عام لمصلحة الآثار ـ فشلت فشلا ذريعا فى تنفيذ الالتزامات التى تقع على عاتقك لحماية الإجراءات اللازمة لإنجاز هذا العمل المهم» .

وقالوا : «هناك اتفاق عام بين علماء الآثار على أن مستر هوارد كارتر يقوم بأصعب وأعقد مهمة بصورة تفوق كل إشادة .

ومعروف فى كل مكان أن زملاء العمل الذين جمعهم مستر كارتر هم مجموعة من العلماء ذوى الخبرة والقدرة الفائقة لم يتوافروا لأى مشروع أثرى من قبل . وإنك شخصيا اعترفت برضائك التام عن النتائج التى ينجزونها .

ومع ذلك فإن عملهم ـ لسوء الحظ ـ توقف هذا الموسم لا مرة واحدة ، ولكن عدة مرات ، بسبب مطالبك مثل تنظيم الزائرين ومسائل أخرى من هذا القبيل وهى مسائل ليست لها صلة بالعمل للمقبرة وحفظ محتوياتها .

وإلى جانب تعريض إنجاز وأمن السجلات للخطر فإن التأجيل غير الضرورى الذى حدث الآن يعرقل ويؤجل الموضوعات الخاصة بالهيئات المتعاونة فى هذه المهمة .

وهذه خسائر ـ لا يمكن تعويضها ـ فى الوقت والمال ، والتى تقدمها المنظمات التى توجد فى مصر لخدمة العلم وتقوم بإنجاز يعود بالفائدة على الحكومة المصرية دون أن تتكلف مليما واحدا .

وإذا لم تذلل الصعوبات ، فإنك كمدير عام للآثار تكون قد فشلت تماما فى تنفيذ تعهداتك لحماية الإجراء العلمى ومن الضرورى لنا لفت الانتباه للأثر السيئ لهذا الفشل من جانبك» .

وأعلن كبار الأثريين من معاونى كارتر أنهم سيشكون إلى أكاديمية العلوم البريطانية ومجلس الأبحاث القومى فى واشنطن وأكاديمية الآداب والفنون الجميلة فى باريس .

بعث مورتون هاول الوزير الأمريكى المفوض إلى حكومته برقية يعلق فيها على رسالة العلماء الأربعة فقال :

« فى آخر خطابات الاحتجاج التى صاغها مستر كارتر ـ أو التى صيغت بناء على اقتراحه ـ والموجهة إلى السلطات المصرية . . سمح كل من مستر ليتجو (عن متحف المتروبوليتان) والبروفيسور بريستد (من جامعة شيكاغو) لنفسيهما بالتوقيع على الخطاب . . الأمر الذى اعتبره خطأ بيِّنًا ؛ نظرا لأن تصرفهما هذا يعنى على الأقل أنهما يدفعان الحكومة المصرية إلى اتخاذ موقف معارض لاستمرار عمل علماء المصريات الأمريكيين بعد انتهاء العام .

إننا استطعنا بقدر من الصعوبة أن نقنع فى نهاية الأمر هذه الحكومة بالسماح لدول أجنبية ـ بينها دولتنا ـ بمواصلة الحفائر بموجب العقد نفسه الذى تم الحصول عليه وسرى مفعوله خلال السنوات العديدة الماضية .

وقد سررت عندما وجدت عالم مصريات أمريكيا واحدا على الأقل يمتنع ، بوعى ، عن الدخول فى الجدل الدائر حول هذا الموضوع ، وهو الدكتور جورج ريزنر من متحف هارفارد .

ولا أوجه هذا النقد لمستر ليتجو أو البروفيسور بريستد بدافع شخصى بأى حال ، لأنى أكن لشخصيهما أوفر احترام وأقدرهما كل التقدير ، ولكن المسألة ببساطة تتعلق بالدبلوماسية .

وأعتقد أن النهج العملى الذى سار عليه الدكتور ريزنر هو النهج الذى يسر الحكومة المصرية أكثر من غيره ، وهو النهج الذى يحقق بسهولة أكبر فرحا للاستمرار بموجب العقد القديم» .

وتبدأ الضغوط على مصر ، فقد أدرك الجميع أن لاكو كان يناور ، وخاصة بعد أن كتبت صحيفة وستمنستر جازيت البريطانية أن مجموعة فرنسية تريد الحصول على جانب من الآثار .

كتب ليتجو إلى متخف المتروبوليتان يطلب الاتصال بوزير الخارجية الأمريكى للضغط على الوزير المصرى المفوض فى واشنطن الذى عين ـ حديثا ـ فى منصبه ، وكذلك الضغط على السفير الفرنسى لوقف نشاط بيير لاكو المعادى والمعارض .

وأعلن السير جون مارشال مدير الآثار فى الهند فى أثناء زيارته للقاهرة استياءه من موقف مصلحة الآثار .

وهدد السير فردريك كينيون بأنه إذا لم يحصل ورثة اللورد على نصف الآثار فإن أحدا لن يبحث عن الآثار فى مصر؛ لأنه لا توجد حوافز للمتاحف والأثرياء والأثريين.

- وتنبأ بريستد بأن مصر لن تسلم آثارها.

. . . وفى لهجة استعمارية بغيضة قال هريرت وينلوك:

« إن التنقيب عن الآثار يمثل أهمية كبرى للاقتصاد المصرى والعمالة وأصحاب الحمير والجمال» وقال وينلوك: «إن القرى المصرية أثرت من هذه الحفائر»!!

ولكن العالم الأثرى السير بيرسى نيوبرى كان أبعد نظرا وبصيرة؛ قال فى خطاب مهم فى صحيفة التنقيب المصرية فى لندن:

- هذا آخر الاكتشافات الأثرية المهمة فى مصر!

* * *

وفى ٣ من فبراير بعث كارتر برسالة طويلة إلى لاكو أكد فيها حقه فى اقتسام نصف الآثار. وقال إنه كان من الأكرم الانتظار حتى يتم العمل العلمى فى المقبرة بترميم ونقل وتسجيل جميع الآثار ثم يبدأ الحديث بعد ذلك عن الحقوق القانونية للاكتشاف.

وقال: «إن المقبرة سبق اقتحامها فهى ليست سليمة. . وما أرسلته من آثار للمتحف المصرى لا يعتبر جزءا من مجموعة المتحف».

وهكذا بدأت المواجهة حول ملكية الآثار نفسها لا حول مسائل، مهما بلغت أهميتها، فإنها ثانوية!

إغلاق المقبرة

تغيرت الوزارة فى بريطانيا ومصر خلال يناير عام ١٩٢٤ .

فى بريطانيا جرت الانتخابات لمجلس العموم، ففاز حزب المحافظين بـ ٢٥٩ مقعدا فى مجلس العموم والعمال ١٩١ وحزب الأحرار ١٥٩ .

وكان من الطبيعى أن يتولى حزب المحافظين حكم بريطانيا، ولكن الأحرار أعلنوا أنهم سيؤيدون العمال لا المحافظين ولكنهم لن يدخلوا الوزارة .

استدعى جورج الخامس ملك بريطانيا رامزى ماكدونالد ـ ٥٨ سنة ـ زعيم حزب العمال وشكا إليه من أن نواب الحزب الاشتراكى يغنون نشيد «المارسيليز» وهو نشيد الثورة الفرنسية التى أعدمت ملك فرنسا لويس السادس وكذلك نشيد «العلم الأحمر» .

ولكن صاحب الجلالة لم يستطع إلا أن يعرض على ماكدونالد تشكيل وزارة من حزب العمال . . لأول مرة . . .

تألفت الوزارة يوم ٢٢ من يناير ١٩٢٤ واحتفظ ماكدونالد لنفسه بوزارة الخارجية .

وفى أول اجتماع لمجلس الوزراء أشعل توماس وزير المستعمرات السيجارة الأولى فتبعه باقى الوزراء . وكانت هذه أول مرة فى التاريخ البريطانى يدخن الوزراء فى اجتماع مجلس الوزراء!!

وأخذ رئيس الوزراء يعطى زملاءه درسا فى «الإتيكيت» ويطالبهم باحترام المواعيد ومخاطبته بلقب «رئيس الوزراء» .

كان على ماكدونالد أن يتحسس خطواته السياسية بحذر بالغ لأن حزب الأحرار يستطيع إسقاط الوزارة فى أية لحظة إذا تخلى عن تأييدها .

طلب سكرتير الملك ألا يحضر الاجتماعات داخل القصر الملكى إلا الوزراء الذين يرتدون البدلة الرسمية المخصصة لمثل هذه المناسبات. . وثمنها ٣٠جنيها.

ويرى الوزراء أن موافقتهم على ذلك يعتبر «استسلاما طبقيا»!

ولكن رئيس الوزراء يضطر إلى الموافقة حتى لا يغضب الملك والعمال يبدءون عصرا وعالما جديدا.

وكانت المشاكل الدولية كثيرة أمام الحكومة الجديدة. .

فرنسا استولت على منطقة «الروهر» الألمانية عندما تخلف الألمان عن سداد تعويضات الحرب.

وكان على الإنجليز تحقيق التوازن فى أوروبا بين الفرنسيين والألمان.

وكان على ماكدونالد إقناع الدول الأوروبية بقبول الألمان فى عصبة الأمم.

أما العلاقات البريطانية السوفيتية فكانت سيئة بعد الثورة البلشفية، وتريد بريطانيا عقد اتفاق تجارى بين البلدين وتسوية الديون والقروض.

وكانت المشاكل الداخلية فى بريطانيا متعددة.

فى أول اجتماع للمجلس قدم وزير الداخلية تقريرا عن وسائل توفير اللبن والطعام والفحم إذا أضرب عمال السكك الحديدية.

وكانت هناك تهديدات أخرى بإضراب عمال أحواض السفن، وعمال مترو الأنفاق فى لندن الذين أنذروا الحكومة بالإضراب أيضا.

وكان صاحب الإنذار السكرتير العام لعمال النقل والذى أصبح وزيرا للخارجية بعد الحرب العالمية الثانية. . أرنست بيفن!!

ويبعث قائد بوليس أسكوتلانديارد تقريره الأسبوعى إلى رئيس الوزراء عن «الحركات الثورية» فى بريطانيا العظمى متسائلا:

- هل أوالى هذه التقارير فى ظل الحكومة الجديدة.

ويجد رئيس الوزراء أن التقرير يخص الحركات الاشتراكية والعمالية، فيطلب أن يشمل التقرير النشاط السياسى اليمينى المتطرف أيضا!

وكانت البطالة مرتفعة بعد الحرب العالمية الأولى، بلغت نسبتها ١٠٪ بين العمال، والضرائب غير المباشرة كثيرة ومشاكل الإسكان متعددة وسياسية حزب العمال تنادى بتوفير فرصة لكل طفل فى التعليم.

وكانت هناك مشاكل عاجلة مثل إنشاء قاعدة بحرية فى سنغافورة بناء على طلب وزارتى البحرية ورجال وزارة الخارجية، وإلا تمت تصفية نصف سلاح البحرية وتعرضت الهند وسيلان للخطر وضاعت التجارة البريطانية!!

وكان على حكومة العمال حل كل هذه المشاكل وفرض سياسة اشتراكية وليست للحكومة أغلبية برلمانية ويمكن للحكومة أن تسقط فى أية لحظة.

* * *

وفى مصر اضطر الملك فؤاد لاستدعاء سعد زغلول زعيم حزب الوفد ليؤلف الوزارة لأول مرة.

كان سعد زغلول فى السابعة والستين، درس فى الأزهر، وعمل محررا فى الوقائع المصرية ومعاونا للداخلية واتصل بالشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى وشهد الثورة العرابية واعتقل ٣ شهور بتهمة تأسيس جماعة الانتقام من أعداء هذه الثورة.

اشتغل بالمحاماة ٩ سنوات وكان أول محام يسند إليه منصب القضاء ١٢ سنة فى المحاكم الابتدائية والاستئنافية.

وتولى خمس سنوات منصب وزير المعارف ثم العدل واستقال عام ١٩١٢ لخلافه مع الخديو عباس حلمى الثانى واللورد كتشنر المعتمد البريطانى.

واختير عضوا فى الجمعية التشريعية عن دائرتين، أى عن نصف دوائر القاهرة، ووكيلا منتخبا لهذه الجمعية التى توقفت أعمالها بعد قيام الحرب العالمية الأولى.

وفى ١٣ من نوفمبر عام ١٩١٨ توجه مع زميليه على شعراوى وعبدالعزيز فهمى إلى دار المعتمد البريطانى السير ريجنالد وينجت يطالب بالاستقلال.

وكان ذلك اللقاء التاريخى الذى أطلق على يومه «عيد الجهاد»، مقدمة لتأسيس الوفد ليطالب باستقلال مصر عن بريطانيا.

وعندما رأت السلطات العسكرية البريطانية وقوف الشعب وراء سعد، اعتقلته يوم ٨ من مارس ١٩١٩ لمدة شهر مع محمد محمود وإسماعيل صدقى وحمد الباسل ونفتهم السلطات العسكرية البريطانية إلى مالطة. . فكان الاعتقال والنفى بداية لثورة ١٩١٩.

أفرج اللورد اللنبى المعتمد البريطانى الجديد عن سعد، فسافر إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح ولكنه منع من حضوره.

وتتابعت الأحداث وجاء اللورد ملنر إلى مصر على رأس وفد بريطانى ليحاول الوصول إلى حل يضمن مصالح بريطانيا.

وقاطع الشعب لجنة ملنر فتفاوض مع سعد فى لندن، ولكن المفاوضات لم تنته إلى نتيجة وتمزق الوفد بين سعد وعدلى، وفشلت مفاوضات عدلى فى بريطانيا. وامتنع رجال مصر عن قبول رئاسة الوزارة.

اعتقل سعد مرة ثانية يوم ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٢١ فى جزيرة سيشيل ثم جبل طارق حتى تقرر الإفراج عنه فى ٢٧ من مارس عام ١٩٢٣ ولم يعد إلى مصر إلا فى ١٧ من سبتمبر من ذلك العام بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ فاكتسح الوفد خصومه وفاز بأكثر من ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب وأسقط يحيى إبراهيم رئيس الوزارة التى أجرت الانتخابات. .

وتحدث سعد إلى الملك فؤاد عندما عرض عليه رئاسة الوزارة محددا سياسة حكومته وهى احترام المصالح الأجنبية التى لا تتعارض مع الاستقلال. .

وهكذا جلس على كرسى رئاسة الوزارة فى كل من مصر وبريطانيا حزبان يتوليان الوزارة لأول مرة!!

* * *

أسندت وزارة الأشغال - التى تتبعها مصلحة الآثار - إلى مرقص حنا بك بدلا من عبدالحميد سليمان باشا.

كان مرقص حنا فى التاسعة والأربعين من عمره يتقن الفرنسية واختير نقيبا لمحاميى القاهرة.

وكان عضوا بلجنة الوفد المركزية عام ١٩٢١ واشتهر بخطبه التى يدعو فيها لوحدة الأقباط والمسلمين .

وعندما نفي سعد زغلول إلى سيشل أصبح مرقص حنا عضوا فى الوفد فى يناير عام ١٩٢٢ فدعا شعب مصر إلى مقاطعة الإنجليز وبضائعهم واعتقل أياما فى ثكنات الجيش البريطانى فى قصر النيل بالقاهرة .

واشترك مع ٦ زعماء وفديين يوم ١٨ من يوليو عام ١٩٢٢ فى طبع منشورات تدعو لكراهية الحكومة المصرية والتمرد على طغيانها وتحرض على قلب نظام الحكم .

كانت لهجة المنشورات ملتهبة ، عنيفة ، تدعو للاغتيال السياسى ضد طغيان الحكومة .

وتطالب كل مصرى بأن يظهر رفضه للطغيان بكل الوسائل ، فأصدر قائد القوات البريطانية قرارا باعتقال الزعماء السبعة .

قبض عليهم فجر ٢٥ من يوليو فى ثكنات قصر النيل وحوكموا داخل الثكنات البريطانية أمام محكمة عسكرية مؤلفة من ٥ ضباط إنجليز .

بدأت المحاكمة فى العاشرة والنصف صباحا فطلب محامى مرقص فهمى وزملائه التأجيل أسبوعين فرفضت المحكمة .

وطلب ماكسويل النائب العام ممثل الادعاء الحكم بإعدام المتهمين السبعة وأخذ يبين خطورتهم على أمن بريطانيا وأمن الجيش البريطانى فى مصر .

طلب الدفاع التأجيل يومين فرفضت المحكمة ، فانسحب الدفاع من المحاكمة واكتفى المتهم الأول حمد الباسل بأن تلا بيانا مكتوبا قال فيه : إن الوفديين استعملوا حقهم المشروع فى نقد الحكومة ، ولكن المحاكمة انتهت فى اليوم نفسه بصدور الحكم بإعدام المتهمين جميعا !

رأى القائد العام للقوات البريطانية تخفيف حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة سبع سنوات وغرامة ٥٠٠٠ جنيه . .

وارتدى المتهمون ملابس السجن وصودرت أموالهم لتحصيل الغرامات.

وبعد صدور الدستور أفرج عن مرقص حنا وزملائه فى مايو ١٩٢٣.

وفى ٢٨ من يناير ١٩٢٤ تولى منصب وزير الأشغال.

كتب اللورد اللنبى المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره السنوى يصف وزير الأشغال الجديد:

«مرقص باشا حنا أول وزير للأشغال لم يكن مهندسا بالوزارة. وهو يبدو مستقيما ومتلهفا على فهم عمله، وأظهر تصميما على أن تكون له الكلمة العليا فى مجاله.

ونظرا «لجهله» فإنه مضطر للاعتماد بالكامل على الآخرين. وقد أظهر التحيز المعهود المعادى للإنجليز؟».

* * *

وجد كارتر أنه من الضرورى التعجيل بتأكيد حقه فى نصف الآثار بعد التغيير الوزارى.

وبنى افتراضاته على أساس أن اللورد كارنارفون كان مجاملا لسعد زغلول عندما زار لندن عام ١٩٢٠ ـ قبل إعلان الاستقلال. وأقام له ولزملائه مأدبة عشاء تكريما لهم.

ومن ناحية أخرى فإن الوزارة الجديدة تهتم بشئون السياسة وجلاء الإنجليز وتريد علاقات طيبة معهم تمهيدا للمفاوضات السياسية.. كما أن هذه الحكومة فى شغل عن شئون الآثار بمشاكل حادة.

* * *

قصد كارتر إلى مكتب وزير الأشغال الجديد مرقص بك حنا لتهنئته يوم ٧ فبراير.

رأى الوزير أن يتفق على نظام حفل افتتاح التابوت الحجرى وأسماء المدعوين حتى لا يُحرم الصحفيون المصريون والأجانب من شهود هذه المناسبة القومية.

بدأ الوزير الحديث قائلا :

ـ زارنى العالم الأثرى «آلان جاردنر» واحتج على إجراءات مصلحة الآثار وأعتقد أنك الذى أوفدته .

نفى كارتر ذلك وقال إن كل الأثريين الكبار شديدو الاستياء من مصلحة الآثار، وهم يرون فى ذلك خطرا على البحث العلمى كما أن فيما يجرى ضياعا لوقت ثمين .

قال الوزير :

ـ إذا كان ثمة خلاف بينك وبين رجال مصلحة الآثار فاكتب شكواك وإنى على استعداد لبحثها .

وأضاف الوزير :

ـ لننس الماضى، وما فات قد فات فلنحاول تجاهله .

وقال :

ـ ربما يكون لك حق قانونى فى منح التايمس وحدها احتكار حقوق النشر ولكن ذلك أدى إلى غضب كل الصحف .

رد كارتر :

ـ إن عقد احتكار التايمس سينتهى هذا الموسم .

قال الوزير :

ـ سمعت أنك ستسافر إلى الولايات المتحدة فى الربيع القادم لإلقاء محاضرات فى هذا الكشف .

أجاب كارتر بالإيجاب فقال مرقص حنا :

ـ هذا خطأ أن تسافر فى الوقت الحاضر . إن تعهدك القيام بهذا العمل الدقيق يجعل منك موظفا مصريا عاما ويجب أن تستمر فى هذا العمل حتى ينتهى .

قال كارتر :

ـ من حقى أن أختلف معك فى هذه النقطة .

عند ذلك استدعى الوزير بيير لاكو .

جاء ومعه ملفات ودوسيهات ضخمة ، ذهل كارتر وأخذ يسأل نفسه :

ـ كيف يقول الوزير إنه يريد نسيان الماضى بينما يستدعى لاكو بمستنداته وأوراقه .

قال لاكو :

ـ لقد سمحت يا مستر كارتر لأشخاص بدخول المقبرة بلا تصريح .

رفض كارتر مناقشة الموضوع ، ولكن الوزير أصر .

واتفق الاثنان على نظام الاحتفال الذى سيجرى فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ١٢ فبراير لفتح التابوت الحجرى الضخم الذى يضم رفات ملك مصر بعد أن رفع كارتر غطاءه ووزنه طنان من حجر الجرانيت ! !

ووقع اتفاق بنظام الحفل فى اليوم التالى ٨ من فبراير ١٩٢٤ .

* * *

حذرت مصلحة الآثار من الإفراط فى التفاؤل بالنسبة لفتح الناووس ؛ فقد يكون خاليا من جثمان الملك ، وأذاعت إدارة المطبوعات قبل ٢٤ ساعة من فتح الناووس بيانا جاء فيه :

ـ «هناك شيء» من الشك يحوم حول ما قد يوجد بداخل الناووس ؛ إن هذا الاكتشاف وإن كان بالغا من العظمة كل مبلغ فهو ليس سابقة يهتدى بها ويقاس عليها لا سيما وأن هذه أول مرة يهتدى فيها إلى ناووس ملكى سليم ولكن تاريخ الدفن يرجع إلى عهد مملوء بالانقلابات العظيمة والتطورات غير العادية .

* * *

شهد احتفال رفع غطاء الناووس الحجرى يوم الثلاثاء ١٢ من فبراير ٢٤ مسئولا كبيرا بينهم اللورد اللنبى الذى وصل بقطار خاص .

وجد بداخل التابوت الحجرى صندوق المومياء ملفوفا بقماش الكتان .

رفع الكتان فظهر تابوت يزيد طوله على ثلاثة أمتار من الخشب المذهب .

وعلى غطائه صورة بارزة للملك مكسوة برقائق الذهب الخالى تغشى البصر .

وعلى رأس الملك تاج مـذهب به رأس نسـر والحيـة المقـدسـة . ويدا الملك مضمومتـان إلـى صدره وقابضتـان علـى صولجـان الملك ومحليـان بصفـائـح ذهبيـة جميلة .

وعين الملك من الأحجار الثمينة .

وقال الخبراء إن التابوت الخشبى يحتوى على تابوتين أو ثلاثة ويوجد بالتابوت الأخير جثمان الملك . وقد أرجىء فتح تابوت المومياء إلى الخريف .

كان بين الحاضرين مراسل التايمس .

وتخلف سعد زغلول باشا رئيس وزراء مصر ومرقص حنا بك وزير الأشغال .

* * *

وبعد انتهاء الحفل أشار كارتر إلى ٢٢ من زوجات مساعديه سيقمن بزيارة المقبرة فى اليوم التالى بعد رجال الصحافة .

قال محمد زغلول باشا وكيل وزارة الأشغال :

ـ هل بين مساعديك مسلمون ؟

قال كارتر فى دهشة :

ـ ما معنى هذا السؤال ؟

قال زغلول باشا :

ـ إنى أستكثر الاثنتين وعشرين سيدة على الستة عشر مساعدا إلا إذا كان بينهم مسلمون تزوج كل منهم باثنتين !

وقال محمد زغلول باشا إنه سيتصل تليفونيا بالوزير فى القاهرة يطلب موافقته .

جاء رد الوزير بالرفض فإن ذلك اليوم كان محددا لدخول الصحفيين المصريين والأجانب وحدهم إلى المقبرة.

* * *

توجه محمد زغلول باشا إلى الأقصر وأرسل إلى كارتر يستدعيه لمقابلته فاعتذر لكثرة أعماله وطلب أن يحضر إليه زغلول باشا!

تسامح «الباشا» وذهب إلى كارتر فى فندق ونتربالاس وسلم إليه صورة محضر اتفاق زيارة المقبرة الموقع بين الطرفين يوم ٨ من فبراير.

ولكن كارتر أعاد مرة أخرى موضوع الزوجات وأضاف إليهم استور صاحب جريدة التايمس.

ووفق على زيارة استور ورفض طلب الزوجات.

وفى يوم الأربعاء زار ممثلو الصحافة المقبرة مع ستة عشر من مساعدى كارتر.

ورغب كارتر فى إدخال الـ ٢٢ سيدة فرفض وكيل وزارة الأشغال، احتج كارتر ولكن زغلول باشا أصر على الرفض.

جن كارتر للقرار وأسرع غاضبا عاصفا إلى زملائه يطلعهم على الرسالة فغضبوا مثله وقرروا الامتناع عن العمل.

ووضع كارتر إعلانا فى فندق «ونتربالاس» وزعه على الصحافة يقول فيه:

« إن جميع زملائى يحتجون ويرفضون مواصلة العمل، وسنغلق القبر ولن يجرى فيه عمل بعد زيارة رجال الصحافة له اليوم».

وبعث كارتر إلى وكيل وزارة الأشغال بأنه قرر إغلاق المقبرة..

وبالفعل أخذ مفتاحها الوحيد معه.. بعد إغلاقها!!

أصدر وكيل وزارة الأشغال القرار التالى:

« حيث إن المستر كارتر أغلق المقبرة من تلقاء نفسه وبغير اتفاق مع الحكومة، وحيث إنه أخل بشروط النظام الذى وضع لفتح المقبرة.

وحيث إن بيده مفاتيح المقبرة .

وبعد المداولة مع لاكو مدير مصلحة الآثار فيما يجب اتخاذه للمحافظة على المقبرة وما فيها وما استخرج منها من آثار وضعت فى قبر الملك سيتى .

تقرر أن يتعاون محمد شعبان إبراهيم حبيب وأنطون بولس الموظفان بمصلحة الآثار فى المحافظة ليلا ونهارا على مقبرة الملك توت ومقبرة الملك سيتى وعدم السماح بفتحهما لأى شخص سواء فى ذلك رجال كارتر أو رجال الحكومة .

ويساعد كلا من هؤلاء الموظفين ثلاثة من خفراء الآثار بوادى الملوك .

ويراقب إنجلباك كبير مفتشى مصلحة الآثار تنفيذ ذلك وإخطار مركز الأقصر ومديرية قنا أية مخالفات» .

وعلى الفور أحاط رجال الشرطة بالمقبرة .

* * *

فطن كارتر لخطورة إغلاق المقبرة فحاول دخولها ولكن رجال الشرطة منعوه ومعاونيه من الدخول، فعاد إلى بيته غاضبا هائجا ليبرق إلى مرقص حنا وزير الأشغال قائلا إنه يعد ذلك إهانة ماسة بكرامته .

قالت البرقية :

«يوم الجمعة الماضى منعنى البوليس المسلح من دخول قبر توت عنخ آمون . . وأطلعنى على أمر إدارى من المدير العام للآثار المصرية بمنعى إلى أن تصدر أوامر جديدة .

إنى أعد عمل مدير الآثار مهينا . ومن الضرورى للمحافظة على سلامة الناووس ومحتوياته أن يسمح لى بدخول القبر الذى هو حق لى، لا سيما أن التدابير التى عملت يوم الاثنين الماضى لتعليق غطاء التابوت الحجرى كانت تدابير وقتية .

ولما كان يجب أن أعطى الفرصة لاتخاذ الاحتياطات الكاملة لحفظ محتويات القبر والمعمل الكيماوى مدة الانقطاع عن العمل فأرجو معاليكم الجواب حالا؛ لأن المسألة عاجلة جدا . . » .

ـ وقال كارتر لرجال الصحافة : إن غطاء الناووس ترك معلقا بحبال قد لا تتحمل الضغط ولو قطعت لانقض الغطاء على التابوت وأصبح الناووس ومحتوياته وبينها مومياء الملك كومة من التراب!

رد وزير الأشغال بأن كارتر المسئول عن كل ما جرى وأنه الذى أغلق المقبرة بيديه .

ومع ذلك فإن الحكومة تتسامح معه إذا تعهد خلال ٤٨ ساعة بتنفيذ كل ما تشير به الوزارة عليه ، وإلا عَدّت الامتياز الممنوح للسيد كارنارفون ملغيا وتولت بنفسها العمل .

قال مرقص حنا فى برقيته :

« إن الاحتياطات التى تشكو منها لم تتخذها الحكومة إلا بعد أن أقفلت أنت المدفن خلافا للبرنامج المتفق عليه بينك وبين الوزارة وبعد أن أضربت أنت ومساعدوك .

وبعدما نشرت إعلانا فى ١٥ الجارى قلت فيه إنه لن يتم بعد الآن عمل جديد فى المدفن .

وإنى لمستغرب جدا ما علمته من أنك عندما أقفلت المدفن لم تتخذ جميع الاحتياطات الضرورية لضمان سلامة الناووس الذى يهم أمره العلم والعالم بأسره .

وإنى أحتفظ بكل حقوقى فيما لو نشأ عن ذلك ضرر .

ومع ذلك فرغبة منى فى إعطائك فرصة أخرى أدعوك إلى القيام بتعهداتك بصفتك ممثلا لصاحبة الرخصة .

وإذا لم تبلغنى فى مدة ٤٨ ساعة بأنك مستعد لاستئناف تنفيذ البرنامج المتفق عليه فى ٨ الجارى تلغى رخصة الحفر فى الحال .

وقد تلقى موظفو مصلحة الآثار الأوامر بأن يكونوا حاضرين لمساعدتك إذا استأنفت العمل» .

أخذ العالم كله يتحدث عن الأزمة وتطوراتها، وأبعادها، من زاوية واحدة وهى أن غطاء التابوت، الذى يزن طنين، معلق فى الهواء، وقد يسقط، فى لحظة على التابوت فيحطمه.

نشرت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية» تحت عناوين عريضة.

« الرعب ينتشر. آثار لا تقدر بثمن قد تدمر غدا.. نزاع الأقصر. غطاء التابوت معلق فى الهواء».

وهكذا أصبح مصير التابوت يهم العالم.

ولو أن كاتبا قال ذلك فى إحدى رواياته لكان القراء قد اتهموه بالمبالغة، ولكن حقيقة ما يجرى فى مقبرة توت عنخ آمون كانت أغرب من كل خيال!!

طـــرد كارتـــر

كان يمكن أن تنتهى الأزمـة ، وكأن شيئا لم يكـن ، لو أن كارتر عاد إلى العمل فى المقبرة .

ولكن الجـولة الأولى فى الصراع الحاسم كـانت قـد بدأت . . وأصبح التـراجع يعنى التنازل عن ملكية نصف الآثار .

أبرق كـارتر إلى مـرقص حنا يقـول إنه شـرع فى اتخـاذ الإجـراءات القـانونيـة بالمحكمة المختلطة .

وبدأ كارتر ـ فى هذه البرقية ـ يملى شروطه قال :

« إذا اعـتذر مـدير الآثار العـام عن إهانة السيدات اللواتى دعوتهن بالنيـابة عن الليدى كارنارفون لزيارة القبر يوم الأربعاء الماضى بعد انتهاء زيارة الصحفيين .

وإذا تعهدت المصلحة بالامتناع عن كل إزعـاج وتعرض ، فإنى أعيد فتح القبر مدة عشرة أيام طبقا لاتفاق ٨ من فبراير الذى نقضتم المادة الثالثة منه » .

وزار ماكسويل محامى كارتر وزير الأشغال مرقص حنا فى منزله بشارع سليمان باشا ليؤكد ضرورة اعتذار مدير الآثار .

رد الوزير قائلا :

ـ كل ما فعله لاكو كان بناء على أوامرى التى أبلغتها لوكيل وزارة الأشغال ، وأنا المسئول عن كل ما حدث ، ولا أجد محلا ، أو داعيا ، للاعتذار عن شىء .

وصرح مرقص حنا وزير الأشغال لمراسل رويتر بأن الحكومة المصرية لا تستطيع أن تتحمل وقوف كارتر موقف الشاكى لها . ويجب أن يذكر أنه يعامل حكومة .

أبرق كارتر إلى سعد زغلول شاكيا مصلحة الآثار وتضييقها عليه. حتى جعلت عمله مستحيلا.

قال كارتر:

« أسمح لنفسى أن أوجه أنظار دولتكم إلى إهانة كبرى نالتنى من موظفى مصلحة الآثار الذين منعونى صباح اليوم من تمكين أشخاص من أسر معاونى من زيارة مدفن توت عنخ آمون.

وإنى واثق من أن دولتكم ستستنكرون هذا العمل، القليل المجاملة، الذى هو فى الوقت نفسه غير مشروع ولا يمكن تبريره.

وبناء على ذلك احتج زملائى وأبوا الاستمرار فى متابعة التنقيبات العلمية، وآسف لأنى مضطر فى هذه الحالة إلى إقفال المدفن وإلى مقاضاة الحكومة المصرية».

رد سعد:

« إن رفض طلبكم الخاص بزيارة بعض العائلات للمدفن فى اليوم المخصص لزيارة مندوبى الصحف له هو رفض اتفاق سابق اشتركتم فيه. فموظفو مصلحة الآثار لم يقوموا إلا بتنفيذ التعليمات التى تلقوها، فلا يمكن أن نلومهم على أى وجه من الوجوه.

ولكم الحرية فى أن تقاضوا الحكومة.

ولكن الحكومة تريد أن تكون مواعيد الزيارات مصونة ومحترمة.

أما ما يتعلق بإقفال المدفن كما تقولون، فإنه شق على أن أضطر إلى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكا لكم. وأن العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم بإقدامكم مع زملائكم من أجل أمر خاص ـ بزيارة أفراد يريدون تمييزهم على ترك التنقيبات العلمية التى لا تهتم بها مصر وحدها أعظم اهتمام بل يهتم بها العالم كله أيضا».

خطب سعد زغلول فى فندق «سميراميس» بالقاهرة يوم ١٥ من فبراير فى حفل تكريم المحامين لوزارة الأشغال والعدل والمواصلات باعتبارهم محامين سابقين فأشار إلى مشكلة الأقصر.

قال :

« إن المستر كارتر سلك سلوكا لا ترضاه الحكومة ولن ترضاه لأنه اتفق معها بمحضر رسمى على مواعيد الزيارات وأنواعها فلم يحترم الاتفاق .

وأراد أن يدعو للزيارة سيدات فى وقت لم يكن مخصصا لهن فعارض رجال الحكومة فى ذلك تنفيذا للاتفاق .

عز عليه أن يرى الحكومة معارضة لرغباته فأمر بإغلاق المقابر من تلقاء نفسه ، وكتب لى تلغرافا يقول بأن تصرف رجال الحكومة معه بمنع الزائرات تصرف غير لائق ، وأنه أمر بإغلاق المقابر (على ألا تفتح إلا فى العام المقبل) وأنه سيقيم دعوى على الحكومة .

أجبناه فى الحال بأن رفض رجال الحكومة إنما كان تنفيذا لاتفاق ممضى منه وليس له الحق فى أن يأمر بإغلاق المقبرة من نفسه ؛ لأنها ليست ملكا له ، وأن له أن يرفع ما يشاء من الدعاوى ولكن الحكومة رعاية للصالح العام لها أن تتخذ كل إجراء فيه المحافظة على حقوقها وعلى كرامتها وعلى العلم أيضا .

والحكومة مصرة على أن تسير فى هذه السبيل لأنها سبيل الحق وهو السبيل الموصلة لحفظ كرامتها وتعهداتها ولرعاية خاطر الجمهور .

ولن نحيد عنها قيد شعره إرضاء لفرد واحد يريد أن يتصرف ضد اتفاقاته وضد ما يجب عليه للحكومة وللجمهور» .

* * *

ويهتف المتظاهرون فى الشوارع لمرقص حنا قائلين :

ليحيا المدافع عن وادى الملوك .

يحيا وزير توت عنخ آمون!

وتتابعت البرقيات على وزير الأشغال من الهيئات والجامعات والمدارس ، وقالت برقيات من ناظرات ومعلمات المدرسات فى مدارس البنات :

الملك آمون وحفيداته يشكرونكم!

قال عباس محمود العقاد فى كتابه «سعد زغلول»:

« كان كارتر ينتظر فى هذه الحالة ما ينتظر من كل حكومة مصرية ينتهى إليها تهديد واحد من السادة المحتلين كيفما كان؛ لأن المرجع فى الوزارات لمستشار أو مفتش إنجليزى، وهو لا يقبل من المصريين أن يسمعوا هذا التهديد ولا يسرعون إلى الخوف والإذعان».

ولكن كارتر أعلن للصحف أنه أرسل برقيات احتجاج إلى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن وإلى المندوب السامى بالقاهرة.

زار اللورد اللنبى سعد زغلول لأول مرة يوم ٢٢ من فبراير، أى بعد ٤٨ ساعة من إلغاء الترخيص. وكان هذا أول لقاء بين الرجلين.

ولكن اللورد تجنب الإشارة تصريحا أو تلميحا، إلى قبر توت عنخ آمون!

وتكتب الصحف المصرية:

« لا أمل لكارتر أن يستأنف عمله إلا إذا أسرع إلى وزارة الأشغال العمومية وأزال سوء الفهم الذى وقع بينه وبينها.

وإذا لم يفعل ذلك فستتولى الوزارة بنفسها إتمام الأعمال الفنية فى المقبرة وتنفيذ برنامج الزيارات الذى اتفقت عليه كتابيا مع كارتر».

أصبحت المعركة علنية بين كارتر وحكومة مصر.

وقفت أغلبية الصحف البريطانية والأمريكية مع كارتر تسانده، وتؤيده، ضد الحكومة المصرية.

وكانت نظرة هذه الصحف محدودة، ضيقة للغاية. وظنت أن الخلاف حول أسلوب العمل فحسب.

قالت التايمس التى ارتبطت مصالحها بكارتر:

« إن الجميع يعطفون على مستر كارتر كل العطف وهو مصيب كل الإصابة

فى عمله . وقد برهنت السلطات المصرية فى معاملته على قصر نظر وقلة براعة لا نظير لهما .

ومن العوامل المضحكة وضع حرس خاص على القبر ليمنع كارتر من الدخول إليه . وقد استعمل هذا الحرس خيمة استعارها من مستر كارتر ، وأرسل عدداً من رجال البوليس لحراسة القبر من النهب ، ولكن الحكومة لم تقدم لهم ملجأ ، أو ماء ، وقدم إليهم مستر كارتر كل ذلك .

ولم يحدث فى تاريخ مصر الأثرى أن الحكومة أملت أوامرها على الأثريين فى شأن العمل أو إيقاف أى جزء منه .

ويرجع الأمر إلى اعتبارات سياسية ، فالحكومة راغبة فى تعزيز موقفها على حساب الحكومات التى سبقتها بأن تظهر للجمهور أنها حكومة قوية» .

واستمرت التايمس تدافع عن كارتر . قالت فى افتتاحيتها :

« سيكون هناك شعور كبير بالأسف لأن المسائل وصلت إلى هذا الحد .

إن الخلاف الذى أدى إلى إغلاق المقبرة ، والوقف المفاجئ للعمل ، كان لسوء الحظ قائما منذ وقت طويل .

ويظهر من مكاتبات كارتر مع السلطات المصرية أنه قام بمحاولات جبارة .

وقد تم اكتشافه العظيم بعد حوالى ستة عشر عاما من العمل الدءوب .

وكان مخيبا للآمال فى جزء كبير منه من جانبه ومن جانب اللورد كارنارفون .

ومنذ ذلك الحين كان العمل يسير كلما سمحت الظروف تحت ظروف قاسية للغاية بعناية بالغة ، ونشاط متصل وعلى درجة عالية من المعرفة العلمية ، والكفاءة وربما لم تكن المقبرة لتكتشف لولا مثابرة كارتر .

وقد حقق اكتشافها ـ كما يقول بحق ـ فوائد كبرى لمصر وخاصة لمصلحة الآثار فيها .

ويقول كارتر إن سائر المصالح الحكومية الأخرى لم تقدم سوى النوايا الطيبة والرغبة فى المساعدة .

ومن المؤسف للغاية أن تأتى عرقلة العمل من المصلحة التى تهتم اهتماما مباشرا بنجاحه .

ولكن لا يمكن ترك الأمور على حالتها ، ويمكن ، بل ينبغى ، التغلب عليها .

ويشكو كارتر من أن حوالى ١٦ يوما من الأيام الخمسين ، التى عليه أن يعمل خلالها بين شهور الإغلاق فى العام الماضى ، ضاعت فى الزيارات غير الضرورة للقاهرة وفى معوقات أخرى .

وتم مؤخرا وضعه ووضع جميع من يعملون معه فى العمل تحت المراقبة .

وتم أكثر من مرة التدخل بالسماح لزوار بدخول المقبرة ، واستبعاد غيرهم من الزيارة رغم أنها لصالح العمل .

وحان الوقت لوضع حد لسياسة المضايقات التى خضعوا لها ، والتى وصلت إلى الذروة الآن عندما أصبحت أعصابهم مرهقة للغاية بسبب النجاح الرائع الذى توج جهودهم .

فى هذه الظروف ليس مما يثير الدهشة أنهم اضطروا أخيرا إلى تقديم احتجاج .

ونحن لا نشك فى أنه سيلقى تأييدا من خبراء الآثار والعلماء والمؤرخين والعالم المتحضر » .

وقالت جريدة «أوت لوك» البريطانية :

« إن العبارة الوحيدة التى يمكن أن نصف بها سلوك المصريين نحو مستر كارتر هى الخشونة والغلظة .

ولا ندرى كيف يستطيع المنقبون أن يسلكوا طريقا آخر أمام الإهانات المستمرة التى لحقتهم على أيدى هؤلاء الأطفال المتهوسين الذين يعبثون بالحكم الذاتى !

ومن دواعى الأسف أن تحفظ فى القاهرة أهم اكتشافات وجدت ، بدلا من حفظها فى لندن ، أو باريس ، أو أية عاصمة مرموقة ، ذات حضارة ومدنية» .

ونشرت «إيفننج ستاندارد» البريطانية أيضا :

«المشكلة القائمة الآن ترجع إلى تحويل عملية التنقيب إلى عملية تجارية واحتكار جميع الأخبار الخاصة بها، وقد أحدث هذا اشمئزازا شديدا فى مصر».

ولكن صحفا أخرى ألقت المسئولية على لاكو والفرنسيين فى مصلحة الآثار الذين أدركتهم الغيرة لأن البريطانيين نجحوا فى تحقيق هذا الكشف.

قالت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية فى مقال كتبه جيمس بريستد دون توقيع:

«نشأ موقف المصريين عن فشل مصلحة الآثار فى منح كارتر ما يطلبه من تأييد».

وفى كتابه «سبعون سنة فى الآثار» قال العالم الأثرى فلندرز بيترى: «لاكو هو المحرك».

واتهمت جريدة «نيويورك تايمز» دعاة السوء الخارجيين.. تقصد الفرنسيين!

وكتب بارون صاحب مجلة بارون الاقتصادية الأمريكية ومؤسس جريدة وول ستريت جورنال الأمريكية أيضا بأن لاكو نصح المصريين بإلغاء ترخيص التنقيب.

وردت «جورنال دى ديباه» الفرنسية فأيدت الحكومة المصرية وطالبت كارتر بتسليم المفاتيح إلى لاكو.

وغيرت صحيفة «إيفننج ستاندارد» البريطانية اتجاهاتها أكثر من مرة.

قالت: «السبب يرجع إلى رغبة موظفى الآثار المصرية الفرنسيين فى أن يحتفظوا بسلطانهم بصفتهم حراسا على الآثار المصرية، وهناك تحاسد غريب على توزيع الكنوز الثمينة التى وجدت فى المدفن».

ونسبت أصل المشكلة فى مقال آخر إلى رغبة ولاة الأمور المصريين فى أن يستعملوا سلطاتهم الجديدة، وهم يبحثون عن فرصة يغتنمونها لإثبات استقلالهم، وأن يضمنوا فى الوقت نفسه أن جميع التحف ستبقى فى مصر.

وفى مقال ثالث قالت:

«نشأ النزاع عن رؤية المصريين لذهب المقبرة، ويعتقد كل مصرى أن هناك ذهبا كافيا لسداد ديون مصر».

وفطنت صحف بريطانية أخرى إلى المد الوطنى ، والروح القومية النامية مع الاستقلال وتولى سعد زغلول رئاسة الوزارة .

أخذت هذه الصحف الواعية العاملة تحذر من تطور الأزمة .

قالت جريدة «ديلى تلجراف» البريطانية : «إن هناك خطرا سياسيا حقيقيا فى النزاع الواقع بين مستركارتر والحكومة المصرية ، فزغلول باشا ليس تركيا بل مصريا ينظر نظرة مختلفة إلى هذه المسألة .

ولنذكر استياءنا الشديد من الأمريكيين الذين بدءوا فى البحث عن عظام الجنرال أوجليتورب (إنجليزى مؤسس ولاية جورجيا فى أمريكا فى أواسط القرن الثامن عشر) .

إن مستر كارتر يعمل برخصة من الحكومة المصرية وله حق فى التعويض إذا اختلفت شروط الرخصة ، ولكن لا يستطيع أحد أن يرد على قول الحكومة المصرية بأن القبر ليس ملكا له ، وهى مصيبة فى منع أناس لا غرض لهم سوى الفرجة من الدخول إلى القبر ومشاهدة فتح الناووس إذا رأت أن الذوق السليم يدعو لذلك .

وإذا أقام الرأى العام الإنجليزى الدليل على أنه يعطف على الشعور المصرى فى هذه المسألة ويفهمه سيكون لهذا الأمر خير تأثير فى صلاتنا مع مصر» .

وقالت صحيفة «مورننج بوست» البريطانية :

« ليس من الضرورى أن نشير إلى خطورة العلاقات الحاضرة بين البلدين والحاجة إلى التأنى الشديد حتى إجراء المفاوضات بين بريطانيا ومصر .

ويجب على الإنجليز فى هذه الأحوال ألا يتركوا حجة لتسرب النفوذ المعاكس لبريطانيا وإساءة سمعة بلادنا الطيبة والقضاء على الصيت الأوروبى والسياسى الذى نلناه على ضفاف النيل .

ومما يؤسف له أن أولئك المنقبين الذين يعملون فى قبر توت عنخ آمون أفسحوا أمام تلك المؤثرات السيئة ، ما تريده .

ومن السهل إثارة الاستياء الدينى والقومى بين المصريين من الأعمال الأثرية واعتبارها إهانة للوطنية المصرية وتدنيسا لحرمة الدفن .

ومن المأمول ألا تفضل مصالح علم الآثار على احترام الميت الذى يعده كرام الناس مقدسا» .

* * *

وحددت جريدة «سوث ويلزديلى نيوز» البريطانية موقف وزارة سعد زغلول :

« إن الزغلوليين يتوقون إلى وضع الأجنبى فى المكان الذى يجب ألا يتجاوزه . وهم يريدون أن يذكروا مستر كارتر أنه لا ينقب فى أرض بريطانية ، بل فى أرض المصريين القدماء المقدسة الواقعة الآن ضمن حدود الحكومة الوطنية الجديدة» .

* * *

ولكن جريدة الإيجبشيان جازيت التى تصدر فى مصر باللغة الإنجليزية رأت أن تتخلص ـ حينا ـ من اتخاذ موقف حاسم فقالت :

« لا يمكن أن نفصل أسباب النزاع عن شخصية كارتر وحدة طباعه» .

واتبعت مجلة «ساتر داى ريفيو» هذا النهج فقالت :

«عندما كان كل شيء فى صفه ، وعندما كان أى تصرف حكيم من شأنه أن يكسب هوارد كارتر تعاطف الجميع باستثناء أشد المتعصبين ضده ، فإنه أضاع قضيته بتصرف لم يتدبره من قبل .

وأعقبه بتكتيكات بالغة الخطأ ، وكان يمكن للدبلوماسية أن تكسب ولكنه استخدم أسلوب المشاكسة ، وكانت النتيجة . . الفشل .

وفى الشرق أكثر من أى مكان آخر لا يجدى مطلقا أن تهدد خصمك بعصا ، مالم تكن مستعدا لاستخدامها بشدة كملجأ أخير ، ويسميها الشرقيون خدعة . وقد فعلت الحكومة المصرية ذلك بالتحديد .

ولما كان المستر كارتر عالم آثار وليس متآمرا فكان طبيعيا أن يسقط فيما يبدو أنه كان فخا منصوبا بإحكام» .

ورغم ذلك ، فإن كارتر كان ثائرا أشد الثورة لأن «التايمس» لم تقف بجانبه .

كتب آرثر ميرتون مراسل الصحيفة فى الأقصر رسالة خاصة إلى رئيس التحرير فى لندن يصف كارتر فى تلك الأيام.

قال:

«أعلن كارتر أن الصحيفة لم تتصرف تجاهه، بالصورة التى كان يتوقعها منها.

وقال إنه يعتقد أنكم، من ناحيتكم، كان ينبغى أن تدافعوا عنه بقوة أكبر، خاصة وأن لديكم كل المراسلات، وتعرفون ما تعرض له خلال هذا الشتاء.

وأضاف إنه باستثناء افتتاحية كتبت فى اليوم التالى للأزمة، وإشارة فى الافتتاحية إلى اتفاق «التايمس» معه، فإنكم لم تفعلوا شيئا من ناحيتكم.

وكان منزعجا بوجه خاص من عنوان فرعى نشر، يعطى انطباعا زائفا بأنه المخطئ لا الحكومة المصرية.

وأعرب عن خيبة أمل مريرة، فلم تصل إليه رسالة واحدة متعاطفة معه.

وأدركت أنه فقد توازنه تماما، من الطريقة التى يتحدث بها عن أفضل أصدقائه، الذين وقفوا إلى جانبه».

أنذرت وزارة الأشغال كارتر بفتح المقبرة.

واجتمعت لجنة قضايا الحكومة المصرية فأيدت وزارة الأشغال فى قرارها.

وقررت اللجنة إلغاء عقد الامتياز إذا انتهت المهلة الممنوحة لكارتر ولم يذعن للشروط.

* * *

اجتمع مجلس الوزراء برئاسة سعد زغلول باشا يوم ٢٠ من فبراير مدة ساعتين ونصف الساعة، ووافق على إلغاء الامتياز الممنوح لليدى كارنارفون فى ٢٣ من يوليو ١٩٢٣ وكان مقررا أن يستمر الامتياز حتى ٢٤ من نوفمبر ١٩٢٤، وأصدر وزير الأشغال قرارا بذلك جاء فيه:

« بعد الاطلاع على رخص الحفر الممنوحة للورد كارنارفون فى سنة ١٩١٢ ـ

١٩١٨ والرخصة المعطاة إلى الليدى كارنارفون سنة ١٩٢٣ بالاستمرار فى استخراج ما فى قبر توت عنخ آمون بوادى الملوك بالأقصر .

وبعد الاطلاع على البرنامج الذى وقع فى ٨ من فبراير سنة ١٩٢٤ وتقررت فيه الأعمال والبيانات والزيارات بعد استكشاف التابوت الملكى باتفاق تم بين وزارة الأشغال العمومية والمستر كارتر النائب عن الليدى كارنارفون والمكلف من قبلها بإدارة أعمال الحفر .

وحيث إنه فى يوم ١٣ من فبراير سنة ١٩٢٤ غداة فتح التابوت أوقف المستر كارتر تنفيذ البرنامج المتفق عليه بأن أقفل القبر وبأن صرح على رءوس الملأ بأنه لن ينفذ عملا من الأعمال بعد ذلك .

وحيث إنه قد طلب إليه رسميا فى يوم ١٨ من فبراير أن يعود لتنفيذ البرنامج المتفق عليه فرفض الطلب ووضع شروطا لفتح القبر لا مبرر لها ولا تقبلها الحكومة .

وحيث إن إقفال القبر وترك العمل يعتبران مخالفة خطيرة لتعهداته التى قبلها .

وحيث إن هذه المخالفة أشد خطرا ؛ لأنها باعتراف كارتر نفسه تعرض الآثار النفيسة المكتشفة لتلف لا يمكن إصلاحه .

وحيث إن المادة ١٣ من تصريح سنة ١٩١٥ تقضى بأن «كل مخالفة من جانب صاحب الرخصة لشروط التصريح تؤدى بمطلق الحق ، ودون أى أعلان ، أو شىء من الإجراءات الأخرى ، إلى إلغاء الترخيص .

وحيث إن هذا الإلغاء أصبح أشد لزوما ؛ لأن المستر كارتر منذ جدد التصريح لليدى كارنارفون قد ازدرى دائما سلطة مصلحة الآثار وحقها فى المراقبة ، ولأنه بكتابه المؤرخ ٣ من فبراير سنة ١٩٢٤ والذى نشره ، أنكر صراحة حقوق الدولة فى الآثار المستكشفة .

لهذه الأسباب ، وبناء على ما عرضه المدير العام لمصلحة الآثار . .

قـــرر:

المادة الأولى : يلغى ترخيص الحفر الممنوح لليدى كارنارفون فى ١٢ من يوليه سنة ١٩٢٣ . والذى ينتهى فى ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

المادة الثانية : على المدير العام لمصلحة الآثار تنفيذ هذا القرار وعليه أن يعمل فورا لفتح المقبرة والمعامل وغيرها من المستودعات ويسرع فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية ما يوجد من الآثار وصيانتها .

* * *

لم تصدق أرملة اللورد كارنارفون نبأ إلغاء الترخيص .

أدلت بحديث إلى صحافة لندن قالت فيه :

« هذا العمل من المستحيلات التامة . ولا يمكن إلغاء الترخيص لأنه صدر باسمى ! ! ولا توجد حكومة تحفل بالناس وتأتى بهذا العمل دون أن تبلغنى أولا بقصدها ، ولم يصل إلى تنويه بأنهم سيأتون بهذا العمل » .

إن الصدمة كانت أقوى من أن تحتملها الليدى التى كانت تظن أن حكومة مصر لا تجرؤ على إلغاء ترخيص منح لليدى .

وكانت الليدى تعيش بأفكارها فى عصر انتهى فى مصر !

* * *

عبرت صحف مصر عن العهد الجديد .

قالت البلاغ : «اختلفت الأمور منذ تولى سعد زغلول الحكم ، وهذا التطور ينهى طموح كارتر الذى انتعش فى عهد الحكومات الضعيفة ، لقد أغلق كارتر قبر الفراعنة وكأنه قبر أبيه» .

وهنأت المحروسة الحكومة على موقفها الحازم وقالت : «يجب أن يعرف كارتر أن لدينا حكومة حقيقية» .

وقالت الأخبار إن «سياسة الحزم والعزم التى اتبعتها الحكومة كانت الجواب الوحيد على تصرفات كارتر» .

وأضافت : « كان يجب على الحكومة أن تلغى الترخيص بعد وفاة اللورد لوضع حد لطغيان كارتر» .

وقالت الأهرام: «ضل كارتر السبيل، فحكومة اليوم غير وزارة الأمس، وإدارة الوزير الجليل الذى يشرف الآن على أعمال البلاد العمومية هى إرادة رجل ليس كالرجال الذين عرفهم كارتر فى وزارة الأشغال».

وانتقدت صحيفة النظام كارتر لأنه «مزق الاتفاق الذى وقعه بيده وأعلن الحرب على الوزارة لمصلحة السيدات الزائرات».

وقالت إنه «لم يكتف بوضع يده على الآثار والتعامل على هواه مع الموتى بل أراد أن يمارس نفوذه على الوزراء وتخيل نفسه ملكا على وادى الملوك».

وحتى صحيفة المقطم التى تعبر عن رأى الإنجليز طالبت بحل الخلاف ولكنها لم تستطع أن تعارض الحكومة.

وقالت المقطم: «هذا الحادث يجب أن يفتح عين الحكومة والشعب لدراسة آثارنا والقيام بالحفر والتنقيب عنها».

وفى البداية رأت جريدة السياسة الناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين المعارض لسعد والوفد أن فى تصرف وزير الأشغال شيئا من المبالغة والتشدد ولكن بعد ذلك وقفت مع مصر.. وآثارها.

وكشفت صحيفة الوطن السر الحقيقى للخلاف.

قالت: «من غير المعقول أن يكون السبب راجعا إلى السماح بدخول بعض السيدات إلى المقبرة بل إن السبب أعمق من ذلك. إن كارتر يريد التخلص من الإشراف الحكومى الفنى، وأن تكون له حرية العمل كاملة ليحصل على نصيبه من الآثار».

* * *

أصدرت المفوضيتان المصريتان فى باريس ولندن بيانين يشرحان فيهما موقف الحكومة المصرية ويندادان بأعمال كارتر.

وأيدت الصحف الفرنسية فى باريس قرار الحكومة المصرية لأسباب كثيرة قد يكون منها أن مصلحة الآثار يديرها فرنسيون بحثوا ونقبوا كثيرا فى مصر ولكنهم لم يقوموا بكشف يعادل ما حققه كارتر.

وأدلى سعد بحديث إلى صحيفة التايمس قال فيه :

« إن الحكومة المصرية لم تتجاوز قط دائرة حقوقها ، وأظهرت روح الصداقة التامة من البداية حتى النهاية ، ولم يكن لجنسية كارتر ، فى أى وقت ، أقل تأثير فى العمل الذى قامت به الحكومة بل كانت ترغب دائما فى تجنب ما قد يؤدى إلى تعكير صفو العلاقات الودية بين البلدين » .

وقال سعد :

« لو كان صاحب الامتياز مصريا ، لما أظهرت له الحكومة هذه الرعاية » .

سأله مراسل التايمس :

ـ يقال إنكم اتخذتم قرار إلغاء الامتياز لإرضاء الجمهور .

أجاب سعد :

ـ ما الضرر إذا أخذنا فى الاعتبار مشاعر الرأى العام عند إصدارى القرار ، وليس ذلك هدفنا ولكنه لا يخيفنا ما دام يتفق مع الحق .

وقال سعد :

ـ لا تستخف الحكومة الدستورية أبدا بالرأى العام!

* * *

كتب فكرى أباظة رسالة نشرتها الأهرام :

« مولاى الملك المدفون :

خاطبت «الأحياء» فلم يصغوا لخطابى .

وهأنذا أخاطب «الأموات» فأشكو إليك أبناءك . . فقد قيل إن «سرك» عجب . . وإنك كما استطعت أن تقضى على نابش قبرك «بالفناء» تستطيع أن تلزم غاصب وطنك «بالجلاء» .

أى مولاى :

عذرا إذا تحالفنا مع أعدائنا على جثتك الهامدة .

وعذرا إذا اختلفنا معهم الآن على احترام جلال الموت، ورقدة الأبدية، بل على اقتسام التحف الملكية ومخلفاتك الفضية والذهبية.

مولاى المدفون:

إيه ـ الملك ـ لا يدوم.. وكما كنت فى الثريا فقد أصبحت الآن فى الثرى.

ولا تحقد أيضا على الحضارة إذا انقضت مخالبها أو أظافرها على جسمك البالى فإنها حضارة المظاهر لا الحقائق ـ ومدنية الماديات لا الأدبيات.

استيقظ واسمع..

إننا لا نحترم دينا ولا عهدا.

لا نعبد إلا المادة..

ولا نقدس إلا المنفعة.

ننبش فى قبور ملوكنا. ونهتك حرمة أجدادنا.

حتى إذا وصلنا إلى الجثث المسكينة صعقنا وخاطبناها قائلين:

ـ اخرجى نضعك فى الأسواق.

ثم ننادى أيها السياح:

ـ ندعوكم إلى الفرجة مقابل دراهم معدودة.. دعوة صادقة من المصريين «الأحياء» للفرجة على المصريين «الأموات».

أى مليكى المقبور:

عفوا إذا جعلناك «سلعة» يستغلها المستر «كارتر».

وجعلنا قبرك «حانوتا» يقفله المستر كارتر بمفتاحه إذا شاء، ويفتحه إذا ما شاء.. فهكذا شاء القدر وهكذا شاء حظنا المنكود.

أيها الملك الشاب:

أرثى لك وأرثيك وأبكى.

ولكن هل يجدى البكاء؟!

هل يعيدونك ملكا، لك ما كان لك وبجوارك ما كان بجوارك.. ويحف بك ما كان يحف بك؟! لا، واحسرتاه سيخرجونك كما يستخرجون المعدن من جوف الأرض..

يضعونك فى «دولاب» صغير سافر، ثم يزدحم حولك الأطفال والرجال والنساء يحدقون فى عينيك للتسلية ومجرد اللهو.

وهذه هى «مأموريتك» فى عهد الحاضر أيها الملك الغابر.

أى مليكى:

سينقلونك إلى المتحف فى جوار قشلاق قصر النيل حيث توجد ثكنات لجيش الاحتلال البريطانى.. إمعانا فى إهانتك وغلوا فى إيذائك؛ لتشاهد أيها الملك الحر شعبك المستعبد؛ ولتعلم أن الذين نبشوا قبرك يحفرون الآن القبر لأمتك!!

أيها السادة نابشو القبور:

بعثكم هذا ليس بعث الله.

اذكروا أنكم ستموتون.

واذكروا أن ضجعة الموت لها جلال. أستحلفكم بآبائكم الهادئين فى قبورهم، المطمئنين على عالمهم الثانى، أن ترحموا «الملك الميت» فقد أراد أن يثوى فى قبره هو لا فى قبركم أنتم، فاحترموا إرادة الملوك واحترموا إرادة الأموات!!».

القضيـة

لم يقف كارتر صامتا، بل أسرع بإقامة دعوتين أمام المحاكم المختلطة .

الأولى يطالب فيها بنصف الآثار طبقا للترخيص، والثانية أمام محكمة الأمور المستعجلة المختلطة يطلب فيها - بصفة عاجلة - تعيينه حارسا على قبر توت عنخ آمون والمقابر المجاورة التى يوجد فيها إستديو التصوير والمعامل التى تحفظ فيها الآثار وترمم قبل نقلها للقاهرة .

وقال إنه يريد أن يكون حارسا ثمانية شهور ونصف الشهر حتى أول نوفمبر ١٩٢٤ .

وطلب أن يفوض - تحت ملاحظة مصلحة الآثار - فى عمل ما يراه لازما لحفظ الآثار، ونقل ما يمكن نقله إلى متحف القاهرة وإقفال القبور الموجودة بداخلها هذه التحف إقفالا محكما مع بقاء مفاتيح القبور فى حيازة كارتر!

وقال إنه ظل واضعا يده بطريقة تامة مطلقة على القبر، ووضع له بموافقة مصلحة الآثار أبوابا من الصلب يحمل - وحده - مفاتيحها .

وقال إنه حاول أن يتخذ الإجراءات اللازمة لصيانة الناووس الذى ترك مفتوحا فى القبر بصفة مؤقتة فمنعته القوة المسلحة يومى ١٥ و ١٧ من فبراير . .

وبنى دعواه على أساس أن أعمال الاستخراج، والفحص، والتحريات العلمية، لن تتم، وأنه - وحده - العليم بطرق صيانة الآثار، ويملك - وحده - المواد اللازمة لذلك والتى توجد بالقبر!

وقال إن له الحق فى نصف الآثار طبقا للقانون رقم ١٤ لعام ١٩١٢ الخاص بالآثار وقرار وزير الأشغال رقم ٥٢ لسنة ١٩١٢ .

بدأت المحكمة نظر القضية بالقاعة الكبرى فى العاشرة من صباح السبت ٢٣ من فبراير برئاسة القاضى الأمريكى كرابيتس.

وكرابيتس - ٤٧ سنة - كاثوليكى بدأ عمله فى المحاكم المختلطة قبل ١١ عاما، وظل يشغل منصبه فى القضاء المختلط ربع قرن حتى سنة ١٩٣٦.

واختير بعد عودته لبلاده محاضرا جامعيا فى القانون ست سنوات، ثم عينته حكومته مساعدا للوزير الأمريكى المفوض فى القاهرة عام ١٩٤٢ لمدة عام.

ومن القاهرة انتقل إلى العراق.

وقد ألف كرابيتس ٩ كتب عن الملكة فيكتوريا وهنرى الثامن وإسبانيا، تأثر بالسودان فألف عنه كتابين كما ألف ٤ كتب عن إبراهيم باشا والخديو إسماعيل والضباط الأمريكيين فى الجيش المصرى وقناة السويس.

بدأ الكتابة عن مصر وهو قاض بالمحاكم المختلطة.

وفى عام ١٩٢٤ لم يكن كرابيتس قد أصدر كتابا واحدا ولكن بقاءه فى مصر ١١ عاما جعله يعرف رجالها المسئولين، ويتابع تطوراتها السياسية ويلمس عن قرب حكاية الآثار..

وقد أثر ذلك كله فى تطورات القضية!

* * *

ملأ الحاضرون القاعة حتى أن المحامين لم يجدوا مكانا واخترق القاضى ردهات المحكمة.. بصعوبة.

وحضر عن مرقص حنا وزير الأشغال روسيتى المستشار الملكى لإدارة قضايا الحكومة.

وجاء ثلاثة من المحامين يدافعون عن كارتر وهم مكسويل وكاتو وبولاد.

ويتدخل سوء حظ كارتر والصدفة السيئة الضخمة فى حياته.

كان أحد محامى كارتر - وهو مكسويل - النائب العام الذى وقف أمام المحكمة العسكرية البريطانية يطالب بإعدام مرقص حنا.

قال مكسويل إن كارتر يمثل الأوصياء على تركة اللورد كارنارفون وهم الجنرال السير جون جرانفيل ماكسويل، وهو غير المحامى ماكسويل، والجنرال السير روبرت هاتشنسون وآرثر فتزهاردنجز بيوكلى بورتمان.

رد روسيتى محامى وزير الأشغال بأن المحامى مكسويل موكل عن كارتر وليس لديه توكيل عن الأوصياء الثلاثة ولا يجوز له الحضور نيابة عنهم، فهم لم يقيموا دعوى وليس لهم شأن بها ودفع بعدم قبول الدعوى بالنسبة لهم.

مكسويل: هناك ثلاث برقيات باسم كارتر من «لندن» و«كان» و «نيس» يصرح له مرسلوها بإقامة الدعوى فى المحكمة المختلطة.

روسيتى: الأنظمة القانونية المتبعة فى المحاكم المختلطة لا تعترف لهذه البرقيات بقيمة ما. ولا تحسب كتوكيل.

والكلمة الواردة فيها هى:

« ارفع الدعوى باسمى».

رد مكسويل بأن القوانين البريطانية تؤيد التوكيل برقيا.

روسيتى: رغما عن تعظيم المحامى مكسويل للقوانين والأنظمة البريطانية فإننا هنا نعتبر القانون المصرى ولا نعمل إلا به.

وإذا فرضنا أن كارتر فى يده الوكالة الكافية لرفع هذه القضية فلا هو ولا موكله، لهما صفة تجيز لهما رفعها.

وما قولكم لو جئت أمامكم وطلبت ـ أنا روسيتى ـ أن تضعوا تحت الحراسة أهرام الجيزة.

إن تقديم طلب كهذا يقضى أن يكون لصاحبه شأن أو مصلحة. وهؤلاء لا صالح لهم فى مقبرة توت عنخ آمون. إن الرخصة أعطيت للورد ثم لأرملته بعد وفاته. وليس بين الحكومة وكارتر، أقل صلة، أو علاقة قانونية.

مكسويل: عدل اللورد وصيته هنا فى القاهرة وهو على فراش الموت. وأوصى بأن كارتر هو الذى يتفاوض بالنسبة لمجموعته الأثرية.

روسيتى : أين الوصية؟

ماكسويل : الوصية مسجلة فى القنصلية البريطانية ، فإذا أرادت الحكومة الاطلاع عليها فلها أن تسعى إلى تلك القنصلية .

روسيتى (بحدة) : ليس على الحكومة المصرية أن تسعى بنفسها للحصول على هذا المستند .

وعلى الفور أصدر القاضى كرابيتس حكما فى هذا الدفع قال فيه :

إن كارتر لم يقدم ما يثبت وكالته عن الأوصياء المنفذين لوصية اللورد ، ولذلك فإن ماكسويل لا يستطيع أن يتكلم إلا باسم كارتر وحده .

. . أى أن القضية أقامها كارتر ولم يرفعها الأوصياء على تركة اللورد!

* * *

طلب روسيتى بعد ذلك رفض دعوى كارتر شكلا على أساس أن ترخيص التنقيب أعطى للورد كارنارفون ومن بعده لزوجته ، وهى وريثته .

وقال إن السيدة المينا لم تقم دعوى وليست طرفا فيها والحكومة لا تعرف شخصا غير اللورد . ولا يهمها من يكون المنقب . ولا يهم الحكومة المصرية من كان يدير أعمال اللورد أو يعاونه .

وأضاف روسيتى :

ـ ومع ذلك فإن كارتر يطلب أن يعين حارسا قضائيا . . «كمان»!

ضحك الحاضرون .

القاضى : سكون أيها السادة .

روسيتى : يجب وضع حد لهذه المهزلة السيئة بتطبيق أبسط المبادئ القانونية .

ماكسويل : المادة السادسة من ترخيص التنقيب تعطى كارتر حقوقا . وتنص على حريته فى اتخاذ أي إجراءات يراها للفحص والتحريات العلمية لما يكتشف فى القبر من آثار . وقد منحته الليدى كارنارفون حق متابعة العمل .

القاضى : هل يمكن أن نصدر الحكم فى نزاع خطير كهذا تتأثر به حقوق الليدى كارنارفون دون حضورها .

مكسويل : المسألة خطيرة وعاجلة لأنها تتعلق بصيانة الآثار .

القاضى : هل إذا أجلت القضية يمكنك إدخال الليدى فى الدعوى؟

مكسويل : الليدى لا شأن لها فهى لا تقاضى .

روسيتى : نحن نقدر حقوق الليدى . ولكنها ليست ماثلة أمامنا . وليس لهم اسم فى القضية .

مسكويل : ذكر اسم كارتر فى الترخيص بجانب اسم اللورد كارنارفون .

القاضى : تريدون منا أن نفصل فى أمر جم الخطورة . فلتأت الليدى وتعلن أن كارتر موضوع ثقتها وصديق زوجها . أريد أن أعرف ماذا تريده الليدى .

وأصدر القاضى قراره بتأجيل القضية ثلاثة أيام .

خلال الأيام الثلاثة جرت محاولات للتوثيق والصلح بين كارتر ووزارة الأشغال وتم شطب القضية .

ولكن الوساطة لم تستمر سوى ٢٤ ساعة .

لم يقبل كارتر الشروط .

ومن ناحيته قال مرقص حنا إنه يرفض المفاوضات ، لأن القضية معروضة على القاضى .

* * *

صباح السبت أول مارس تقدم كاتو محامى كارتر يطلب إلى القاضى تجديد القضية .

حدد القاضى كرابيتس الساعة الرابعة من بعد ظهر السبت ٨ من مارس موعدا لنظرها .

بدأت القضية بمفاجأة . .

أعلن أن من بين الحاضرين الجنرال السير جون ماكسويل القائد العام للقوات البريطانية فى مصر عند قيام الحرب . . جاء من كاليفورنيا ليعلن أنه بوصفه أحد ثلاثة ينفذون وصية اللورد كارنارفون . . يقيم الدعوى ويوكل ـ عنه ـ المحامى ماكسويل .

قال القاضى كرابيتس عند رؤيته :

ـ أتخلى عن منصبى لحظة لتحية الجنرال وأقول له «أرى صحتك فى تحسن يا جنرال» .

رد السير جون ماكسويل شاكرا .

ووضح أن الهدف من حضوره التأثير على المحكمة وعلى مصر كلها . . بماضيه العسكرى . . وماضيه فى مصر .

روسيتى : أدهشنى كثيرا حضور الجنرال .

كرابيتس : اترك هذا الموضوع .

روسيتى : لست عازما على قول كلمة يشتم منها أنى لا أحترام الجنرال .

* * *

. . وبحضور الجنرال ماكسويل انهار أول دفع فرعى لمحامى الحكومة ، فها هو أحد الأوصياء على تركة اللورد يعلن شخصيا أنه يقيم الدعوى ضد وزير الأشغال المصرى .

* * *

قال ماكسويل محامى كارتر والأوصياء ، وهو غير الجنرال ماكسويل :

وضعت الحكومة المصرية أبوابا من الصلب أمام المقبرة لمنع كارتر من دخولها وهو المؤهل والمدرب والخبير الوحيد الكفء الذى يستطيع القيام بهذا العمل العلمى المهم .

إنه يريد صيانة الأشياء ويأخذ عنها المذكرات اللازمة لخدمة علم الآثار فى الحاضر والمستقبل .

ومن الصعب أن يستمر فى عمله إذا أصر مدير مصلحة الآثار على مضايقته من آن لآخر لدوافع تافهة ، فذلك مضر من الوجهة العلمية للحكومة ذاتها .

ولا يستطيع كارتر أن يقوم بالمهمة الشاقة إذا أرهق وأزعج .

إن التحقق من نوع التحف من الوجهة العلمية ، وضبط عصور وجودها ، وصناعتها أثمن ألف مرة من وجود التحف فحسب .

وأطال ماكسويل ، فقال القاضى :

ـ أريد أن تتكلم فى الموضوع وتبدى طلباتك .

ماكسويل : كارتر يريد أن يكون حارسا تحت إشراف مصلحة الآثار ولكن دون تدخلها فى عمله .

وأخذ ماكسويل يتلو ما يؤيد وجهة نظره من كتاب عن الآثار .

القاضى : لقد اطلعت على الكتب التى وضعت عن مقبرة توت عنخ آمون . ومن هؤلاء مستر كارتر نفسه وهو صديقى . وأريد أن أقول هنا جهارا إنه صديقى فلا لزوم لقراءة فقرات أو صفحات من كتب قرأتها قبل .

استمر ماكسويل فى القراءة . .

القاضى : من هو المؤلف؟

ماكسويل : إنه مستر كارتر نفسه .

القاضى : لا يمكن أن تستدعى خبيرا للشهادة ، أو تستند إلى شهادة خبير ، هو نفسه خصم فى الدعوى أليس الأفضل أن تقرأ من كتاب آخر .

ماكسويل : إن مصلحة الآثار سمحت لـ ١٥٠ شخصا بزيارة المقبرة .

القاضى : لماذا سمحت أنت لشخص دون آخر بزيارة المقبرة؟

ماكسويل : لأن بعضهم جاء فى أوقات لا تتعارض مع مصلحة العمل ولا تعطله .

وتكلم عن المصاعب الفنية والأخطار التى تتعرض لها التحف من جراء الزيارات التى قد يلحق غبارها وحده ضررا بالآثار ـ لا يقدر.

وضرب مثلا بما يطلب من كارتر من السماح لفلان باشا أو لعقيلته بزيارة القبر.

اعترض روسيتى على الكلام عن الحكومة المصرية بتلك اللهجة.

ولكن ماكسويل استمر قائلا: يضيع صواب الباحث إذا استمر إزعاجه.

وقد رأى كارتر اتخاذ ما يراه لازما لوضع حد لذلك حتى يستطيع الاستمرار فى عمله وليس عليه أن يسلم القبر قبل أن يتم أبحاثه، ولذا أغلقه واحتفظ بمفتاحه.

القاضى: تقول فى مذكرتك أن المدعوين يريدون المحافظة على القبر وإجراء الأبحاث فيه صيانة لمصلحة العلم. فهل المصلحة العلمية ضرورة؟

مكسويل: نعم.

* * *

كان القاضى كرابيتس حريصا بأسئلته على أن يتيح الفرصة لمحامى كارتر ليشرح وجهة نظره.

سأله:

ـ هل هدفك الأول خدمة العلم بإتمام العمل فى المقبرة؟

ماكسويل: طبعا. ولذلك لا أرغب فى مزيد من الزوار.

تلا القاضى خطاب محمد زغلول باشا وكيل وزارة الأشغال بمنع زوجات العاملين من دخول المقبرة.. وسأله:

ـ لماذا يسمح لهن بالدخول؟

ماكسويل: عدد منهن يساهم فى تسجيل الآثار وتصنيفها وصيانتها مثل زوجة العالم الأثرى نيوبرى.

القاضى: كيف جاز للمستر كارتر أن يوقف العمل صباح ١٣ من فبراير ويغلق أبواب المقبرة ويعلن على الملأ أنه أوقف الأعمال إلى أجل غير مسمى

مع أن قرار الحكومة بإغلاق المقبرة لم يصدر إلا فى السادسة إلا ربع من مساء اليوم نفسه.

إنى أعيد القول هنا، إنى صديق للمستر كارتر، ولكنى أريد منك جوابا على هذا.

كيف يتفق الدفاع عن العلم مع العمل على الإضرار به؟

إنك تركت العمل بمحض اختيارك والحكومة نفذت رغبتك. وهو أصعب ما فى القضية.

التقط المحامى الهدف فقال:

- إغلاق المقبرة أمر عادى. فهى تغلق مساء كل يوم وتغلق فى نهاية موسم الحفر شتاء. وتوضع عليها أكوام من التراب لمنع التسلل إليها.

لقد أوقف كارتر العمل لأن الحكومة جعلت الاستمرار مستحيلا.

القاضى: كان يمكنك الاستمرار فى حيازة المقبرة ثم تأتى إلى المحكمة تطلب تعيينك حارسا.

ماكسويل: إنه لم يهجر المقبرة بل توقف حتى يستطيع العمل، دون مقاطعة، أو تدخل مستمر.

وتلا القاضى نص الاتفاق الخاص بالزيارات الذى عقد بين وزارة الأشغال وكارتر.

وأضاف:

- ألم تتنازلوا حينما أغلقتم المقبرة عن متابعة الأعمال؟

مكسويل: موقف كارتر مثل موقف مستأجر لبيت من الحكومة فالمستأجر يحتفظ وحده بمفتاح البيت، ومن كان معه مفتاح البيت كان البيت له. والمستأجر هو الذى يقرر من يدعى للغداء أو للعشاء.

القاضى: كيف تدعى أنك تضع اليد ثم تغلق المقبرة وتطلب منى مساعدتك على الاستمرار فى الحيازة.

ماكسويل: فعل كارتر ما فعل لأن الحكومة اضطرته إلى ذلك وجعلت عمله مستحيلا. وكنا عازمين على الرجوع إلى المقبرة لمواصلة العمل. ولكن الحكومة المصرية دخلت إلى المقبرة كما يدخل اللص!

وهنا انتفض محامى وزارة الأشغال روسيتى من مقعده يصرخ محتجا، وقال:

- من المخجل أن يتفوه أحد المحامين بمثل هذه الكلمة القبيحة فى هذا المكان المقدس لا سيما إذا كان هذا اللفظ موجها إلى الحكومة..

إنى أطلب تسجيل تلك الكلمة فى محضر الجلسة محتفظا للحكومة بحق اتخاذ الإجراءات القانونية ضد قائلها.

سمعت همهمة احتجاج من الحاضرين على ماكسويل.

وجه القاضى كرابيتس الحديث إلى المحامى قائلا:

- الكلمة التى تفوهت بها من الكلمات التى يسأل عنها قائلها. وأنصحك بسحبها.

ماكسويل: إنى أسحب هذه الكلمة.

عاد روسيتى يحتج على كلمة لص فقال القاضى:

- لقد اعتذر ماكسويل.

ماكسويل: لقد حاول المدعى أن يدخل المقبرة مرارا فمنع من الاقتراب منها فلجأ إلى المحكمة المستعجلة.

إنه مستمر فى وضع يده إلى الآن. أما يد الحكومة فهى يد غير شرعية.

إن الحكومة جعلت عمله مستحيلا ولذلك أطلب جعله ممكنا.

وشرح ماكسويل تاريخ كارتر كموظف فى الحكومة ومنقب أثرى.

وأفاض فى ذكر المعاملة الحسنة التى كان يلقاها المنقبون من قبل فى عهد ماسبيرو.

حاول روسيتى محامى وزارة الأشغال الدفاع عن الوزير قائلا: إن الوزارة اتخذت إجراء إداريا لا يعرض على المحاكم.

رد محامى كارتر قائلا إنه بمجرد اكتشاف المقبرة أصبحت العملية عقدا بين كارتر والمصلحة، يخضع ـ مثل كل العقود ـ لرقابة القضاء.

ثم تلا نص ترخيص التنقيب الذى منحه ماسبيرو عام ١٩١٥ إلى اللورد كارنارفون وحددت فيه حقوق وشروط التنقيب، وما نص عليه قانون الآثار من اقتسام ثمن الأشياء عند تقدير المكافأة.

وقال ماكسويل: إن حق المكافأة ترك فى حالتنا دون نص ما، وإن الخلاف كله نشأ من تعسف مدير مستبد لمصلحة الآثار.

وأضاف:

ـ ليس لدى الحكومة المصرية مختص يستطيع أن يقوم بعمل كارتر من الوجهة الفنية.

روسيتى: إذا كان الترخيص قد منح فى عهد سابق (سنة ١٩١٥) فإن الإدارة المصرية تأثرت ـ عندئذ ـ بشخصية اللورد وبجنسيته.

وليس أدل على موقف الحكومة المصرية من البرقية التى رد بها دولة زغلول باشا رئيس الوزارة على الليدى كارنارفون حينما أبرقت إليه برجاء تسوية النزاع، فقال:

«أريد أن تعتقدى أنى أحفظ ذكرى الوداد والإخلاص للورد. وآسف جم الأسف للموقف الحاضر الذى منعنى كارتر ـ بإثارته ـ من إظهار كل ما أشعر به من الاحترام والشكر لما قام به زوجك من خدمة العلم. وأملى أن تسدى النصح لكارتر فى هذا الصدد».

فمن اللحظة الأولى تصرفت الحكومة ـ والأمر متعلق بكنوزها وبثروتها الوطنية ـ لا بوصفها حكومة، وإنما بدافع من الإخلاص والإجلال للعلم وذويه فى حين أن الجانب الآخر يصر ـ إلى هذه اللحظة ـ على العنت والغطرسة وامتهان الحقائق.

ذكرت كلمة «لص» فى هذه الدعوى وجاء ذكر موظفى مصلحة الآثار بطريقة تكشف عن حقيقة الظروف السيئة المحيطة بهذه القضية المشئومة.

لقد شوهوا الحقائق أيما تشويه.

إن منشأ القضية خطأ جاهدناه تارة بالوداد والحسنى وتارة بتقدير المسئولية، لما نمى خبر اكتشاف القبر إلى اللورد قدّر لفوره أن عاصفة هائلة من الفضول والاستطلاع ستثور حول هذا الاكتشاف وأن الأمر سينتهى بهجوم من جانب الصحفيين.

وجال بخاطره إلهام أنه محافظة على سكينته والاستمرار فى عمله الفنى أن يعهد إلى صحيفة يومية كبرى بنقل الأخبار ونشرها.

وجاء هذا التدبير عكس ما كان يتوقع لأن الجريدة الكبرى ـ «التايمس» أقامت العالم وأقعدته، وأثارت شوقه لرؤية تلك الكنوز العظيمة.

نهض الزوار من أقاصى الكرة ونظمت الرحلات، وسارعت وكالات السفر، بنشر الإعلانات الضخمة وانهمر على الأقصر سيل لا نهاية له من الزائرين.

هذا هو منشأ الخطأ الذى أثار سخط فريق كبير من الصحافة وخلق موقفا عجيبا داهمًا إلى أن كان ذات يوم وصل فيه إلى مصلحة الآثار خطاب. . .

القاضى: أرجو الدخول فى الموضوع، إننى أعجب ببلاغتك و. . .

روسيتى: ليس عندى من البلاغة شىء. . . وصل إلى مصلحة الآثار خطاب من المستر كارتر هذا نصه: «تزعجنى جدا مضايقة وفود كثيرة تأتى للزيارة فأرجو اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحمايتى».

إن مصلحة الآثار لم تحسن إلى إنسان بأكثر مما أحسنت إلى كارتر وهذا الخطاب حجة قاطعة على ذلك.

مضت ستون سنة على أعمال التنقيب بمصر وأصدرت الحكومة ستين ترخيصا، فأتونا بمثل اضطرت فيه الحكومة إلى أن تقف الموقف الذى اتخذته فى مسألة توت عنخ آمون.

ولكن حدث موقف غريب جديد. فوجدنا الضرورة تقضى باتخاذ الإجراءات التى طلبها كارتر نفسه.

مضى العام الأول بسلام لأنه كان هناك شخص غير موجود الآن هو اللورد.

واللورد كان على يقين من أنه ضيف الحكومة وليس فى داره ويعمل بترخيص فى يده لا أكثر ولا أقل.

وجددت الحكومة الرخصة لليدى بدافع من الإخلاص والولاء، والليدى لا تستطيع متابعة العمل فحدث ما حدث بيننا وبين كارتر.

سمعنا كثيرا من الغرائب أولها أن كل ما ارتكب ضد مصلحة الآثار كان فى مصلحة العلم.

إن مصلحة الآثار المصرية أحق بالكلام عن مصلحة العلم.

وتكلموا لنا عن الخبرة. وقرءوا لكم فقرات من كتاب وضعه كارتر ثم أتى يقول لكم يجب أن أضع يدى إذ توجد أعمال لا يستطيعها سواى!

وأكد لكم أنه فيما يتعلق بباقى مجودات القبر لا يعطيكم صفة من العمل على صيانتها سوى مصلحة الآثار المصرية.

قيل أيضا إن الأشياء ثمينة دقيقة تجب صيانتها وإن المستر كارتر يقوم بحفظها لنا.

ما أساس مزاعمكم؟

لسنا نريد عملكم أيها السادة!

حدث أن الحكومة حظرت الزيارة بلا تصريح بناء على طلب كارتر ذاته، فقيل لنا يوما إن وفدا من الآنسات والسيدات (وهن لسن بعالمات طبعا) دعاهن كارتر لمشاهدة الآثار. ولما لم تستطع الحكومة احتمال كل هذا صرخ كارتر وزعم أننا منعنا زملاءه، العلماء، وقريناتهم، من الزيارة.

قالت له الحكومة اتركنا نتخذ كل الإجراءات إذا أردت أن تستمر فى عملك.

عندئذ أملى عليه خياله المتوقد أن يغلق المقبرة ليمنعنا من الدخول. قلنا له نعطيك عددا من التصاريح تمنحها لمن تريد بشرط أن تقدم لنا كشوفات منظمة لنطلع على صفات الزائرين وكم منهم من العلماء.

وضع برنامج هذه الزيارات وزير الأشغال وكارتر نفسه.

وصيغت نصوصه فى عبارات دقيقة جدا دفعا لما عساه يحدث من الخلاف واستبقاء للوفاق.

ولكن كارتر أغلق القبر ونشر إعلانا أهان فيه الحكومة وقال: هذا قبرى قد أغلقته.

ماكسويل: لم يقل هذا.

روسيتى: أهينت الحكومة بأكثر مما يهان فرد عادى. ومع ذلك حافظت على بقية، من حسن النية والود، فمنحته يومين للتفاهم واستئناف العمل وإلا ألغت الرخصة.

أجاب كارتر بطلب الاعتذار والتعهد بعدم مضايقته فى عمله.

وأمام هذا الرفض القاطع ألغت الحكومة الرخصة وأمرت مدير الآثار أن ينفذ قرارها.

يطلب كارتر طلبا غريبا بإقامته حارسا على المقبرة.

فإذا كانت الحراسة للصيانة فقد اتخذت كل الإجراءات الخاصة بذلك طبقا للقرار الوزارى ونفذ القرار بمعرفة مصلحة الآثار.

تزعمون أنكم أهل لصيانة الأشياء أكثر منا. ولكن الأشياء فى يدنا أكثر أمانا وصيانة مما لو بقيت فى يدكم.

ماكسويل: هذا ما نريد أن نقوله بالذات وهو أن التحف ستهلك إذا بقيت فى يد الحكومة.

روسيتى: إن حفظ الآثار ونقلها عمل كيميائى. والكيميائى الذى كان يعنى بالآثار ويحفظها منذ فتحه حتى إغلاقه موظف مصرى ملحق بمصلحة الآثار المصرية وهو مستر لوكاس.. فمصلحة الآثار هى التى كانت تعنى بالآثار وليس المستر كارتر.

القاضى: هل يأخذ لاكو على عاتقه أمام العالم مسئولية حفظ هذه الكنوز؟ إن لاكو عالم بارع ولكن هل له أن يتحمل هذه المسئولية أمام العالم بأسره؟

روسيتى : إن مصلحة الآثار على يقين من صيانة الأشياء من الوجهتين المادية والعلمية .

روسيتى : يجب أن يكون هناك خطر على الأشياء المراد حراستها سواء من جهة فقدها أو ضياعها .

ماكسويل : أجرؤ فأقول : هناك خطر على هلاكها وضياعها أيضا .

روسيتى : بل هو خطر سرقتها ولا يصح طبقا للمادة (١١) من لائحة ترتيب المحاكم المختلطة أن تتعرض المحاكم لإلغاء قرار وزارى . وطلب الحراسة مناف للقرار الوزارى القاضى بإلغاء الترخيص .

آسف لما يقال من أن كارتر أهان الحكومة لأنها أساءت معاملته . إننا لم نسم كارتر لصا .

ماكسويل : كان كارتر يعمل لصيانة الأشياء . والحكومة تريد أن تستعمل المقبرة معرضا .

ولو راجعتم أسماء مئات الزائرين الذين صرح لهم بالزيارة ما وجدتم بينهم عالما واحدا .

فإذا كان هذا منزع الحكومة وذاك منزع كارتر فلا عجب أن يقع النزاع بينهما . والحكومة عاجزة عن العمل بأحسن من أى شخص آخر من الوجهة الفنية .

روسيتى (محتدا) : سمحت المحكمة لمحامى المدعى أن يتكلم بلهجة معينة .

القاضى : لا .

ماكسويل : إن محامى الحكومة لا يحافظ على أسلوب المجاملة .

القاضى : لكل محام، من أية جنسية ، أن يترافع بالطريقة القضائية وفى حدود معينة .

روسيتى : لقد منحت امتيازات معينة لمحامى المدعين .

أنهى القاضى الجدل قائلا :

- سيودع الحكم فى قلم الكتاب ، سأقرأ القضية لأفهمها ثم أصدر حكمى بأسرع ما يستطاع .

رأى الجنرال ماكسويل بصفته من الأوصياء على تركة اللورد أن يتخذ خطوة تخفف من حدة الخصومة وتهيّئ للتسوية والصلح. فبعث إلى الوزير مرقص حنا يصف فيها تنازل الليدى كارنارفون عن الدعوى وعن كل حقوقها فى آثار المقبرة.

قال:

«عزيزى الوزير:

من أجل إنهاء نزاع مرير وإعادة العلاقات السليمة التى لا غنى عنها للعمل العلمى فى مصر فى المستقبل وعلى وجه الخصوص.. من أجل تمكين مستر هوارد كارتر من إنجاز العمل القيم الذى بدأه. فإنى أتنازل هنا طواعية عن كل الدعاوى من جانب الكونتيسة «المينا كارنارفون» والأوصياء على أملاك اللورد الراحل كارنارفون والقائمين عليها بالنسبة.. للآثار فى مقبرة توت عنخ آمون.

وأوافق على سحب كل الإجراءات القانونية التى تتصل بتنفيذ هذه الدعوى.

وفى الوقت نفسه أوجه عناية الحكومة المصرية إلى القيمة الهائلة للاكتشاف بالنسبة لمصر وإلى نفقات عملية الانتشال المكلفة لهذه الآثار من المقبرة والتى تم استخراجها ولاتزال مستمرة، وكلها لصالح المتحف المصرى والحكومة المصرية وشعب مصر دون أن يتحملوا التكاليف.

وقد اعترفت الحكومة المصرية أكثر من مرة بأنه فى عملية استخراج الآثار التى لا نظير لها أبدى مستر كارتر مكتشف هذه الآثار - إخلاصا لا حدود له وكفاءة لا مثيل لها يتضاءل أمامها أى ثناء، كما أن هيئة العاملين معه قدموا خدمة لا تقدر بثمن.

وفى ظل هذه الظروف أجازف بالقول، بأن هناك عدداً كبيراً من الآثار التى توجد فى المقبرة لها أكثر من نسخة.

وأوجه العناية إلى أن قيام الحكومة المصرية بتقديم بعض هذه النسخ للمتحف البريطانى ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك باسم «الكونتيسة كارنارفون» سيكون تعبيرا ملائما عن اعتراف الحكومة المصرية بالخدمات التى سبقت الإشارة إليها»..

* * *

لم يبعث الوزير بهذه الرسالة إلى المحكمة المختلطة، وبالتالى لم تؤثر فى سير الدعوى.

* * *

فى اليوم التالى ١٣ مارس ١٩٢٤ أصدر كرابيتس حكمه فى القضية وهو يقضى من حيث الشكل باختصاص المحكمة المختلطة وقاضى الأمور المستعجلة بنظر القضية.

وفى الموضوع، فإن القاضى قرر أنه قبل إصدار الحكم فى القضية فإنه يأمر أن يمثل أمامه جميع الخصوم شخصيا.

وأن يمثل وزير الأشغال العمومية مندوب يعينه الوزير لهذا الغرض.

وأن يكون مثول الخصوم شخصيا فى اليوم والساعة اللذين سيعينان بناء على طلب الفريق الذى يهمه الأمر أكثر من الآخر أو يعينهما قاضى الأمور المستعجلة نفسه.

وبعد إتمام إجراءات التحقيق والبحث يصدر الحكم بلا مرافعة.

* * *

كان حكم القاضى كرابيتس تمهيديا لم يتناول موضوع القضية، أى موضوع فرض الحراسة، وكل ما قضى به أن المحكمة المختلطة مختصة بنظر القضية.

وكان هدف القاضى تسوية الموضوع وديا إذا حضر أمامه جميع الأطراف بدلا من المحامين.

قالت الصحف فى اليوم التالى إن ماكسويل خرج من مرافعته عن حدود اللياقة، وإنه وكارتر باتهامهما وزيرا بأنه لص، فقد اتهما شعب مصر كله.

* * *

سارت مظاهرات الطلبة فى الشوارع تهتف للاستقلال وتندد بكارتر.

واتهم وزير الأشغال كارتر بالكذب.

وأعلن الوزير أنه سيرفض حكم المحكمة لو أعادت الامتياز إلى الأثرى البريطانى. ثم استأنف الوزير الحكم الابتدائى الذى يقضى باختصاص المحكمة المختلطة.

عرضت القضية على محكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية يوم ١٩ من مارس برئاسة المستشار أرنست إيمان وعضوية فؤاد جريس، وصبحى غالى، وكاتور، وبرنتون.

قال روسيتى محامى الوزارة إن مقبرة توت عنخ آمون ملك للحكومة المصرية وليس فى وسع أحد تعيين حارس قضائى على شىء لا حق له فيه.

واعترض على ما قضى به قاضى الأمور المستعجلة من دعوة الخصوم للصلح قائلا إن القانون لا يجيز ذلك.

وتمسك ماكسويل محامى كارتر بالحكم المستعجل.

وأجلت القضية إلى ٢٩ من مارس.

وفى تلك الجلسة - السبت ٢٩ من مارس - قدم النائب العام لدى المحاكم المختلطة، فان دن بوش - البلجيكى - مذكرة إلى المحكمة، قال فيها:

أصدر قاضى الأمور المستعجلة قبل الفصل فى الحكم أمرا شخصيا.

وهذا القرار الصادر عن شعور سام، وميل شديد للتوفيق جدير بكل احترام ومشرف للقضاء خصوصا فى هذه القضية التى اهتم العالم بها، إذ يقصد به إحلال الوئام والصلح محل الخصومة؛ ليضمن النجاح فى عمل علمى عظيم الفائدة فى جو يظلله هدوء وطمأنينة وفى الوقت نفسه فيه محافظة على حقوق حكومة مسئولة.

ولكن مهما كان هذا المسعى نبيلا، فلابد لتبريره أن يكون القاضى والهيئة القضائية التى ينتمى إليها مختصة.

إن الحارس القضائى مدير مؤقت معين من جهة القضاء على أشياء متنازع فيها فهل هناك أشياء متنازع عليها فى هذه القضية.

إن المستر كارتر ليس بالمنتفع ولا هو شريك للمنتفع وترخيص التنقيب منح للورد كارنارفون والليدى أرملته .

إنه وكيل عنهما يعمل تحت رعايتهما وليس له أن يدعى لنفسه حقوقا فى قبر توت عنخ آمون ومشتملاته تزيد على حقوق صاحب الرخصة .

ولسنا فى حاجة إلى الرجوع إلى نص ترخيص البحث بعد أن صرحت الليدى كارنارفون فى ١١ من مارس فى رسالة غاية فى الرقة أنه ليس لها أى مطمع فى قبر فرعون ولا فى التحف التى وجدت فيه .

ومادام الأمر ظاهرا بعد هذا التصريح فلا يوجد شىء متنازع فيه ولا ما يبرر تعيين حارس قضائى على القبر لإدارته بالنيابة عن المالك الحقيقى . والمالك هنا هو الحكومة المصرية .

ومهما تكن وجهة النظر هذه قاطعة بعد الرسالة التى كتبتها الليدى كارنارفون فإن هناك وجهة نظر لها أهميتها وهى احترام القاضى لفصل السلطات .

. . . فى ٢٠ من فبراير سنة ١٩٢٤ على أثر حوادث معلومة ألغت الحكومة المصرية الترخيص الذى منحته لليدى كارنارفون وأصدرت أمرها بحيازة مصلحة الآثار بصورة قطعية لقبر توت عنخ آمون وملحقاته .

وهذا عمل إدارى قامت به السلطة التنفيذية مستندة إلى حق اتخاذ تدابير قانونية إلى أن تلغى بواسطة السلطة التى أصدرتها .

فإعطاء الحق للسلطة القضائية فى مناهضة تنفيذ أمر من جهة السلطة التنفيذية يعتبر تعديا من سلطة على سلطة أخرى وهو ما نهت عنه جميع القوانين الحديثة .

إن تعيين حارس على قبر توت عنخ آمون وعلى الأشياء التى استخرجت منه لا يكون فقط تأويل أمر إدارى ووقف تنفيذه كما تقول المادة ٧ من القانون المدنى بل يكون إلغاء لهذا الأمر فى ذاته .

والنتيجة شل للسلطة العامة فى تنفيذ قراراتها وتداخل فى شئونها ، ولا نستطيع أن نتصور مثلا أشنع خزيا لاعتراض السلطة القضائية للسلطة الإدارية ، ومهاجمة أكثر جرأة لمبدأ فصل السلطات .

ولذلك نرى أنه كان على قاضى الأمور المستعجلة أن يتنحى عن الاختصاص، ونحن نطلب من المحكمة أن تأخذ بهذا الرأى الذى يجد تأييدا فى قضائها وتقاليدها ويبقى الطريق مفتوحا للتفاهم والاتفاق.

* * *

حددت المحكمة يوم أول إبريل للنطق بالحكم.

وفى ذلك اليوم طلب محامى كارتر تأجيل النطق بالحكم؛ فقد وردت من لندن برقية تكذب تنازل ورثة اللورد كارنارفون عن حقهم فى محتويات مقبرة توت عنخ آمون، وأراد ماكسويل أن يتمكن من الرد على أقوال النائب العمومى.

دارت مناقشة فى هذا الشأن بين القاضى والمحامى والنائب العام، خلت المحكمة لتتداول فيما إذا كان ورود هذه البرقية يؤثر فى النطق بالحكم أم لا.

وفى النهاية أصدرت المحكمة حكمها بقبول الاستئناف المرفوع من الحكومة شكلا وفى الموضوع بعدم اختصاص المحكمة فى نظر الدعوى.

إن المحكمة رأت أن القضاء المختلط لا ينظر طعنا فى قرار إدارى فإن مجلس الدولة لم يكن قد أنشئ... بعد!

الوساطة

السير آلان هندرسون جاردنر متخصص مرموق فى الآثار المصرية، وهو سكرتير سابق للجمعية البريطانية للآثار المصرية، وتولى رئاسة تحرير مجلة الآثار المصرية منذ عام ١٩١٦.

اهتم بالآثار المصرية وهو طالب وكتب أول مقال عنها وعمره ١٥ سنة. تابع بعض محاضرات جاستون ماسبيرو فى لندن، ودرس العربية والهيروغليفية فى أكسفورد، عاش عشر سنوات فى ألمانيا اشترك خلالها فى وضع قاموس الكتابة الهيروغليفية.

حاضر فى جامعة مانشستر وشيكاغو ومنح الدكتوراه الفخرية من عدة جامعات. وألف ٢٦ كتابا عن مصر و٢٢١ بحثا ودراسة من بينها كتابه عن تاريخ مصر الفرعونية وآخر عن قواعد اللغة المصرية القديمة.

زار مصر لأول مرة عام ١٩٠١ وهو صديق لكارنارفون وكارتر استعانا به ضمن مجموعة العلماء الذين أوفدهم متحف المتروبوليتان فى نيويورك لفحص مقبرة الملك توت.

ترجم من الهيروغليفية كل النقوش التى وجدت على المقبرة وكتب عدة مقالات عن الآثار المكتشفة، نشرها باسم مستعار حتى لا يخل باتفاق كارنارفون مع جريدة «التايمس».

يعرف جاردنر أن هناك تعاطفا بين حزب العمال البريطانى والوفد.

وظن جاردنر أن الصلة بين الحزبين ستحل كل مشاكل كارتر، واعتقد أن أية إشارة أو إيماءة، تلميحا أو تصريحا، من رامزى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا إلى سعد زغلول رئيس وزراء مصر ستحل كل مشاكل كارتر.

كتب جاردنر - وكان فى الخامسة والأربعين - من فندق سميراميس بالقاهرة إلى ماكدونالد - وفى أول فبراير ١٩٢٤ - يطلب تدخله فى أزمة المقبرة بعد ٧٢ ساعة فقط من إسناد الوزارة إلى سعد.

قال جاردنر:

«عزيزى رئيس الوزراء:

ترددت قبل الكتابة لأنى أشعر بأنى سأسبب لك إزعاجا فى الوقت الذى تسترعى فيه اهتمامك مشكلات كبرى.

ولكنى أحس بأنى سأكون مقصرا فى واجبى تجاه علمى وتجاه زميل عزيز على نفسى إذا لم ألفت انتباهك إلى الظلم الفادح الذى ارتكب فى حق هوارد كارتر.

تعرض هذا الشتاء لمضايقات عديدة، وصدرت قوانين تتسم بضيق الأفق لم يسبق لها مثيل تمنع الزائرين من دخول المقبرة، ولا تسمح له بتشكيل فريق العاملين منه.

ومنذ استدعى إلى القاهرة لمناقشة هذه الموضوعات مع وزير الأشغال العامة وبيير لاكو المدير الفرنسى لمصلحة الآثار، فإن عملية التسجيل العلمى لهذا الاكتشاف الوحيد أرجئت مما ملأنى وزملائى بسخط عظيم.

ووصلت ذروة هذا السخط إلى كارتر عن طريق تهديد ضمنى إذا لم يقبله فإن العمل فى ذلك الكشف العلمى المهم سيتوقف، وسيرفض كارتر بالتأكيد تقديم مزيد من التنازلات بدافع من ضيقه وشعوره بالألم نتيجة الأخطاء التى ارتكبت فى حقه فى الوقت الذى يقوم فيه ببراعة باستكمال عمل سيتم الحصول من ورائه على أعظم النتائج العلمية، فضلا عن ضم أعظم الكنوز إلى متحف القاهرة.

وفى هذه الحالة سنواجه باحتمال الإطاحة الطائشة - لأسباب تافهة وغير منطقية - بهذه الفرصة العلمية التى قد لا تتاح مرة أخرى.

- إن من الصعب فهم الموقف العدائى لبيير لاكو.

أرسلنا إليه احتجاجا شديد اللهجة موقعا منى ومن البروفيسور بريستد أستاذ

التاريخ المشهور والمتخصص فى مصر القديمة، ومستر ليتجو مدير متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك والبروفيسور نيوبرى المدير السابق لمتحف ليفربول .

ولا أتمالك نفسى عن اتهام مصلحة الآثار التى يرأسها رجل فرنسى طبقا لمعاهدة ١٩٠٤ بأنها تحاول مضايقة وإهانة مستر كارتر ـ وهو بطبعه سريع الغضب ـ ليرتكب خطأ فتسحب عملية الاكتشاف منه .

وهذا الأمر يعد أسوأ أنواع القرصنة .

وإذا أضيف لذلك أن هناك إجماعا على أنه ليس لدى مصلحة الآثار خبراء أكفاء يحلون محل كارتر وفريقه فستكون النتيجة خسارة للعلم لا يمكن علاجها .

ـ ولدى أسباب قوية للاعتقاد بأن اللورد اللنبى متعاطف تماما مع حقوق كارتر ولكن ليس مسموحا له ـ ربما على أسس من السياسة العامة ـ بالتدخل إلى جانبه .

فإذا سمح للورد اللنبى بالتدخل فى هذا الموضوع فسيتم التوصل إلى قرار عادل .

إنى أنشد مساعدتك فى هذا الإجراء .

ـ وفى موضوع يتعلق بالعدالة لا أحتاج إلى تذكيركم بأنه كان لى شرف لقائكم، عندما طلب منى مستر ريتشارد لابيرت تناول الشاى معكم فى مجلس العموم، وكنت مسرورا جدا عندما علمت أنك شخصيا مهتم بالعلم الجذاب الذى أمارسه» .

* * *

انتظر جاردنر ثلاثة أيام ظنها كافية لتغيير مجرى الأيام، فلما لم يصله رد أبرق إلى رئيس وزراء بريطانيا قائلا :

«أرجو التعجيل باتخاذ إجراء» .

* * *

توجه كلارك القائم بأعمال اللنبى إلى فندق مينا هاوس حيث يقيم سعد زغلول لإبلاغه رسالة من رئيس وزراء بريطانيا .

قال ماكدونالد فى رسالته إن بريطانيا تتنازل عن حقوقها إزاء المصريين المتهمين فى قضية المؤامرة الكبرى ضد الإنجليز، وتوافق على العفو عن المسجونين السياسيين. فأمر سعد زغلول بالإفراج عنهم فوراً.

وزاد أمل كارتر وجاردنر فى أن الإفراج عن المسجونين المعاصرين سيجعل وزارة الأشغال المصرية مرنة فى حقوقها بالنسبة لآثار قدماء المصريين!

ويلزم ماكدونالد الحذر فى تصريحاته العلنية.

سأله عضو مجلس العموم الدكتور كابل، قبل إغلاق المقبرة، عما إذا كان سيعلن عن الامتيازات التى منحتها الحكومة البريطانية لكارتر فى الاكتشافات التى يقوم بها.

رد ماكدونالد فى مجلس العموم قائلا:

ـ لم تخول الحكومة البريطانية، هوارد كارتر، أى حق أو امتياز فى الأعمال التى يقوم بها للتنقيب فى مصر، وهو خاضع لنصوص القانون المصرى للآثار.

وأثيرت المشكلة مرة ثانية فى مجلس العموم بعد إغلاق المقبرة وقبل إلغاء الترخيص.

وجه العضو أورسبى جور سؤالا إلى رئيس الوزراء:

ـ هل يفاوض رئيس الوزراء الحكومة الأمريكية بناء على الحوادث التى وقعت أخيراً فى مصر؛ ليقدما معا احتجاجا مشتركا على معاملة وزارة الأشغال للأثريين الإنجليز والأمريكيين.

أجاب ماكدونالد:

ـ أشكر النائب المحترم على اقتراحه، ولكن ليس فى الأمر ما يوجب مثل ذلك على الحكومة فى الوقت الحاضر.

ومعنى هذا الرد الدبلوماسى أن ماكدونالد يرجئ اتخاذ قرار بالتدخل.

ولكن وزارة الخارجية البريطانية تنصح رئيس الوزراء، ووزير الخارجية بعدم التدخل... نهائيا.

درست الوزارة شكوى جاردنر، وقدمت مذكرة إلى رامزى ماكدونالد قالت فيها:

«المشكلة التى ثارت بين مستر هوارد كارتر وبين مصلحة الآثار المصرية، مشكلة تثير الغضب، لكن علينا أن نلزم جانب الحرص قبل أن نتورط فى النزاع.

لم تكن لحكومة صاحب الجلالة علاقة من قبل بموضوع حفائر مقبرة توت عنخ آمون الذى كان محصورا بين القائم بالحفائر والحكومة المصرية متمثلة فى مصلحة الآثار المصرية التابعة لوزارة الأشغال العامة.

ويخضع القائم بالحفائر لأحكام قانون الآثار المصرى الصادر عام ١٩١٢.

لكنه فى حالات خاصة يستطيع القيام بترتيبات خاصة مع مصلحة الآثار فى حالة قيام ظروف خاصة.

ويعتقد أن لورد كارنارفون فعل ذلك.

ومن وجهة النظر التكنيكية يبدو أنه إذا كان لمستر كارتر أية شكوى يمكنه اللجوء إلى القضاء المختلط، وهو قضاء يتمتع بنفوذ كبير ولا مجال لشكوى من عدم توفيره العدالة للشاكى.

ونتائج الحفائر الحالية لمستر هوارد كارتر على أى حال نتائج فريدة من نوعها وتكاد تكتسب أهمية عالمية ولا يمكن إنكار أن ذلك أكسبها درجة من الدلالة السياسية.

وقد حاول الوطنيون المصريون فى العام الماضى استغلال هذا الموضوع كدليل على التدخل الأجنبى فى الشئون الداخلية لمصر، كما علم من مصدر خاص أن غيرة المدير الفرنسى لمصلحة الآثار (مسيو لاكو) كانت العقبة الرئيسية أمام عمل الرجل الإنجليزى (مستر كارتر).

وتؤكد المعاهدة المصرية ـ الفرنسية لعام ١٩٠٤ موقف السيطرة لفرنسا فى مصلحة الآثار فى مصر.

وستحقق الشهرة الواسعة والأهمية العلمية العالمية لعمل مستر كارتر أهمية كبيرة فى هذا النزاع السخيف.

ومع ذلك نشعر شعوراً قويا بأن على حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا أن تبذل كل ما فى وسعها حتى لا تتورط فيه .

ومن المستحيل التدخل قبل إحاطة حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا بمختلف جوانب الموضوع وعواقبه .

وإذا لعب مستر كارتر أوراقه بمهارة فيمكن أن يترك للرأى العام فى العالم مهمة إعادة الحكومة المصرية إلى صوابها .

وربما يمكن إرسال تلميح قضائى إلى الوزير المصرى بشأن الموضوع ، وفى الوقت نفسه الرد على مستر جاردنر بإبداء الأسف لأن يضطر مستر كارتر لأن يواجه هذه الصعوبات التى ذكرها ، مع تأكيد أننا نقدر أهمية عمله تقديرا كبيرا .

ولكن من الصعب أن تعلن حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا أى رأى بخصوص قضية مستر كارتر ، فليس لهذه الحكومة موقف رسمى فى المسألة فهى بين أحد الأفراد والحكومة المصرية تتم تسويتها باللجوء إلى المحاكم المختلطة .

وليس لدى حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا إلمام بتفاصيل أية ترتيبات قد يكون مستر كارتر توصل إليها مع الحكومة المصرية مع إضافة أن دار المندوب السامى يمكنها أن تقدم لمستر كارتر التأييد الممكن» .

* * *

وافق رامزى ماكدونالد على مذكرة وزارة الخارجية وبعث سكرتيره الخاص سلبى بالرسالة التالية إلى آلان جاردنر يوم ٢٣ من فبراير ١٩٢٤ ، بعد إغلاق المقبرة وإلغاء ترخيص التنقيب . قال :

«سيدى . . . .

علم وزير الخارجية رامزى ماكدونالد بمزيد الأسف أن مستر كارتر يواجه صعوبات فى حفائره فى مقابر الملوك كما أشرتم فى خطابكم .

ورغم أنه يقدر تماما أهمية عمل مستر كارتر فليس من الممكن أن تعلن حكومة صاحب الجلالة رأيا فى موضوع ليس لها فيه موقف رسمى ويعتبر مسألة بين الأفراد والحكومة المصرية» .

ولا يكتفى رئيس وزراء بريطانيا بالرد الرسمى الكتابى . .

إنه يجتمع بمدير المتحف البريطانى فى لندن ويطلب منه إبلاغ كارتر بالامتثال لرأى الحكومة المصرية والتفاوض معها .

إن رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت يسعى للتفاوض مع سعد زغلول . ولم يكن يرغب بأى حال من الأحوال فى إثارته .

وتكون نتيجة الأحاديث بين رئيس الوزراء البريطانى ورئيس المتحف البريطانى سلسلة من البرقيات بعث بها مدير المتحف البريطانى إلى كارتر عن طريق وزارة الخارجية البريطانية .

قالت البرقية الأولى :

«إلى البروفيسور نيوبرى : بعثة كارنارفون بالأقصر .

أطلب من مستر كارتر بناء على تعليمات من المستويات العليا وقف الإجراءات القانونية ، وأن يقوم بترتيبات ودية مع الحكومة المصرية» .

وقالت البرقية الثانية :

«إلى مستر كارتر بالأقصر :

عندى سبب قوى يدعونى لأتوجه إليك بالنصح بأن توقف الإجراءات القانونية ، وأن تتوصل إلى تسوية ودية مع الحكومة» .

* * *

لم يكن سعد زغلول أو وزارة الوفد يعرفون بالرسائل والبرقيات المتبادلة بين جاردنر ورامزى ماكدونالد ، أو بين رئيس وزراء بريطانيا ورئيس المتحف البريطانى فى لندن . . وبين هؤلاء جميعا وبين كارتر .

ولكن الحكومة المصرية كانت متمسكة بحقوق مصر ، لا يعنيها موقف بريطانيا .

ولم يكن كارتر يعرف حقيقة موقف الحكومة البريطانية ، وأنها لن تتدخل . .

وكان اللورد اللنبى يجهل ذلك أيضا .

وظل اللورد خلال الشهور الثلاثة الأخيرة يشير ـ تلميحًا ـ إلى أنه يؤيد كارتر وينصحه بمقاومة حكومة مصر. ولكن بعد أن عرف اللنبى أن رامزى ماكدونالد رئيس الوزراء يقف موقف المتفرج ابتعد المندوب السامى البريطانى عن كارتر ورفض لقاءه!

توجه كارتر للقاء نائب القنصل البريطانى فى القاهرة يحتج على سوء معاملة الحكومة المصرية ويطلب الحصول على نصف ما فى المقبرة.

قال نائب القنصل بعد نقاش طويل:

ـ لا تتوقع منا أية مساعدة.

احتد كارتر وفقد أعصابه فألقى مساعد القنصل بمحبرة فى وجهه.

نشرت صحيفة «الأهرام» أن كارتر باعتباره بريطانيا قدم إلى اللورد اللنبى المندوب السامى ـ احتجاجا على الحكومة المصرية لتعمدها تقييده بقيود ثقيلة وإهانته.

وقالت «الأهرام» إنها علمت من أوثق المصادر أن دار المندوب السامى البريطانى لا ترى لنفسها حق التدخل فى مسألة الخلاف بين كارتر والحكومة المصرية لأنها تعدها مسألة داخلية بحتة لا ينازع الحكومة المصرية منازع فى حلها والبت فيها.

ويبدو أن ما نشرته الأهرام كان موعزا به ومتعمدا.

إذا كانت الحكومة المصرية هى التى أوحت بنشره فإن الهدف منه أن يكون رسالة غير مباشرة إلى اللورد اللنبى بأن الخلاف موضوع داخلى لا شأن للإنجليز به.

وإذا كانت دار المندوب السامى هى التى طلبت النشر فإن الرسالة قد أبلغت بهذه الطريقة إلى سعد.

* * *

تدخل البروفسور بريستد للوساطة بين وزير الأشغال وكارتر.

أبدى الوزير استعداده لمنح ترخيص جديد لأرملة اللورد، بشرط أساسى وهو الاعتذار عن كلمة «لص» وتنازل عن حقها فى نصف الآثار.

وعرض الوزير شروطا جديدة وهى أن يكون لوزير الأشغال الرقابة والإشراف على جميع الأعمال فى وادى الملوك وأن يكون نشر أنباء الاكتشافات من حقوق الحكومة المصرية توزعها على الصحف بالتساوى.

وقال الوزير إنه بعد ذلك سيسمح لكارتر باستئناف العمل فى المقبرة.

قال ماكسويل لكارتر:

- ستحصل على شروط أفضل إذا تمت التسوية الودية بعيدا عن ساحة المحاكم وستكون امتيازاتك أكثر مما يمكنك الوصول إليه بالطريق القانونى.

وأضاف ماكسويل:

- إن تنازلك عن حقك فى نصف الآثار سيجعل صورتك أفضل أمام الرأى العام المصرى والعالمى لأنه سيثبت اهتمامك بالعلم لا بالحصول على حصة من آثار مصر. وسيجعل المحكمة المختلطة تتعاطف معك.

وستضطر الحكومة لأن تكون كريمة معك فى نهاية الأمر.

ولكن كارتر رفض.

ويبرق القائم بأعمال اللنبى إلى لندن:

«إذا استمر كارتر على رفضه فإن المفاوضات لن تنجح».

ويطلب القائم بأعمال اللنبى من الماجور جون استور صاحب جريدة «التايمس» إقناع أرملة اللورد كارنارفون بإرسال البرقية التالية إلى سعد زغلول:

«بعد معرفة دقيقة بطبيعة الموقف فإننى أقبل الامتياز الذى تعرضونه دولتكم على عودة كارتر إلى موقع العمل.

وأتمنى أن يتم سحب قضية كارتر من المحاكم».

ولكن كارتر يرفض مرة أخرى.

أرسل القائم بأعمال اللنبى إلى سلبى سكرتير رئيس وزراء بريطانيا قائلا:

«أبلغنى البروفيسور بريستد وزملاؤه أن كارتر أصيب بانهيار ووصلت خطورة

الأمر إلى أنه لا يمكن اعتباره مسئولا عقليا عن تصرفاته . ولا يستطيع اتخاذ القرار الذى يتطلبه الموقف» .

ويوافق كارتر على استمرار الوساطة .

* * *

كان هناك عامل ضغط على الوزارة المصرية وكارتر أيضا .

إن كارتر رفع غطاء التابوت ـ الذى يزن نحو طنين ـ وتركه معلقا بالحبال فى الهواء ويمكن أن يسقط فى أى وقت ليحطم التابوت والمومياء ويدمر أهم ما فى المقبرة .

ومن ناحية أخرى فإن الحكومة كانت قد دعت اللورد اللنبى وقرينته وعددا من أفراد الأسر المالكة فى أوروبا الذين وفدوا على مصر وبينهم الأمير فردريك ليوبولد ولى عهد بروسيا ـ ألمانيا ـ لزيارة المقبرة وكذلك بعض المسئولين .

وجاء إغلاق المقبرة ليجعل وزارة مصر فى موقف حرج .

طلب مرقص حنا وزير الأشغال إلى رجال متحف المتروبوليتان فى مصر استئناف العمل فى المقبرة فاعتذروا متضامنين مع كارتر .

ولم يكن رجال مصلحة الآثار مؤهلين لهذا العمل .

وكان مستحيلا على حكومة مصر التراجع والسماح لكارتر باستئناف العمل، ومن هنا نشأت فكرة منح أرملة اللورد ترخيصا جديدا .

أما الحل الثانى فهو تأجيل دعوة اللورد اللنبى وغيره .

ولم يكن أمام الحكومة المصرية إلا اقتحام المقبرة مع رجال الشرطة الذين حطموا السلاسل والباب الصلب الذى أقامه كارتر وأنزلوا غطاء التابوت بهدوء ووضعوه بجوار الجدار . . على ضوء الشمع وسط تنهدات ارتياح، رن صداها فى العالم الذى كان يتابع فى قلق كل ما يجرى داخل المقبرة الفرعونية ! !

واستقل اللورد اللنبى قطاره الخاص من القاهرة إلى الأقصر ترافقه قرينته .

واستقل باقى المدعوين قطارا آخر، واستقبله الناس على طول الطريق بالهتاف لمصر واستقلالها.

وأمضى اللورد الليلة فى القطار بينما نام فى القطار وفندق ونتر بالاس باقى المدعوين.

وزار الجميع المقبرة يوم ٦ مارس فقاطع الزيارة كل الأثريين الأجانب عدا فوكار رئيس البعثة الفرنسية. وعاد اللورد فورا إلى القاهرة ولم يشهد الحفل الذى أقيم بهذه المناسبة فى الفندق وتدفق نحو ٢٠٠٠ من المصريين والأجانب على المقبرة خلال الأيام العشرة التالية ثم أغلقت بعد ذلك.

* * *

وجاء دور وساطة الصحافة.

تدخل جيرالد ديلينى مراسل وكالة رويتر الإنجليزية للأنباء للوساطة بين الحكومة وكارتر.

وديلينى صديق لسعد زغلول توسط كثيرا بينه وبين الإنجليز. وهو صديق أيضا للوفد ومرقص حنا.

التقى ديلينى بمرقص حنا عدة مرات وحاول إقناعه بحل الأزمة بطريقة تحفظ للحكومة المصرية كرامتها.

ولكن ديلينى فشل أيضا.

* * *

استؤنفت جهود الوساطة بعد الحكم الابتدائى الذى أصدره القاضى كرابيتس.

قصد بريستد إلى منزل مرقص حنا وزير الأشغال ومعه ماكسويل المحامى الذى رافقه حتى الباب ثم انصرف.

قدم بريستد للوزير خطابا من كارتر يعتذر فيه عن كلمة «لص» التى نطق بها ماكسويل، ولكن الوزير انفجر ثائرا ضد ماكسويل قائلا:

ـ لقد اتهمنى ماكسويل مرة بالخيانة وطلب إعدامى، والآن يتهمنى باللصوصية،

ولمح الوزير شبح ابتسامة على وجه بريستد فسأله عن السبب.

قال بريستد :

ـ انظر خلفك ياسيدى الوزير .

تطلع الوزير فوجد صورة له ولزملائه بملابس السجن . . داخل السجن . وأضاف بريستد :

ـ معذرة سيدى الوزير . . أليس هؤلاء الذين أمامى فى الصورة يشبهون اللصوص ! . . انفجر الوزير ضاحكا وقال إنه مستعد لمنح أرملة اللورد ترخيصا جديدا وحدد موعدا ـ بعد يومين ـ لاجتماع آخر .

* * *

. . . جاء جيمس هنرى بريستد عالم الآثار الأمريكى للقاء الوزير ومعه مورتون هاول وزير الولايات المتحدة المفوض .

قال لهما وزير الأشغال :

* لابد أن يعتذر ماكسويل على كلمة لص .

* لابد أن يتنازل كارتر ـ كتابة ـ عن أى حق له فى اقتسام الآثار .

* لابد أن يتوقف كارتر نهائيا عن انتقاد الحكومة المصرية .

* لن يسمح لكارتر بدخول المقبرة إلا بعد الالتزام بهذه الشروط .

عاد العالم والدبلوماسى للقاء الوزير قائلين إنهما يقبلان هذه الشروط باسم كارتر . وعندما أبلغا الوزير بموافقة كارتر أجابهما قائلا :

ـ لقد استأنفت الحكم الابتدائى . . لننتظر حكم الاستئناف .

علق إدوار روبنصون مدير متحف المتروبوليتان على ذلك . قال لكارتر :

ـ لقد لعب بك المصريون ، وسقطت بين أيديهم .

وأدلى كارتر بحديث إلى الصحافة البريطانية قال فيه :

ـ ضحك المصريون على مورتون هاول وزير أمريكا المفوض وخدعوه أكثر من مرة .

* * *

كتبت نيويورك تايمس برقية بعث بها مراسلها فى القاهرة برادستريت قال فيها : «الدكتور مورتون هاول وزير الولايات المتحدة فى مصر نالته إساءة بالغة من الحكومة المصرية . وإذا لم تغض حكومة الولايات المتحدة النظر متحملة الذل والعار عن المسألة وتدعها دون أن يلاحظها أحد فإن عليها أن تقوم بعمل شديد ضد الحكومة المصرية» .

قرأ إيفانز هيوز وزير خارجية الولايات المتحدة هذه البرقية فلم يتدخل لصالح كارتر أو بريستد أو هاول بل بعث برسالة لائمة إلى مورتون هاول الوزير الأمريكى المفوض فى القاهرة .

وكان مورتون هاول جراحا فى الستين من عمره ، عين فى منصبه قبل عامين .

اضطر هاول للإدلاء بالبيان التالى إلى الصحفيين :

قال :

«علمت أن تلغرافا أرسل إلى أمريكا يقول إنى باعتبارى وزيرا مفوضا للحكومة الأمريكية تحملت إساءة من الحكومة المصرية .

ثم علمت أيضا أن هذا التلغراف يلمح إلى أنه إذا لم تغض حكومة الولايات المتحدة النظر عن «الإساءة» المزعومة وتدعها تمر دون أن يلاحظها أحد فإن الوسيلة الوحيدة التى أمامها هى اتخاذ عمل سياسى قوى ضد الحكومة المصرية .

وعلى ذلك أريد أن أقول إن حكومة الولايات المتحدة ليست «مشتبكة» بأى حال من الأحوال مع الحكومة المصرية فى نزاع يتعلق بمقبرة توت عنخ آمون أو بأية مسألة أخرى .

وقد استخدمت مساعى الطيبة بصفة غير رسمية لمساعدة الأستاذ بريستد وغيره للوصول إلى تسوية ودية وفض النزاع .

ولو كان الذين عليهم أن يهتموا بتسوية هذه القضية أكثر حزما وأعظم مسالمة فى خطتهم إزاء الحكومة المصرية لكانت المهمة التى ألقيت على عاتقى وعاتق الذين يشتغلون معى أسهل كثيرا مما هى الآن .

وأريد فى هذه الآونة أن أعرب عن تقديرى للمجاملة التى لقيتها من الحكومة المصرية.

ولا صحة للتهم الخطيرة التى عزاها الكاتب إلى الحكومة المصرية!

وقرر هاول الوزير الأمريكى المفوض نفض يده من المشكلة فتوجه إليه - فى بيته - القاضى كرابيتس الذى أصدر الحكم الابتدائى. وطلب منه أن يتحرك ولا يستسلم للإهانة ولا يخضع لوزير الأشغال المصرى.

وقدم العالم بريستد شكوى إلى شارلز إيفانز هيوز وزير خارجية أمريكا.

حاول كرابيتس إقناع هاول بالتدخل مرة أخرى فرفض وقال إنه مريض؛ فكتب إليه كرابيتس خطاب توبيخ شديد.. وطالبه بأن يتحرك حتى لا يظن المصريون أن استقلالهم يعنى السخرية بالأجانب.

واضطر هاول إلى أن يبعث إلى واشنطن قائلا فى برقيته رقم ٤٥٩ بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٢٤ :

«هذه الحالة تبين التغييرات السياسية فى مصر.

وقع هوارد كارتر فى خصومة مع السلطات المصرية بشأن إجراءات معينة فيما يتعلق بالمقبرة.

وكان عمل كارتر متعجلا للغاية، لا فى مصلحته، ولا فى صالح الإجراءات العلمية.

وإنى واثق أنه فى ظل حكومة يحيى إبراهيم كان مستر كارتر سيفوز بقضيته فليس هناك شك فى أن رئيس الوزراء - يحيى إبراهيم - كان يميل دائما للإصغاء للمقترحات البريطانية.

ومن ناحية أخرى أوضح سعد زغلول أنه مستعد للتنازل عن كل شىء لبريطانيا لصالح السلام. ومع ذلك ففى الموضوعات الأساسية المصرية، سيقف مدافعا عن الحقوق المصرية. كما فعل فى الماضى»!!

ولكن ما لم يعرفه الجميع، أن وزارة الخارجية الأمريكية رفضت التدخل تماما لأن كارتر بريطانى ولا مصلحة لواشنطن، على الإطلاق، أن تكون طرفا فى المشكلة!

فى المنفى

انهارت أعصاب كارتر .

نصحه زملاؤه من علماء الآثار الإنجليز والأمريكيين بقبول دعوة لإلقاء محاضرات فى الولايات المتحدة ليبتعد عن الأحداث فغادر مصر إلى لندن يوم ٢١ من مارس ، ومنها استقل الباخرة «بير نجيريا» إلى نيويورك .

وأمضى وقته فى عزلة داخل قمرته . وابتعد عن الركاب كلما صعد إلى سطح الباخرة .

وعندما رست به الباخرة إلى الشاطئ الأمريكى فى ٢٠ من إبريل كان قد اتخذ قراره .

رأى أن يسافر إلى الحبشة ، ينقب فى أعماق الأرض فى القارة السوداء بحثا عن حلقات مفقودة فى التاريخ .

وكان هدفه الانتقام من مصر بأن يجد جذورا للحضارة هناك ليثبت أنها الحضارة الأم التى انتقلت إلى وادى النيل وأرض دجلة والفرات !

* * *

قابل كارتر فى البيت الأبيض الرئيس الأمريكى كالفن كوليدج مرتين ، وألقى عدة محاضرات فى الولايات المتحدة وكندا عن المقبرة وما فيها .

أكد كارتر لكل من يسأله عن المقبرة أنه لا يشك إطلاقا فى عودته إليها . . ولكنه لا يستطيع أن يحدد الموعد بالضبط .

ولكن موقف كارتر كان يختلف تماما عن تصريحاته العلنية .

كان يرافقه أمريكى اسمه لى كيديك تولى تنظيم هذه الجولة والإشراف على ترتيب المحاضرات .

وصف كيديك حالة كارتر النفسية فى هذه البرقية :

«إنه لا يجد متعته الحقيقية إلا فى الجدل والنقاش حول أكثر الأشياء تفاهة حتى مع الأطفال الصغار ، وسائقى سيارات الأجرة ، وبوابى الفنادق ، وعمال عربات الطعام وموظفى التذاكر بمحطات السكك الحديدية وبائعات الزهور .

إن هؤلاء لا ينجون من تعليقاته المثيرة للأعصاب .

انتقد سائقى سيارات الأجرة لاستخدام «الفرامل» فجأة .

وانتقد الحمالين بالفنادق وموظفى الاستقبال لنقص تدريبهم .

لم يسلم مهندسو القطارات من لسانه السليط .

وعندما يبدأ رحلة طويلة ويتوقف القطار لسبب بسيط فإنه يذهب إلى السائق ويسأله قائلا :

ـ من علمك القيادة؟ هذه أسوأ رحلة بالقطار فى حياتى !

ويؤدى هذا التصرف إلى إثارة سخط السائق ويزيد متاعبنا خلال اليوم .

ولاحظ خلال إحدى الرحلات من مونتريال إلى أوتاوه فى كندا أنهم طلبوا من الزبائن أن يكتبوا ملاحظتهم عن الخدمة والأصناف على قائمة الطعام .

وكانت فرصة لكارتر .

انطلق يكتب انتقادات طفولية مثيرة للسخط حول نقص الخبرة لدى العاملين فى عربات الطعام وأنهم غير مؤهلين بالفطرة أو بالتدريب لمثل هذا العمل .

وكان سروره عظيما وهو يطوى البطاقة ويضعها فى ظرف ويرسلها إلى المقر الرئيسى للشركة صاحبة العربات» .

* * *

وفى وحدته فى ستاتلر فى «بافالو» كتب فى مذكراته :

«جميع الأنباء التى تلقيتها مؤسفة للغاية.

ولا أستطيع الموافقة على إجراء من شأنه إلحاق الضرر بالآخرين.

وسأكتفى بالتنازل عن حقوقى، مهما كانت، فى كنوز توت عنخ آمون.

وسأمتنع عن القيام بأية حفائر عن الآثار فى المستقبل. أقول ذلك بقلب كسير.

إنهم بعد سنوات طويلة من العمل يدعون لى أخطاء دون أن يذكروا حسنة واحدة يمكن بها معادلة الكفة».

* * *

لم تنس مصر آثار توت عنخ آمون.

وجه عبدالعزيز الصوفانى نائب الحزب الوطنى عن دائرة البحيرة استجوابا لمرقص حنا وزير الأشغال.

قال الاستجواب:

* هل يمكن معرفة الأعمال التى تمت بمقبرة توت عنخ آمون منذ تولتها وزارة الأشغال لحين إغلاقها.

* يشاع أنه كانت هناك مفاوضات لتجديد الرخصة الملغاة التى كانت معطاة لليدى كارنارفون، وألغيت، وأن المساعى أوقفت مؤقتا، فهل للوزير أن يفضى برأى للحكومة فى هذه المسألة؟

* هل قدمت طلبات حديثة باستمرار التنقيب فى قبر توت عنخ آمون.. وهل تنوى الحكومة إعطاء امتياز للبحث فى المقبرة إلى آخرين عدا الليدى كارنارفون إذا طلب منها ذلك؟

رد وزير الأشغال:

- حافظت الوزارة على المقبرة واتخذت بشأن ذلك جميع الأعمال الفنية والإدارية وترى الحكومة من الحكمة ألا تبدى تصريحا فى مسألة الوساطة الحاصلة الآن فى صدد القضية.

ولم تقدم للوزارة طلبات أخرى للبحث والتنقيب فى المقبرة .

ويعود الصوفانى يسأل وزير الأشغال :

- هل تنوى الحكومة أن تعرض على مجلس النواب أى اتفاق بشأن الحفر والتنقيب فى مقبرة توت عنخ آمون وتعرف رأى المجلس فيه .

رد مرقص حنا قائلا :

- الجواب بالنفى لأن القوانين الحالية تجعل إصدار الرخص من حقوق السلطة التنفيذية وحدها . وهى - فى هذا الموضوع - وزارة الأشغال وحدها . . دون سواها .

* * *

أدرك رامزى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها أن ما يجرى فى مصر ضد كارتر يمكن أن يتكرر فى دول أخرى كثيرة ؛ فيبرق إلى ممثلى بريطانيا فى كل مكان قائلا : «لفت انتباهى زيادة عدد محاولات الدول لاحتكار حق التنقيب عن الآثار وإلحاق الضرر بمصالح هيئات الآثار البريطانية وإبعادها فى هذا المجال .

ولذلك أطلب إبلاغى على الفور إذا علمت بأية محاولة تقوم بها هيئة أثرية أو فرد للحصول على مثل هذا الامتياز والاحتكار فى الدول التى تقيم فيها أو فى أية دولة أخرى» !

* * *

أبحر سعد زغلول من ميناء الإسكندرية يوم ٢٥ من يوليه ١٩٢٤ فى طريقه إلى لندن للتفاوض مع ماكدونالد على جلاء القوات البريطانية فى مصر .

وتوقف سعد فى باريس ثم توجه إلى لندن .

ويعود آلان جاردنر إلى محاولة ممارسة الضغوط .

كتب جاردنر إلى رامزى ماكدونالد يوم ١٢ من سبتمبر يطلب منه إثارة مشكلة كارتر ومقبرة توت عنخ آمون فى المحادثات مع سعد زغلول .

قالت رسالة جاردنر التى كتبها فى لندن .

«سيدى العزيز :

بالنظر إلى المحادثات القادمة مع سعد زغلول باشا ، فهل لى أن أتساءل عما إذا كنتم تميلون لاتخاذ خطوات لضمان إدارة مناسبة للآثار المصرية .

هذه الآثار يمكن اعتبارها تراثا للعالم المتحضر بأسره ، وينبغى توقع المطالبة بإدارتها من جانب مصر بشكل عام .

وكان الأثريون يرقبون بقلق متزايد الإدارة المعيبة للغاية من جانب هيئة الآثار . التى كانت تمضى من سيّئ إلى أسوأ خلال السنوات القليلة الماضية .

وقد اكتظ متحف القاهرة بما فيه .

وثلث ما فيه من آثار هى وحدها المسجلة رسميا .

ودائما كان عدد العاملين به غير كاف .

والخبراء الأوروبيون القلائل العاملون به تلقوا إخطارا بإنهاء عملهم عام ١٩٢٧ .

وفى مواجهة كل ذلك تمضى حملة نشيطة بتأييد من المدير الفرنسى لهيئة الآثار لفرض قيود مشددة على تصدير الآثار .

إن مبدأ المتاحف الذى أفاد التعليم فى أنحاء العالم فائدة قصوى يتطلب أن يكون ممكنا تكوين مجموعات ممثلة جيدة فى كل أنحاء العالم ، حيث يوجد طلاب وجمهور قادر على تقدير قيمة هذه الآثار .

وإنا نكاد أن نصاب باليأس ونحن نرى أنفسنا نواجه الدمار الكامل لاهتماماتنا الأثرية .

ونشعر بأن لنا شكوى حقيقية .

فى عام ١٩٠٤ عندما أبرمت بين فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية تتعلق بمصر والمغرب نصت مادتها الأولى على أن يكون مدير هيئة الآثار منذ ذلك الحين . . فرنسيا .

وقد تأكدت من مصدر جيد أنه ما كان ممكنا إبرام تلك الاتفاقية دون هذه المادة .

وهكذا تمت التضحية بالمصالح الأثرية من أجل سبب سياسى على نحو متعمد . وكان هذا الترتيب مصدرا لكل متاعبنا .

ولو كانت الإدارة الفرنسية تتسم بالكفاءة لما كان بمقدورنا أن نشكو ، فمدير فرنسى سيكون جيدا كأى مدير غيره . ولكن هيئة الآثار اتسمت بأقصى درجات عدم الكفاءة .

ومع مجىء المدير الجديد لاكو ، تدهور الوضع إلى الأسوأ ألف مرة . وفى الوقت الذى غادر فيه معظم الموظفين البريطانيين مصر ، أو يستعدون لمغادرتها ، يبقى لاكو ، ويسعى لتقوية وضعه عن طريق الرضوخ للمطالب ، غير الحكيمة ، وغير العلمية ، للمصريين أنفسهم .

إن المعاملة التى عومل بها كارتر الذى يعترف أعداؤه بأن عمله لم يوف قدره من الثناء كانت ضربة إلى العلم ، كنا نأمل ألا نعيش لنرى مثله» .

علقت وزارة الخارجية على طلب جاردنر بأن جدول الأعمال فى المباحثات يتضمن مسائل شائكة بما فيه الكفاية . ولا يوجد ما يدعو لإضافة هذا الموضوع .

ولكن جاردنر لا ييأس أبدا .

يكتب إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٠ من سبتمبر قائلا :

«أرجو أن تنقل إلى مستر رامزى ماكدونالد شكرى العميق لموافقته على الحديث مع زغلول باشا ـ إذا واتته الفرصة ـ حول الوضع المؤسف للآثار المصرية .

وقد وردت أخبار حول صعوبات وشيكة تؤدى إلى خسارة كبيرة فى الوقت والمال» .

وفى محاضر محادثات ماكدونالد وسعد زغلول لا نجد إشارة لموضوع الآثار فإن رئيس وزراء بريطانيا تجنب الحديث فى هذا الشأن!

استمرت المفاوضات بين رجال متحف متروبوليتان وبين مرقص حنا باشا وزير الأشغال حول السماح لكارتر باستئناف العمل .

ويصر مرقص باشا على ضرورة اعتذار كارتر عن كلمة لص .

قال رجال المتحف إن كارتر لم يوجه هذا الاتهام لحكومة مصر أو للوزير أو لشعب مصر . . بل تلك كلمة نطق بها ماكسويل المحامى فى مرافعته أمام المحكمة .

كما يطلب الوزير تعهدا من كارتر بأن يكون حسن السير والسلوك فى المستقبل .

ويجد رجال المتحف أن هذا الاعتراف يعنى ـ ضمنيا ـ أن كارتر لم يكن حسن السير أو السلوك .

ويقتنع رجال المتروبوليتان بأنهم لن يحصلوا على قطعة واحدة مكررة من آثار المقبرة ، وأن عقود التنقيب ستتغير إلى الأبد فى مصر ، وأن أقصى آمالهم الحصول لا على نصف الآثار التى ستكتشف فى المستقبل بل على قطعة واحدة من كل خمس قطع تكتشف . . بعد أن تختار المصلحة من الآثار . . ما تريد!

ويعلن كاتب مصرى فى نيويورك ـ بشارة نحاس ـ أنه التقى بكارتر الذى قال له أنه أصبح لا يأمل إلا فى ٢٪ فقط من القطع الأثرية .

ورغم ذلك يظل كارتر عنيدا . .

ألف كتيبا صغيرا عنوانه «مقبرة توت عنخ آمون . بيان بالمستندات عن الأحداث التى وقعت فى مصر فى شتاء عام ٢٣ـ٢٤ وأدت إلى الخلاف مع الحكومة المصرية» .

ولكن كبار المسئولين فى المتروبوليتان يقنعون كارتر بالعدول عن توزيعه لأنه سيؤدى إلى خلاف معهم . فهو يذيع كل اتصالاته بالمتحف ومناوراته ومؤامراته معهم . . كما أن هذا البيان سيجعل القطيعة نهائية وكاملة مع حكومة مصر .

وافق كارتر وأوقف طبع الكتيب .

ويقول مسئول المتحف لكارتر :

ـ لا فائدة إذا أردت العودة لمصر فليس أمامك إلا التنازل عن نصف الآثار .

* * *

عاد كارتر إلى إنجلترا مهزوما مكتئبا يملؤه الشعور بالمرارة.

ويتلقى رسالة من رئيس عماله فى الأقصر أحمد جرجار كتبت بلغة إنجليزية بسيطة حملت تمنيات بالصحة من العمال والخفراء!

وتسعد الرسالة كارتر فينشرها فى الجزء الأول من كتابه عن المقبرة.

قالت الرسالة:

«السيد المحترم هوارد كارتر:

أكتب إليك هذا الخطاب راجيا من الله أن تكون متمتعا بصحة جيدة وأسأل العناية الإلهية أن تحفظك وتعيدك سالما إلينا.

وأتشرف بإبلاغ سعادتكم أن المستودع رقم ١٥ على ما يرام. وأن المستودع الشمالى على ما يرام كذلك. وأن الوادى والبيت بخير. وأن جميع أوامركم تم تنفيذها طبقا لتعليماتكم الكريمة.

والريس حسين، وجاد حسن، وحسن عوض عبدالله أحمد، وجميع خفراء البيت يلتمسون إرسال أطيب تحياتهم.

مع احترامى إلى ذاتكم الكريمة وشوقنا لحضوركم السريع.

خادمكم المطيع

الرئيس أحمد جرجار

أثارت هذه الرسالة شجون كارتر وجعلت عقله يزحف بعيدا عن الحبشة وأفريقيا إلى وادى الملوك الذى أحبه، وإلى الفرعون الطفل الذى عثر على قبره.

أحس كارتر بالأمل..

كتب خطاب الاستسلام بلا قيد ولا شرط وبعث به إلى لاكو.

قال:

«أنا الموقع أدناه هوارد كارتر أقرر بصفة نهائية التنازل عن كل مطالبة أو ادعاء من أى نوع بالنسبة لمقبرة توت عنخ آمون والأشياء التى وجدت بها، وأوافق على قرار حكومة مصر بإلغاء الترخيص والنتائج التى ترتبت عليه.

وأعلن سحب كل الأعمال والقضايا وأخول ممثل الحكومة فى مصر أن يطلب ذلك من المحاكم» .

* * *

بعد عودته من الولايات المتحدة طلب كارتر من الأوصياء على تركة اللورد التنازل عن حقهم فى نصف الآثار فيرفض الجنرال مكسويل . ولكن أرملة اللورد كارنارفون توافق على التنازل .

فى ٢٣ من سبتمبر وجهت أرملة اللورد كارنارفون رسالة إلى مرقص حنا أعدها كارتر والسير جون ماكسويل تتضمن الموافقة على ما طلبه الوزير .

قالت الرسالة :

«درست بعناية شروط الامتياز الجديد المقترح الذى ناقشتموه بصفة خاصة مع مندوبى بالقاهرة والشروط كما تم الاتفاق عليها بصفة مبدئية مرضية لى ولوكيلى مستر هوارد كارتر والصعوبة الوحيدة الباقية هى تنازلى عن حقوقى أنا وكارتر والأوصياء فى القطع الأثرية التى عثر عليها فى المقبرة والتى كان من المفروض منحها لممثلى زوجى الراحل اعترافا بما أداه من أعمال ورغم أنى وكارتر مهتمان بالأمر إلا أننا فى الوقت نفسه مستعدان للتخلى عن مطالبنا .

ولكن للأوصياء على تركة اللورد كارنارفون رأى آخر .

وأحب أن أذكرك بأن زوجى الراحل ظل أكثر من عشر سنوات ينقب فى وادى الملوك وكان يقوم بهذا العمل عاما بعد آخر رغم العديد من المعوقات التى أصابته بخيبة الأمل .

وتم كل ذلك على نفقته مما كلفه أموالا طائلة قدرها كارتر بحوالى ٤٥ ألف جنيه إسترلينى .

وحتى اليوم فإن جميع الهيئات العلمية والأثرية حصلت على مكافآت ومنح كبيرة عندما عثرت على قطع أثرية ذات قيمة .

وكل ما يطالب به الأوصياء . أن يعاملوا على قدم المساواة مع تلك الهيئات .

وإنى لعاجزة عن التعبير عن أسفى الشديد لسوء التفاهم الذى وقع خلال موسم العمل فى الشتاء الماضى. ولكنى على يقين تام من أنك تتفق معى على أنه من مصلحة العلم أن يستمر العمل للتوصل إلى نتيجة سريعة على الأسس نفسها التى يجرى عليها الآن.

إن صديقى هوارد كارتر هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيام بهذا العمل على النحو المرضى الذى تنشده حكومتكم وأرغب فيه مع علماء الآثار والعالم كله بفضل مساعديه الأكفاء وإشراف الآثار التابعة لكم.

وعلاوة على ذلك أقترح أن يستكمل كارتر هذا العمل بناء على وصية اللورد الراحل التى عبر عنها قبل وفاته.

وآمل عدم إصراركم على تنازل الأوصياء على تركة اللورد.

وأرى الانتظار حتى يتم حصر المحتويات الفعلية للمقبرة.

وفى هذه الحالة يحال إلى التحكيم موضوع تحديد نصيب القائمين على وصية اللورد كارنارفون لنصوص الترخيص الأصلى.

وأقترح أن يتولى التحكيم اثنان من علماء الآثار المحايدين المعترف بمكانتهما العلمية.

وتقوم الحكومة بتعيين أحدهما بينما يعين الأوصياء العضو الآخر. مع ترك الحرية لهم لتعيين محكم إذا كان ذلك ضروريا.

وإذا كان من الممكن قبول هذا الاقتراح فيجب أن يستمر العمل فى المقبرة دون أى خلاف.

وعندما يجىء الوقت الملائم سيتم حل هذه المشكلة بالطرق العادية بين أشخاص لا همّ لهم سوى الوصول إلى تسوية عادلة. ترضى الجميع وتسعد دنيا العلم.. عامة».

* * *

وهكذا أصبح أمل كارتر الوحيد أن يسمح له بدخول مقبرة الملك، وترميم آثارها، ونقلها إلى القاهرة!

قال إدوار روبنصون مدير متحف المتروبوليتان :

ـ إنها مصادفات تعيسة قاتلة تلك التى تحيط بقبر توت عنخ آمون . إنها لعنة .

ولم يقل روبنصون إنها لعنة للحفاظ على آثار الملك . . . لمصر !

* * *

بعث جاردنر إلى سكرتير ماكدونالد يطلب التأييد والمساندة لمطالب الليدى كارنارفون . قال فى رسالة بتاريخ ٢٩ من سبتمبر :

«سلمت لسعد باشا رسالة موجهة إلى مرقص حنا باشا من الليدى المينا تقترح فيها السماح لهوارد كارتر بمواصلة وإنهاء العمل الذى بدأه بنجاح . ولكن تحت إشراف مصلحة الآثار بطبيعة الحال .

وعندما يتم ذلك ، تحصل دائرة اللورد كارنارفون على تعويض مالى منصف مقابل الـ٠٠٠ , ٤٥ جنيه إسترلينى التى أنفقتها على الحفائر فى مصر .

ولما كان الطرفان يرغبان فى تلافى الإجراءات القضائية بقدر الإمكان ، فقد أعربت عن أملى عند تسليمى الرسالة ، فى أن يوافق سعد على اقتراحات الليدى ، إذا كان ذلك ممكنا .

إن علماء المصريات سيرحبون بحماس بأية ترتيبات تهدف إلى فرض سيطرة دولية حقيقية على آثار مصر» .

وتفشل مفاوضات سعد ماكدونالد بشأن الجلاء بعد ٣ اجتماعات وكان مستحيلا أن تنجح فى موضوع الملك توت عنخ آمون وآثاره .

وعاد سعد إلى مصر يوم ٢٠ من أكتوبر والجمود يسود الموقف السياسى . . وعاد سكون الموت يغطى وادى الملوك .

* * *

وتدخل القدر مرة أخرى فى هذه القضية الغريبة .

استقالت وزارتا مصر وبريطانيا خلال شهر نوفمبر ١٩٢٤ بعد أن أمضت كل منهما فى الحكم ٩ شهور فحسب .

استقال رامزى ماكدونالد يوم ٣ من نوفمبر وتولى منصبه فى اليوم التالى ستانلى بولدوين زعيم حزب المحافظين .

وتولى وزارة الخارجية السير أوستين تشمبرلين .

واستقال سعد زغلول يوم ٢٤ من نوفمبر أيضا بعد أيام من اغتيال السردار السيرلى ستاك وتولى الوزارة أحمد زيور باشا فى اليوم نفسه .

* * *

كان زيور باشا فى الستين من عمره يتقن خمس لغات منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والتركية .

وهو من أصل قوقازى . تعلم فى المدرسة الفرنسية بالإسكندرية والجيزويت فى بيروت ودرس القانون فى فرنسا ، ثم انضم لسلك القضاء . وكان قاضيا بمحكمة الاستئناف الوطنية عندما اختير ليكون محافظا للإسكندرية .

عين وزيرا للأوقاف بوزارة حسين رشدى باشا فى ديسمبر عام ١٩١٧ وبقى وزيراً لوزارات مختلفة منذ ذلك الحين باستثناء ١٣ يوما فى أعقاب ثورة ١٩١٩ .

وعندما امتنع وزراء مصر عن العمل فى وزارة يوسف وهبى باشا كان زيور باشا هو الوزير الوحيد الذى توجه إلى مكتبه كالمعتاد !

وقد استقال من وزارة يحيى إبراهيم باشا ليعين وزيرا مفوضا لمصر فى روما .

واختاره سعد زغلول وزيرا بلا وزارة وتولى أعمال وزارة الخارجية فترة فى أثناء غياب وزيرها واصف بطرس غالى فى الخارج .

وبعد استقالة سعد زغلول اختاره الملك أحمد فؤاد ليكون رئيسا للوزارة ووزيرا للخارجية .

وهو رجل كسول يحب النكتة . لا يعادى أحدا وعندما سأله صحفى بريطانى عن ذلك قال :

ـ لماذا أهاجم خصما سياسيا . لدينا مشاكل بما فيه الكفاية .

يؤمن بالصداقة مع الإنجليز . ويرى أن مصر مدينة لبريطانيا بما حققته لمصر .

ويرى الإنجليز أنه بلا عاطفة وطنية . ويفضل الأجانب على المصريين .

وفى الكتاب الذى وجهه أحمد زيور للملك أحمد فؤاد يعلن فيه قبول رئاسة الوزارة تكلم عن ولائه لذات الملك العلية ولأسرته المجيدة . وقال :

«إنى لعلى بينة مما يحوط مهمتى من المشاق فى الظروف الحالية الصعبة» .

أعلن زيور باشا أن سياسته «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» فسر عبدالرحمن الرافعى ذلك أنه تسليم ما يمكن تسليمه .

فقد وافق زيور على سحب الجيش المصرى من السودان ، وطرد الموظفين المصريين منه وبذلك انفصل السودان عن مصر .

وسلم للإنجليز بكل ما طلبوه .

وبعث زيور إلى المندوب السامى البريطانى بعد أسبوع من تشكيل الوزارة يقول :

فوضنى مجلس الوزراء فى إبلاغ فخامتكم أن الحكومة قبلت شروطكم بأكملها مذعنة فى ذلك إلى حكم الضرورة ومدفوعة بالرغبة الأكيدة فى المسالمة .

* * *

وبقيت مسألة آثار توت عنخ آمون . .

ثار سؤال ضخم :

ـ هل تكون هذه الآثار هى كل ما يمكن لزيور إنقاذه؟

وتحين الفرصة لجاردنر فيطلب من وزير خارجية بريطانيا التدخل لدى وزير الأشغال المصرى الجديد .

علقت وزارة الخارجية البريطانية على مذكرة جاردنر بعد استقالة سعد ، فقالت إنها «تتعاطف مع البروفيسور ، ومتاعب علماء الآثار لأنها على أساس سليم ولكن الوزارة لا تستطيع أن تأخذها فى حساباتها عند تسوية المسائل مع الحكومة المصرية لأن بريطانيا لا يجب أن تبدى مظاهر الانتهازية»!

ويجد تشمبرلين أنه من المستحيل عليه التدخل، فإن مصر كلها تعرف أن أحمد زيور باشا قد استسلم تماما للإنجليز.

كتبت وزارة الخارجية البريطانية إلى جاردنر يوم ٢ من ديسمبر:

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تدرك الصعاب التى يعمل فى ظلها ـ أخيرا ـ علماء الآثار الإنجليز والأجانب. ولكن الحكومة لا ترى الوقت مناسبا لعرض الأمر على حكومة مصر»!

تابوت الذهب

عاد كارتر إلى مصر فى ١٥ من ديسمبر ١٩٢٤ بعد استقالة سعد والهزة النفسية العنيفة التى أصابت البلاد.

كان شعب مصر حائرا لا يدرى ماذا يفعل.

استقالت الحكومة التى ظن المصريون أنها ستجىء بالاستقلال التام، وسترغم الجيش البريطانى على الجلاء، وتطرد الموظفين البريطانيين، وتحد من نفوذ الملك.. فإذا بمصرع الرجل البريطانى الثانى فى مصر، بعد اللورد اللنبى، يضيع هذا كله، أو يعطى الفرصة لبريطانيا لتطيح بكل الآمال.

قصد جورج مرزباخ بك المحامى الذى اختارته الليدى المينا بدلا من ماكسويل المحامى الذى اتهم مرقص حنا بأنه «لص» إلى مقر المندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى يطلب التدخل.

قدم مذكرة قال فيها:

«إن مرقص حنا بك وزير الأشغال السابق عندما عرض منح ترخيص جديد لليدى المينا أصر على ضرورة تنازلها عن كل حق، أو مطالبة، بقطع أثرية.

وفى البداية رفضت الليدى لأن النفقات بلغت ٤٥ ألف جنيه تريد استردادها ولأن لها حقا فى نصف الآثار.

وقد سلم الجنرال السير جون ماكسويل إلى سكرتير سعد زغلول فى لندن فى سبتمبر ١٩٢٤ خطابا بتنازل الليدى كبداية لتسوية ودية، ولكن وزير الأشغال مرقص حنا ـ رغم ذلك ـ رفض منحها ترخيصا جديدا. وهى تريد الترخيص ومستعدة لاستكمال ترميم الآثار ونقلها على نفقتها..

وكل ما ترغب فيه اتفاقا يضمن مصلحة العلم وحقوق الحكومة المصرية، وحق أولئك الذين أنفقوا المال وأضاعوا سنوات من عمرهم للوصول إلى أروع اكتشاف في تاريخ الآثار المصرية».

ويقرر اللورد اللنبي التدخل الحذر دون حاجة إلى إبلاغ لندن، فلم تعد الأمور مع زيور باشا تحتاج إلى الرجوع إلى وزارة الخارجية البريطانية في كثير من الشئون!

* * *

ويلتقي كارتر بزيور باشا بعد ساعات من وصول كارتر.

بدأ رئيس وزراء مصر الحديث في موضوع آثار توت عنخ آمون.

تطوع زيور باشا بإدانة كل ما فعلته وزارة سعد زغلول ضد كارتر.

ووعد بأن يكون متعاطفا ومتعاونا.

وتمنى الوصول إلى اتفاق ودي بأقصى سرعة.

قال كارتر:

- لا أتمنى شيئا إلا العودة بسرعة إلى المقبرة. ولكن ليست لدى الوسائل لأبدأ العمل خلال يوم أو يومين. أعطني أسبوعين.

ويكتب كارتر إلى الجنرال السير ماكسويل مهللا بأن اتفق مع صديقه زيور باشا!

قال كارتر لمحاميه مرزباخ:

- أريد سحب خطاب التنازل عن نصف آثار الملك توت عنخ آمون.

بدا التردد على مرزباخ:

- لو فعلت ذلك الآن سيتكلمون كثيرا عن سوء نواياك.

ويضيف:

- إن حزب الوفد لم يعد قويا كما كان. ولكنه لا يزال قويا، بما فيه الكفاية، ليشن حملة ضارية ضد رئيس الوزراء بالنسبة للمقبرة.

ويحذر :

ـ لا تنس أن فى يد بيير لاكو خطاب التنازل الذى وقعته .

ويختم مرزباخ حديثه ناصحا :

ـ دع هذه النقطة الآن ولنحاول تغيير الموقف بالتدريج .

ويوافق كارتر ، عن اقتناع ، بأن رئيس وزراء مصر سيتنازل ـ حتما ـ عن بعض الآثار لأرملة اللورد كارنارفون والأوصياء على تركته حتى يواصلوا إخلاء المقبرة من الآثار والحفاظ عليها .

ويحث مرزباخ كارتر على الاتصال بدار المندوب السامى البريطانى فإنه سيؤيده بعد رحيل سعد .

وقال مرزباخ :

ـ دع دار المندوب السامى تؤكد أنها تساندك للأغراض العلمية الأثرية وحدها .

* * *

أسرع كارتر فى اليوم التالى ـ ١٦ من ديسمبر ـ إلى دار المندوب السامى البريطانى ليلتقى بالمستشار الشرقى الجديد والترسمارت الذى يعرف العربية وبقى فى مصر ٢٤ سنة . وكان له نفوذ ضخم على رؤساء الوزراء والوزراء المصريين .

طلب منه سمارت ألا يعطى احتكارا صحفيا لأحد حتى يضمن صداقة الصحافة ، أو على الأقل صمتها ، بعد أن ظل يستمتع بعدائها زمنا طويلا .

وأصر سمارت على أن يكون هذا أحد شروط العقد الجديد .

وافق كارتر على الفور . وعرف بعد أيام قليلة أن اللورد اللنبى تعهد بإلقاء ثقله السياسى كله وراء كارتر فى المفاوضات القادمة بين الأثرى وحكومة مصر .

إن اللورد اللنبى وجد أن إعادة افتتاح المقبرة تدل على تحسين العلاقات بين مصر وبريطانيا ، وتخفف انتقادات العالم للإنجليز بعد تدخلهم العسكرى السافر فى مصر ضد سعد زغلول وحكومته ، وتدفع السياح للقدوم إلى مصر وتنعش فنادقها وتجارتها .

وقال سمارت لكارتر :

ـ اللورد يريد فتح المقبرة فورا للسياح .

ويضطر كارتر الذى يعارض زيارة السياح للمقبرة إلى الموافقة الفورية !

* * *

ويلتقى كارتر مرة أخرى برئيس الوزراء فيثير على الفور قضية اقتسام الآثار مناصفة بأسلوب ذكى .

قال :

ـ لندع جانبا فى الوقت الحاضر مسألة الحصول على الآثار المكررة حتى يتم إخلاء المقبرة .

أجاب رئيس الوزراء :

ـ سيعامل المكتشف بالعدل ، فإن القانون المدنى المصرى يحمى حقوقه فى نصف الآثار أو قيمتها المالية .

يخفى كارتر سعادته قائلا :

ـ يسعدنى الاجتماع بوزير الأشغال الجديد بحضور المحامى مرزباخ بك .

قال رئيس الوزراء :

ـ أفضل أن تكتب لى خطابا رسميا يتضمن كل التفاصيل .

ويستدعى رئيس الوزراء ، كارتر ، للقائه سرا فى نادى محمد على يوم ٤ من يناير ١٩٢٥ .

قال له :

ـ أريد أن نتفاهم أولا .

وفى رقة بالغة ، ونعومة أضاف رئيس الوزراء :

ـ كل شىء سيسير طبقا للخطة الموضوعة . وتستطيع أن تبدأ العمل فى المقبرة فورا ولكن هناك نقطة واحدة صغيرة تقف عقبة بيننا .

إن مصلحة الآثار ترفض النقاش معك إلا إذا أعلنت أنت ، من ناحيتك ، وكذلك الأوصياء على تركة اللورد تنازلكم كتابة عن أى حق لكم من الآثار أو فى الحصول على النسخ المكررة منها ، كما تتعهدون بعدم رفع الأمر إلى القضاء .

لم يصدق كارتر ما يسمعه بينما أضاف رئيس الوزراء قائلا :

ـ هل هناك اعتراض على هذه المسألة البسيطة ، وتقديم هذا الإقرار؟

رأى زيور الشحوب يغطى وجه كارتر فأراد التخفيف عنه قائلا :

ـ سنكون كرماء مع الأرملة ، والأوصياء ، وسنعطيهم بعض الآثار المكررة التى لا تخل بمجموعة المتحف المصرى .

ـ أراد كارتر أن «يحدث صديقه» رئيس وزراء مصر عن القانون المدنى المصرى الذى قال زيور باشا قبل أيام إنه يحمى حقوقه .

وأراد أن يتكلم عن السنوات الطويلة من التنقيب اليائس دون الوصول إلى قطعة أثرية واحدة .

وأراد أن يصف عجز الأثريين الفرنسيين عن ترميم تلك الآثار .

ولكن صلف كارتر منعه من التوسل والرجاء .

كل ما فعله فى ذلك اللقاء فى نادى محمد على يوم ٤ من يناير أنه هز رأسه موافقا . . فى استسلام تام . . فقد وجد الأثرى البريطانى أن زيور باشا رأى ألا يخوض أزمة ، أو معركة سياسية ، بشأن مقبرة فرعون مصرى قديم!

* * *

وبعقد اجتماع لوضع اللمسات الأخيرة للاتفاق .

جاء كارتر مع مرزباخ بك .

وحضر محمود صدقى بك وزير الأشغال وعبدالحميد بدوى باشا رئيس قلم قضايا الحكومة وبيير لاكو مدير عام مصلحة الآثار وفوكار رئيس البعثة الفرنسية للتنقيب عن آثار مصر .

كان بين الحاضرين أقوى وزراء حكومة زيور . . إسماعيل صدقى باشا وزير داخلية مصر .

ويسفر الاجتماع عن ضرورة التنازل عن نصف الآثار . .

ويناضل مرزباخ بك فيوافق الحاضرون على توجيه خطاب من وزير الأشغال تتعهد فيه حكومة مصر بمنح بعض النسخ المكررة من الآثار بعد استكمال العمل!

* * *

كتب محمود صدقى بك وزير الأشغال إلى كارتر يوم ١٣ من يناير ١٩٢٥ .

«نظرا لرغبتى الصادقة فى استمرار هذا العمل فليس لدى اعتراض على منح التصريح بشرط واحد، وهو أن تتنازل المينا أرملة كارنارفون عن القضايا الخاصة بمقبرة توت عنخ آمون والقضايا الناشئة عنها بما فيها إلغاء امتياز التنقيب والإجراءات التى اتخذتها الحكومة نتيجة لهذا الإلغاء .

والحكومة إذ تقدم شكرها لهذا الاكتشاف العظيم فإنها ترى عدم الاعتراف بالتزام أيا كان نوعه فيما يتعلق بالقطع الأثرية التى عثر عليها فى المقبرة .

والحكومة إذ تقرر عدم التزامها بشىء بالنسبة لما وجد فى المقبرة فإنها بناء على رأى مستر لاكو عقب الاكتشاف مباشرة تقترح ـ من تلقاء نفسها ـ أن تمنح المينا أرملة كارنارفون حق اختيار بعض النسخ المكررة من الآثار بشرط ألا يؤدى ذلك إلى تقسيم المجموعة والإضرار بالعلم» .

وهكذا أصبح التنازل عن نصف الآثار شرطا للترخيص بعودة كارتر إلى المقبرة!

ولم تحصل الأرملة إلا على مجرد وعد من وزير الأشغال المصرى بمنحها بعض النسخ المكررة من الآثار!

وبعد هذه الالتزامات والتعهدات كلها منح محمود صدقى بك وزير الأشغال الليدى كارنارفون امتيازا جديداً للحفر لمدة عام يبدأ من ذلك اليوم ١٣ من يناير ١٩٢٥ .

كتب كارتر إلى الجنرال السير جون ماكسويل يصف ما جرى قائلا :

«أصبحت مقتنعا تماما بصدق كلمات الشاعر الألمانى جوته عندما قال :

(الماضى هَش . تحسسه برهبة كما لو كان حديدا ساخنا) .

ولم يقل كارتر لماكسويل إن زيور باشا كان صادقا تماما عندما وعد بإنقاذ ما يمكن إنقاذه» .

إن كل ما أنقذه زيور لمصر . . آثارتوت عنخ آمون!

* * *

قال اللورد اللنبى لكارتر :

ـ أرجوك ساعد بيير لاكو فى تفريغ الصناديق المعبأة بآثار المقبرة التى نقلت من الأقصر حتى يشاهدها السياح .

ويوافق كارتر . . مرغما .

ويكتشف كارتر أن بعض الحلى الذهبية قد تغير لونها .

وظهرت الشقوق فى بعض القطع الخشبية فيستدعى مجموعة من الخبراء ، بينهم لوكاس ، وألكسندر سكوت مدير الأبحاث العلمية بالمتحف البريطانى ، والدكتور دوجلاس ديرى أستاذ التشريح بكلية طب القصر العينى والدكتور صالح حمدى عميد الكلية السابق ومدير الصحة بالقومسيون البلدى بالإسكندرية .

* * *

ويصل كارتر إلى وادى الملوك يوم ٢٥ من يناير فيتسلم نسخة من مفاتيح المقبرة .

ولم يجتمع الناس فى الأقصر ، كما كان الحال فيما مضى ، لحضور افتتاح المقبرة فى العاشرة صباحا .

وحضر عدد محدود من المسئولين . . عبد الحميد بدوى باشا المستشار الملكى رئيس قلم قضايا الحكومة ممثلا للحكومة المصرية وعثمان بك حمزة مدير قنا وكويبل

نائب مدير مصلحة الآثار وتوفيق بولس أفندى وإبراهيم حبيب أفندى عن مصلحة الآثار ومأمور الأقصر وبعض الموظفين.

وكان مع كارتر محاميه مرزباخ بك.

فُضت أقفال المقبرة وحرر محضر بفتحها ودخل الجميع دون احتفال. فلم يكن كارتر منتصرا، فإن التجربة كانت قاسية بالنسبة له.

أدرك أن المقبرة لم تعد ملكا له وأن عليه فقط أن يتم مهمته، أو رسالته.

ولكن الجميع كانوا سعداء لأن خيوط المشكلة قد حلت، وأن المجال فتح من جديد أمام كارتر مكتشف المقبرة ليستكمل العمل الذى سيقترن باسمه إلى الأبد.

وأدرك العدد المحدود من السياح أن فتح المقبرة يعتبر مقدمة لإسدال الستار على المسرحية التى هزت العالم.

وأمل البعض فى أنه قد تكون هناك كنوز أخرى أكثر فتنة مدفونة داخل هذه المقبرة فى انتظار حضور من يستخرجها.

وإذا كان موسما الشتاء الماضيان قد شهدا سلسلة متصاعدة من الأحداث المثيرة فإن ذروة هذه الأحداث قد تكون فى ذلك الفصل الذى يبدأ.. أمام العيون المترقبة!

لم تكن مصر متسامحة مع كارتر فإن الجميع كانوا يعرفون أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع استكمال مهمته والعمل الشاق الذى ينتظره.

ولم يكن كارتر قديسا ليقدم هذا الجهد مقابل المكافأة المالية التى حددتها له الحكومة المصرية بل إنه كان ينتهز الفرصة - على حد تعبير هربرت وينلوك ممثل متحف المتروبوليتان - «ليلتقط لنفسه بعض القطع من المقبرة».

* * *

وتستمر عملية تصوير وتسجيل وترميم ونقل الآثار من الأقصر إلى المتحف المصرى.

وتستغرق عملية «تقشير» الضريح ٨٥ يوما، فقد وجد كارتر فى النهاية أن المومياء كانت داخل ثلاثة توابيت كل منها مغشى بالذهب ومطعم بالزجاج الملون الذى يصور الإلهات الحامية.

وعبر كارتر عن مشاعره قائلا :

«انقضت عشر سنوات منذ اضطلعت أنا واللورد كارنارفون ، فى مواجهة رأى قوى معاكس ، بالبحث عن الملك المفقود .

وكنت على ثقة من أنه لا يزال مدفونا فى الوادى .

وكانت هذه السنوات العشر تعبا وكدا .

وقد تحققت آمالنا وتجاوزت النتائج توقعاتنا .

وللمرة الأولى فى تاريخ علم الآثار المصرية استطعنا أن نكتشف بالضبط كيف دفن فرعون مصرى .

إن عملنا كان قاصرا على غرفة الدفن ، وداخل الأبواب الأولى للضريح العظيم فى أرض لم يمسها أحد مطلقا .

والآن ، رغم أن اللصوص أشاعوا الفوضى فى العاديات بحثا عما يستطيعون نهبه ، كانت داخل الضريح العظيم كل الأختام الأصلية على الأبواب ، مما يوضح أنه ما من أحد دخلها منذ دفن الملك .

وعندئذ ، ومن خلال حظ طيب ، عثرنا آخر الأمر ، على ما كنا نسعى إليه ولم نحلم به ـ المعرفة الكاملة بالطقوس الجنائزية المتبعة فى دفن ملك مصرى .

وهذا المشهد وحده أقوى من أى شىء .

وللمرة الأولى ، تلقى أعيننا الحديثة بصرها على عمل كامل لأناس أنجزوه منذ ثلاثة آلاف عام وفقا لطقوس الديانة السائدة فى ذلك الحين . .

إن التابوت ، الذى يتسم بالضخامة على غير العادة هو قطعة رائعة من نوعه .

وكلما نظر المرء إلى سطحه الوردى الذى لم تمسه يد ، بزينته الرقيقة دون ادعاء ، كلما أدرك المرء مدى قيمة الإضافة التى يشكلها لآثار مصر القديمة .

إن تأمل هذا العمل الرائع يتيح متعة لا حدود لها . ومع فتح الأبواب المبطنة للمقبرة واحداً بعد الآخر ، فإنه يبدو مثل جوهرة مخزونة داخل سلسلة من الخزائن الذهبية . . . » .

* * *

كان التابوت الثالث الداخلى من الذهب الخالص طوله ٦ أقدام وبوصة وثلاثة أرباع بوصة، وسمكه بين ملليمترين ونصف، وثلاثة ملليمترات ونصف، ويزن ٢٤٤٨ رطلا وثُمن الرطل.

ولا يمكن تقدير قيمة هذا التابوت على أساس سعر الذهب فحسب، وإلا كان حساب أسعار لوحات الفنانين على أساس ما فيها من قماش وألوان!

قال العالم بريستد:

«كان التابوت الثالث والأخير المصنوع من الذهب الحقيقى لدرجة أن أربعة رجال استطاعوا حمله بصعوبة، وكان غطاء هذا التابوت يمثل الملك فى جميع رموزه وشعاراته الملكية».

ووجد كارتر طفلين حديثى الولادة محنطين لم يعرف ما إذا كانا ابنى الملك أم لا، فإن الأطفال حديثى الولادة يدفنون عادة مع أمهم لا مع أبيهم، وإن كان قبر عنخسن آمون لم يكتشف بعد!

وجدت خصلة من شعر الملكة تى، زوجة أمنحتب الثالث وجده عنخسن آمون محفوظة فى تابوت صغير داخل ثلاثة توابيت خشبية صغيرة «ومعها تمثال ذهبى للملك أمنحتب الثالث».

* * *

فى أكتوبر عام ١٩٢٥ نقل التابوت الداخلى إلى قبر سيتى الأول - الذى أطلق عليه الورشة، ليفحص المومياء أستاذ علم التشريح الدكتور أرشبيالد دوجلاس ديرى - البريطانى بكلية الطب بالجامعة المصرية والدكتور صالح بك حمدى مدير الصحة بالقومسيون البلدى بالإسكندرية.

حاول كارتر والدكتور ديرى والدكتور صالح حمدى إخراج المومياء من التابوت. ولكن تبين أنها التصقت به لكثرة ما وضع به من الصمغ والزيوت، والعطور، والخمور، ومادة تشبه القار أيضا عند إجراء مراسم الجنازة، ساعة دفن الملك.

ووجد الأطباء أن اللفائف أصيبت بعطب فوضعوا عليها طبقة خفيفة من زيت البرافين وقام الدكتور ديرى بشق الأكفان بعناية .

واستمرت هذه العملية أسبوعين .

ومع كل مرحلة من مراحل إزالة الأكفان كان يصدر بلاغ رسمى من وزارة الأشغال يعلن عن المجوهرات التى اكتشفت فى الأكفان وملاصقة لجسد صاحب الجلالة . وهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام :

التمائم والزخارف الملكية ، والحلى الشخصية وعددها ١٤٣ قطعة مجوهرات و٢١ تعويذة .

قال البلاغ :

«إن الذوق السليم الذى تشهد به دقة صناعة هذه الأشياء تجعلها فى مصاف أجمل القطع المعروفة للآن من صياغة الذهب المصرية وهى :

على الرأس : التاج الملكى وعليه شعار الملك وهو النسر والثعبان المقدس .

حول العنق : تمائم تمثل الآلهة .

على الصدر : عدد كبير من الصدريات بين كبيرة وصغيرة تتخللها تمائم مختلفة وجميع ذلك مكون من ست عشرة طبقة .

وبعض هذه الصدريات تحتوى على مئات كثيرة من قطع الذهب المطعمة بالفصوص والتى يتعين فكها جميعا وتنظيفها ثم إعادة تركيبها .

على الذراعين : أحد عشر سوارا نفيسا .

بالقرب من اليدين : ثلاثة عشر خاتما من معادن مختلفة .

حول الوسط : حزامان معلق على كل منهما خنجر ذو صنع جميل .

بين الساقين : المئزر الملكى المصنوع من الذهب المرصع .

فى القدمين : حذاء (صندل) جنائزى من الذهب .

وكل إبهام من القدمين وكذا كل أصبع من أصابع اليدين ملبس بغمد من الذهب .

وعدا هذا كله اكتشف عدد كبير من التمائم التى كانت مخصصة للمحافظة على الملك فى رحلته إلى العالم الآخر.

والقناع الذهبى الذى يغطى الرأس وكتفى الجثمان بالحجم الطبيعى صنع من الذهب المطروق وهو ذو قيمة فنية عظيمة من الوجهة الفنية ويمثل تماما صورة الملك الشاب.

قال الدكتور ديرى إن صورة توت عنخ آمون على القناع الذهبى تعرضه كشاب حساس ورقيق. والذين حظوا بميزة مشاهدة وجهه الحقيقى عندما كشف النقاب عنه هم الذين يستطيعون أن يدلوا بشهادتهم فى مدى قدرة ودقة فنان الأسرة الثامنة عشرة الذى عبر فى القناع عن ملامح الملك الشاب وجسدها فى صورة جميلة ستظل خالدة على العصور.

بدأ فحص المومياء فى الساعة العاشرة إلا الربع من صباح ١١ من نوفمبر ١٩٢٥ بحضور سبعة من المسئولين وهم صالح عنان باشا وكيل وزارة الأشغال، وبيير لاكو مدير مصلحة الآثار وسيد فؤاد الخولى بك مدير قنا، وألفريد لوكاس مدير معامل الكيمياء بمصلحة الآثار، وتوفيق بولس أفندى كبير مفتشى الآثار بالوجه القبلى وحامد سليمان أفندى الأمين المساعد بالمتحف المصرى.

استولت الدهشة على الجميع عندما وقع نظرهم على المومياء مضجعة فى تابوتها الذهبى الباهر والتقط صور الفحص والمومياء هارى بيرتون.

وكانت هذه أول مرة فى مصر يجرى فحص طبى لمومياء مضى على الوفاة أكثر من ٣٠٠٠ عام.

قال تقرير الأطباء:

«عندما شوهدت جثة الملك لأول مرة وجد أنها ملتصقة بشدة بقاع التابوت الذهبى.

وكان القناع الذى يصل إلى الجزء العلوى من الصدر ملتصقا أيضا بالتابوت وبالجثة (المومياء) ولهذا السبب كان يستحيل انتزاع الجثة.

ولقد نظر فى استعمال أشعة (إكس) إلا أنه للأسباب السابقة، ووجود طبقات

عديدة من أشياء من ذهب وغيره التى كانت تغطى الجثة تماما لغاية الركبتين، رُئى من العبث استعمال هذه الأشعة.

ولوحظ شبه احتراق فجائى أتلف الأربطة. وكان سببا فى أن جلد الجسم والأنسجة التى تليه أصبحت رقيقة جدا وسريعة العطب.

ونتج عن ذلك أن بعض المفاصل كانت ظاهرة للعيان فتيسر تقدير عمر الملك عند وفاته بأرجحية كبرى بحوالى ثمانى عشرة سنة وظهر بكل تأكيد أن الهيكل العظمى كان ضعيفا.

وعندما ظهرت تقاطيع الوجه ثبتت صحة الرأى السائد القائل بأن التماثيل والرسومات التى تمثل الملك كانت فى الواقع صورا حقيقية له».

* * *

بقيت مومياء الملك فى قبر سيتى الأول - أو «الورشة» - واستمر كارتر مع مساعديه يصور ويسجل آثار الغرفتين الباقيتين، وهما الكنز والملحق، بعد أن انتهى من الغرفة الخارجية وغرفة المدفن.

ضمت الغرفتان أيضا كثيرا من عجائب الآثار.

كان يحمى مدخل غرفة الكنز تمثال أنوبيس الرابض فوق ناووس مغشى بالذهب ومرتكز على عمودين طويلين مصنوعين من الخشب. وعلى كل جانب من جوانب المقصورة تماثيل لإلهات أربع بسطن أذرعهن لحماية صندوق أحشاء الملك!

ووجدت تماثيل صغيرة مغشاة بالذهب تمثل الملك يؤدى طقوسا وأساطير خاصة بالحياة فى العالم الآخر، وتماثيل أخرى لعدد من الآلهة المصرية لها قوة سحرية تساعد الملك فى حياته الثانية.

ووجدت نماذج مراكب للانتقال بها، ونماذج لصناعة الخبز ولتوفير وسائل صنع الطعام بعد أن تستهلك قطع اللحوم والقرابين الأخرى التى وضعت فى المقبرة.

* * *

ولكن اللصوص القدامى وجدوا طريقهم إلى هذه الغرفة وسرقوا صناديق الجواهر المصنوعة من الخشب والعاج الرقيقة.

ولكن معظم الكنوز نجت من عبثهم، فوجد عدد كبير من تماثيل الملك موضوعة داخل صناديق كانت مخزنة فى هذه الغرفة وفى الغرفة الملحقة.

* * *

تجدد الهجوم على كارتر بعد فحص المومياء بالأشعة.

نشر اثنا سيوس بقطر - من أسيوط - الذى أعلن من قبل أنه حفيد توت عنخ آمون فى صحيفة المقطم:

«لفت نظرى الأعمال الجارية الآن فى مقبرة جدى العظيم توت عنخ آمون. وكيف أنهم نزعوا اللفائف والأربطة عن جثته المقدسة وكشفوا للملأ جسمه الملكى بعد أن لبث مستورا أربعين قرنا من الزمان.

واعترتنى رجفة الاستفظاع وقشعريرة الارتياع لهذا العمل الشائن الذى دنس قبر ملك عظيم كان يحكم أمة عظيمة بل أعظم الأمم فى ذلك الزمان.

فبصفتى حفيد توت عنخ آمون ملك مصر، وكمصرى يغار على سمعة آبائه وأجداده أحتج إلى أولى الأمر فى مصر بوجه خاص والعالم المتمدين بوجه عام على خرق حرمة الأموات وتدنيس قبورهم. ونحن فى القرن العشرين عصر المدنية والحضارة.

وأرى من الواجب أن أنذر المسئولين عن هذه الأعمال بسوء العقبى وبؤس المصير كما اتضح لى من قراءة ورق البردى الموجود عندى.

وألتمس من جلالة ملك مصر أن يصدر أمره الكريم بالكف عما يجرى اليوم فى وادى الملوك باحترام جثة ملك عظيم كان يجلس على عرش مصر».

* * *

اشتدت حملة صحف القاهرة على الاعتداء على حرمة الأموات.

وكان أعنف الهجوم على كارتر من لندن ونيويورك.

قالت إحدى الرسائل التى نشرتها صحيفة «التايمس» التى تدافع دواما عن كارتر:

«استوفى العلم والآثار حقهما فى المقبرة. ولكن من الواجب إعادة الفرعون إلى مقبرته التى دفن فيها وسط الصلوات والدموع».

وقال الكاتب البريطانى السير رايدر هاجارد مؤلف رواية «هى» التى تجرى أحداثها فى أجواء مماثلة:

«يبدو أن قدر فرعون أن يبقى نصف عار يتعفن فى متحف القاهرة، إنها فضيحة».

وكتب أحد رجال الدين من بلتيمور فى الولايات المتحدة:

«ليس هذا هو التنقيب الأثرى. من حق فرعون مصر أن يبقى فى مرقده كما أراد».

وقالت صحيفة «فيليدجر» فى نيويورك:

«أى حق يسمح لكارتر إخلاء مقبرة أعدها إنسان لتكون مرقده الأخير خاصة وأن قدامى المصريين كانوا يخافون من الحياة الثانية، بعد الموت».

وفى لندن تقدم عضو فى مجلس العموم - هاله استنكار الصحافة للاعتداء على حرمة الموتى - يطلب إلى الحكومة استعمال نفوذها لإعادة مومياء توت عنخ آمون إلى المقبرة.

أجاب رونالد ماك نيل وكيل وزارة الخارجية البرلمانى بأن هذه مسألة داخلية تخص حكومة مصر!

وقال عضو آخر هو وليم ليش لرئيس الوزراء:

«لو أنك تلقيت أى طلب من مواطنين مصريين بالسماح لهم بالتنقيب فى مقابر الملوك والملكات البريطانيين فى كنيسة ويستمنستر وغيرها. ولو أن المتحف البريطانى تعهد بتسليم المصريين رفات وتوابيت وجثث هؤلاء الملوك. وإذا تم تلقى الطلبات فأى رد تقترح أن يقدم لهم؟».

قرر رئيس مجلس العموم استبعاد السؤال من محضر الجلسة!

ونشر مراسل التايمس فى القاهرة مقارنة صاعقة بين جسد الفرعون وجسد الملكة فيكتوريا الراحلة: قال:

«أتساءل كم منا ممن ولدوا وشبوا فى العصر الفيكتورى يحبون أن يتصوروا أنه فى عام٥٩٢٣ (ميلادية) مثلا يقوم فريق من الأجانب بالإغارة على قبر الملكة فيكتوريا ونهب محتوياته. وينتزعون جسد الملكة العظيمة من الضريح الذى وضعت به وسط حزن الشعب بأكمله ويقومون بعرضه لكل من قد يرغب فى رؤيته؟ هذا السؤال يثور لأننا ينبغى أن نعتبر هذا التصرف غير اللائق فى حالة الملكة الإنجليزية العظيمة غير لائق أيضا فى حالة الملك توت عنخ آمون».

رأى ملك بريطانيا حرجا فيما يجرى أمامه.

نشرت صحيفة «نيويورك ورلد» أن الملك جورج بعث إلى الحكومة المصرية يقول إنه يأمل ألا تنقل مومياء الفرعون إلى المتحف المصرى.

ولكن صحافة مصر ضاقت بتدخل ملك بريطانيا فى شئون ملك مصر الحى ـ أحمد فؤاد ـ وملك مصر الراحل قبل ثلاثة آلاف سنة توت عنخ آمون.

ودافعت صحيفة «النيويورك تايمس» عن ملك بريطانيا بأنه أبدى رغبة مثل أى إنسان آخر، وأن انتهاك القبر تم ولابد من إتمام العمل حتى النهاية.

* * *

ولكن قضية نقل مومياء توت عنخ آمون لفحصها لم تعد مقصورة على الملوك والصحافة ورجال الدين.

إن حفارى القبور «وحانوتية» أمريكا رأوا التدخل!

فرانك كامبل أكبر حانوتية نيويورك كتب يقول:

«لن يسعد أحد إذا عرضت مومياوات جورج واشنطن وإبراهام لنكولن ـ رئيس جمهورية أمريكا ـ فى متحف عام. ومما يثير الغضب أن يقع شىء مماثل لبقايا توت عنخ آمون».

وفى اجتماع لجمعية التحنيط مضى كامبل خطوة أبعد. قال:

«إن المومياوات المصرية التى توجد فى متاحفنا يجب أن تعود إلى القبور التى جاءت منها.. لتدفن فيها».

وهذه هى الدعوة نفسها التى أطلقها الرئيس المصرى أنور السادات بعد ذلك بأكثر من ستين عاما، دعا فى خطاب عام إلى إعادة دفن الفراعنة «المعروضين» فى مصر!

ظهر السير جون ماكسويل القائد البريطانى العام السابق فى مصر، وأحد الأوصياء على تركة اللورد كارنارفون ليقول:

إذا كنا سنستجيب لهذه الدعوة الجديدة ونعيد المومياوات إلى مصر فإنى أرحب بتذكير الناس الطيبين بأن ذلك سيؤدى إلى إغلاق المتاحف فإن زوارها يسرعون دائما فى العطلات إلى رؤية المومياوات!

ولكن آرثر ويجال العالم الأثرى الذى جاء إلى مصر بعد الاكتشاف قال:

يحاصرنى الناس ويسألوننى إذا كنا نحب أن يأتى إلينا الأجانب لنبش القبور.

وأضاف:

إن العقيدة الدينية هى السبب فى ذلك فإن الناس يرون ترك الموتى فى قبورهم لأنهم سيبعثون!

ولكن ويجال استدرك قائلا:

الأحياء يملكون الموتى، وما الأثرى إلا حفار قبور، سواء كان يبحث عن إنسان رحل أو حضارة اندثرت!

* * *

أشار كارتر إلى مومياء توت عنخ آمون فى ثلاثيته التى نشرها عن الكشف.

فى الجزء الأول عام ١٩٢٣، والثانى عام ١٩٢٧، والثالث سنة ١٩٣٣.

فى الجزء الأول تحدث عن تسجيل الآثار ونقلها، قال إن ذلك حماية لها من السرقة.

وفى الجزء الثانى، قال إنه عندما كان يحملق مع زملائه فى التابوت لم يستطع أحد.. الحديث أو حتى الهمس، وكأنهم يستمعون إلى وقع خطوات المعزين الذين يغادرون القبر لآخر مرة قبل إغلاقه!

وفى الجزء الثالث الذى نشره بعد ٨ سنوات من فحص المومياء روى ما قاله طبيب التشريح ديرى :

«مادام القبر اكتشف فلم يكن أمام كارتر إلا أن ينقب فيه» .

ويجب ألا يكون السؤال حول حق فحص المومياء ، بل حق كارتر فى السعى للبحث عن القبر ، إن كارتر تحرك من البداية بدافع أبدى لا يقاوم ، وهو . . . الفضول الإنسانى .

* * *

بدأ البحث فى مصير المومياء .

اقترح البعض دفنها فى الهرم الأكبر ، أو حفظها وعرضها فى إحدى حجراته الداخلية .

فرفض ذلك الأستاذ فلندرز بيترى قائلا :

«لا أرى سببا لضرورة أن تحصن رفات الفراعنة فى أهرام هائلة حتى لا يرى أحد شيئا منها . وفضلا عن ذلك لماذا إفساد الهرم العظيم؟

إن الحل بالنسبة للمستقبل الطويل الأجل للمومياء هو بناء متحف خاص فى طيبة (حيث المناخ ملائم للمحافظة عليها) وأن تتم حراستها بوحدة من خمسين رجلا مسلحا تحسبا إذا واتت أى زائر - يده خفيفة - أية أفكار» .

قال الدكتور صالح حمدى الذى فحص مومياء الملك :

«من المستهجن أن تعرض جثة من الجثث لنظر الأحياء . ويصبح الأمر أكثر استهجانا حين يتصل بملك من ملوك مصر اختار لنفسه المقام فى وادى الملوك .

ويجب أن نحترم له هذه الرغبة ، بوضع جثمانه فى أحد توابيته الأخرى إذا أريد المحافظة على التابوت الذهبى من اللصوص أو أريد عرضه فى المتحف ، وأن يعاد التابوت المشتمل على المومياء إلى قبره داخل التابوت الحجرى حيث يمكن مع ذلك أن يرى من يشاء هذا التابوت الحجرى والتابوت الذى فى داخله .

أما مومياء الملك فلا أرى مطلقا أن تكون معروضة للأنظار . وذلك شأن مقابر العظماء فى كل مكان .

ظلت المومياء فى مقبرة سيتى أى فى الورشة نحو عام حتى أذيع بيان رسمى فى مصر جاء فيه :

«بعد أن أعيد لف مومياء الملك توت عنخ آمون فى كفنها ، ووضعها فى التابوت الأول الخارجى أنزلت فى التابوت الحجرى - يوم ٣١ من أكتوبر عام ١٩٢٦ - بحضور حضرات محمد شعبان الأمين المساعد بالمتحف المصرى ومحمود أفندى رشدى مفتش الآثار بالأقصر» .

وكان مفتشا الآثار هما وحدهما اللذان شهدا إعادة الملك إلى قبره ! !

ولكن كارتر ، دون أن يعرف أحد ، ترك بطاقته التى تحمل اسمه وصفته وعنوانه بين الأكفان !

وظلت البطاقة مكانها ٤٢ عاما منذ سنة ١٩٢٦ حتى ١٩٦٨ عندما أعاد هاريسون أستاذ التشريح بجامعة ليفربول فحص المومياء بالأشعة داخل المقبرة فاستعاد البطاقة . وبقى توت عنخ آمون وحده فى تابوته .

وحدث فى أثناء الفحص بالأشعة أن كسر الزجاج الذى وضعه كارتر حول المومياء وكان سمكه ست ملليمترات ، فتبرعت شركة بريطانية بزجاج آخر سمكه ١٠ ملليمترات . وقالت الشركة إنه عازل تماما للمومياء يمنع تسرب التراب والهواء .

وقالت الشركة إن هذا الزجاج أيضا يقى من الرصاص !

القانون الموقوف

أدت الضجة التى صاحبت الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون، والقضايا التى أقامها كارتر مطالبا بنصف الآثار إلى التفكير الجدى فى تعديل قانون الآثار الذى أصدره ماسبيرو عام ١٩١٢ والذى يسمح للمكتشف بالحصول على نصف الآثار .

بدأت فكرة التعديل عام ١٩٢١ وكان بيير لاكو هو المسئول عنها ولكن المشروع نام حتى أيقظه الاستقلال فى ٢٨ من فبراير عام ١٩٢٢ ورغبة مصر فى المحافظة على آثارها وحمايتها .

بعثت مصلحة الآثار يوم ١٠ من أكتوبر عام ١٩٢٢ إلى جميع بعثات التنقيب عن الآثار تقول إن الحكومة المصرية تنوى تعديل المادة ١٢ من قانون الآثار رقم ١٤ الصادر عام ١٩١٢ .

وترغب الحكومة فى العدول عن سياسة تقسيم الآثار مناصفة، وستكون حكومة مصر حرة فى أن تقدم للمكتشف الأشياء التى لا تحتاج إليها مجموعاتها الأثرية .

ولن يسرى التعديل الجديد على موسم الحفر القادم .

وستطبق عملية القسمة مناصفة لآخر مرة هذا الموسم، أى موسم عام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ .

ولم يكن أحد فى مصلحة الآثار يظن أنه بعد ستة أسابيع فقط، وفى هذا الموسم بالذات ستكتشف مقبرة توت عنخ آمون، وأن مكتشفيها سيطالبون بنصف تلك الآثار!

وجاء اكتشاف المقبرة فى نوفمبر من ذلك العام وظهور الكنوز الأثرية الضخمة مما جعل التعديل يتحول من مجرد فكرة إلى ضرورة قومية عام ١٩٢٣ .

ولكن بريطانيا نجحت فى تأجيل المشروع عاما كاملا حتى وقعت الأزمة بين كارتر ومرقص حنا وأغلقت المقبرة.

* * *

وجد بيير لاكو أن تقسيم الآثار عملية صعبة، وأحيانا مستحيلة. فليس شرطا، أن يوجد فى كل مقبرة نسختان من كل قطعة أثرية!

والتوابيت والمومياوات لا تتكرر فى المقبرة الواحدة!

ولا تستطيع مصلحة الآثار أن تشترى نصف الآثار - الذى ينبغى أن يئول للمكتشف ويصبح حقا له، طبقا لقانون ماسبيرو - فإن اعتمادات المصلحة لم تتجاوز مبلغ ٢٧ ألف جنيه فى عام ١٩١٩، ولم تزد على ٤٧ ألف جنيه فى عام ١٩٢٣.

وفى منطقة دهشور مثلا لم يتقدم أحد للتنقيب خلال ربع قرن. ولا تستطيع المصلحة أن تنقب فى سقارة رغم الاحتمالات الناجحة المتوقعة لأن اعتمادات التنقيب المطلوبة لسقارة ١٢٠٠ جنيه سنويا لمدة ٣٠ سنة تقريبا حتى يمكن التنقيب فى المنطقة كلها.

إن الباحث لا يريد ترخيصا إلا فى المناطق التى يرى فيها احتمالات قوية لاكتشاف الآثار، وبذلك أصبحت العمليات كلها مجرد مغامرات تجارية.

ووجد لاكو أن تراخيص التنقيب عن الآثار أصبحت مثل أوراق اليانصيب، والمصلحة تدفع الجائزة الأولى؛ لأنها مضطرة لدفع مبلغ كبير للمنقب مقابل نصيبه من الآثار أو يحصل على كل القطع.

وحدثت خلافات ومشاكل سياسية ومالية كثيرة نتيجة لقانون التقسيم.

* * *

اعتمدت فكرة تعديل القانون على أساسين واضحين:

الأول: أن تحصل المصلحة على ما تعتقد أنه يجب المحافظة عليه كثروة قومية للبلاد. ويكون من حقها أن ترفض منح أية قطعة أثرية لمكتشف.

باختصار يصبح من حق المصلحة أن تأخذ ما تريد وتمنح للمكتشف ما لا تريد، فإذا أخذت الكل فإن المكتشف لا يستطيع الاعتراض.

الثاني: ألا يحصل المكتشف نفسه على شيء، بل يهب ما تمنحه له المصلحة لمتحف قومي في بلاده، أو أى بلد آخر حسب رغبته.

والهدف من هذا التعديل أن تتوقف المغامرات التجارية وأن تجيء لمصر جمعيات علمية هدفها البحث عن الآثار.. لمصلحة العلم والتاريخ فحسب.

* * *

اعترضت الجامعات والمعاهد العلمية والأفراد فى الخارج على المشروع وساندتهم الدول الأجنبية وكان أساس الاعتراضات أن أحدا لن يجيء إلى مصر ينفق أمواله بحثا عن الآثار ولا يأخذ شيئا بينما أخذ غيره ـ من قبل ـ كثيرا من آثار مصر.

وبنيت الاعتراضات أيضا على أساس ما فعلته الدول فى هذا الشأن.

* تركيا واليونان وإيطاليا تحفظ آثارها ولكن الباحثين لا يستطيعون التوقف عن الكشف عن آثار الإمبراطورية اليونانية أو الرومانية بينما يمكنهم التخلى عن مصر.

وكان رد مصلحة الآثار أن مصر لم تعد دولة بعيدة منعزلة بل يقصدها الباحثون عن الحضارة القديمة.

وجاء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. وتجدد البحث فى تعديل قانون الآثار.

بعث السير فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى بمذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٣ من يناير ١٩٢٣ يقول فيها:

* القانون الحالى يضمن حقوق مصر.

* القانون فى العراق وفلسطين ينص على التقسيم ويعطى المكتشف تعويضا بمنحه حصة أكبر من الآثار عندما تحتفظ الدولة بالقطع المهمة. وقد تقدم العمل الأثرى فى البلدين نتيجة ذلك القانون.

* مصلحة الآثار المصرية لا توحى بالثقة مثل مصلحة الآثار فى العراق وفلسطين .

* هناك شكاو كثيرة من المؤسسات الأمريكية التى تنقب بمصر . وقد قررت التوقف عن العمل إذا صدر القانون إلا إذا تلقت تأكيدات ، أو عقدت اتفاقات معها ، أو صدر إعلان رسمى من الحكومة المصرية بأن هذه المؤسسات ستحصل على عائد مجز من الآثار المصرية عند اكتشافها أو اعتراف رسمى بالمناصفة العادلة .

وطلب السير فردريك كينيون أن تتدخل الحكومة البريطانية والمندوب السامى لدى حكومة مصر .

وبعثت الأكاديمية البريطانية بمذكرة مماثلة إلى وزارة الخارجية البريطانية فى فبراير ١٩٢٣ .

ونجح التدخل ولم يصدر القانون عام ١٩٢٣ .

* * *

وتولى سعد زغلول رئاسة الوزارة .

وحدثت أزمة المقبرة .

وعاد مشروع القانون إلى الظهور لعرضه على مجلس النواب .

وتحاول بريطانيا القيام بسعى مشترك مع فرنسا والولايات المتحدة للتدخل لدى سعد .

ويتصل السفير البريطانى فى باريس السير كراو بوزارة الخارجية الفرنسية التى تبلغه اعتذارها عن القيام بأى عمل مشترك .

ويكتب اللورد اللنبى إلى لندن :

«برقية رقم ١١٥

بتاريخ ٢٥ من إبريل ١٩٢٤

يسعى وزير الأشغال العمومية ـ مرقص حنا ـ جاهدا خلال الدورة البرلمانية الحالية لضمان إقرار التعديلات المقترحة فى قانون الآثار، وهى التعديلات التى تأجل تقديمها إلى البرلمان فى العام الماضى.

إن مصر هى الدولة الوحيدة التى لا تحتفظ بالسيطرة الكاملة على الاكتشافات الأثرية لمصلحتها الوطنية. وستصبح التعديلات قانونا.

ونتيجة للضغط الذى يواجهه البرلمان فى بحث موضوعات أخرى، فإن البرلمان لن يجد وقتا لإقرار التعديلات بحيث يتسنى تطبيقها خلال موسم التنقيب القادم.

وقد أخبر الوزير الأمريكى المفوض الحكومة المصرية بأن الإصرار على التعديلات سينتج عنه تخلى معظم ـ إن لم يكن كل ـ المعاهد الأمريكية التى تعمل فى مصر عن التنقيب عن الآثار.

ويعتقد الوزير الأمريكى المفوض أن المصريين ـ كما فعلوا من قبل دون استثناء ـ يعتمدون على المساهمات التطوعية مما يجعلهم بالفعل متوترين إزاء الجدل المثار بشأن هوارد كارتر.

وطلب الوزير الأمريكى المفوض من الحكومة المصرية أن تقدم ردا قبل ١٥ مايو وهو التاريخ الذى يعد فيه متحف المتروبوليتان ميزانيته.

ويرى الوزير المفوض الأمريكى أن الحكومة المصرية حرة فى اتخاذ أية تدابير ولكنه يأمل أن يؤجل النواب مشروع القانون لمدة عام على الأقل.

وأعتقد أنه ينبغى على أن أقوم بمسعى مشابه.

وأكون ممتنا إذا أجريتم مشاورات مع سلطات الآثار البريطانية المختصة وإفادتى عما إذا كنتم ترغبون فى قيامى بأى إجراء فى هذا الشأن».

ولكن مصلحة الآثار توزع فى نفس الشهر ـ مايو ١٩٢٤ ـ على كل بعثات التنقيب والأفراد أيضا صورة ترخيص التنقيب الجديد الذى يتضمن شروطا جديدة نص عليها القانون الذى لم يصدر بعد!

وضع الترخيص بأسلوب يضمن حق الدولة بحيث لا يستطيع أحد الاعتراض عليه.

وتجتمع لجنة الآثار المشتركة بالمتحف البريطانى لتقرر الاعتراض على منشور مصلحة الآثار .

وتبرق الحكومة البريطانية إلى اللورد اللنبى فى ٨ من مايو ١٩٢٤ للاتصال بالحكومة المصرية ومحاولة إقناعها بعدم صدور القانون .

إن بريطانيا رأت ألا تتدخل فى مسألة مقبرة الملك توت عنخ آمون ـ رغم ضخامتها ـ لأنها حالة فردية ولكن القانون الذى يشمل الجميع شىء آخر .

ويكتب اللورد اللنبى إلى وزارة الخارجية المصرية فى اليوم التالى ـ ٩ من مايو ـ خطابا يبدى فيه قلق الهيئات الأثرية البريطانية بشأن تعديلات قانون الآثار . .

قال اللنبى :

«بناء على تعليمات وزير الخارجية أكتب إليكم بشأن نوايا الحكومة المصرية فى تعديل قانون الآثار .

وتتعاطف الحكومة مع رغبة مصر فى وضع شروط أكثر وضوحا ، وذات طبيعة مرضية بصورة أفضل من القانون الحالى .

وتدرك الحكومة البريطانية أن هناك إجماعا فى الرأى لدى المعنيين بالآثار فى بريطانيا العظمى بشأن تعديلات معينة ، تدرس الآن ستلحق أضرارا قاتلة لعلم الآثار .

وستؤدى موافقة الحكومة المصرية على هذه التعديلات إلى وقف عمليات معظم معاهد الآثار فى مصر .

وتأمل حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا أن تقوم الحكومة المصرية بمراجعة بعض التعديلات التى تجرى دراستها فى الوقت الحاضر» .

ويؤجل واصف غالى باشا وزير الخارجية الرد على المندوب السامى البريطانى شهرا كاملا ثم يجيب بحزم قائلا :

«أفادتنى الإدارة المختصة أنها لن تتخلى عن مشروعها الخاص بتعديل قانون الآثار وأبلغتنى أيضا أن التعديلات لا تمس مصالح الجهات العلمية ولا تدعو لقلقها .

إن الحكومة المصرية لا تريد إلا شيئا واحدا وهو عدم الالتزام بكلمة «النصف» عند تقسيم الآثار حتى يتسنى جمع مجموعات كاملة من الوثائق والمستندات والأدلة التى تمثل الحضارة المصرية كاملة .

ومن خلال واجبها تجاه العلم فإن الحكومة المصرية ستهدى للمتاحف الأجنبية عددا كافيا من الآثار المهمة المتوافرة فى مجموعاتها لتسهيل مهمة الباحثين فى مجال الحفائر ولدراسة تاريخ مصر القديمة فى مراكز الجامعات الأجنبية .

وقد تتأثر مؤقتا بعض المعاهد العلمية من الناحية المالية . ولكن ذلك لا ينبغى أن يكون مبررا للتضحية بالمصالح العلمية» .

ويدرك اللورد اللنبى من هذا الرد أن مصر ماضية فى تعديل القانون . وأنها لن تمنح كارتر ـ أو أحدا غيره ـ نصف الآثار .

ويعرف المندوب السامى البريطانى أنه لن يجد آذانا مصرية حكومية تصغى إليه .

وتبرق دار المندوب السامى إلى لندن يوم ٢٤ من يونيو ١٩٢٤ بالنصوص . ويعلق عليها رئيس القسم المصرى بوزارة الخارجية البريطانية قائلا :

«الشروط معقولة بشرط أن تخلص حكومة مصر فى تطبيق نصيبها» .

ولكن البرلمان المصرى كان مهتما بشئون السياسة ، فلم يستطع مناقشة القانون أو إقراره .

* * *

وتستمر المفاوضات والمراسلات .

كتب آلان جاردنر إلى سلبى سكرتير رامزى ماكدونالد فى ٢٩ من سبتمبر ١٩٢٤ يقول :

«إنى آسف ولكننى مضطر للعودة إلى مسألة مصلحة الآثار المصرية ، وقد تلقى روبرت موند الذى يقوم بحفائر لجامعة ليفربول نصوص تراخيص التنقيب الجديدة وستلاحظون أن مصلحة الآثار قد غيرت قانون الآثار بما يناسبها .

فهم يريدون أن يكون كل شىء لمصلحتهم فى حين لا يتمتع «المنقبون» بأية ضمانات على الإطلاق .

ولم تحصل الحكومة المصرية بعد على ثقة العالم، ولم يتم تقديم أى ضمان بأن هذه السلطة الجديدة لن تمارس إلا فى حالة الضرورة.

ولا أعتقد أن الأثريين يثقون، بأى شكل، فى لاكو، المدير العام.

وكل هذه التغييرات نتيجة لمتاعب توت عنخ آمون ومن الصعب إدراك السبب فى أن تواجه الجمعيات والمؤسسات العلمية المتاعب.

ويبعث السير لانسلوت وكيل الخارجية البريطانية إلى السير فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى فى ٢٩ من سبتمبر ١٩٢٤ قائلا أيضا:

«يرى وزير الخارجية رامزى ماكدونالد أنه ليس من المنطقى أن تتم هذه التعديلات وليس ملائما أن يعانى المنقبون. إننا نريد أن تكون التعديلات فى القانون ذات روح ليبرالية متحررة».

ويكتب اللورد اللنبى إلى لندن:

«آمل أن تقبل الحكومة المصرية نوعا من التسوية نتيجة الضغط الدبلوماسى».

ولكن وزارة الخارجية البريطانية كانت لديها فى ذلك الوقت ما يكفى من المشاكل مع مصر؛ فاضطرت إلى تذكير كل من يهمه الأمر بأن مصر أصبحت دولة مستقلة وأن الحماية ألغيت رسميا فى ٢٨ فبراير الماضى عندما كان اللورد كارنارفون وكارتر على وشك التوصل إلى اكتشاف المقبرة.

وأصرت مصر على أنه بدلا من الترتيبات التى تم الاتفاق عليها عام ١٩١٢ بأن من حق المكتشفين الاحتفاظ بنصف قيمة مكتشفاتهم، فقد أصبح واجبا أن يرضى المكتشفون بالشهرة الأكاديمية فقط!

* * *

وتوالى ١٠ بعثات أثرية ضغطا آخر على مصلحة الآثار بالتهديد بالامتناع عن الحفر.

كانت للإنجليز وحدهم ٣ بعثات:

الأولى فى طما، والثانية فى تل العمارنة، والثالثة تنقب فى الأقصر.

وللأمريكيين بعثة من متحف المتروبوليتان فى معبد حتشبسوت فى الأقصر، وأخرى من جامعة هارفارد فى الجيزة، والثالثة من جامعة فيلادلفيا فى مقابر الرعامسة فى الأقصر، والرابعة من جامعة بوسطن التى بنت بيتا لأعضائها قرب معبد رمسيس فى الأقصر تمهيدا لبدء الحفر.

وللفرنسيين أيضا ٣ بعثات فى مقابر دير المدينة فى الأقصر، والجيزة، وإدفو. ويواسى اللورد اللنبى حكومته قائلا:

«إن مصلحة الآثار ـ على أية حال ـ فى أيد أوروبية تماما»!

* * *

ويستقبل سعد زغلول فى نوفمبر ١٩٢٤ وتستمر الاتصالات لمنع صدور القانون.

طلبت الحكومة الأمريكية من الحكومة البريطانية فى ١٨ من يونيه ١٩٢٥ القيام بعمل مشترك مع مصر لمنع صدور القانون.

ولكن بريطانيا امتنعت عن الرد.

وقصد السفير الأمريكى فى باريس إلى مقر وزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٥ من فبراير ١٩٢٦ ليجدد طلب العمل الدبلوماسى المشترك.

وكانت على مكتب الوزير مذكرة من القسم المصرى بالوزارة تقول:

«لا نريد عملا مشتركا فى مصر. إن لنا وضعا خاصا متميزا فى القاهرة».

ويتخلص الوزير من إعلان رد صريح مباشر قائلا إنه سيفعل ذلك إذا سمح المناخ السياسى فى مصر.

وفى ٣ من مارس ١٩٢٦ يكتب المندوب السامى فى القاهرة اللورد لويد إلى لندن:

«برقية رقم ٥٦

سلمنى الوزير المفوض الأمريكى نسخة من مذكرة، تتضمن اقتراحا بأن يخاطب الوزير الأمريكى فى القاهرة الحكومة المصرية وسألنى عما إذا كانت حكومة صاحب

الجلالـة تؤيد الموقف الذى تتضمنه المذكرة، وأبلغنى أنه يجرى تقديم مذكرة مماثلة فى باريس.

وبعد بضع فقرات حول أهمية علم المصريات بالنسبة إلى أمريكا، تشير المذكرة إلى التغييرات التى أحدثها قرار الآثار لعام ١٩٢٤/ ١٩٢٥ وإلى الرسالة التى وجهها المدير العام لمصلحة الآثار إلى رئيس متحف المتروبوليتان فى نيويورك، بتاريخ أول إبريل ١٩٢٥، حول الهدف من هذه التغييرات.

ويقرر أن التغيير فى السياسة خلق إحساسا هائلا بالاضطراب فى أذهان علماء الآثار الأمريكيين. وفى حين يوافقون على الأهداف التى تبغى هذه التغييرات تحقيقها، فإنهم يقولون إن المادة ١٠ من طلب التصريح الجديد يجب أن يحل محلها بيان ملخصه كالآتى:

إن العلم يتطلب أن تحتفظ مصلحة الآثار لنفسها بكل القطع التى لا تمتلكها، إلا أنها ستوزع إلى حد كبير المواد التى تمتلكها.

وإن مصلحة الآثار لا ترغب فى الاحتفاظ بأى من المواد من أجل بيعها، ولا بنسخ أو مواد معادلة لنفسها، ولا فى إعطاء حفار عاديات اكتشفها حفار آخر.

ولذلك فإن الحكومة ستعطى الحفارين كل العاديات التى لا تحتاج إليها، بما فى ذلك عاديات ذات قيمة من الطراز الأول، بغض النظر عما إذا كانت مثل هذه العاديات أكثر أو أقل من نصف العاديات المكتشفة.

يلى ذلك طلب بإدراج هذه المبادئ فى طلب تصريح الحفر.

أبلغت الوزير الأمريكى المفوض بأنى أتفق بشكل عام مع الهدف الذى تتطلع إليه حكومته وأنى سأطلب رأيكم فيما يتعلق بنوع ودرجة التأييد الذى يمكن إعطاؤه بأقصى قدر من الفائدة.

أرجو الإبراق لى بملاحظتكم»

وينجح اللورد لويد وهاول الوزير الأمريكى المفوض فى الضغط على زيور الذى يرفض تعديل القانون.

ويعلن زيور ـ رسميا ولكن سرا ـ بأن مصر ستهدى ـ دون مقابل ـ كل ما هى فى

غنى عنه من الآثار التى ستكتشف، ولا تحتاج إليها الدولة فى مجموعاتها، سواء تم الكشف فى القاهرة أو أى مدينة أخرى. . وذلك بغض النظر عن أهمية الآثار.

وقال زيور: إن مصلحة الآثار ستحتفظ بكامل حريتها فى اختيار القطع التى تهديها.

ويبرق وينلوك بذلك إلى متحف متروبوليتان فى نيويورك.

ويكتب فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى إلى مورى رئيس القسم المصرى فى وزارة الخارجية البريطانية قائلا:

«لا نستطيع بالتأكيد تحسين هذه الشروط!

هذا اعتراف بحقوق القائمين على التنقيب. . وإنى راض تماما عن ذلك».

ويتعطل صدور القانون.

ويوجه اللورد لويد ـ وحده ـ مذكرة إلى وزير الخارجية المصرية فى ٢٩ من مايو ١٩٢٦ يعترض فيها على بعض نصوص الترخيص الجديد.

ولكن مصر تمضى فى تمصير مصلحة الآثار.

كان عدد الأجانب العاملين فى هذه المصلحة ١٥فى عام١٩٢٣، فانخفض الرقم إلى ثمانية فى عام ١٩٢٦. . ويزيد عدد البعثات المصرية لدراسة الآثار فى الخارج.

ولكن يبقى المديرون الأجانب يرأسون مناطق التنقيب الأساسية فى الكرنك والجيزة وسقارة.

وتتخلص وزارة الأشغال من المشكلة بأن تصدر فى مايو ١٩٢٨ قرارا يمنع تصدير الآثار المصرية إلا بتصديق من الوزير بعد فحص القطعة بمعرفة رجال مصلحة الآثار وموافقة مدير المصلحة.

وتبقى العقوبات فى حالة المخالفات مقصورة على المصريين والأتراك وحدهم. . ويعفى منها الأجانب.

ولا يعدل قانون الآثار إلا فى ٣١ من أكتوبر ١٩٥١ بصدور القانون رقم ٢١٥ لحماية الآثار، وذلك قبل خروج الأب دريتون الفرنسى من منصب مدير المصلحة. . بشهور!

مؤامرة على المتحف

فى رأى الدكتور أحمد قدرى مدير عام مصلحة الآثار أن عمليات نهب الآثار المصرية كان يجب أن تجعل مصر خلوا من آثارها ولكن حضارة مصر على مر العصور جعلتها غنية بثلث آثار العالم رغم كل السرقات . .

وجاء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ليكون نقطة تحول خطيرة . . فقد أراد كارنارفون وكارتر الحصول على نصف الآثار فلما فشلت المحاولة رغبت الحكومة فى تعديل قانون الآثار . . ولكن أمكن ـ بالضغوط ـ تعطيله .

وجرت محاولة جديدة جريئة وغريبة لسرقة الآثار المصرية على أوسع نطاق .

* * *

بدأت هذه المحاولة من جانب الإنجليز يوم ١١ من نوفمبر عام ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . .

اقترحت اللجنة الأثرية البريطانية المشتركة إشرافا دوليا على الآثار التى توجد فى البلاد الخاضعة لتركيا . . ولم تكن مصر إحدى هذه الدول لأنها كانت تحت الحماية البريطانية منذ عام ١٩١٤ . .

قالت اللجنة المشتركة إن هزيمة تركيا واجتماع ممثلى الوفاق والولايات المتحدة فى مؤتمر السلام، يتيحان فرصة لن تتكرر مطلقا لعلاج هذا الوضع المؤسف . . ونجاح العديد من المنظمات الدولية للحلفاء خلال الحرب يشير إلى إمكان التوصل إلى حل لمشكلة الآثار فى هذه الدول . .

اقترحت اللجنة أن تتولى إدارة الآثار دولة ما .

والدولة التى تثير أقل قدر من الحساسية الدولية هى أمريكا التى تدعى كوصية للقيام بهذا الواجب، نيابة عن الأمم المتحدة بوجه عام .

ويتعين أن تتمتع هذه اللجنة بسلطات قانونية لتعديل القانون التركى القائم، من أجل:

١ ـ كفاءة الحفاظ على الآثار.

٢ ـ الحياد فى الإدارة.. وتتمتع بسلطة منفردة فى منح تصاريح الحفريات والتنقيب وتصدير الآثار، وشراء العاديات من المتاحف التركية. أو الإفراج عنها لبيعها فى الخارج.

ويوضع قانون يسمح بتقسيم نتائج الحفريات بين المتاحف التركية والحفارين، وفقا للنظام المصرى وتتولى اللجنة الإشراف على هذا التقسيم.. وتخضع المتاحف المحلية لإدارتها..

وتمثل فى اللجنة الدول التى أظهر رعاياها اهتماما بالآثار.. وهى فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية.. وأخيرا ألمانيا والنمسا..

وبين الدول الأخرى بلجيكا والدانمرك..

وقد تطالب اليونان بتمثيلها.

ولا تمثل تركيا فى اللجنة.

وهذا الاقتراح يعنى ببساطة أن تتولى شئون الآثار فى تركيا والدول الخاضعة لها لجنة دولية لا تضم ممثلين عن تركيا نفسها.

وهذا النموذج هو الذى فكرت الولايات المتحدة فى تطبيقه بمصر.

* * *

وكان صاحب الفكرة الأصلى هو العالم الأمريكى جيمس هنرى بريستد الذى يعرف قيمة الآثار المصرية، وهو أول أستاذ لعلم المصريات فى الولايات المتحدة وقد حصل على دكتوراه فخرية من جامعة أكسفورد فى أكتوبر عام ١٩٢٢.

عمره ستون عاما، وهو أساسا كيميائى، اهتم بالحضارة المصرية القديمة وتعلم العبرية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية، والأهم من هذه اللغات بالنسبة له العربية والهيروغليفية. وهو الذى قرأ وفسر وحلل وفك ألوفًا من أوراق

البردى كتبت باللغة الهيروغليفية وأصدر عنها قاموسا، حتى أن علماء الآثار اعتبروه شامبوليون الثانى.

وقيل له فى شبابه إن أفضل مكان للدراسات الشرقية فى برلين؛ فسافر للدراسة بها قبل أن يكمل الثلاثين.

وقام بالحفر فى بابل وسوريا وفلسطين والسودان ومصر. وقد أقنع مليونيرا أمريكيا هو جون روكفلر بأن يمول إنشاء معهد شرقى بجامعة شيكاغو.

وقد عهد إليه اللورد كارنارفون القيام بالعمل التاريخى فى مقبرة توت عنخ آمون ومن هنا أدرك أهمية هذا الكشف التاريخى، ورأى أن بلاده - الولايات المتحدة - يجب أن يكون لها دور ومهمة بالنسبة للآثار المصرية وأن تعوض ما ضاع عليها باكتشاف الإنجليز وحدهم لمقبرة توت عنخ آمون. وكان بريستد صاحب فكرة إقامة «بيت شيكاغو» فى مدينة هامو قرب معبد رمسيس الثالث فى الأقصر.

وظل بريستد يبعث بتقارير طويلة إلى جون روكفلر عن هذا الكشف وكل المعارك التى جرت بين كارتر ومصلحة الآثار المصرية.

ونجح كارتر فى إقناع روكفلر بإيفاد المهندس المعمارى الأمريكى الشهير ويلز بوسورث إلى مصر ليدرس على الطبيعة مشروعه الجديد، أو خطته الجهنمية للاستيلاء على آثار مصر.

* * *

فى يناير عام ١٩٢٥، فى وزارة أحمد زيور باشا بعث عالم الآثار الأمريكى جيمس بريستد إلى جلالة الملك أحمد فؤاد بمذكرة طويلة عن الحالة المؤسفة للمتحف المصرى بالقاهرة..

قالت المذكرة:

«المتحف ليس مكانا آمنا لهذه المجموعة الضخمة من الآثار، وأنشئ على أسس خاطئة. وسقفه يسمح بتسلل مياه الأمطار والبدروم تحت مستوى مياه نهر النيل وتدخله مياه الفيضان.. مما أتلف كثيراً من الآثار..

* لا توجد أماكن عمل لأساتذة الآثار الزائرين .

* لا يوجد معمل للمحافظة على الآثار والأعمال الفنية .

* لا يتوافر للمعهد العدد الكافى من الأمناء العارفين بعلوم الآثار .

وبعد هذه المذكرة كتب بريستد إلى صاحب الجلالة ملك مصر يقول :

«يتابع العالم التطور السياسى لمصر . . فهى أحدث الدول من الناحية السياسية ولكنها أقدم الجميع حضارة ، فإن أول الآثار المصرية أقيم فى زمن كانت أوروبا فيه غارقة فى الوحشية والظلام . .

وقد انتشرت الآثار المصرية ـ وهى ميراث الحضارة ـ على امتداد نهر النيل وضمها متحف القاهرة لتكون رابطة بين مصر وباقى الأمم .

ويجب أن تنظر الشعوب الحديثة إلى مصر القديمة ؛ بوصفها السلف الثقافى التى تتطلع إليها فى امتنان واحترام .

وكتعبير عن التوفير لمصر ، فإن الأمم الأخرى ترغب فى أن تتعاون مع شعب مصر للمحافظة على الآثار المصرية . .

ومنذ ثلاثين عاما لم يكن هناك مدرس واحد للغة المصرية القديمة فى الولايات المتحدة . . فنحن أمة حديثة سياسيا وثقافيا أيضا .

ونظرا لأن التطور الأمريكى تم خلال الثلاثين عاما الأخيرة ، فإننا ندرك المتاعب التى تواجهها مصر . .

وفى ظل هذه الروح فإننا نقدم لجلالتكم هذه الهدية» .

بعد هذه المقدمة التى صيغت بأرق عبارات المجاملة نحو مصر وصاحب الجلالة قالت الرسالة :

«أصبح المتحف المصرى فى القاهرة يضيق بآثاره ؛ ولذلك يعرض المستر جون روكفلر إقامة متحف جديد يتكلف خمسة ملايين دولار ومعهد لأبحاث الآثار يتكلف ٤٠٠ ألف دولار ، ومبلغ ٤ ملايين دولار أخرى يخصص ريعها

لصيانة المتحف والمعهد . . وبذلك يبلغ مجموع المنحة التى يعرضها مستر جون روكفلر على مصر نحو ١٠ ملايين دولار ، أى مليون من الجنيهات المصرية» .

ولكن المنحة أو الهبة لم تكن نهائية بل رافقتها شروط والتزامات .

قال بريستد : إن على الحكومة المصرية قبولها وهى : تعاون الولايات المتحدة والدول الغربية فى إدارة المعهد خلال ٣٣ سنة باعتباره مؤسسة تعليمية للمصريين وألوف الأجانب الذين يهرعون إلى مصر كل شتاء ولنشر الأبحاث عن كنوز مصر وتدريب المصريين ليتولوا ـ بعد ذلك ـ إدارة المتحف .

وأرفق بريستد بالرسالة رسما وخرائط للمعهد . ومذكرة بتفصيلات الشروط المصاحبة للمنحة . وبدونها لا تتم وهى :

١ ـ تؤلف لجنة دولية لها سلطة مطلقة ـ لإدارة المتحف الجديد من مديرى المتاحف الكبرى وهى متروبوليتان فى نيويورك ، والمتحف البريطانى ، واللوفر الفرنسى .

ويرأس هذه اللجنة أمريكى أو بريطانى .

٢ ـ تتولى اللجنة إدارة المتحف المصرى خلال الأعوام الثلاثين حتى تعد مصر جيلا من العلماء المصريين يتولى المسئولية .

٣ ـ تئول لمصر ملكية المتحف والمعهد بعد ثلاثين عاما .

٤ ـ لا تتدخل اللجنة ـ بالضرورة ـ فى اختصاصات المدير الفرنسى لمصلحة الآثار .

٥ ـ تبقى الآثار ملكا للحكومة المصرية .

٦ ـ تتولى اللجنة إدارة محتويات المتحف من الآثار الحالية والآثار التى تكتشف فى المستقبل .

ومن الواضح أن المشروع الأمريكى لا يختلف كثيرا عن المشروع البريطانى القديم بالنسبة لتدويل الآثار التركية . . بوضع آثار مصر تحت إدارة أمريكية ـ أوروبية لا يشترك فيها مصرى واحد . .

باختصار تصبح كل آثار مصر وديعة فى يد اللجنة الدولية تتصرف فيها كيف تشاء دون رقابة مصرية .

وبين هذه الآثار كل مافى مقبرة توت عنخ آمون وهى خمسة آلاف قطعة منها ألف قطعة معروضة بالمتحف المصرى والباقى بالمخازن لأنه مكرر . .

وبعد ثلاثين عاما يمكن لمصر أن تعرف أو لا تعرف مصير هذه الآثار .

أما ثمن المتحف والمعهد فهو مليونا جنيه مصرى!

ولكن المشروع ارتبط بفكرة ذكية وهى إقامة المتحف المصرى الجديد مكان ثكنات قصر النيل .

وكانت هذه الثكنات ، أو معسكرات الجيش البريطانى فى المكان الذى تشغله الآن الجامعة العربية ، وفندق هيلتون ، والمبانى المجاورة التى تطل على النيل . . وهى تمثل بالنسبة للمصريين جرحا داميا وعميقا ؛ فمن هذه المعسكرات والثكنات انطلقت القوات البريطانية تقمع كل مظاهرة وطنية وتطلق الرصاص على شعب مصر منذ الاحتلال وبالذات فى أثناء ثورة عام ١٩١٩ .

ولا يأمل المصريون فى شىء مثل جلاء القوات البريطانية وانسحابها ، ولا شك أن إقامة متحف لمصر القديمة مكانها يسعد شعب مصر!

* * *

وبعث بريستد إلى اللورد اللنبى - يوم ٣ من فبراير - يطلب تأييده والاحتفاظ بالمشروع سرا لأن العلانية ستفسده!

* * *

رفض الإنجليز على الفور إخلاء ثكنات قصر النيل لأسباب عسكرية ، وبالذات بعد اغتيال السردار واستقالة سعد . .

ولم تكن الحكومة الأمريكية طرفا فى الموضوع وإن تدخل مورتون هاول الوزير الأمريكى المفوض فى المفاوضات لصالح المتحف الجديد .

ولم يكن النفوذ الأمريكى قويا بحيث ينصاع ويخضع له الإنجليز، ومن ناحية أخرى لم تكن ظروف مصر السياسية، بعد الضجة التى أثيرت حول مقبرة الملك توت، تسمح بالبت فورا فى المشروع.

* * *

أحال الملك المشروع إلى أحمد زيور باشا رئيس الوزراء.

وأحاله زيور باشا بدوره إلى قلم قضايا الحكومة للتوفيق بينه وبين القوانين المصرية والدستورية والإدارية لأنه يضع آثار مصر فى يد إدارة دولية تفعل بها.. كما تشاء!

وكانت فرنسا طرفا فى المشكلة بحكم الاتفاق الودى مع بريطانيا عام ١٩٠٤ وحق الفرنسيين فى شغل منصب مدير عام مصلحة الآثار.. فقد رأت فرنسا أن رجلها الفرنسى الذى يدير مصلحة الآثار سيصبح مديرا بغير إدارة، وبغير عمل، وبغير صلاحيات على الإطلاق!

* * *

أخذ عبد الحميد بدوى باشا رئيس قلم قضايا الحكومة فى دراسة المشروع.

كان بدوى باشا فى الرابعة والثلاثين من عمره درس القانون فى فرنسا، وتنقل فى وظائف النيابة ثم عمل مديرا للمكتب الفنى لعبد الخالق ثروت باشا عندما كان وزيرا للعدل.

ورافق عدلى يكن باشا رئيس الوزراء إلى لندن عام ١٩٢١ عندما تفاوض مع الإنجليز وكان بدوى باشا سكرتيرا لوفد المفاوضات.

واختير سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء ثم مديرا لقلم قضايا الحكومة.

ويقول الإنجليز فى تقاريرهم إن بدوى باشا وطنى ولكنه لا يظهر العداء للأجانب. ولا يستطيع مسئول الاستغناء عنه؛ لأنه صاحب عقلية فذة ولابد من الاستعانة به فى كل مستند حكومى سياسى رسمى.

وتفاوض بدوى باشا مع محامى المليونير الأمريكى جون روكفلر، والأستاذ الأثرى جيمس بريستد حول اللجنة الدولية لإدارة المتحف.

وجد قلم القضايا أن شروط روكفلر تتعارض مع قانون إنشاء مصلحة الآثار المصرية ، وكل قوانين الآثار وأنها تتأثر بقواعد وقوانين الهبات فى الولايات المتحدة نفسها .

رفض قلم القضايا استبعاد مصر من اللجنة الدولية لإدارة المتحف؛ فوافق روكفلر وضم للجنة أيضا مدير متحف اللوفر الفرنسى . .

وأعيد تشكيل اللجنة فأصبحت تؤلف من ١٠ أعضاء على النحو التالى :

١ ـ عضوان من مصر .

٢ ـ عضوان من كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا لا تعينهم الحكومة المصرية بل تعينهم هيئات علمية أجنبية .

٣ ـ يختار الأعضاء الثمانية عضوا أو اثنين أجنبيين يمثلان دولة أو دولتين .

٤ ـ تختص اللجنة وحدها بتعيين كل الموظفين الفنيين والإداريين .

٥ ـ تشكل لجنة للأبحاث الأثرية يرأسها الأستاذ جيمس بريستد وله وحده حق تعيين الموظفين التابعين له .

رأت إدارة قضايا الحكومة أنه لابد من إدخال تعديل جديد على المشروع : بأن يعين وزير الأشغال رئيسا للجنة ويرجع إليه فى تعيين الموظفين الفنيين والإداريين ، ونظرا لأن مدير عام مصلحة الآثار فرنسى فيعين مصرى آخر فى اللجنة .

وأدخلت تعديلات على المشروع ولكن الجوهر بقى ثابتا وهو سحب كل اختصاصات الحكومة المصرية ووزارة الأشغال ومصلحة الآثار من الإشراف على شئون الآثار المصرية ! !

* * *

استقال اللورد اللنبى المندوب السامى فى مصر وجاء اللورد جورج لويد فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٢٥ وتعطل المشروع .

قصد السفير الأمريكى فى لندن إلى وزارة الخارجية البريطانية والتقى بوزيرها فى

٢٥ من يونيو ١٩٢٥ وسلمه رسالة من الحكومة الأمريكية تبدى فيها اهتمامها بمشروع المتحف وتطلب ـ له ـ التأييد البريطانى .

وكان يرافق السفير جيمس بريستد الذى شرح المشروع . .

أبدى وزير خارجية بريطانيا استعداده لتقديم كل المساعدة ، وأحال بريستد إلى مورى رئيس القسم المصرى بالخارجية البريطانية لمناقشة التفاصيل .

* * *

وطلب بريستد الضغط على مصر لقبول العرض .

رد مورى :

ـ نحن متعاطفون مع رغبة علماء الآثار الأمريكيين والبريطانيين لإنقاذ آثار مصر .

قال بريستد :

ـ وماذا بعد التعاطف ؟

قال مورى :

ـ يجب ألا نظهر تعاطفنا أمام المصريين حتى لا يقوم المواطنون بتشويه صورة العرض أمام الشعب المصرى ويتهمونكم بالارتباط بأهداف السياسة البريطانية . .

وأضاف مورى :

ـ من الصعب أن يكون لنا دور فعال فى توصية الملك فؤاد وحكومة مصر بقبول عرض روكفلر . . الكريم !

وأضاف :

ـ قد تعهدنا للفرنسيين عام ١٩٠٤ أن يسند منصب مدير عام الآثار إلى عالم فرنسى .

ولم يقل مورى لبريستد إن بريطانيا لا يمكن أن توافق على تمثيل أمريكى أو أجنبى فى اللجنة يزيد على عدد الممثلين البريطانيين .

ولكن مورى سجل رأيه فى مذكرة سرية لوزير خارجيته!

* * *

رأى بريستد العقبات توضع فى طريق إقامة المتحف مكان ثكنات قصر النيل فبدأ يبحث عن موقع آخر واستغرق ذلك وقتا طويلا . .

ورغم ذلك كله بقى المشروع سرا لا يعلم به أحد عاما كاملا .

لم يعرف بالمشروع إسماعيل سرى باشا وزير الأشغال؛ فإن أحمد زيور باشا رأى أن تتم المفاوضات بينه مباشرة وبين روكفلر فى نيويورك ومحاميه فى القاهرة . . وقد أعلن زيور فيما بعد أنه كان المفاوض الوحيد مع روكفلر وبريستد ومحاميه!

وظل الشعب المصرى يجهل ما يراد بآثاره رغم أن الملك والمندوب السامى البريطانى ووزير خارجية بريطانيا والدكتور جيمس بريستد أستاذ الآثار الأمريكى . . يعرفون!

ولكن كان لابد أن يتسرب النبأ لكثرة المراسلات التى تمت بين زيور وإدارة قضايا الحكومة وروكفلر وسؤال بريستد للخبراء عن موقع لمتحف جديد على شاطئ النيل . نشرت الصحف النبأ فى أوائل فبراير عام ١٩٢٦ وقالت ـ على نحو ما عرفت ـ إن روكفلر تبرع لمصر بمبلغ عشرة ملايين دولار لبناء متحف .

وكان النبأ ـ بهذه الطريقة ـ غير صحيح لأن روكفلر لم يتبرع بل كان يريد وضع آثار مصر كلها تحت إشراف دولى مقابل ١٠ ملايين دولار .

ولذلك أسرع روكفلر ينفى النبأ ويقول إن المفاوضات جارية بينه وبين الحكومة المصرية .

ووصل إلى مصر الدكتور بريستد ، وايفريت ميكى ، وريموند نوديك الأمريكيون ، ونشر أن الثلاثة يمثلون ـ بصفة مؤقتة ـ هيئة الأمناء على المشروع .

وعقد بريستد مؤتمرا صحفيا يوم ١٤ من فبراير بدأه بأكذوبة .

قال إنه سلم حديثا إلى الملك فؤاد رسالة من روكفلر بشأن الهبة ، ولم يقل بريستد إن الملك تلقى هذه الرسالة قبل عام!

وأضاف عالم الآثار الأمريكى أن المنحة عشرة ملايين دولار وأنها أكبر مبلغ يذهب للعلوم والأبحاث الإنسانية وسيقام أحدث متحف فى العالم .

وعدّد عيوب المتحف المصرى الذى لا يمكن أن يحافظ على الآثار لصغر حجمه ونقص التهوية والإضاءة وقلة العاملين به .

وأعلن أن الهدف هو تدريب أجيال من علماء الآثار المصريين .

وأشاد بخبرة مدير عام مصلحة الآثار بيير لاكو وكفاءته . ولم يذكر فى المؤتمر الصحفى أن الشروط التى رافقت المشروع تشل تماما العالم لاكو !

ولم يذكر بيير لاكو شرطا واحدا اقترن بالمشروع بل قال إن ترتيبات التنفيذ يجرى بحثها مع حكومة مصر .

* * *

توجه السفير الأمريكى فى لندن إلى وزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٦ من مارس ١٩٢٦ يطلب تأييدا بريطانيا صريحا لبريستد فى مشروع المتحف .

اعتذر الوزير البريطانى قائلا :

ـ فى ظل هذا المناخ السائد فى مصر فإن تأييدا بريطانيا سيزيد من شكوك المصريين فى المشروع . .

وأضاف الوزير :

ـ إن اللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى يتعاطف مع الدكتور بريستد . وهو على اتصال مستمر به ويستطيع الاعتماد عليه .

ولكن بريستد كان يريد مساندة بريطانية أكبر .

عرض زيور باشا المشروع على مجلس الوزراء الذى رأى ضرورة إدخال تعديلات عليه وهى :

١ ـ أن تعين الحكومة المصرية أعضاء اللجنة الدولية وكذلك نائب رئيس اللجنة .

٢ ـ ضرورة موافقة الهيئة المصرية المختصة ـ أى مصلحة الآثار ـ على نظم تعيين الموظفين .

٣ ـ تعطى الأولوية للمصريين فى التعيين فى المتحف ومعهد الأبحاث.

٤ ـ أن يوافق البرلمان المصرى على المشروع.

وتوجه بريستد لمقابلة زيور باشا ورئيس إدارة قضايا الحكومة يستفسر عما تم.. وعرف بريستد بما جرى فى مجلس الوزراء ومداولاته وأدرك أن حكومة مصر لا تجرؤ على التفريط فى ١٢٠ ألف قطعة من الآثار بينها مائة ألف قطعة معروضة فى المتحف المصرى وعشرون ألفا بالمخازن.. كل ذلك مقابل عشرة ملايين دولار.

رأى أحمد زيور باشا رئيس وزراء مصر أن المشروع يتعارض مع المسئولية الدستورية للوزارة، فأدخل عليه بالإنفاق مع إدارة قضايا الحكومة عدة تعديلات سلمها إلى جورج ميرزباخ بك محامى روكفلر وطلب عرضها عليه وعلى الوسطاء فى نيويورك فوافقوا عليها.

وسلمها بريستد إلى رئيس الوزراء يوم أول إبريل فوافق عليها أحمد زيور باشا ووعد بعرضها على مجلس الوزراء.

وقال زيور باشا:

ـ أعدك بأنى سأوصى مجلس الوزراء بالموافقة على المشروع.

رأى بريستد أن يلجأ إلى سلاح أخير وهو التهديد.

كتب يوم ٨ من إبريل إلى زيور باشا يقول:

«لم يصلنى أنكم أوصيتم مجلس الوزراء بالموافقة على العقد الجديد أو أن الحكومة المصرية قبلته ووقعته.

وأستنتج من هذا، ومن الأحاديث التى جرت لى مع دولتكم، ومع رئيس قلم القضايا أن الحكومة المصرية لا تستطيع أن تجد سبيلا لقبول هبة مستر روكفلر.

وسأسافر اليوم إلى نيويورك وسأعرض على مستر روكفلر ما هو ظاهر من عدم استطاعة الحكومة المصرية قبول هبته».

* * *

انتظر روكفلر ثلاثة أسابيع، ولكن زيور باشا التزم الصمت التام فكتب إليه الأمناء يوم ٢٧ من إبريل يقولون:

«لقد اعتقدنا أننا أزلنا جميع العراقيل التى تعترض الموافقة على المشروع نظرا إلى كتاب دولتكم الذى قلتم فيه إننا إذا قبلنا المشروع المعدل فإن دولتكم توصون مجلس الوزراء بالموافقة عليه .

وعلى ذلك كتب إليكم الدكتور بريستد بالنيابة عنا عند سفره من مصر فى ٨ من إبريل والأسف ملء فؤاده ، يقول إنه لم يتلق خبرا بأن دولتكم أشرتم على مجلس الوزراء بقبول المشروع المعدل أو خبرا بقبوله فإنه يستنتج من هذا أن الحكومة المصرية لم تجد فى وسعها قبول هبة المستر روكفلر .

وقد قال الدكتور بريستد فى ختام ذلك الخطاب :

«إنى سأسافر إلى نيويورك أعرض على المستر روكفلر عدم قدرة الحكومة المصرية ، على قبول هذه الهبة . .

ولكنكم لم تردوا على خطاب بريستد الذى سلم إليكم قبل شهر» .

* * *

كتب روكفلر إلى الملك فؤاد فى ٢٧ من إبريل ١٩٢٦ بعد ١٥ شهراً من تقديم العرض يقول :

«يا صاحب الجلالة :

عملا برغبة جلالتكم ، جرى البحث مع صاحب الدولة رئيس الوزراء وأصحاب المعالى الوزراء فى مشروع إنشاء متحف جديد ومعهد لدراسة العاديات فى القاهرة .

وقد اتخذت التدابير اللازمة لتنفيذ هذا المشروع كما اقترحت الحكومة المصرية بحيث تطابق حاجات العلم ، وبروح حسن النية الصادقة نحو الشعب المصرى فى وقت تلقى فيه على عاتق الحكومة المصرية تبعات جديدة ثقيلة من الوجهة السياسية والعلمية .

ولو لقيت الخطط التى اقترحت خطوة فى عين حكومة جلالتكم لكان من بواعث اغتباطى العظيم وتحقيقها من الوجهة المالية .

ولكن من بواعث أسفى الشديد أنه ظهر أنه يستحيل وضع تدابير يمكن قبولها وتكفل نجاح المشروع مع أن التغييرات التى طلب مندوبو جلالتكم إحداثها فى صيغة الاتفاق الأساسى ـ وهى التغييرات التى كتب دولة رئيس الوزراء يقول إنه سيوصى بقبول الهبة على قاعدتها ـ قبلت وسلم بها.

ففى هذه الأحوال، ولكى لا تقع الحكومة المصرية فى ارتباك أعلن الآن سحب الاقتراح الذى كنت قد تشرفت بعرضه على جلالتكم والحكومة المصرية.. مع أسفى على عدم بلوغ الغاية المنشودة».

وأعلن روكفلر فى الصحف سحب المشروع ونشر الرسائل التى بعث بها بريستد والأمناء إلى زيور نص كتاب روكفلر إلى جلالة ملك مصر.

ولكن روكفلر لم يجرؤ على أن يذكر الشروط.

هاجمت بعض الصحف المصرية حكومة زيور لأنها مسئولة عن سحب العرض السخى. واضطر مجلس الوزراء لإذاعة بيان يرد فيه على روكفلر والأمناء.

ولكن مجلس الوزراء ـ بدوره ـ لم يذكر أبدا الشروط الكاملة التى ارتبطت بالمنحة والهبة والمتحف والمعهد الجديد.

ولم يعرف شعب مصر أبدا أن مجلس الوزراء لم يستطع أن يسلم آثار مصر كاملة للأمريكيين أو للجنة دولية؛ لأن شعب مصر بدأ يحرص على آثاره بعد اكتشاف كنز الفراعنة الجديد. إن أحمد زيور باشا رغم استسلامه السياسى للإنجليز لم يستسلم لهم أو للأمريكيين فى شئون الآثار!

وهكذا ضاعت على روكفلر وبريستد بعد «كارتر» آثار الملك توت عنخ آمون.

ولا يجد بريستد ما يفعله إلا أن يصدر كتيبا مصورا يبين فيه تكدس المتحف المصرى بالآثار ورسومات المتحف الجديد ليبين الفرص التى ضاعت على مصر.. أو بعبارة أدق ضاعت على روكفلر!!

تمثال نفرتيتى

وجد لص الآثار الألمانى ريتشارد ليسبيوس ـ عام ١٨٤٢ ـ قطعة من الآثار تشير إلى ملكة مصرية فى مدينة العمارنة. ولكن ليسيبوس لم يستطع معرفة شيء عن هذه الملكة، فقد حاول ملوك وملكات مصر محو اسمها تماما كما فعلوا مع توت عنخ آمون.

وبقيت هذه الملكة المجهولة أسطورة نحو نصف قرن حتى عرف أنها نفرتيتى زوجة أمنحتب الرابع «إخناتون».

اختلفت أقوال علماء الآثار عنها.. وتعددت آراؤهم.

قالوا إنها:

ابنة أحد الكهنة..

ابنة أحد الأمراء الأسيويين من سوريا أو أرض كنعان ـ وعددهم ١٢٧ ـ الذين جاء بهم أمنحتب الثانى إلى مصر مقيدين بالسلاسل.

جارية نالت حريتها لجمالها.

وفى رأى الدكتور ثروت عكاشة فى كتابه «الفن المصرى» أنها محظية أمنحتب الثالث.

أما دائرة المعارف البريطانية فقالت إنها من أبوين مجهولين.

ولكن الصحفى الألمانى فيليب فاندنبرج قدم فى كتابه «نفرتيتى» الصادر عام ١٩٧٥ رواية أخرى مختلفة تماما.

قال إن اسمها الحقيقى تادو خيبا وهى ابنة توشرات ملك ميتانى فى آسيا.

كانت جميلة تفيض بالشباب والحيوية، وعلو الصدر، وامتشاق القوام.

وصفها إخناتون فقال إنها «مليحة المحيا، بهيجة بتاجها ذى الريشتين، سيدة السعادة، المتفضلة، تلك التى إذا سمعها الإنسان طرب، سيدة الرشاقة، ذات الحب العظيم، تلك التى يسر طبعها رب الأرضين».

قايضها أبوها أو باعها - وعمرها ١٥ سنة - بالذهب، لفرعون مصر أمنحتب الثالث - والد إخناتون - وكان فى الخمسين من عمره وصحته متدهورة.

دام زواجهما عامين توفى بعدهما الملك.

وجرت العادة فى مصر القديمة أن يتغير اسم الأميرات الأسيويات فأصبح اسمها نفرتيتى أو «الجميلة القادمة» أو «الجميلة التى ستجىء» أو «الجميلة التى أقبلت».

* * *

فى ديسمبر عام ١٩٦٦ قام الدكتور جيمس هاريس من جامعة ميتشيجان الأمريكية، وكنت ويكس أستاذ علم المصريات بفحص مومياوات ٢٠ فرعونَ و٧ ملكات بالأشعة فى المتحف المصرى لمعرفة سر الوفاة.

وجد العالمان أن أمنحتب الثالث فقد كل أسنانه وكان مريضا للغاية، وقدر عمره بين الخمسين والخامسة والخمسين.

* * *

أصبحت نفرتيتى - طبقا لرواية فاندنبرج - أرملة فى السابعة عشرة من عمرها تزوجها أمنحتب الرابع - إخناتون - فى السنة الأولى لحكمة وكانت فى الثامنة عشرة.

بعث والدها ملك ميتانى إلى فرعون الجديد بالدوطة، أو المهر، وكان يضم ٣٠٠ خادم وممرضتين، ومرضعتين، و٣٠ وصيفة، و٣٠ خادما، و٣٠٠ غلام.

وكانت لها خادمة تظل مستيقظة طوال الليل حتى تفتح الملكة الجميلة ذات الوجه الشاحب عينيها فتسرع بإزاحة الستار ليدخل ضوء الشمس من النوافذ.

* * *

كانت نفرتيتى شديدة الإخلاص لزوجها تشاركه معتقداته وتعرف شخصيته أكثر من غيرها . . وتنشد بحماس ترتيلاته المفضلة :

«آتون المتألق الصافى القوى . إن حبك قوى وشامل» .

تنفر من أية تصرفات تنم عن التزلف والمداهنة وتعتبر نفسها ابنة الشعب وتود أن تبقى كذلك!

«وكانت موضع حب وتقدير كبيرين من جانب زوجها وظلت دائما بمثابة الضوء فى حياته .

وكان لها تأثيرها الكبير عليه حتى اتهمه الكهان بالوقوع تحت سلطانها .

تعمقت فى الفلك والعلوم ، وملكت قلب زوجها ، واستولت على لبه ، وساعدته فى نشر مذهبه ، فكانت بمثابة القوة المحركة والدعامة القوية له» .

لم يتقيد إخناتون ونفرتيتى بالرسميات أمام الشعب ، فقد سمحا لنفسهما بأن يرسما فى مواقف تسودها الصراحة التامة .

كانا يستقبلان رجال البلاط وهما لا يلبسان إلا القليل من الملابس ، «ويمصمصان» العظام فى أثناء تناول الطعام ، ويحتضنان ، أو يقبلان بعضهما ، سواء فى القصر أو فى العراء ، أو يداعب الملك إحدى بناته وهى تجلس على ركبتيه . . على كرسى العرش!

وكان الزوجان يسيران فى الريف ، أو يتسلقان تلا ، وتصغى لكلماته وهو يعبر عما يدور فى عقله من أفكار عن الإله الشمس . وتعتبر نفسها أسعد نساء الأرض .

* * *

ولكن ساءت العلاقات بين إخناتون وزوجته فى السنوات الأربع الأخيرة من حياة إخناتون . وعاشت نفرتيتى فى عزلة بعد أن قام سمنح كارع - ابن إخناتون - بمهمة الوصاية على العرش فى حياة أبيه .

وبعد وفاة إخناتون استمرت عزلة الملكة الأرملة .

ولكن علماء آثار كثيرين قالوا إن نفرتيتى نفسها ـ وليست ابنتها عنخسن آمون ـ هى التى أرسلت إلى ملك الحيثيين تطلب منه أن يوفد أحد أبنائه ليتزوجها، فقد أرادت نفرتيتى أن تحكم مصر بعد وفاة زوجها. ولكن حورمحب أو الوزير آى قتل الأمير القادم من بلاد خيتا.

وماتت نفرتيتى فى سن السابعة والثلاثين بعد أن أنجبت ٦ بنات عاشت ثلاث بنات منهن.

ويقول الدكتور ثروت عكاشة إن علماء الباثولوجيا يشكون فى أن إخناتون هو أب الأميرات الست!

أما فاندنبرج فينسب ثلاثًا منهن إلى إخناتون.

دفنت نفرتيتى قرب قبر زوجها. ومقبرتها غنية بالرسوم والنقوش، التى تغنى بمحاسنها ومديحها. . .

«وارثة كل البركات، والمجموعة التى تملك كل الحسن. ملكة الشمال والجنوب ذات الطلعة المتألقة بجمالها وجواهرها، المحبوبة من آتون، نبع الحب، وزوجة الملك الأثيرة نفرتيتى الخالدة إلى الأبد».

* * *

رأى الألمان الاستمرار فى التنقيب فى تل العمارنة بعد أن عرف كل شىء عن نفرتيتى.

تقدم لودفيج بورشارد المهندس الألمانى إلى مصلحة الآثار يطلب ترخيصا بالتنقيب فى تل العمارنة باسم معهد الآثار الألمانى.

ولودفيج بورشارد ولد فى برلين وحصل على أكثر من درجة دكتوراه فخرية، درس علم المصريات فى ألمانيا واشترك فى عمل كتالوج وقاموس بالألمانية والهيروغليفية للمتحف المصرى.

نقل للسلك الدبلوماسى ملحقا علميا للقنصلية الألمانية فى القاهرة. واشترك فى تأسيس معهد الآثار الألمانية بالقاهرة عام ١٩٠٧ وظل مديرا له ٢١ عاما.

اكتشف معبد الشمس فى أبو غراب وهرم أبو صير. ودرس الفن المعمارى المصرى القديم وهرب آثارا كثيرة من مصر قدمها لمتحف برلين.

ومات بورشارد فى باريس عام ١٩٣٨ فنقل جثمانه إلى القاهرة ودفن فيها.

ولكننا نتوقف عند عام ١٩١٢ ـ لنجد بورشارد يقسم تل العمارنة إلى قطاعات مساحة كل منها ٦٠٠ قدم مربعة ولكل قطاع حرف ورقم.

ويتكرر تماما ما حدث فى مقبرة توت عنخ آمون.

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم ٦ من ديسمبر ١٩١٢ أسرع عامل اسمه «محمد» إلى بورشارد يحمل رسالة من هيرمان رانكى الذى يشرف على الحفر فى القطاع رقم «٤٧ب».

قالت الرسالة:

«تعال.. تمثال نصفى ملون».

أسرع بورشارد ليجد رأس التمثال فى الرمال، ووجهه إلى الحائط.

أخرج التمثال بيديه فوجده من المصيص الملون للملكة الجميلة ولكن إنسان العين اليسرى كان ناقصا أو ضائعا.. أو أنه سقط!

رأى بورشارد أن يعيد تفتيش الرديم الذى كان فوق التمثال والذى بلغ ارتفاعه ٣٠ قدما مكعبا وضع على سيارتى لورى ولكن لم يجد رسم إنسان العين أبدا.

وثار سؤال:

ـ ربما تكون نفرتيتى قد فقدت عينها اليسرى.

ولكن تبين من تماثيل وصور كثيرة أن نفرتيتى احتفظت بعينيها الجميلتين حتى ماتت.

قال بورشارد: «الأرجح أن الفنان تحتمس الذى وجد التمثال فى معمله كان متيما بنفرتيتى فلما هجرته رفض إتمام التمثال، ربما ليمحو الفكرة الشائعة عن جمال الملكة.

وهناك دليل على غضب الفنان . .

وجد تمثال نصفى آخر لإخناتون وقد تهشم إلى قطع صغيرة، يبدو وأن تحتمس قد ألقاه على الأرض عمدا .

ويتدخل القدر بصورة غريبة لحفظ تمثال نفرتيتى .

كان التمثال موضوعا على رف خشبى فلما تآكل مع الزمن سقط التمثال على أكوام من الرمال زحفت إلى المعمل لتتلقى التمثال وتحفظه سليما .

أخذ بورشارد يعد تقارير عن روعة التمثال وبعد أن كتب عدة صفحات مزقها واكتفى بأن يقول : «لا فائدة من الوصف . لابد من المشاهدة» .

تقدمت البعثة فى ٢٠ من يناير ١٩١٣ تطلب نصف الآثار . وحددت نصيبها .

وكتب بورشارد إلى جاستون ماسبيرو مدير مصلحة الآثار يقول : إن ما وجدته البعثة لا يستحق التقسيم لأنه مجرد قطع مكسورة يريد خبراء المصريات الألمان دراستها فى برلين .

رأى ماسبيرو أن الأمر لا يستحق انتقاله شخصيا إلى العمارنة ؛ فأوفد أحد مساعديه الذى لم يهتم بفحص الآثار ولم يجد فى ا القوائم التى أعدها بورشارد ما يستحق التفتيش والمراجعة والفحص، بل وافق على تصديرها لألمانيا واحتفظ للمصلحة ببعض القطع المكسورة للدراسة فيما بعد .

وهكذا خرجت من العمارنة ٥ صناديق كان من بينها تمثال «المصيص الملون» كما سماه بورشارد بعد ذلك .

ويبدو وأنه أخفيت معالم التمثال بالطين .

وربما تكون قد تمت رشوة بعض موظفى الآثار من الأجانب لتصديره خلسة .

أو لعل الفرنسيين امتنعوا عن التعنت مع الألمان بسبب التوتر القائم بين البلدين والذى أدى إلى قيام الحرب بينهما بعد عام .

أيا ما يكون أحد هذه الأسباب أو كلها مجتمعة فإن تمثال «المصيص الملون» أخذ من مصر وأرسل إلى ألمانيا عام ١٩١٣ .

* * *

أقامت البعثة الألمانية فى العام نفسه معرضا فى برلين لعرض ما اكتشفته من آثار العمارنة .

ولكن تمثال المصيص لم يعرض . واكتفت البعثة بالإشارة إليه باقتضاب فى دليل المعرض ونشرت صورة له لا تظهر أيا من عناصر الجمال فيه .

وتكرر الحذر فى التقرير الذى أصدرته ، فى العام نفسه ، «الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية» عن الآثار التى تم العثور عليها .

صور وجه التمثال فقط وبحجم صغير . ولم تظهر صورة التاج الذى يعلو التمثال والذى كان من شأنه تحديد شخصية صاحبته .

وظهر التمثال فى برلين عام ١٩٢٠ دون أن تعرف مصر .

ولم يكشف بورشارد النقاب عن الشخصية الحقيقية للتمثال إلا بعد عشرة أعوام فى عام ١٩٢٣ فى ليبزج عندما نشر صورا ملونة متقنة وأعلن أنه ليس تمثالا من المصيص لإحدى الأميرات كما سبق أن ذكر عام ١٩١٣ . بل قال صراحة :

ـ هذا تمثال مصنوع من الحجر الجيرى وهو خاص بزوجة إخناتون . . الملكة نفرتيتى !

ثارت ضجة كبيرة فى جميع الدوائر العلمية والأثرية فى مصر ووضحت الجريمة المدبرة التى ارتكبتها البعثة الألمانية فلم تكن المسألة خطأ بسيطا بل كانت إخفاء متعمدا للشخصية الحقيقية لنفرتيتى .

* * *

وكان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى نوفمبر ١٩٢٢ .

ثم عرض الألمان تمثال نفرتيتى على الناس عام ١٩٢٣ . فإن الألمان وجدوا أن تمثال «حماة» الملك يمكن أن يمثل قوة جذب للسياح ، وتحقيقا للتوازن بين قدرة وكفاءة علماء الآثار الإنجليز والألمان !

أخذت مصر تطالب بعودة نفرتيتى بعد أن حلت مشكلة آثار الملك توت .

وزادت الضغوط المصرية على ألمانيا والوزير الألمانى المفوض فى القاهرة فى وزارة عبدالخالق ثروت باشا عندما كان سعد زغلول يرأس مجلس النواب .

وكانت مصر ترى أن الحل الوحيد هو التحكيم بينها وبين ألمانيا .

كتب نيفيل هندرسون القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى فى مصر إلى حكومته فى ٢٦ من يونيو ١٩٢٧ يقول :

«سمحت الحكومة المصرية بنقل التمثال إلى ألمانيا وفقا للعرف السائد فى ذلك الوقت والذى يقضى بتقسيم الآثار التى يعثر عليها بين الحكومة المصرية والمكتشفين» .

وقال :

«ليس هناك اعتراض أو خلاف حول البيان الرسمى الذى صدر بشأن اقتسام القطع ؛ فالحكومة المصرية اعترفت بأن الرأس يخص ألمانيا من الناحية القانونية .

ولكن مصر تسعى الآن لاستعادتها بحجة أن مثل هذا الأثر الذى يرجع تاريخه إلى مصر القديمة لا مثيل له ويجب أن يبقى فى مصر .

وتتم جميع هذه الضغوط بشكل غير رسمى .

ويدرك الوزير الألمانى المفوض فى مصر أن الأمر سيطرح رسميا فى أسرع وقت ممكن .

وسينصح حكومته بعدم الاستجابة لهذا الطلب أو قبول اقتراح التحكيم إلا بعد معرفة الآراء الرسمية لكل من باريس ولندن وروما على الأقل .

ويشعر الوزير الألمانى فون شتوهور بأن هذا بالون اختبار أو تجربة اختبار جديدة . فإذاوافقت الحكومة الألمانية على هذا الأمر ؛ فسيصبح باستطاعة الحكومة المصرية حينئذ المطالبة باستعادة قطع أخرى لا مثيل لها توجد حاليا بالمتحف البريطانى ومتحف اللوفر فى فرنسا» .

* * *

ومن هذه البرقية يتضح أن المطالبة برأس نفرتيتى خطوة للمطالبة باستعادة الآثار المصرية المسروقة فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . . وأن ألمانيا تستعدى الدول الثلاث وتطلب تضامنها لمنع عودة نفرتيتى ، حتى لا تعود إلى مصر باقى آثارها .

ويبدأ المتحف البريطانى يتدخل فى المشكلة مؤيدا للألمان.

قال فردريك كينيون مدير المتحف فى رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩ من يوليو ١٩٢٧ إنه ليس من حق مصر التراجع عن اتفاقها مع الألمان بتقسيم الآثار.

وأضاف:

«هذا التخصيص يمكن أن نعزوه إلى وجود قدر كبير من المحاباة فضلا عن قلة الخبرة وانتشار الفساد بين بعض موظفى الحكومة المصرية. وهذا أمر خاص بهم وعليهم أن يتحملوا نتائجه.

والتبرير الوحيد الذى يقبله عقلى أنه يمكن المطالبة باستعادة التمثال إذا كان الألمان قد لجئوا إلى ممارسة نوع من الغش والخداع.. بمعنى أن الرأس كان ملطخا بالطين ومر فى الجمارك على أنه قطعة أثرية محدودة القيمة ولكنى لا أعرف شخصا موثوقا فيه يمكن أن يثبت لى صدق هذه الرواية.

وأعتقد أن القول بأن مصر يجب أن تستعيد هذه القطعة لأنها غيرت رأيها وتراجعت، هو قول يتعذر الدفاع عنه ولا ينبغى تأييده».

ونشرت الصحف الألمانية أن الحكومة الألمانية وافقت على قبول مبدأ التحكيم فى قضية ملكية رأس الملكة نفرتيتى. وأن مصريا سيرأس لجنة التحكيم.

روعت وزارة الخارجية البريطانية وكتب وكيلها رونالد لندساى إلى السفير البريطانى فى برلين فى ٢٨ من ديسمبر ١٩٢٧:

«يمكن أن تؤدى إثارة هذه المسألة من جديد إلى سابقة غير مرغوبة ولا مثيل لها».

مات سعد زغلول فى ٢٧ من أغسطس ١٩٢٧ ولكن حركة المطالبة برأس نفرتيتى لم تمت. واستمرت مصر تطلب التحكيم. ويستمر التدخل البريطانى، فإن مخاوف الحكومة البريطانية لم تهدأ.. أبدا.

* * *

بدأت قضية نفرتيتى تصبح مجال نقاش وجدل فى الصحافة الألمانية، فأوعزت الحكومة الألمانية إلى الدكتور ديتريش أحد النواب بإثارة الموضوع فى لجنة الميزانية بالرايستساخ - مجلس النواب الألمانى - سأل وزير الخارجية عما إذا كانت ألمانيا تخضع لأى التزام بإعادة التمثال إلى مصر أو أن حكومة الرايخ قبلت مبدأ التحكيم.

رد وزير الخارجية قائلا:

- إن الحكومة رفضت التحكيم.

وقال الدكتور شوفر مدير متحف برلين للسفارة البريطانية إن التحكيم فكرة غير معقولة وقبولها من شأنه أن يعرض للخطر كل المجموعات المصرية والشرقية الأخرى فى العالم.

* * *

زاد الضغط على ألمانيا فأوقفت مصر عمل جميع بعثات التنقيب الألمانية.

ونشرت الصحف الألمانية أنه ستجتمع لجنة من علماء المصريات فى برلين، بحضور مندوب عن الحكومة المصرية لحسم الأمر؛ فإن مصر لم تكتشف أثرا أعظم من التمثال النصفى للملكة نفرتيتى.

وقالت الصحف البريطانية «حدث انزعاج بالغ فى برلين عندما عرف أن الحكومة المصرية ستطالب بالرأس.

وقال مسئول بإحدى الوزارات إنه لن يتزوج مطلقا لأنه وقع فى غرامها».

كتب جون مورى رئيس القسم المصرى بوزارة الخارجية البريطانية إلى مدير المتحف البريطانى فى لندن يوم ٢٠ من يناير ١٩٢٨ معلنا موقف الحكومة البريطانية الحقيقى من الأزمة:

«إن الاعتراف بإمكانية التحكيم يهدد استقرار جميع المقتنيات المصرية وغيرها من المقتنيات الشرقية فى العالم».

وقال الدكتور شوفر لممثلى السفارة البريطانية فى برلين إنه يشك فى وجود مؤامرة محلية لإعادة التمثال..

ومعنى هذه الكلمات أن المعارضة فى ألمانيا تحاول إحراج الحكومة بإعادة التمثال أو التهديد بإعادته!

رأت مصر إغراء الألمان . .

عرضت استئناف عمليات الحفر والتنقيب فى مصر ومبادلة نفرتيتى بقطعتين كانتا موضع إعجاب كل زوار المتحف المصرى، وهما تمثال رانوفر الشهير بالحجم الطبيعى من عهد بناة الأهرام، وتمثال أمينوفيس الجالس بالحجم الطبيعى الذى يرجع إلى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا.

ولكن الألمان طلبوا قطعة أو قطعا أثرية ليست ذات قيمة فنية أثرية مماثلة فحسب وإنما ذات شهرة عالمية مماثلة أيضا.

وأعلنت سلطات متحف برلين أنه إذا تمت المبادلة، فإنهم، حتى بدون رأس نفرتيتى، سيظلون يملكون أروع مجموعة فى أوروبا من آثار تل العمارنة القديمة.

وبعثت السفارة البريطانية فى برلين إلى لندن يوم ١١ من إبريل ١٩٣٠ تقول:

«إن سلطات متحف برلين تتأهب لإعادة التمثال النصفى أو بالأحرى لمبادلته مع قطع أثرية مصرية أخرى. وإن الأمر - على هذا النحو - وصل إلى درجة الدعاية المؤيدة للصفقة بدأت بشكل ملحوظ».

ونشرت صحيفة برلينرتاجيبلات مقالا يستعرض النزاع بين القاهرة وسلطات متحف برلين، باستفاضة كبيرة.

قالت الصحيفة إن المشكلة بدأت بعد أن أصبح لاكو مديرا عاما لمصلحة الآثار. ففى محاولته الفاشلة لاستعادة التمثال النصفى قرر لاكو أن يمارس ضغطا على برلين.

ووصولا إلى هذه الغاية بذل مساعيه لوقف المزيد من عمليات التنقيب التى تقوم بها سلطات برلين.

وبعد فشله فى تحقيق أى شىء جدد لاكو مفاوضاته مع برلين فى أكتوبر الماضى، بالاشتراك مع الوزير البروسى للتعليم والدكتور شوفر مدير المتحف المصرى فى برلين بشكل مباشر.

واقترح لاكو السماح لبرلين باختيار أى أثر من متحف القاهرة عوضا عن التمثال النصفى للملكة، الذى تشتهيه.

فاقترح الوزير تمثال أمنحتب؛ ابن حابو الذى اكتشف فى سقارة. والذى يعد -فى رأيه- تحفة فريدة بين أعمال الفن القديم.

واستطردت الصحيفة قائلة إن الدكتور جيمس سيمون- الذى مول أعمال التنقيب فى تل العمارنة والذى أصبح له بهذا الشكل بعض الحق فى أن يستشار- أيد وجهة نظر الوزير بالإضافة- من باب أولى- إلى تمثال أمينوفيس الذى عرضه لاكو.

ووفقا لما ذكرته الصحيفة فإن الأطراف توصلت إلى اتفاق من حيث المبدأ.

وقال السفير البريطانى فى برلين السير هوارس رامبولد:

«لا يمكن نفى إمكان اقتراف الألمان لمثل هذا الخطأ الأثرى الفاحش، بتبادل التمثال النصفى للملكة مقابل بعض قطع المتحف.

وقد يكون من قبيل التزامن المحض وصول وزير مصرى جديد هنا مؤخرا أعقبته مفاوضات ناجحة.

ومن الصعب التكهن بأى شكل من أشكال الضغط أو المغريات الأخرى، التى تكمن وراء تجديد حق التنقيب، التى كان بمقدوره تقديمها. وقد توصلت تحقيقات غير رسمية فى وزارة الخارجية إلى أن قبول هذه المفاوضات أصبح وشيكا.

* * *

قررت مصر تعويض أسرة اللورد كارنارفون وظنت الحكومة أن ذلك يجعل متحف برلين أكثر مرونة.

وزار الملك فؤاد برلين فى أواخر عام ١٩٢٩، فى أثناء محادثاته أشار إلى تمثال نفرتيتى فوعده الألمان خيرا ولكن الوعد لم ينفذ.

جاء هتلر إلى الحكم مستشارا لألمانيا.

فطلب حسن نشأت باشا وزير مصر المفوض من صديقه هيرمان جورنج وزير الطيران إعادة تمثال نفرتيتى.

وقال حسن يوسف الذى كان سكرتيرا للمفوضية المصرية فى برلين إن الحكومة الألمانية وافقت فى مارس ١٩٣٤ على إعادة التمثال مقابل بعض التسهيلات لأعضاء البعثة الألمانية لاستئناف عملها فى التنقيب عن الآثار المصرية.

وأرسل نشأت باشا برقية تهنئة إلى الملك فؤاد. . ثم أرسل برقية إلى وزارة الخارجية المصرية. . لاتخاذ الإجراء اللازم لاستقبال التمثال. . وتصادف وجود البارون «ابرهاردفون شتوهور» وزير ألمانيا المفوض لدى الحكومة فى برلين فى تلك الفترة وعندما علم بموافقة حكومته على هذا السعى أبدى لنشأت باشا عظيم اغتباطه بهذا القرار.

وعندما اعتلى هتلر السلطة المطلقة أكد أن التمثال لن يعود إلى مصر لأنه - على حد قوله - يهيم به عشقا.

وروى محمد عوض القونى الملحق بالسفارة المصرية فى برلين، ووزير السياحة المصرى فيما بعد، أن هتلر قال:

ملامح نفرتيتى آرية.

ورفض هتلر إعادة التمثال إلى القاهرة.

وقامت الحرب فحرص القسم المصرى فى متحف برلين على وضع كنوزه فى مكان أمين بعيدا عن القنابل والغازات. . ونقل تمثال نفرتيتى إلى منجم فحم فى ٢٨ من مارس ١٩٤٥، حتى وجده الجيش الأمريكى الثالث فى الشهر التالى - إبريل ١٩٤٥ - فى صندوق خشبى كتب عليه «تمثال الملكة متعددة الألوان» وذلك ضمن محتويات ١٥ متحفا ألمانيا كانت مخزونة.

وظهر التمثال بعد ذلك فى متحف «دالم» ثم نقل إلى متحف «شارلوتنبرج».

وعادت مصر تطالب بنفرتيتى من المجلس الحاكم فى ألمانيا والذى يضم ممثلين عن جيوش أربع دول هى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وفرنسا. .

كتبت المفوضية المصرية فى براغ إلى المجلس الحاكم فى ١٤ إبريل ١٩٤٦:

«ظهر التمثال النصفى للملكة نفرتيتى من جديد فى ألمانيا قرب فيسبادن فى المنطقة التى تحتلها الولايات المتحدة.

وتقوم السلطات العسكرية الأمريكية بحراسته فى الوقت الحالى.

وتعاطف العالم أجمع مع الجهود التى بذلتها مصر لاستعادة هذا التمثال الذى حاز إعجاب العالم والذى يعد أحد روائع الفن المصرى القديم.

وقد ظل هذا التمثال المصرى المهم فى ألمانيا عندما دخلتها قوات الحلفاء. رغم أنه يعد كنزا مسروقا من مصر ولا يستطيع أحد إنكار حقها فيه.

ويظهر الموقف الذى اتخذه رئيس البعثة - دون أى احتمال للشك - الرغبة فى إخفاء الشخصية الحقيقية لصاحبة التمثال إلى الوقت الذى يمكن فيه الكشف عنها دون مشاكل كثيرة.

ولم تكن مصر لتسمح قط بالتخلى عن قطعة أثرية مهمة من هذا القبيل ليس لها نظير فى المجموعات التى يقتنيها متحف القاهرة.

ورغم كل ما بذلته مصر من جهود كانت تصطدم دائما برفض الحكومة الألمانية خاصة وأن الحكومة المصرية ليست لديها وسيلة للحصول على حقها.

والآن لم يعد لهتلر وجود ولم تعد إرادته قانونا كما كان الأمر من قبل.

ولم يعد هناك ما يعوق وضع حد لهذا النهب القائم على الخداع الذى تم إقراره بالقوة.

وأصبح من الواجب الآن أن تعود هذه القطعة الأثرية إلى مصر التى لم تتخل عنها، وإلى أنسب مكان يمكن أن توضع فيه وهو المتحف المصرى حيث يعكف الباحثون على دراسته مثل باقى القطع المهمة التى تنتمى إلى العصر نفسه والموجودة هناك.

ومن شأن إعادة التمثال رفع الظلم الذى وقع على مصر، وسيكون لذلك معنى أخلاقى عظيم بالنسبة للجميع، وسيلقى ترحيبا فى عالم الفن والأدب وكذلك لدى الرأى العام وجميع دول العالم.

ولا تشك حكومة مصر أيضا فى أن المجلس الحاكم فى ألمانيا سيكون كريما بما فيه الكفاية وسيقوم باتخاذ الإجراءات التى يراها ضرورية لإعادة هذا التمثال إلى مندوب الحكومة المصرية الذى سيصل دون تأخير».

ولكن مجلس الحلفاء - الذى يمثل السلطة العليا فى ألمانيا - اعتذر عن إعادة التمثال قائلا فى رده على مصر يوم ٨ مارس عام ١٩٤٧.

«إن المجلس يبحث استعادة الأعمال الفنية التى اغتصبها الألمان فى أثناء الحرب الأخيرة طبقا لإعلان الأمم المتحدة الصادر فى ٥ من يناير ١٩٤٣ وكأوصياء على أعمال فنية كانت فى حيازة الألمان عند بداية الحرب .

إن الحكومة العسكرية الرباعية الألمانية هيئة تعنى بتحقيق أهداف محددة نتجت عن الهزيمة الساحقة لألمانيا وهى ليست السلطة المناسبة للتعامل مع القضايا المتعلقة بمنقولات ذات قيمة متنازع عليها قبل الحرب .

ولا ننصح - بأى وسيلة - بإهمال الحجج الوجيهة التى وردت فى رسالة الحكومة المصرية ولا بإصدار حكم فى هذه القضية المهمة .

ونقترح الانتظار حتى تتم إعادة تكوين حكومة ألمانية مختصة وعندها يمكن رفع الأمر إلى مثل هذه الحكومة» .

* * *

وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وجدت فى قصر الملك فاروق العصا المطعمة بالماس للفيلد مارشال الألمانى فون بروشتش فعرضت مصر على الألمان مبادلة العصا بتمثال نفرتيتى ولكن الألمان رفضوا .

وعاد التمثال يحتل مكانه فى متحف برلين فطلب الألمان الشرقيون الحصول عليه لأن متحف برلين الأصلى كان فى القسم الشرقى من المدينة ولكن الألمان الغربيين سخروا من هذا الطلب العجيب .

ونشر الكاتب الألمانى جيرت فون باسنزكى مقالا فى صحيفة «دى زيت» يوم ٢١ من إبريل عام ١٩٧٨ بأن هناك احتمالا لعودة التمثال إلى مصر .

ولكن الفكرة تغيرت بعد ذلك فقيل إن التمثال سيعرض بالتبادل فى برلين والقاهرة ولكن الدكتور يواكيم كاريج من متحف برلين نفى أن التمثال سيغادر ألمانيا قائلا : «هناك خطورة من تصدعه نتيجة اختلاف المناخ» !

ونسى الدكتور كاريج أن التمثال صنع فى مصر وبقى فيها حتى سرق منها ونقل إلى ألمانيا !

. . . وعلى أية حال فإن مصر توقفت عن المطالبة برأس نفرتيتى .

كادت الصفقة أن تتم

استقال اللورد اللنبى من منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر ووصل اللورد جورج لويد إلى القاهرة فى ٢١ من أكتوبر عام ١٩٢٥ ليشغل هذا المنصب، وذلك بعد عشرة أيام من فتح التابوت الأول لتوت عنخ آمون.

وكان اللورد لويد حاكما لمقاطعة بومباى فى الهند، وعضوا فى مجلس العموم عن حزب المحافظين.

وقد رفض أن يقدم أوراق اعتماده للملك فؤاد.

واختلف مع السيد جيوفرى أرشر حاكم السودان العام فاستقال الحاكم العام.

وفرض اللورد آراءه على ملك مصر ورئيس وزرائها، ولكنه كان ملزما برأى لندن فى عدم التدخل المباشر فى أمر المقبرة، وترك لحكومة مصر أن تتخذ وحدها القرار.

كان أول ما فعله أحمد زيور وإسماعيل سرى نقل التابوت الذهبى الذى احتوى مومياء الملك والقناع الذهبى أيضا فى صالون ألحق بالقطار القادم من الأقصر يوم أول يناير عام ١٩٢٦.

وصحب التابوت والقناع هوارد كارتر والفريد لوكاس مدير معامل الكيمياء.

ولكن كانت هناك حراسة مشددة.. مصرية.

وبعد خمسة أيام - يوم ٦ من يناير - توجه مجلس الوزراء بكامل هيئته لزيارة آثار صاحب الجلالة داخل المتحف المصرى ليستمع الجميع إلى شرح كارتر ولاكو عن أهمية هذه الآثار وأن ثمن التابوت الذهبى يصل إلى ٥٠ ألف جنيه.

وقد ظل أحمد زيور رئيسا لوزراء مصر منذ ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٢٤ حتى ٧ من يونيو عام ١٩٢٦ .

واشترك حزب الأحرار الدستوريين فى هذه الوزارة وكانت جريدة السياسة ـ الناطقة باسم الحزب ـ قد أيدت على نحو ما كارتر ضد سعد زغلول ، وقالت إن دخول زوجات العلماء الأجانب إلى المقبرة لا يمثل خطرا على المصالح الوطنية أو إهدارا للكرامة الوطنية .

ومع ذلك فإن حزب الأحرار ـ لم يستطع وهو فى الوزارة ـ أن يمنح أرملة اللورد نصف آثار المقبرة ، أو الآثار المكررة .

ولم يحاول إسماعيل سرى باشا خلال ١٥ شهرا أمضاها وزيرا للأشغال فى وزارة زيور التسليم فى آثار توت عنخ آمون كما فعل بالنسبة لباقى آثار مصر خلال الـ ١٢ عاما التى أمضاها من قبل فى منصبه .

وعندما استقال زيور خرج من الوزارة إلى الأبد إسماعيل سرى باشا !

جرت الانتخابات فى مصر ففاز الوفد ، ولكن اللورد لويد أصر ـ وأيدته لندن ـ على منع سعد زغلول من تشكيل الوزارة فألفها عدلى يكن فى ٧ من يونيو عام ١٩٢٦ بتأييد من سعد زغلول وأغلبية البرلمان الوفدى .

ولكن طرأ تغيير ضخم فى لندن .

بعد وفاة اللورد كارنارفون بأربع سنوات بيعت قطع الآثار التى يملكها لمتحف متروبوليتان فى نيويورك .

والقصة وراء هذه الصفقة غريبة للغاية .

فى عام ١٩٢٦ عرض ورثة كارنارفون كل مجموعته الأثرية للبيع بمبلغ ١٤٥ ألف دولار وهو رقم ضخم بأسعار تلك الأيام .

وكان اللورد قد عدل وصيته فى أيامه الأخيرة ـ قبل وفاته ـ فى فندق الكونتننتال بالقاهرة ، وسجل التعديل فى القنصلية البريطانية .

وفى هذا التعديل أوصى اللورد لزوجته الليدى المينا بكل ثروته من الآثار ،

ولذلك أقامت الدعوى ضد مصلحة الآثار المصرية للمطالبة بنصيب اللورد فى مقبرة توت عنخ آمون .

وقد تزوجت المينا ـ ٤٧ سنة ـ فى السنة نفسها التى توفى فيها اللورد، من ضابط برتبة كولونيل اسمه أيان أوريسلاو دينسنيتان، مطلق، يصغرها بأربع سنوات .

ولم يشهد حفل الزواج سوى ابنتها التى تزوجت فى العام نفسه أيضا من محامى الأسرة بروجراف كامبل بوشان .

وقد أنشأت الأرملة دارا كبرى للتمريض يدفع الغنى للعلاج مبلغا طائلا، والفقير يعالج مجانا .

وأوصى لابنه اللورد كارنارفون الخامس بالضيعة والقصر . وقد رفض الابن الحديث عن المقبرة أو توت عنخ آمون خوفا من لعنة الفراعنة .

وكان نجما من نجوم المجتمع البريطانى يحب النساء والخيل ويهوى الصيد، فهو من الرماة الممتازين يطوف بمجتمعات الأثرياء الأوروبيين فى بادن بادن ودوفيل ومونت كارلو .

تزوج مرتين ودام زواجه الأول ١٤ سنة أما زواجه الثانى فكان من راقصة نمسوية عاش معها ثمانى سنوات وانتهى أيضا بالطلاق .

وظل باقى حياته عزبا رغم أن اسمه ظل يرتبط بانتظام باسم زوجة محتملة أو بأخرى! وقد تقاعد فى سن السبعين ومات فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٨٦ .

وقد أوصى اللورد كارنارفون ـ الأب ـ بإهداء قطعة أثرية للمتحف البريطانى وأخرى لمتحف أشموليان فى أكسفورد وقدح من الزجاج الأزرق لمتحف المتروبوليتان .

وقالت الوصية إن تحف اللورد تعرض للبيع أولا على المتحف البريطانى فإذا وافق على الصفقة يحذف من الثمن مبلغ عشرين ألفا من الجنيهات . وإذا رفض المتحف البريطانى الشراء تعرض الصفقة على متحف المتروبوليتان فى نيويورك على أن يتولى التفاوض وتحديد السعر هوارد كارتر .

نفذت الوصية بطريقة حرفية شكلية .

توجه أحد المحامين فى الصباح إلى مدير المتحف البريطانى وعرض عليه الصفقة وثمنها على أن تتم العملية قبل الرابعة مساء .

وكان اللقاء فى العاشرة صباحا .

ولم يستطع مدير المتحف الحصول على موافقة مجلس الإدارة خلال تلك المهلة القصيرة .

ولذلك بيعت المجموعة - بعد ٤ سنوات من وفاة اللورد - لمتحف المتروبوليتان طبقا لاتفاق سرى - على الأرجح - بين البائع والمشترى! وهو المليونير إدوارد هارينكس رئيس مجلس أوصياء المتروبوليتان «ومالك» السكك الحديدية فى الولايات المتحدة الذى وقع عقد الشراء باسم المتحف الأمريكى، وكان الثمن ٥٠ ألفا من الجنيهات الإسترلينية .

اهتزت بريطانيا لأن الصفقة الثمينة خرجت من إنجلترا . وقال السير فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى إن المتحف لم يمنح الفرصة أبدا . . للشراء!

وكانت الصحف البريطانية قد حذرت من أن التحف - وهى أكبر مجموعة مصرية يمتلكها بريطانى - ستباع للخارج ؛ لأنه لا توجد وصية حاسمة بضرورة بقائها فى بريطانيا .

* * *

وكان ضياع هذه التحف، وفيها آثار مصرية كثيرة حافزا يدعو الإنجليز لبذل كل الضغوط للحصول على ما فى مقبرة توت عنخ آمون من الآثار المزدوجة .

مات سعد زغلول فى ٢٧ من أغسطس ١٩٢٧ ولكن الوفد استمر يؤيد وزارة عبدالخالق ثروت - الذى خلف عدلى - حتى استقال فألف الوزارة مصطفى النحاس الذى خلف سعد رئيسا للوفد .

وكان عثمان محرم وزيرا للأشغال فى وزارات عدلى وثروت والنحاس .

لم تتغير مشاعر كارتر نحو المقبرة رغم تغير الظروف السياسية وتعاقب رؤساء الوزارات المصرية .

استمر يرمم، ويحفظ، وينقل محتويات الغرفة الرابعة والأخيرة.

الغرفة الأخيرة، وقد سميت الملحق، وكانت مخزنا للدهون والزيوت والخمور والأطعمة. وبين خليط أكوام السلال والأوانى الملقاة على الأرض يقوم كرسى العرش.

* * *

جاءت الوزارة الرابعة برئاسة محمد محمود باشا فى ٢٥ من يونيو ١٩٢٨.

كان محمد محمود باشا من أغنياء مديرية أسيوط. والده محمود سليمان باشا وكيل الجمعية التشريعية وصديق اللورد كرومر.

درس التاريخ فى كلية باليول بإنجلترا. وعمل مفتشا بوزارتى المالية والداخلية واشتغل سكرتيرا لمستشار الداخلية البريطانى ماتشيل.

عين مديرا للبحيرة ثم انضم للوفد عام ١٩١٩ ونفى مع سعد زغلول إلى مالطة ثم اختلف مع سعد.

انضم لحزب الأحرار الدستوريين وأصبح وكيلا له.

اختير وزيرا للمواصلات ثم المالية مع الوفد فى الوزارات الائتلافية أعوام ٢٦ و٢٧ و٢٨ فى وزارات عدلى يكن وعبدالخالق ثروت ومصطفى النحاس.

وأغراه الملك فؤاد على التآمر ضد مصطفى النحاس فاستقال مع زملائه أعضاء حزب الأحرار فانهارت الوزارة واستقال النحاس وتولى محمد محمود رئاسة الوزارة لأول مرة.

بدأ عهده بحل البرلمان ووقف العمل بالدستور وحكم بسلطات مطلقة غير دستورية فيما عرف باسم «حكم اليد الحديدية». وعقد اتفاقية مياه النيل مع بريطانيا فى ٧ من مايو ١٩٢٩ وبذلك تحققت المادة السادسة من الإنذار البريطانى لسعد زغلول عقب اغتيال السردار.

وبهذه الاتفاقية فصلت أعمال الرى فى السودان عن وزارة الأشغال المصرية. وفقدت مصر حقها الثابت فى السيطرة على مياه النيل.

وفى ظل هذه الوزارة التى تحكم بدون برلمان بدأت أرملة اللورد وكارتر والمتحف البريطانى يتحينون الفرص للانقضاض على آثار توت عنخ آمون .

ومن جديد تردد السؤال المثار منذ ٤ من نوفمبر عام ١٩٢٢ أى منذ اكتشاف المقبرة . .

إن ٧ رؤساء وزارات فى مصر هم عبدالخالق ثروت، وتوفيق نسيم، ويحيى إبراهيم، وسعد زغلول، وأحمد زيور، وعدلى يكن، ومصطفى النحاس، لم يفرطوا فى آثار الفرعون الطفل .

بعضهم أضاع السودان وبعضهم أهدر الدستور، فهل يفرط محمد محمود فى هذه الآثار بعد أن فرط فى مياه النيل . . أم أن لهذا الفرعون سحرا وسرا آخر يمنع التفريط فى آثاره ويبقيها لمصر؟

وصلت إلى مصر أرملة اللورد كارنارفون للتفاوض مع الحكومة المصرية لتصفية موضوعين :

الأول : الحصول على نسخ من الآثار المزدوجة .

الثانى : الحصول على كل ما أنفقه اللورد من أموال فى عمليات الحفر .

ولكن مباحثات السيدة المينا لم تصل إلى نتيجة .

وجاء كارتر إلى القاهرة ليطالب الحكومة المصرية بأن تدفع له مبلغ ٧٥ ألف جنيه عن عمليات التنقيب عن الآثار وترميمها ونقلها .

وطالت المفاوضات حول ما يريده كارتر والعروض المضادة التى قدمها رئيس وزراء مصر .

ويلتقى كارتر بأحد رجال المندوب السامى البريطانى فيشكو إليه روح المساومة التى يتميز بها محمد محمود باشا .

وينقل الحديث إلى اللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى الذى يرى أن الفرصة قد واتته أخيرا ليتدخل فى أمر المقبرة بعد أن ظل يكتفى ـ مرغما ـ بموقف

المتفرج . . عن بعد، ويسارع اللورد بالكتابة إلى لندن قائلا إنه «علم بطريقة الصدفة، بالمفاوضات السرية».

وتبلغ وزارة الخارجية المتحف البريطانى الذى يرى أن فرصته حانت ليحل محل الليدى الميتا وكارتر للحصول ـ بدلا منهما ـ على النسخة المكررة أو المزدوجة من آثار المقبرة طبقا لقانون الآثار الصادر عام ١٩١٢ وعقد التنقيب الأصلى.

تكتب الوزارة والمتحف إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر الذى يصبح طرفا فى كل المباحثات.

ويرفض كارتر تدخل المندوب السامى البريطانى أو مساندته كما كان يتوسل ويرجو حينا ويصر ويلح حينا آخر خلال أزمته مع سعد زغلول ومرقص حنا قبل خمس سنوات من عام ١٩٢٤ ويصر كارتر قائلا:

ـ إن تدخلكم سيؤخر حصولنا على أى مبلغ.

ولكن المندوب السامى البريطانى يصر على التدخل ويبلغ كارتر بذلك فيضطر ـ آسفا ـ إلى القبول.

وافق على التدخل السير أوستين تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا الذى يتولى المنصب منذ ٦ من نوفمبر عام ١٩٢٤ والذى رأى عدم التدخل فى أعقاب استقلال مصر؛ لأن الوقت غير مناسب وحتى لا تتهم بريطانيا بالانتهازية.

وجد السير أوستين تشمبرلين أن هذا أوان الانتهازية والتدخل فمحمد محمود يحكم بلا برلمان ولا سند له إلا الملك والإنجليز، ومقبرة توت حافلة بالآثار ولا يضر مصر أن «تفقد» القطع المكررة . . كما أن الضجيج حول المقبرة قد هدأ ولم يعد الشعب يتابع آثارها بنفس اللهفة القديمة!

ويلتقى اللورد جوريج لويد بمحمد محمود باشا.

قال المندوب السامى:

ـ كارتر يطالب بـ ٧٥ ألف جنيه.

رد محمد محمود:

ـ أفكر فى أن أعرض عليه مبلغا يتراوح بين ٣٠ و٤٠ ألف جنيه.

سأله اللورد:

ـ وماذا عن القطع المزدوجة.

رد محمد محمود:

ـ الحكومة المصرية ليست مستعدة تحت أى ظروف لاقتسام أى من القطع المكررة مع المينا أرملة اللورد، وتشعر الحكومة بقناعة لها ما يبررها أنه سيتم ـ دون خجل ـ طرح هذه القطع للبيع فى الأسواق.

ويكتب جورج لويد إلى لندن:

«كارتر يرى الرأى نفسه ولكنه يسعى إلى عمل كل ما يستطيعه لخدمة المينا ولخدمة نفسه بدون شك.

ولذلك طلب تعويضا ماليا مرتفعا يعادل التضحية التى أقدم عليها بالتخلى عن نصيبه من القطع الأثرية المكررة».

* * *

وقال اللورد جورج لويد يوم ١٦ من إبريل ١٩٢٩ فى برقية إلى حكومته:

«تفكر الحكومة المصرية فى منح كارتر مبلغ ٣٠ ألف جنيه فقط.

من حق المتحف البريطانى ومتحف المتروبوليتان الحصول على بعض الآثار المكررة طبقا لما أعلنه وزير الأشغال المصرى عام ١٩٢٤ وتقدر قيمة هذه الآثار بمبلغ ٥٠ ألف جنيه».

وقال اللورد جورج لويد: إن تمثال الملك الذى يأمل المتحف البريطانى فى الحصول عليه فى ظل الترتيبات الحاضرة لا يساوى أكثر من ٢٥٠ جنيها.

وهكذا بدأت بريطانيا تطالب ببعض الآثار المكررة للمتحف البريطانى ولمتحف المتروبوليتان الأمريكى: بالإضافة إلى المبلغ الذى يطالب به كارتر وهو ٧٥ ألف جنيه.

وتوجه كارتر لمقابلة السير أوستين تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا يوم ٣ من

مايو ١٩٢٩ وطلب منه مساعدته لدى الحكومة المصرية للحصول على مبلغ الـ ٧٥ ألف جنيه .

قال له الوزير :

ـ لا أعتقد ـ مما سمعت ـ أن لديك فرصة للحصول على هذا المبلغ . . ولكنى مستعد للمساعدة فى أية خطة تؤهل المتحف البريطانى للإفادة من هذا الموقف .

وأضاف الوزير :

ـ تطالب أرملة اللورد كارنارفون ببعض الآثار المزدوجة طبقا للرسائل المتبادلة بينها وبين الحكومة المصرية .

وقال :

ـ أرجو إقناع الليدى بالتخلى عن هذا المطلب فى الوقت الحاضر لأن مصر لن تستجيب لها . ولندع المتحف البريطانى يحل محلها فى المطالبة بهذه الآثار .

وفى مقابل ذلك فإنى سأبذل جهدى لحث الحكومة المصرية على أن تدفع لك كل ما أنفقته .

ورغم أنى لست مفوضا بذلك بل عندى فكرة أن الحكومة البريطانية ربما تدفع لك هذا المبلغ .

وإنى أتوقع أن أسمع فى أية لحظة عن موقف الحكومة المصرية بالنسبة لكارتر وأحقيته فى التعويض العادل .

ووافق كارتر على وجهة نظر الوزير بأن يحصل المتحف البريطانى ـ بدلا من أرملة اللورد ـ على الآثار ، ثم سافر إلى القاهرة حيث التقى بالمندوب السامى البريطانى وأكد له مرة أخرى تأييده لسياسة الحكومة بالنسبة للقطع الأثرية .

* * *

ويلتقى المندوب السامى البريطانى بمحمد محمود باشا رئيس وزراء مصر يوم ١٠ من مايو ١٩٢٩ ويضغط عليه .

قال رئيس الوزراء :

ـ سأكون كريما فيما يتعلق بإهداء النسخ المكررة من الآثار للمتحف البريطانى ، ولكنى لن أهدى قطعة واحدة إلى جهات خاصة . . أى كارتر أو أرملة اللورد كارنارفون .

وقال رئيس الوزراء :

ـ لا نستطيع أن نهدى قطعا وندفع مالا .

طلب رئيس الوزراء من المندوب السامى أن يعد بيانا بالقطع المكررة تبحثه الحكومة ثم تقرر الهدية بعد ذلك .

حاول المندوب السامى البريطانى معرفة المبلغ الذى ستدفعه مصر لكارتر فلم يحدد رئيس الوزراء الرقم ، وقال إنه ربما يكون ٣٥ ألفا من الجنيهات .

* * *

طلب المندوب السامى البريطانى إلى كارتر البقاء فى مصر لإعداد قائمة الآثار .

وأصر اللورد على الحصول على القطع المزدوجة بتقديم إغراءات مالية لحكومة مصر .

قال لرئيس الوزراء :

ـ يمكن رفع الحرج عن الجميع وتحقيق فائدة للمتحف البريطانى إذا وضع المتحف البريطانى محل كارنارفون عند اختيار القطع التى يتم التنازل عنها للمتحف .

وفيما يتعلق بالتعويض المالى أقترح دفع المبالغ الزائدة التى أنفقها كارنارفون والتى تتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألف جنيه إسترلينى ، وترك المتحف البريطانى الذى سيحصل على النسخ المكررة يدفع نحو عشرة آلاف جنيه أخرى أو أكثر قليلا .

ويكتب المندوب السامى إلى لندن :

«وافق محمد محمود بسهولة على أن تصبح القطع من نصيب المتحف البريطانى ولكنه لا يزال متشددا تجاه حصة كل جانب من التعويض فهو يرى أنه لا يمكن أن يتخلى عن قطع مكررة من الآثار ، ويدفع تعويضا فى الوقت نفسه» .

وتراود الأحلام اللورد جورج لويد ورجال المتحف البريطانى فى الحصول على قطع كثيرة من آثار توت عنخ آمون.

* * *

تغيرت الوزارة فى بريطانيا فى ٥ من يونيو عام ١٩٢٩.

عاد حزب العمال مرة أخرى إلى الحكم برئاسة رامزى ماكدونالد، ولكنه لم يتول وزارة الخارجية بل أسندت إلى أحد قادة الحزب وهو آرثر هندرسون.

ولم ير العمال هذه المرة ما يدعوهم إلى عدم الحصول على آثار المقبرة أو الامتناع عن التدخل كما كان حال العمال مع سعد زغلول فى فبراير عام ١٩٢٤.

إن «انتهازية» العمال هذه المرة لا تقل عن انتهازية المحافظين!

* * *

استمر اللورد جورج لويد فى مهمته.

حدد القطع التى يريدها فى برقية إلى لندن فى ١٦ من يونيو ١٩٢٩، بعد ١١ يوما فقط من وزارة ماكدونالد.

قال المندوب السامى

«لا يمكن إعداد قوائم كاملة إلا بعد نقل القطع الباقية من الأقصر إلى القاهرة.

وأعتقد أننا نستطيع الحصول على بعض القطع الجيدة ويقدر ثمنها هنا بما يتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ جنيه للقطعة الواحدة والأقواس والعصى والشيلان، بالإضافة إلى التمثال الخشبى للملك الذى كنا سنحصل عليه على أية حال.

وهذه القطع هى:

١ ـ أحد التماثيل الذهبية الخاصة لطير جارح يمكن أن يساوى حوالى عشرة آلاف جنيه وهو أحد ثلاثة تماثيل لا تزال موجودة فى المقبرة بالأقصر ومن المؤكد أنها جميعا متشابهة.

وإذا كان الأمر كذلك بالفعل فإننا سنطلب من محمد محمود منحنا نسختين تخصص إحداهما لمتحف المتروبوليتان.

٢ ـ أريكة محاطة بأوراق الذهب لا بالذهب الصلب ولكنها تتطابق مع نسخة أخرى معروضة حاليا بالمتحف المصرى .

٣ ـ عقد مصنوع من المينا الحمراء والصفراء والذهب .

٤ ـ لوحة صغيرة للعبة الشطرنج مع القطع التابعة لها .

٥ ـ نسخة أو نسختان من التماثيل الذهبية للخدم .

وأفضل شىء يقوم به مندوب من المتحف يحضر إلى مصر فى نوفمبر ؛ حيث سيكون من الممكن التعرف على القطع التى توافق الحكومة المصرية على التنازل عنها باعتبارها نسخا مكررة .

وكأسلوب تكتيك نصحت محمد محمود خلال حديث لى معه أن يبعد عن ذهنه الاعتقاد القائل بأن المتحف البريطانى فى سبيله لشراء هذه القطع . . » .

إن اللورد أراد الحصول مجانا على كل ، أو بعض ، ما يبقى من الآثار !

* * *

كادت الصفقة أن تتم . .

ولكن يتدخل عامل غريب لإنقاذ الآثار من براثن الإنجليز .

توقفت المفاوضات بسبب سفر الملك فؤاد إلى برلين ولندن وتبعه محمد محمود إلى إنجلترا ؛ قاصدا التفاوض لعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا .

وبعد أسبوعين فقط قامت أزمة حادة بين آرثر هندرسون وزير الخارجية البريطانى واللورد جورج لويد فأبرق إليه فى ٣ من يوليو يستدعيه إلى لندن .

سافر اللورد فى ١١ من يوليو واجتمع بوزير خارجيته فى ٢٣ من الشهر نفسه فطلب إليه الاستقالة .

واضطر اللورد إلى تقديم الاستقالة .

وجاء السير برسى لورين مندوبا ساميا إلى مصر فى ٢ من سبتمبر ١٩٢٩ ، فوجد عهد اليد الحديدية يتهاوى فأوحى إلى رئيس الوزراء يوم أول أكتوبر ١٩٢٩ بالاستقالة فاستقال بعد ٢٤ ساعة !

وتولى عدلى يكن باشا رئاسة وزارة انتقالية أجرت الانتخابات ففاز الوفد .

وكان كارتر ينهى عمله فى المقبرة ، وبدأ بيير لاكو يسترد نفوذه الذى ضاع فى عهود الوزارات التى تقف مع الملك والإنجليز .

* * *

رأت السيدة المينا أرملة اللورد كارنارفون ألا تطلب تجديد امتياز التنقيب بعد انتهائه فى أكتوبر ١٩٢٩ بناء على نصيحة كارتر بعدما أوشك العمل على الانتهاء فى المقبرة . وظن كارتر أنه يستطيع إتمام الأعمال الباقية باتفاق مباشر بينه وبين مصلحة الآثار .

ولكن ما جرى كان شيئا آخر يختلف تماما عن توقعاته ، فبعد ٣١ أكتوبر ، أى بعد انتهاء الامتياز ، لم تعد له علاقة رسمية بالمقبرة ، أو صفة تسمح له بدخولها !

اتصل به السكرتير العام للمصلحة هنرى جوتييه قائلا :

ـ مفاتيح المقبرة لن تكون معك ، أو مع شيخ الخفراء . بل مع مفتش الآثار المحلى فى الأقصر الذى سينظم معك مواعيد العمل .

طلب كارتر من الأستاذ بيرسى نيوبرى الذى عين فى ذلك العام أستاذا للآثار والتاريخ القديم بجامعة فؤاد الأول ـ جامعة القاهرة ـ الوساطة .

أبلغه ـ فى ١٥ يناير ١٩٣٠ ـ نيوبرى أن وزير المعارف الجديد أحمد نجيب الهلالى قال :

ـ لا نستطيع السماح بتسليم مفاتيح ممتلكات حكومية لشخص ليس موظفا فى الحكومة المصرية ، ولكن يمكن ندب موظف حكومى يسافر إلى الأقصر يحمل المفاتيح ويكون تحت تصرف كارتر تماما .

رد كارتر :

ـ الباب الحديد ملكى ، وكل شىء فى المعمل ملكنا ـ أى ملك أسرة اللورد كارنارفون ـ وذلك عدا الآثار !

وأضـــاف :

ـ لا أفهم لماذا تمنع عنى المفاتيح فى هذه اللحظات الأخيرة .

ولكنه اضطر إلى تسليم المفاتيح بعد ٢٤ ساعة .

وهكذا أصبح كـارتر لا يستطيع دخول المعـمل الذى أقـامه ويملكه إلا بموافقـة مصلحة الآثا . ر فقد قال له بيير لاكو :

ـ لا تدخل المقبرة إلا بإذن مفتش الآثار المحلى .

توجه كارتر إلى دار المندوب السامى البريطانى الجديد يشكو همومه فى آخر يوم من أيام عام ١٩٢٩ .

وبدت التـعـاسـة على وجـهـه ـ وهو يصف أحـزانه لرجـال المندوب السـامى البريطـانى ـ كما أبرقوا إلى لندن .

وضـاعف من آلامـه أن الجنرال زوبرت هاتشنسـون أحـد الأوصـيـاء على ثروة اللورد كارنارفون زار مصر دون إبلاغه فقد عرف بوصوله من الصحف !

رغم ذلك بقى كـارتر فى مـصـر بهـذه الشروط التى كـان يـعتبـرها ، عـام ١٩٢٤ ، مهينة !

اللصــــوص

اكتشفت فى يوليو عـام ١٩١٤ مقبرة فى منطقة تعرف باسم (جبانة القـرود) قرب الأقصر . .

ولكن لصوص الآثار من قرية الفرنة تسللوا إلى المقبرة وسرقوها . .

أما حصيلة السرقة فهى ٢٢٥ قطعة أثرية معظمها مجوهرات لثلاث أميرات من أسرة تحتمس الثالث وقيل إنهن زوجات الملك .

وكانت المجوهرات مقسمة فى ٣ مجموعات كل منها لزوجة . . أو أميرة .

واتفق اللصوص على ألا يبيعوا الصفقة دفعة واحدة ، بل تباع بالتدريج ، ولأكثر من مشتر ، حتى يمكن الحصول على أكبر ثمن بعيدا عن مصلحة الآثار .

ولكن «كارتر» ظهر فى الصورة . .

اتصل عام ١٩١٧ بمدير متحف المتروبوليتان فى أثناء إجازة فى لندن واتفق على طريقة لخداع لصوص الآثار ومساومتهم . . والإقبال على الشراء مرة ، ورفض الشراء مرة أخرى ، وزيادة الثمن ، ثم تخفيضه ، على أن يشترك فى تقديم العروض أحد رجال المتحف فى مصر .

ويقدم كارتر عرضا ثانيا .

ويقدم اللورد كارنارفون عرضا ثالثا ، ويدعى الثلاثة أن كلا منهم يعمل لحسابه .

ولكن الحقيقة أن الجميع كانوا يعملون باتفاق كامل ويريدون شراء الـ٢٢٥ قطعة لحساب متحف المتروبوليتان .

ولأهمية الصفقة . . وخطورتها أيضا ، فإن المفاوضات وعملية الشراء استمرت ٥ سنوات كاملة من عام ١٩١٧ حتى مارس عام ١٩٢٢ حتى نجح متحف

المتروبوليتان فى استكمال الحصول على كل القطع بمبلغ ٥٣٣٧٩ جنيها إسترلينيا أى ٢٥٦,٣٠٥ آلاف دولار بسعر التحويل فى ذلك الزمان وهو مبلغ يعادل ـ الآن ـ أكثر من ٤ ملايين دولار.

وحصل كارتر على جزء من الربح وعمولة بلغت ٤٠ ألف جنيه.

لم يدرج متحف المتروبوليتان تلك الصفقة فى دفاتره إلا عام ١٩٢٦ وبعبارات غامضة؛ لأن الآثار هربت من مصر.

وتعتبر هذه المجموعة أغلى ما حصل عليه متحف المتروبوليتان من الآثار المصرية فى ذلك الحين.

هذه القصة التى رواها توماس هوفنج فى كتابه عن توت عنخ آمون تبين الصلة المشبوهة بين كارتر ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك، والمعاملات السرية بينهما للاستيلاء ـ بأية طريقة ـ على بعض آثار مصر.

وكان اللورد كارنارفون يعلم بالصفقة، وقيمة العمولة التى حصل عليها كارتر، وربما يكون ذلك أحد الأسباب التى دفعت اللورد للموافقة على تمويل عملية الحفر والتنقيب للبحث عن مقبرة الملك توت فى السنة الأخيرة التى أدت إلى الكشف.

وإذا كانت هذه أول العمليات المريبة المعروفة التى قام بها كارتر فى مصر، فإن هناك عمليات أخرى عرفت فيما بعد.

سافر كارتر إلى لندن ثم الولايات المتحدة يوم ٢١ من مارس ١٩٢٤ بعد إغلاق المقبرة وإلغاء الترخيص.

بعد سفره شكلت مصلحة الآثار لجنة برئاسة لاكو تضم أربعة من مفتشى المصلحة للتفتيش على محتويات المقبرة والمقابر المجاورة التى اتخذت مخازن لآثار الملك توت بعد ترميمها وتصنيفها.

دخلت اللجنة المقبرة مساء يوم ٣٠ من مارس فأخذت فى فتح الصناديق التى وضعت فيها الآثار تمهيدا لشحنها إلى القاهرة.

راجعت اللجنة الصناديق لتجدها مطابقة لما سجله كارتر عن محتويات المقبرة.

ولكن اللجنة وجدت صندوقا خشبيا كتب عليه «نبيذ أحمر»، يبدو أنه كانت بداخله زجاجات نبيذ اشتراها، أو استوردها، كارتر ومجموعته.

فتحت اللجنة، بطريق الصدفة، الصندوق، لتجد بداخله شيئا ملفوفا بالقطن والورق بعناية بالغة لحمايته - عند النقل - من الكسر.

وجد بداخل الصندوق رأس خشبي يقترب حجمه من الحجم الطبيعي، مغطى بغلاف رقيق وطلي برقة بالغة.

«كان الرأس الخشبي أعجوبة من أعاجيب النحت القديم، يكاد ينطق ويتنفس. الوجه شديد الوسامة ذو الشفاه الحساسة، والعيون الواسعة الصافية الداكنة السواد.

كان الوجه لصبي في التاسعة أو العاشرة من العمر، وبرز الرأس من قاعدة صغيرة محفور عليها رسوم لأوراق زهور اللوتس النيلي الزرقاء المقدسة.

وكان الصبي مرسوما على أنه الإله الشمس، ينطلق من الزهرة التي كانت أول ما نبت في بحيرة الخلق، وفقا لمعتقدات قدماء المصريين.

وأوحت القوة والثقة في الوجه بأنه أكثر من مجرد صبي؛ كان ملكا باعتباره الإله الشمس الذي يفسر واحدا من أقدم النصوص التي تقول: «هو الذي يبرز من زهرة اللوتس على التل العالي والذي يضيء بعينيه الأرضين».

كان، دون شك، تمثال توت عنخ آمون.

أيقظ «الريس حسين»، رئيس عمال الحفر لدى كارتر، وينلوك من نومه في منتصف الليل ليبلغه بما اكتشفته لجنة الآثار من محاولة سرقة رأس توت عنخ آمون.

بعث وينلوك إلى كارتر في أمريكا ببرقية بالشفرة المتفق عليها بينهم، وهي الأرقام بدلا من الكلمات.

قالت البرقية:

«عثرت البعثة الحكومية خلف المقبرة الرابعة على رأس منحوت وهي قطعة أثرية رئيسة ولكنها غير مصنفة.

تكون لدى البعثة انطباع سيّئ.

تم إبلاغ ذلك إلى سعد زغلول برقيا، وأرسلت بالقطار إلى القاهرة.

لحمايتكم قام لاكو وإنجلباك بإيهامهم أنكم قمتم بشرائها لحساب اللورد كارنارفون فى العام الماضى - ١٩٢٣ - من آثار إخناتون.

ونحن لا نعلم ما إذا كانوا قد صدقوا ذلك فعلا.

أرسل جميع المعلومات التى يمكنك إرسالها المتعلقة بأصل القطعة إن أمكن.

واذكر فى خطابك الإجراءات التى تشير علينا باتخاذها».

ولم يحاول بيير لاكو ورجاله إثارة فضيحة لأسباب كثيرة؛ فقد خافوا أن تتحول قضية المقبرة من خلاف محدود إلى مشكلة سياسية ضخمة، وأن تتهم كل البعثات العلمية بسرقة الآثار فتتوقف عمليات الحفر والتنقيب نهائيا.

ومن ناحية أخرى فإن الجميع كانوا فى حاجة إلى كارتر ليحفظ ويرمم الآثار.

* * *

ويبقى بعد ذلك سؤال مهم..

هل كان كارتر حسن النية فى حبه لآثار مصر، ومقبرة توت عنخ آمون؟ وهل وهب حياته للعلم فحسب؟

* * *

إن كارتر دخل مقبرة توت عنخ آمون سرا مع اللورد كارنارفون وابنته الليدى إيفلين ليلة الكشف.

وكانت المقبرة بكل ما فيها ملكا خاصا لهم فى تلك الليلة قبل تدخل مصلحة الآثار.

ومهما بلغت رقابة المصلحة ورجالها على كارتر فإنه ظل المسئول الأول عنها منذ ٢٦ من نوفمبر ١٩٢٢ حتى ١٣ من فبراير ١٩٢٤، وهناك أدلة ومستندات محفوظة فى متحف متروبوليتان فى نيويورك تبين ماذا فعل كارتر.. وماذا أخذ من المقبرة.

* * *

كتب آرثر ويجال عالم الآثار اليهودى الذى استقال من عمله كمفتش للآثار فى ظروف غامضة رسالة تحذير إلى كارتر يوم ٢٥ من يناير ١٩٢٣ محفوظة فى متحف متروبوليتان فى نيويورك عن إغلاق المقبرة فى وجه الصحفيين والزائرين .

وآرثر ويجال يعرف ـ نتيجة ماضيه ـ كيف تسرق الآثار !

فى هذه الرسالة قال :

«إنك ولورد كارنارفون ارتكبتما الخطيئة الأولى عندما اكتشفتما المقبرة وظننتما أن النفوذ البريطانى القديم فى هذا البلد لايزال قائما ، وأنكما تستطيعان فعل ما تريدان إلى هذا الحد أو ذاك ، كما تعودنا جميعا أن نفعل فى الأيام الخوالى .

لقد عثرتما على هذه المقبرة فى لحظة عندما كانت الحاجة ماسة إلى كل وسائل الدبلوماسية ، وأية خطوة خاطئة قد تلحق أكبر الضرر ببلدنا .

لقد فتحت المقبرة قبل أن تبلغ مندوب الحكومة ، ويقول أهل البلد جميعا إنك بذلك كانت لديك الفرصة لسرقة ما قيمته عدة ملايين من الجنيهات من الذهب .

وهم يقولون إنك أهنت بلدهم . .

لقد خرجتما أنتما الاثنين بلعنة من أشد اللعنات وقد بلغت الشعور المكثف الذى أثرتماه كليكما .

وفى متحف جريفيث بمعهد اشمولين فى أكسفورد توجد ، بين أوراق كارتر ، الرسائل المتبادلة بينه وبين العالم الأثرى السير الان جاردنر أستاذ الآثار ، وهذه الرسائل تكشف سر القطيعة بين الرجلين .

حدث خلال صيف عام ١٩٣٤ أن أعطى كارتر تميمة على شكل ساق حيوان لجاردنر مؤكدا له أنها لم تأت من مقبرة توت عنخ آمون ؛ ونتيجة لذلك أراها جاردنر لركس انجلباك الذى كان فى ذلك الوقت المشرف الرئيسى على متحف القاهرة قال : تأكد أنها من المقبرة لأنه كان هناك الكثير مثلها فى متحف القاهرة .

وعلى إثر ذلك قام جاردنر بإعادة التميمة إلى القاهرة وأرسل إلى كارتر نسخة من المراسلات التى جرت بينه وبين انجلباك فى هذا الشأن ، وكانت رسالة جاردنر تعوزها اللباقة .

ضاق كارتر كثيرا خاصة وأنه سمع أول ما سمع عن عودة التميمة من القاهرة؛ فكتب خطابا جافا إلى جاردنر يؤكد فيه اعتقاده بأن التميمة لم تأت من المقبرة.

وقال: إن رسالتك - يا جاردنر - مذهلة.

واختتم كلماته قائلا: «أعتقد يا جاردنر أنك سترى بعد إعادة التفكير أنه كان من الأفضل والأرق لو أنك نصحتنى بشأن الموضوع قبل أن تتخذ الخطوة التى اتخذتها.

وعلى أى حال سأعتبر ما فعلته صدر منك بنية حسنة.

* * *

وصدر عام ١٩٩٢ كتاب عنوانه «هوارد كارتر: الطريق إلى توت عنخ آمون»، ألفه «هارى جيمس» الأمين السابق للآثار المصرية بالمتحف البريطانى بمناسبة مرور سبعين عاما على اكتشاف المقبرة.

نجد فى الصفحة رقم ٣٨٨ هذه الفقرة بالحرف الواحد، والهدف منها الدفاع عن كارتر ولكنها في الحقيقة تعتبر إدانة له.

قال جيمس:

«ربما يكون كارتر قد أعطى بعض القطع الصغيرة لأصدقائه ولآخرين يشعر أنه صديق لهم بشكل خاص.

ومن المستحيل الآن تحديد ظروف أية هدية بعينها.

والمعتقد أن كل القطع تقريبا التى منحها من النوع الذى يمكن وصفه بأنه نثريات ومخلفات من قطع أكبر من المجوهرات، مثلا بقايا عمليات السلب السابقة التى قام بها اللصوص للمقبرة.

وهى لا تظهر أن كارتر كان مسرفا بشكل جنائى فى توزيع قطع توت عنخ آمون على الآخرين.

لقد كان مثل بيترى وغيره علماء الآثار فى ذلك الوقت الذين لديهم عادة إهداء قطع الآثار التافهة للزوار.

وكان من المعتاد أن يحمل زوار المتحف البريطانى معهم قطع آثار إلى أهلهم وأقاربهم أهداها إليهم كارتر وتحمل ضمنا طابع مقبرة توت عنخ آمون، وهذه القطع دائما قطع أصلية لكنها عادية جدا، يمكن أن تكون فى ذلك الوقت متناثرة فى جبانات طيبة ويحتمل أن كارتر كان لديه صناديق من هذه الهدايا الصغيرة وكانت القطعة التى تتميز بأهمية حقيقية من قطع توت عنخ آمون فى حوزته هى مسند زجاجى للرأس (وساده) بشريط من الذهب، وربما يكون كارتر قد حاول بيعها إلى كنج وولده بشارع «كنج ستريت» الذى كان يوما من أكبر المتعاملين فى الآثار المصرية فى لندن، وتشير رسالة من الشركة إلى كارتر بتاريخ ٢ مايو ١٩٣٠ إلى زبون محتمل (للوسادة).

وتتضمن الرسالة كلمات: «مع العلم بأنك تعتمد علينا فى أن تبقى العملية إذا تمت سرا مكتوما.

وأعتقد أن رجلنا يمكن وصفه بأنه رجل رياضى بحق - وآمل أن تدعنى أريها له».

ويشير خطاب آخر من سبنكس بتاريخ ٢١ مايو ١٩٣٠ إلى أن كارتر أخذ «الوسادة» وقطعا أخرى.

وحاول جيمس الدفاع عن كارتر فقال إنه لم يكن يحتاج إلى المال فى ذلك الوقت، وربما يكون قد أودع القطع لدى سبنكس للمحافظة عليها فى أثناء فترة قضائه فصل الشتاء فى مصر حيث كان يقدر ثمن مسند الرأس بمبلغ ١٥,٠٠٠ إسترلينى فى ذلك الوقت وفقا لسبنكس.

وقد يكون سبنكس قد جرب إمكانية بيعها عندما يتقدم زبون مناسب، وليس هناك دليل مقنع على أن كارتر اقترح البيع!!

وإذا كان قد عرض القطعة للبيع خلال السنوات التسع التالية؛ فإنها كانت فى حوزته عند وفاته!

وقال نيوبيرى فى خطاب إلى جاردنر: «إنه لم يكن لديه فكرة عن أن كارتر أخذ القطع من المقبرة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر.

وقال إنه وفقا لجرد كارتر نفسه فهو يقدر مسند الرأس بـ١٥,٠٠٠ إسترلينى والتقييم شىء والبيع شىء آخر.

ويظل الموقف عرضة للريبة بشكل محزن فيما يتعلق بكارتر لكن ليس بالشكل السيىء الذى يتطرق إليه التفكير أحيانا!

ويمكن القول بأن أى قطعة صغيرة جميلة للأسرة الثامنة عشر التى كانت توجد فى مجموعة خاصة أو تطرح فى السوق فى العشرينيات والثلاثينيات كانت غالبا ما تنسب بلا تردد إلى مقبرة توت عنخ آمون، والانتساب بالاستدلال أو بالربط يعتبر طريقة غير مؤكدة لتحديد المصدر أو تأكيد التصرف الخطأ لأحد مكتشفى الآثار».

وهذه الكلمات كلها مهما كتبت دفاعا عن كارتر فإنها فى الحقيقة إدانة له بجريمة سرقة توت!

وخلقوا فى أنحاء مصر انطباعا بأنهم يحاولون الحصول على بعض الآثار لبيعها فى الخارج.

وفى تقرير كتبه جلين السكرتير بدار المندوب السامى البريطانى يوم ٧ من فبراير ١٩٢٣ قال إن العلاقة بين اللورد كارنارفون وإنجلباك كبير مفتشى الآثار بالوجه القبلى كانت سيئة للغاية ـ فقد ملأت الأقصر ـ بعد اكتشاف المقبرة ـ إشاعات تقول إن اللورد كارنارفون اعتزم فتح الحجرة الداخلية للمقبرة سرا دون انتظار من مصلحة الآثار، وهو التصريح الذى يتطلبه ترخيص التنقيب.

وصلت هذه الشائعات إلى إنجلباك فرأى اتخاذ الاحتياطات اللازمة.

وقف ـ بصفة دائمة ـ على باب المقبرة فى ساعات العمل. وكان يزحف داخلها كل نصف ساعة ليراقب ما يجرى.

وضاق اللورد كارنارفون بهذا التجسس وبالطريقة الفظة التى يتصرف بها انجلباك وإن كان اللورد فى الوقت نفسه يعترف بحق مفتش الآثار فى ذلك.

وختم جلين تقريره قائلا:

إنجلباك عنيد للغاية.

وفى الاجتماع الذى جرى بين اللورد كارنارفون وعبد الحميد سليمان باشا عندما كان وكيلا لوزارة الأشغال فى فبراير ١٩٢٣، طلب اللورد صراحة إبعاد إنجلباك من الأقصر وقال عنه:

ـ إنه مزعج ملعون، وليس لبقا، أسلوبه عدوانى، يتجسس على العاملين معى طول الوقت.

وقد أصر على الوقوف داخل المقبرة وبذلك يعوق العمل ويزعج الرجال الذين يقومون بمهمة دقيقة.

واحتد اللورد وهو يقول:

ـ لن أستطيع الاستمرار فى العمل طالما بقى إنجلباك فى منصبه.

واقترح وقف العمل حتى يتم إبعاده.

رفض لاكو مدير مصلحة الآثار ذلك، وأيده عبد الحميد سليمان باشا.

ومن هذا كله يتضح أن هناك شكوكا قوية فى قيام اللورد وكارتر بسرقة، أو بمحاولة سرقة، بعض آثار الملك توت.

ويضاف إلى ذلك ما قاله توماس هوفنج عن دخول كارنارفون وكارتر المقبرة سرا مساء ٢٦ من نوفمبر ١٩٢٢ عند اكتشاف المقبرة.

ويؤكد هوفنج فى كتابه أن كارتر وكارنارفون سرقا سرا من مقبرة توت عنخ آمون ١٧ قطعة.. وصلت متحف المتروبوليتان فى نيويورك.

وقال لى هوفنج: إن إدواردز أمين القسم المصرى فى المتحف البريطانى أبلغه أنه مقتنع بأن كارنارفون وكارتر سرقا آثارا من مقبرة توت عنخ آمون.

وقال لى هوفنج: إن اللورد وكارتر فى ليلة ٢٦ من نوفمبر دخلا حجرات المقبرة الأربع دون إبلاغ الحكومة المصرية واستوليا على ما استطاعا من الآثار.

وذكر هوفنج فى كتابه القطع المسروقة، وقد رأيتها فى المبنى الذى أنشأه متحف المتروبوليتان للآثار المصرية.

وقد عرض المتحف هذه القطع فى غرفة خاصة قال المتحف إنها تمثل أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة، ولم يذكر المتحف أنها من آثار الملك توت عنخ آمون بالذات.

وللتمويه وضع المتحف داخل هذه الحجرة الآثار التى وجدها المليونير الأمريكى تيودور دافيز والتى ساعدت كارتر على اكتشاف المقبرة.

* * *

وحدد هوفنج فى كتابه ـ صراحة ـ القطع المسروقة التى عرف بأمرها وهى :

* خاتمان من الخزف الأزرق .

* اثنان من المسامير الفضية من تابوت الملك .

* قلادة أنيقة قصيرة وعريضة من الخزف .

* دمية من البرونز اتجه رأسها إلى الخلف كما لو أنها تستمع لنداء مفاجىء من سيدها .

* خاتم من الذهب عليه اسم توت عنخ آمون .

* مقبض مروحة ذهبية .

* صولجان مرصع بقطع من العقيق الأحمر .

* حلى على هيئة شارات عسكرية ، زخارفها دقيقة لا يمكن رؤيتها دون أجهزة تكبير مما يدل على الجهد الذى بذل فيها .

* ملء فنجان من سائل التحنيط المجفف .

* قطعتان من الخشب المطلى من المعبد الرابع .

* قطعة من النسيج البالى من الكفن الملكى .

* منسوجات فى جوال ضخم .

* قطعة من حجر الكوارتز مأخوذ من التابوت ذى اللون الوردى .

* جرو برونزى صغير رائع .

* صندوقان من العاج لأدوات التجميل .

* تمثال من العاج لكلب يجرى وفكه متحرك وتتدلى من عنقه قلادة .

* إناء فاخر للعطور من الألباستر طوله ٣ بوصات ويعتبر قطعة نادرة من الفن المصرى ، وتزين الإناء صور رائعة لفتيات رقيقات فوق زهرة لوتس .

* قطعتان فنيتان عبارة عن وجه ألوان وآخر للكتابة . . والاثنتان من العاج . وتحمل إحداهما فرشتين من الغاب .

* لوحة لغزال إفريقى ارتفع ٦ بوصات رسمت على العاج فى دقة بالغة .

* لوحة لحصان منحوته على العاج الملون، عينا الحصان من العقيق الأحمر، ولكن سقطت إحدى العينين .

والحصان يبدو أشبه بطائر ضخم يحلق فى الهواء بحركة رشيقة .

ولقد سجل متحف المتروبوليتان فى وثائقه أن بعض هذه الآثار من مقبرة توت عنخ آمون .

وسجل المتحف بالنسبة لبعضها أنها اشتريت عام ١٩٢٦ وهذا غير حقيقى . . وللتمويه .

وفى إحدى رسائل «كارنارفون» المحفوظة فى لندن والتى بعث بها إلى «كارتر» قال يصف له لوحة الحصان : «أعجب الجميع باللوحة التى اشتريتها من القاهرة، وقالوا إنها من الأسرة ١٨ وإنه لابد عثر عليها فى سقارة .

وكان اللورد يقصد التمويه فإن ملوك مصر لم يستعملوا سقارة مقرا للحكم منذ الأسرة الخامسة أى قبل ألف سنة من عصر توت عنخ آمون» .

والمقصود بشراء اللوحة من سقارة . . التمويه أيضا .

وتسربت بعض آثار توت عنخ آمون إلى متاحف أخرى مثل ٤ تحف اشتراها متحف بروكلين فى نيويورك من ورثة اللورد كارنارفون بعد وفاته . . مما يدل على أن اللورد أخذها من القبر . . واحتفظ بها حتى مات .

ووجدت ٤ تحف من آثار توت عنخ آمون فى متحف بروكلين فى نيويورك وهى :

* فتاة دقيقة الحجم من العاج تقف على قاعدة من الخزف الأزرق .

* قلادة عريضة من الخزف الأزرق .

* ملعقة دهان دقيقة منحوتة من العاج .

* زهرية صغيرة من الزجاج الأزرق .

وقد اشتريت هذه التحف من وسيط فى لندن اشتراها من ورثة هوارد كارتر .

وحرص المتحف لسنوات طويلة على إخفاء مصدر هذه التحف، ولكن أمين القسم المصرى ـ جون كونى ـ ذكر فى دليل المتحف عام ١٩٤٨ على الإشارة ـ تلميحا ـ إلى هذه القطع باعتبار أن لها صلة مبهمة بهوارد كارتر وتوت عنخ آمون ومقبرة ملكية مهمة من الأسرة الثامنة عشرة .

سئل أحد موظفى القسم المصرى عام ١٩٧٨ عما إذا كانت هذه الآثار جاءت من مقبرة توت عنخ آمون فقال :

ـ وهل هناك مصدر آخر ؟

ويعتقد جون كونى الذى أوصى بشراء القطع الأربع أنها من ذلك الكنز العجيب . . أى مقبرة الملك .

ويقول «توماس هوفنج» إن هذه الآثار تشبه فى أسلوبها وتصميمها ورقتها آثار المقبرة .

واشترى ثرى أمريكى اسمه جينول تحفة عن طريق وسيط فى نيويورك وهو جوزيف برامر حصل عليها من ورثة كارتر .

وهذه التحفة عبارة عن تمثال جرادة عاجية صغيرة بلغ من دقتها أن الحشرة تبدو وكأنها على وشك الطيران .

وقد أقرضها صاحبها لمتحف المتروبوليتان منذ عام ١٩٤٧ حتى الآن، ولا تزال تعرض فى المتحف وإن كانت ملكيتها رسميا لجينول وورثته .

وتحتفظ ٣ متاحف أمريكية أخرى ببعض آثار توت عنخ آمون .

* فى متحف سنسناتى نمر رائع من البرونز بعيون من حجر الكوارتز الشفاف العديم اللون يبحث عن فريسة وقد رفع ذيله إلى أعلى فى حذر .

وأدار رأسه الجميل جانبا .

* وفى متحف الفن بولاية كليفلاند توجد تعويذة صغيرة على شكل قطة منحوتة من حجر الهيماتيت الأسود .

* وفى قاعة وليم روكهيل نلسون «بكانساس سيتى» توجد قطع من الذهب المطعم من قلادة ملكية اشتريت بواسطة جون كونى أيضا .

وهاتان القطعتان أهداهما كارتر لطبيب أسنانه وقال له إنهما جاءتا من المقبرة . وقد باع الطبيب القطعة الذهبية لوسيط فى لندن .

وهناك ٦ قطع أخرى نقلها كارنارفون وهوارد كارتر من القبر ولكنها لم تترك مصر .

إحدى هذه القطع :

* حلية ذهبية تزين الكتف يظهر فيها الملك الشاب مندفعا إلى الأمام فى عربته الحربية وقد تحلى جزئيا بوشاح من الذهب الخالص بدا كما لو أن بذورا ذهبية دقيقة قد نثرت عليه .

وقد أهداها الملك فاروق للمتحف المصرى بالقاهرة قبل شهور من عزله .

والأرجح أن كارنارفون أخذها من القبر وأهداها للملك فؤاد .

وقد أنكر متحف المتروبوليتان منذ البداية حصوله على قطع من آثار توت عنخ آمون .

بقيت نقطة مهمة ، وهى أخطر ما يتعلق بهذا الكشف .

يوم افتتاح المقبرة بعث مراسل صحيفة التايمس من الأقصر يقول إنه وجد فى المقبرة صندوقا ملىء «بلفات» من الورق ستكشف عن معلومات تاريخية ضخمة .

وقد نشرت هذه البرقية فى صحيفة التايمس البريطانية والنيويورك تايمز الأمريكية .

وفى أول ديسمبر عام ١٩٢٢ أى بعد ثلاثة أيام من افتتاح المقبرة رسميا كتب اللورد كارنارفون رسالة إلى أرنست واليس بادج أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى قال فيها :

«وجدنا أبرز اكتشاف عرف فى مصر والعالم وجدنا صناديق لم أفتحها بعد ، ولكن يوجد فيها بعض أوراق البردى ، وأقداح ، ومجوهرات ، وباقات زهور ،

وشمعدانـات كـل هـذا فى الغرفـة الأماميـة بالإضافـة إلـى مواد أخرى كثيـرة لا نستطيع رؤيتها» .

نشر بادج هذه الرسالة فى كتاب أصدره عام ١٩٢٣ ، بعد وفاة اللورد ، وأهداه إليه وعنوانه «توت عنخ آمون ، الآمونية ، الآتونية ، والوحدانية المصرية» .

وأشار السير بادج إلى احتمال اكتشاف أوراق بردى فى المقبرة .

وقال :

«ربما يكون اللورد قد حصل من المقبرة على معلومات تضاعف ما نعرفه عن توت عنخ آمون ، فإذا كان قد فعل ذلك فإنه لم ينشر ما لديه» .

وأدلى السير آلان جاردنر بحديث لصحيفة التايمس يوم ٤ من ديسمبر قال فيه :

«إن اهتمامه الأول ينصب بصفة خاصة حول صندوق أوراق البردى الذى وجد فى المقبرة» .

وقال جاردنر إنه لا يعرف ما إذا كانت هذه الأوراق مجرد كتاب الموتى «الذى يوجد فى كل المقابر أم لا؟» .

ومن هذا يتضح أن اللورد وجد أوراق البردى داخل المقبرة طبقا لرسالته إلى السير بادج وكتاب أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى . . ؛ لأن اللورد رأى إبلاغ المتحف بكشفه الخطير .

ورغم ذلك فإن اللورد وكارتر أعلنا أنهما لم يجدا فى المقبرة ورقة بردى واحدة ، كما لم يجدا «كتاب الموتى» .

وفى كتاب «البحث عن ذهب توت عنخ آمون» تساءل الصحفى الأمريكى أرنولد براكمان عما إذا كان اللورد وكارتر قد صادرا هذه الأوراق فإن كل ما قاله اللورد ، فى رسالته إنه اكتشفه فى المقبرة ، وجد فعلا ؛ فلماذا اختفت أوراق البردى بالذات وما الذى يمكن أن يكون فيها من معلومات يهم اللورد وكارتر عدم إعلانها؟

الموضوع الوحيد هو العلاقة بين توت عنخ آمون والنبى موسى عليه السلام وهل كان توت عنخ آمون ، هو الفرعون الذى تم فى عهده خروج اليهود من مصر .

هناك عدة مدارس، أوعدة آراء في هذا الشأن، وهذا جانب منها:

الأول : يقول إن اليهود خرجوا من مصر في عصر رمسيس الثاني في أثناء الأسرة التاسعة عشرة؛ أي بعد عصر توت عنخ آمون.

والثانـــي: يقول إنهم خرجوا في عصر ميرنبتاح الذي خلف رمسيس الثاني.

والثـالـث: يقول إن اليهود طردوا من مصر في أواخر عصر توت عنخ آمون بواسطة قائده حور محب الذي أعلن نفسه بعد ذلك فرعونا لمصر، وصاحب هذا الرأي هو العالم والصحفي آرثر ويجال الذي تابع اكتشاف المقبرة في الأقصر.

وينادي بهذا الرأي أيضا عالم النفس سيجموند فرويد.

والرابـــع: يقول إن اليهود طردوا في أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة، لا في أواخرها أي قبل توت عنخ آمون.

والخامس: يرى أن اليهود لم يغادروا مصر دفعة واحدة بل غادروها خلال فترة ربما امتدت مائتي عام طبقا للفرص التي أتيحت لهم وعلى أساس حركات الشعوب وهجرتها.

وفي ظل هذه النظرية يكون توت عنخ آمون أحد الفراعنة الذين شهد عصرهم جانبا من خروج اليهود من مصر.

والخامس يرى أن اسم زوجة فرعون التي راودت سيدنا يوسف عليه السلام يشابه اسم زوجة توت عنخ آمون وربما تكون هي نفسها.

وإذا كان كارنارفون وكارتر قد عثرا على أوراق تكشف الحقيقة فما هي يا ترى، ولماذا اختفت الأوراق كل هذه المدة، وهل أعدمت لما فيها من أسرار؟

ولن تظهر الحقيقة إلا من خلال آثار أخرى، وأوراق بردي ربما تكون مدفونة - حتى الآن - في قلب الأرض المصرية تكشف عن هذه النقطة الغامضة وتزيح الستار عن سر وفاة توت عنخ آمون صغيرا.

وعلى أية حال فإن توت عنخ آمون فرض انتصارا ضخما على مصر والعالم.

كانت له حياة أخرى بعد حياته الأولى، وتحققت بالحرف الواحد الكلمات التي وجدت على تابوته، والتي تقول:

«رأيت الأمس، وعرفت الغد»!

حتى الملكة تنحنى!

عاد الوفد برئاسة مصطفى النحاس إلى الحكم يوم أول يناير عام ١٩٣٠ .

كان النحاس فى الرابعة والخمسين من عمره، تخرج فى مدرسة الحقوق وعين قاضيا، بدأ حياته السياسية فى الحزب الوطنى، واشترك فى ثورة عام ١٩١٩ ثم انضم للوفد. نفى مع سعد زغلول إلى جزيرة سيشل عام ١٩٢١ وعاد إلى مصر بعد الإفراج عن سعد عام ١٩٢٣ .

اختاره سعد وزيرا للمواصلات فى يناير ١٩٢٤ ومنحه الملك فؤاد رتبة الباشوية .

وعاد إلى المحاماة بعد استقالة الوزارة فى نوفمبر، وترافع عن أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى أمام محكمة الجنايات فى قضية الاغتيالات السياسية التى حكم فيها ببراءة الوزيرين الوفديين السابقين .

اختير وكيلا ثانيا لمجلس النواب عندما كان سعد رئيسا للمجلس .

وبعد وفاة سعد انتخب رئيسا للوفد ورئيسا لمجلس النواب .

تولى رئاسة الوزارة لأول مرة ٣ شهور عام ١٩٢٨ ، وأقاله الملك أحمد فؤاد .

وعاد رئيسا للوزراء بعد فوز الوفد فى الانتخابات فعين بهى الدين بركات وزيرا للمعارف الذى أصبحت تتبعه مصلحة الآثار .

كان محمد بهى الدين بركات فى التاسعة والثلاثين، درس القانون فى مصر وفرنسا، وعمل قاضيا بالمحاكم الوطنية والقضاء المختلط، وتولى منصب وكيل وزارة العدل .

وكان سعد زغلول خال أبيه فتح الله بركات باشا .

رأى الوفد أن ينهى - إلى الأبد - موضوع مناصفة آثار المقبرة بقانون يقره مجلس النواب بحيث يتعذر على أية وزارة، بعد ذلك، أن تفرط فى قطعة واحدة من آثار توت عنخ آمون.

وقدم محمد بهى الدين بركات وزير المعارف مذكرة إلى مجلس الوزراء يوم ٣٠ من مارس ١٩٣٠ قال فيها:

«أسفر التنقيب عن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون التى حوت من نفيس التحف الأثرية ما كشف عن صفحة مجيدة من تاريخ مصر القديم، وأضاف إلى كنوز المتحف المصرى أكبر ذخر تركه الماضى للحاضر.

واتجهت نية الحكومة طورا إلى أن تجامل عائلة اللورد كارنارفون بمبلغ من المال، وطورا إلى أن تمنح الحكومة العائلة جمعا مختارا ذا قيمة من الأشياء المزدوجة التى لا يترتب على إخراجها من المجموعة ضرر علمى.

ومنذ حين طلبت عائلة كارنارفون أن تبت الحكومة فى تعويضها عما احتملته من النفقات والمتاعب.

وقدرت النفقات بمبلغ ٤٢,٩٣١ جنيها حسبما هو مفصل فى دفاتر المستر كارتر الذى قام بالتنقيب.. منها مبلغ ٧٩٦٠ جنيها يوازى ما احتمله متحف نيويورك الذى عاون فى أعمال التنقيب.

وترى وزارة المعارف العمومية أن المنقبين أهل لأن يكافئوا على ما تحملوه من المتاعب والنفقات.

ولا ترى النظر فى مكافأتهم بمجموعة من التحف المكتشفة، ولو أمكن الاستغناء عن بعضها بلا ضرر علمى؛ فإن الأليق بمصر أن تحتفظ بمجموعتها الفريدة وأن تصونها من التجزئة.

ولهذا السبب تقترح وزارة المعارف أن يكافئوا خصوصا وأن نصف هذه النفقات صرف فى ترميم وإصلاح وربط ونقل ما استخرج من التحف الأثرية، وهذا الترميم لم يكن واجبا على المنقبين بمقتضى الاتفاق ولكنهم تطوعوا به مجرد تطوع.

يضاف إلى ذلك أن الحكومة طلبت إلى المنقبين الإذن للجمهور بزيارة المقبرة فى أثناء مواسم العمل فى سبع سنين متوالية، فتضاعف زمن التنقيب وزادت النفقات.

ويلاحظ فوق ما تقدم أن اكتشاف المقبرة زاد فى إيرادات مصلحة الآثار ونشط السياحة إلى مصر مواسم متعددة.

وبما أن مجموع النفقات قد بلغ ٤٢,٩٣١ جنيها احتمل منها متحف نيويورك ما يساوى مبلغ ٧٩٦٠ جنيها؛ لهذا تقترح وزارة المعارف إرجاء النظر فى أمر المبلغ الأخير وأن يُفتح اعتمادٌ بمبلغ ٣٤,٩٧١ جنيها.

بحثت اللجنة المالية الوزارية مذكرة المعارف فى اجتماع تم يوم أول إبريل، أى بعد يومين، برئاسة محمود فهمى النقراشى باشا وزير المواصلات، الذى كان يتولى فى ذلك الوقت منصب وزير المالية أيضا بالنيابة بدلا من مكرم عبيد باشا لسفره للخارج.

قررت الموافقة على الاعتماد، ورفعت الأمر إلى مجلس الوزراء الذى وافق عليها يوم ٣ من إبريل، وأحيل إلى مجلس النواب مشروع قانون بفتح اعتماد بمبلغ الـ٣٤,٩٧١ جنيها يصرف كمنحة لورثة اللورد كارنارفون.

فقرر المجلس بجلسة ٧ من إبريل إحالته إلى لجنة المالية والتجارة والصناعة.

ناقشت اللجنة المشروع فى ٣ جلسات عقدتها فى ١٤ و٢٨ إبريل وأول مايو ١٩٣٠ وقررت وقف نظر المشروع حتى تقدم وزارة المعارف الأوراق الدالة على أن الورثة قبلوا المبلغ.

عرض تقرير اللجنة على مجلس النواب يوم ٦ من مايو ١٩٣٠ لمناقشته، فقال بهى الدين بركات باشا وزير المعارف:

«خصص لآثار توت عنخ آمون جناح خاص فى دار الآثار المصرية وربما كانت أجمل جناح فى الدار.

وطلبت الليدى كارنارفون إعطاءها أشياء من التحف.

ودارت مخابرة مع وزارة سابقة فرأينا من الأنسب أن نعوض الورثة مالا.

وفعلا تكلمنا معهم فلم يحددوا مبلغ التعويض.

وهم لا ينازعون الآن فى أخذ هذا المبلغ على سبيل المنحة.

وقلنا للجنة المالية لمجلس النواب أضيفى ما تشائين من الشروط حتى لا يكون فى هذا العمل أدنى مسئولية على الحكومة.

وعندما تقول لنا اللجنة: أين المكاتبات؟ فنحن نقول: لا توجد مكاتبات وغاية الأمر أننا نقبل كل الشروط التى تراها اللجنة».

قال عضو مجلس النواب حسين هلال بك:

- طلبت اللجنة تفصيلات من الوزارة، وتعيد إليها الموضوع ولا نريد رفضه بل نريد بحثه.

قال رئيس مجلس النواب ويصا واصف بك:

- وزير المعارف يقول لا توجد مكاتبات.

قال الدكتور زكى ميخائيل:

- تريد اللجنة أن تستوثق هل حددت عائلة كارنارفون هذا المبلغ أم لا.

عبدالعزيز الصوفانى: يعاد الموضوع إلى الوزارة بدون إبداء رأى من المجلس حتى يمكن بحثها.

راغب إسكندر: القصد إعطاء المجلس سعة من الوقت لدرس الموضوع.

ويصا واصف بك: «أنا مش فاهم طالبين إيه».

محمد زغلول باشا: «احنا عاوزين مدة طويلة».

الرئيس: تعاد إلى اللجنة مرة ثالثة.

* * *

عقدت اللجنة المالية اجتماعا رابعا فى ٣ من يونيه وعرض الموضوع على مجلس النواب للمرة الثانية فى ٥ من يونيه ١٩٣٠ فتلا ميخائيل غالى مقرر اللجنة تقريرها وقال بعد أن شرح قصة الحفريات:

إن الحكومة المصرية كانت مستعدة دائما للنظر فى أمر المنقبين بعطف ورعاية.

بعد فتح مقبرة توت عنخ آمون تبين أنها ليست من المقابر التى يحق للمرخص له

أن يستولى على جزء من محتوياتها . وليس للمنقبين الحق فى أى شىء من محتويات المقبرة وبالتالى لا يكون لهم أى حق فى تعويض ما .

غير أن اللجنة ترى الموافقة على الاعتماد المطلوب على اعتبار أنه هبة ومنحة لا حق .

حسن يس أفندى ـ وزارة المعارف العمومية غير ملزمة وكان اللورد كارنارفون من المولعين باستكشاف الآثار فضلا عن أنه كان يملك ثروة طائلة ، حتى أن الإسطبلات التى يملكها تشبه القصور العامرة ، وأظن أن ورثته ليسوا فى حاجة إلى مثل هذا المبلغ الذى له قيمة كبيرة فى الوقت الحاضر .

محمود سليمان غنام أفندى ـ على أى أساس تم تقدير هذا المبلغ؟

بهى الدين بركات باشا ـ قدر هذا المبلغ على أساس المصاريف التى أنفقها اللورد والليدى كارنارفون فى سبيل الوصول إلى هذه المكتشفات ، وصيانتها ، ونقلها ، وكانا ينقلان هذه المكتشفات على حسابهما الخاص بطريق السكة الحديد المصرية ، كما أن نفقات ترميم هذه الأشياء كانت تدفع من مالهما الخاص .

محمود سليمان غنام أفندى ـ أشيع وقت العثور على هذه المكتشفات أن بعضها تسرب إلى الخارج فهل تحققت الوزارة من عدم صحة هذه الإشاعة؟

ميخائيل غالى مقرر اللجنة ـ بحثت لجنة المالية هذا الأمر واتصلت بوزارة المعارف العمومية فقررت الوزارة ـ بناء على تأكيدات من المسيو لاكو مدير مصلحة الآثار ـ أنه لم يتسرب شىء من هذه المكتشفات مطلقا ، وأن مراقبة مصلحة الآثار المصرية كانت دقيقة ، وأن العمال الذين كانوا قائمين بالعمل لا يمكن أن يقدموا على أمر مثل هذا .

محمود سليمان غنام أفندى ـ قلت إنها أشاعة وأردت التثبت منها .

عبدالمجيد الرمالى أفندى ـ أعرف أن هناك عقد اتفاق بين الحكومة واللورد كارنارفون فهل ورد به نص على دفع النفقات؟

ويصا واصف رئيس مجلس النواب ـ هذا المبلغ يراد إعطاؤه على سبيل المنحة .

محمود سليمان غنام أفندى ـ ومن الذى اقترح منح هذه المنحة؟

بهى الدين بركات باشا ـ كان اللورد كارنارفون غنيا فى أثناء حفرياته، ولكن بعد وفاته أصبحت حالة أسرته على غير ما كانت عليه فى أثناء حياته. وليس لى أن أتدخل فى الأسباب التى أدت إلى هذا لأن ذلك ليس موضع بحث.

الرئيس ـ هل توافقون على مشروع القانون؟

وافق الأعضاء على فتح اعتماد بمبلغ ٣٤٩٧١ جنيها بأغلبية ١١٠ أصوات ضد ١٦ صوتا.

وكان بين الموافقين محمد زغلول باشا الذى كان وكيلا لوزارة الأشغال، والذى أبلغ كارتر بمنع زوجات مساعديه من دخول المقبرة، وكان ذلك سببا مباشرا للأزمة.

وكان بين المعارضين عباس محمود العقاد، ومحمود سليمان غنام، وحسن يس.

ولم يكن مقرر اللجنة المالية لمجلس النواب ميخائيل غالى يعرف، وهو يؤكد للنواب أن شيئا من الآثار المصرية لم يسرق من مقبرة توت عنخ آمون، أن كارتر سرق أشياء كثيرة!

ولم يدرك لاكو مدير مصلحة الآثار الذى ظل فى منصبه طوال هذه المدة أن جانبا من الآثار قد سرق وهو لا يدرى!

* * *

عرض مشروع القانون بعد ذلك على مجلس الشيوخ يوم ٩ من يونيه ١٩٣٠ فأحاله إلى اللجنة المالية التى وافقت عليه وعرض على المجلس بعد أسبوع فى ١٦ من يونيه.

تساءل شيخ واحد وهو محمد كامل صدقى بك قائلا:

ـ هل ارتضت الأسرة قبول هذا المبلغ وليست لها مطالب أخرى؟

قال محمد بهى الدين بركات بك:

ـ هذا المبلغ منحة وستكون المخالصة صريحة فى أنه ليس للأسرة حق المطالبة بأى شىء آخر.

قال كامل صدقى :

ـ ألا يخشى الوزير قبل أخذه المخالصة أن تتعدى مطالبها هذا المبلغ بعد أن يكون قد تقرر لها بقانون ملزم للحكومة بالدفع .

رد الـوزيـر :

ـ ليطمئن حضرة الشيخ المحترم أصرح بأنه سبق أن تخاطبنا مع الأسرة، وهى على استعداد لإعطاء المخالصة على الصورة التى تطلبها .

وافق ٦٨ عضوا وعارض شيخ واحد .

تسلمت السيدة المينا قيمة التعويض من مصر ، وقدره ٣٤٩٧١ جنيها مصريا وهو يعادل ٣٥٨٦٧ جنيها إسترلينيا و١٣ شلنا و٨ بنسات ؛ فإن قيمة الجنيه المصرى فى تلك الأيام كانت تفوق قيمة الإسترلينى !

دفعت السيدة المينا لكارتر ربع هذا المبلغ وهو ٨٥٥٨ جنيها إسترلينيا وشلنين و٩ بنسات .

وهـذا المبلـغ هو أتعـاب كارتـر عن اكتشاف المقبـرة ونقـل آثارها من الأقصر إلى القاهرة .

ولم يأخذ متحف متروبوليتان فى نيويورك شيئا عن مساهمته فى هذا العمل التاريخى !

* * *

استقالت وزارة مصطفى النحاس يوم ١٨ يونيو وتولى رئاسة الوزارة إسماعيل صدقى باشا .

كتب السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى فى سبتمبر عام ١٩٣٠ إلى وزارة المعارف المصرية يقول : إن المتحف البريطانى يرغب فى الحصول على الآثار المكررة من آثار توت عنخ آمـون ، ولا ضـرر مـن ذلك لأن الحكومـة المصـريـة لم تراع فى أثناء تسوية المسألة مـع أسرة اللورد أن يدخـل المتحـف البريطانـى طرفـا فى الموضوع .

نشرت الصحف هذا النبأ. فأشهرت الأقلام المصرية تدافع عن قبر الملك الفرعوني وتقول إن قرارالبرلمان المصرى نهائى، وإن الحكومة المصرية لا تستطيع أن تتنازل عن قطعة واحدة من الآثار!

اضطر المندوب السامى السير برسى لورين إلى الرد عن طريق صحيفة «الإجبشيان جازيت» الناطقة باللغة الإنجليزية والتى تعبر دواما عن رأى المندوب السامى.

قالت:

- إن اقتراح حصول المتحف على الآثار المكررة من المقبرة قدم فى وقت سابق قبل قرار البرلمان.

وقد أراد المتحف البريطانى أن يسجل أمله فى الحصول على القطع المزدوجة إذا رغبت الحكومة المصرية فى التصرف فيها باعتبار أن الكشف الذى قام به اللورد يعطى المتحف اهتماما خاصا بهذه الآثار، ولذلك يريد أن تكون له أولوية الحصول على معظمها.

واعترفت الصحيفة بأن دار المندوب السامى أبدت هذه الرغبة لحكومة مصر.

وهاجمت الجازيت تسريب الأخبار إلى الصحافة الوطنية!

وقالت دار المندوب السامى «إن المتحف البريطانى يتمنى أن يكون أول من يعرض هذه الآثار خارج مصر»!

ولكن هذا الأمل لم يتحقق لبريطانيا فقد عرضت بعض الآثار فى دول أخرى، ولم تعرض فى المتحف البريطانى إلا بعد ٤٢ عاما!

وكان واضحا من هذا الخطاب أن بريطانيا لم تيأس أبدا من الحصول على آثار من المقبرة.

* * *

بقى كارتر فى مصر حتى آخر فبراير ١٩٣٢ عندما استطاع أن ينقل إلى المتحف المصرى بالقاهرة آخر قطعة أثرية من الخمسة آلاف قطعة تقريبا التى ضمتها تلك المقبرة التى لم تتجاوز أربع حجرات بعد ١٠ سنوات كاملة من اكتشافه التاريخى.

واكتفى المتحف بعرض ١٧٠٣ قطع غير مكررة.

* * *

أمضى كارتر السنوات العشر الأخيرة من حياته يحفظ ويرمم ويسجل كل آثار المقبرة وألف كتابا عن قبر توت عنخ آمون فى ثلاثة أجزاء ضمت نحو ألف صفحة ولكنه اعتبر مجرد مذكرات شخصية تروى قصة الكشف، وأنها تمهد للعمل العلمى الذى ينبغى أن يقوم به.

وقد ترجمت مذكرات كارتر الثلاثة التى صدرت باللغة الإنجليزية إلى الألمانية والهولندية ولم تترجم إلى العربية!

وقدر - عام ١٩٢٦ - نفقات إصدار السجل العلمى لمذكراته عن الآثار بمبلغ ١٥٠ ألف دولار، وارتفع التقدير إلى الضعف عام ١٩٦١ وقيل إن الرقم يصل الآن إلى نصف مليون دولار.

ولكن الرقم ارتفع أخيرا إلى مليون دولار باعتبار أنه يجب أن يصدر هذا السجل العلمى عن المقبرة بمحتوياتها وما كشفت عنه من فصول التاريخ القديم فى عشرة أجزاء كل جزء فى ألف صفحة، وهذه الأوراق محفوظة الآن فى معهد «جريفيث» فى أكسفورد بإنجلترا.

وكان هناك اتفاق ضمنى مع مصر على أن تصدر هذه المجلدات ويشترك فيها مع كارتر عدد من أساتذة الآثار، ولكن المشروع توقف بعد عزل فاروق.

* * *

عاش كارتر فى إنجلترا بعد انتهاء عمله سبع سنوات، لاحقه المرض ست سنوات منها فلم يستطع أن يصنف آلاف البطاقات التى سجل عليها أدق التفاصيل فى عملية توت عنخ آمون، وكان تحليل وتصنيف البطاقات يعنى أن يبدأ العمل كله ثانية من البداية ولم يعد يقوى على ذلك كما لم يعد لديه المال.

وخلال السنوات الأخيرة من عمره ظل كارتر يتنقل بين القاهرة والأقصر، يرتدى بدلة رجل إنجليزى من ٣ قطع - بما فيها الصديرى - متشبها باللورد كارنارفون!

وكان يجلس الساعات الطويلة فى قاعة الاستقبال بفندق «ونتر بالاس» بالأقصر فيرحب به الجميع ويسعد هو بالحديث عن الكشف الذى وقف حياته عليه، ويروى كيف أمضى ٤٠ عاما فى مصر منذ وصل إليها عام ١٨٩١، أمضى منها خمس سنوات فى البحث عن توت عنخ آمون، وعشر سنوات فى تفريغ المقبرة من محتوياتها.

ولكن كارتر بقى على صلفه.

التقى فى باريس عام ١٩٣٤ بسيدة فرنسية قالت له:

ـ ألا تذكرنى يا مستر كارتر، تقابلنا فى الأقصر عام ٢٣ وجعلتنى أشاهد المقبرة.

أجاب بوقاحة:

ـ يا سيدتى لا يمكن أن تلومينى على ذلك، فى ذلك الشتاء قابلت ٧٨٦٤٢ شخصًا وساعدت معظمهم على دخول المقبرة!

ولم يعد كارتر إلى التنقيب عن الآثار وكأن كل حياته كانت وقفا على قبر توت عنخ آمون، ولم يستطع، أو ربما لم يفكر، فى تنفيذ أحلامه القديمة فى البحث عن الآثار فى أثيوبيا.

وكان قد قرر فى وقت من الأوقات أن ينقب عن قبر الإسكندر الأكبر فى مدينة الإسكندرية.

وقال بعض العلماء إن كليوباتره نهبت ذهب قبر الإسكندر الأكبر لسداد ديونها.

وقال آخرون إن قيصر وأنطونيو هما اللذان نهبا القبر، ولكن كارتر قال إن المليونير الأمريكى «تيودور دافيز» أعلن أنه اكتشف قبر توت عنخ آمون ولم يكن ذلك صحيحا، وليس صحيحا أيضا ما قيل بالنسبة لقبر الإسكندر الأكبر.

ورأى كارتر أنه يمكن الوصول إلى القبر.

كرمت جامعة بيل الأمريكية كارتر فمنحته درجة الدكتوراه الفخرية، وجعلته أكاديمية التاريخ الإسبانية فى مدريد مراسلا لها.

واستقبله رئيس جمهورية الولايات المتحدة مرتين، ولكن لم يستقبله ملك إنجلترا، ولم يدع أبدا إلى رقم ١٠ داونتج ستريت مقر رئيس وزراء بريطانيا.

وعندما منح وساما من ملك بلجيكا تلقى فى ٢٠ مايو ١٩٢٦ رسالة من قصر باكنجهام الملكى البريطانى يمنعه من وضع الوسام على صدره فى إنجلترا بل فى بلجيكا وغيرها فحسب!

ولكنه منح ـ عام ١٩٢٦ ـ وساما من ملك مصر ووافق المندوب السامى البريطانى فى القاهرة على أن يتحلى به!

وكان متوقعا أن يرفع المندوب السامى مذكرة إلى الملك جورج الخامس لمنح كارتر لقبا أو وساما مكافأة على هذا الكشف التاريخى، ولكن المشكلات التى أثارها كارتر ـ أضاعت عليه هذه الفرصة!

وكان هاينريش شليمان الألمانى، مكتشف ذهب طروادة وآثارها، قد كرمه قيصر بلاده واستقبله رئيس وزراء بريطانيا ومنحته جامعة أكسفورد درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون، واختارته كلية الملكة «كوينز كوليدج» زميلا فخريا.

ولكن الجامعات البريطانية والمصرية امتنعت عن تكريم كارتر مع أنه بقى فى مصر أكثر من أربعين عاما يحفر وينقب عن الآثار.

ورفض الأثريون البريطانيون اعتباره واحدا منهم لأنه لم يتلق تعليما فى مدرسة أو جامعة.

ونظر اللوردات والنبلاء إليه على أنه خدم أحدهم وهو اللورد كارنارفون!

وظل الجميع يعاملونه فى ظل الأصول الطبقية على أنه من «الناس اللى تحت»!

وحدث فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٣٢ أن نشرت صحيفة «كامبردج ديلى نيوز» عن محاضرة عامة ألقاها «جيمس أوجدين» عن اكتشاف مقربة توت عنخ آمون.

قال أوجدين:

ـ كارتر لم يكتشف المقبرة، بل اكتشفها رئيس العمال المصرى. لقد سافر كارتر إلى القاهرة لمدة أسبوع، وخلال هذه الفترة قام رئيس العمال بإزالة «الرديم». وكانت التعليمات لديه من كارتر أن يحفر شمالا، ولكنه اتجه جنوبا، عكس التعليمات، ومن هنا وجد المقبرة وكان الاكتشاف بالصدفة.

اضطر كارتر إلى إنذار «أوجدين» وألزمه بتصحيح ما قاله، فاستجاب ونشر التصحيح.

ولكن الواقعة نفسها تبين أن المناخ المحيط بكارتر لم يعد كما كان، وأن المكتشف أزيلت من حوله الهالة التى أحاطت به قبل عشر سنين!

وأقام المتحف المصرى تماثيل نصفية - فى حديقته - لعلماء الآثار ولصوصها أيضا مثل ماربيت، وماسبيرو، وبروكش، وليبسيوس، وغيرهم ولكن المتحف لم يضع تمثالا لكارنارفون أو كارتر!

* * *

مات هوارد كارتر يوم ٢ من مارس عام ١٩٣٩ ليلة عيد ميلاده السادس والستين فنعته الصحف البريطانية التى طالما هاجمته وحاربته وقالت إنه من «عظماء رجال علم المصريات».

«حاز الشهرة لدوره فى أنجح عملية فى تاريخ الآثار وأكثرها إثارة وهى اكتشاف وفحص مقبرة توت عنخ آمون، وكان العثور على المقبرة فى حد ذاته انتصارا، لكن العثور عليها كاملة لم يمسسها أحد كان يفوق شطحات أحلام علماء الآثار المصرية القديمة، فالمقابر الملكية كانت دائما فريسة لنهب اللصوص فى الأزمنة الغابرة. وقد أثار هذا الاكتشاف اهتمام العالم المتمدين كله أكثر مما أثاره أى نجاح أثرى آخر على مر العصور».

ونشرت صحيفة الأهرام المصرية نبأ وفاة كارتر يوم ٤ من مارس وروت فى سطور قليلة قصة حياته.

ودفن يوم ٦ من مارس، ولم يشيع جنازته سوى عدد محدود من الأشخاص بينهم الليدى إيفلين كريمة اللورد كارنارفون والتى أحبته فى شبابها وفتنت بعلمه وشخصيته.

* * *

بعد شهر من وفاة كارتر سمحت مصر لإذاعات العالم «بنفخ» نفيرى الملك توت عنخ الفضى والنحاسى اللذين وجدا فى المقبرة وكأنهما علامة وداع لكارتر أو استقبال توت عنخ آمون له!!

ظل الإنجليز يحلمون بآثار الملك توت خمسين عاما حتى سمحت مصر بعرض هذه الآثار فى الخارج على أن يستغل الإيراد لإنقاذ آثار النوبة ومعبد «أبو سمبل» .

عرضت خمسون قطعة - بينها قناع الملك - فى معرض مدينة طوكيو نظمته صحيفة «أساهى» اليابانية عام ١٩٦٦ .

وأقيم معرض ثان لهذه الآثار عام ١٩٦٧ فى «المتحف الصغير» فى باريس نظمته الحكومة الفرنسية .

ورأت صحيفة «التايمس» البريطانية أن تستعيد ذكرى عقد احتكارها القديم فنظمت معرضا للقطع الخمسين فى المتحف البريطانى .

استغرقت المفاوضات لعرض هذه الآثار ٣ سنوات .

وعقد اتفاق لهذا الغرض نص فيه على التأمين على الآثار المصرية بمبلغ ١٠ ملايين جنيه .

وتم التأمين على الآثار بمعدل عشرة آلاف جنيه عن كل كيلو . . بينما كان ثمن كيلو الذهب - فى ذلك الوقت - نحو ألف جنيه . . فكأن قيمة الكيلو من هذه الشحنة عشرة أضعاف كيلو الذهب!

وأمن على قناع توت عنخ آمون وحده بمبلغ مليون جنيه فى سوق لندن .

وأمن على إحدى القلادات وفيها جعران يحمل قاربا وهو من الأحجار نصف الكريمة بمبلغ نصف مليون جنيه .

وأمن على سرير محمول على بقرتين بنصف مليون جنيه .

وأمن على قلادة يعلوها قرص الشمس بمبلغ ٣٠٠ ألف جنيه .

ولم يقل التأمين على أية قطعة من القطع الخمسين التى يضمها المعرض عن خمسة آلاف جنيه وهو المبلغ الذى أمن به على عصا الرماية المعقوفة وهى عصا صغيرة من الخشب .

واتفق على اتخاذ إجراءات غير عادية لحماية المعروضات؛ بحيث لا يزيد عدد الزوار داخل المتحف فى أى وقت، على ألف شخص، والأعداد تراقب أتوماتيكيا .

شهدت افتتاح المعرض فى لندن فى مارس عام ١٩٧٢ .

نقلت آثار الملك إلى لندن ٣ طائرات الأولى حربية والثانية والثالثة بوينج ٧٠٧ ونقلت كل طائرة ألف كيلوجرام من آثار الملك ، وكان عدد الحراس داخل كل طائرة يفوق عدد الذين تولوا حراسة السير اليك دوجلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا ، ورئيس وزرائها فيما بعد ، عندما زار مصر قبل ذلك بعام .

أشرف على شحن الصناديق الدكتور زكى إسكندر مدير عام مصلحة الآثار . . وهو كيميائى .

حرص على علاج الآثار كيميائيا وتغليفها وشحنها وملء صناديقها ببلاستيك . . ووضع كل صندوق داخل عدة صناديق مبطنة حتى تستطيع الآثار مقاومة الضغط الجوى . . والحريق !

ووصلت الطائرة بشحناتها إلى قاعدة جوية قرب مدينة أكسفورد .

قال الدكتور زكى إسكندر لمندوب الشركة البريطانية الفرنسية التى تخصصت فى تغليف هذه الشحنات الغالية :

ـ انتهى الفصل الأول من مهمتكم .

رد مندوب الشركة :

ـ إننا عندما نقلنا لوحة «الجيوكندا» من فرنسا لأمريكا بالباخرة اتخذنا الاحتياطات ليسبح الصندوق الذى شحنت فيه لوحة ليوناردو دافنشى . . إذا سقطت الطائرة والصندوق فى البحر !

وقام السلاح الجوى البريطانى بنقل آثار الملك من القاعدة الحربية حتى المتحف البريطانى .

كان فى انتظار كل طائرة خمسون من جنود أسكوتلاند يارد راكبى الموتوسيكلات لا يعرفون شيئا عن الشحنة . . ولا عن الطريق الذى سيسيرون فيه . . ويتلقون فى أثناء الرحلة من المطار حتى دار المتحف تعليمات لاسلكية تحدد لهم الشوارع التى يخترقونها .

وكانت أسكوتلاند يارد، عن طريق العقول الإليكترونية، تفتح إشارات المرور أمام شحنة الآثار المصرية حتى وقفت أمام المتحف البريطانى حيث الحراسة خيالية .

وعندما استقرت الصناديق فى الدور الأول من دار المتحف . . أحس الجميع بالأمان . . فقد أقيمت شبكة إليكترونية للحراسة . . وانتشرت عدسات التليفزيون فى كل حجرة .

وأصبح مستحيلا اختراق أرض المتحف لأى عصابة من لصوص الآثار فإن أجراس الإنذار تدق فى كل إدارات الشرطة فى العاصمة البريطانية . . عند أية محاولة للسرقة .

وقام رجال الشرطة بمراقبة الجمهور بعدسات تليفزيونية دون أن (يندسوا) وسط الزوار!

* * *

فرض الملك توت عنخ آمون نفسه على إنجلترا والإنجليز .

قالوا :

- كان العامل المصرى والمهندس المصرى والفنان المصرى يبدعون فى عمل هذه الآثار العظيمة بينما لا نعرف نحن تاريخا لنا إلا منذ الغزو النورماندى . . أما قبل ذلك فكنا نلبس الجلود .

. . . والألوان مازالت محتفظة ببريقها مما يدل على خلود الفن المصرى القديم .

* * *

وتغيرت لندن بسبب المعرض .

فى واجهات محلات المجوهرات . . قطع جديدة من الحلى والعقود تقليدا لقناع الملك وآثاره والعقود التى وجدت فى قبره . . وكان التقليد متقنا إلى الحد الذى دفع الأثريين المصريين إلى أن يطلبوا إلى صانعى هذه المجوهرات أن يباعدوا بين الأصل والحقيقة على قدر الطاقة!

وكل الشركات المنتجة للسلع الاستهلاكية أصبحت تنشر إعلانات فى صفحات

كاملة من صحف لندن تتصدرها صورة كبيرة للملك توت باعتبار أن هذه الصورة هى التى يمكن أن تجذب انتباه الناس .

وإحدى شركات السجاير سبقت غيرها عندما نشرت صورة سيجارتها الجديدة مع صورة توت وكأنها تريد أن تقول للمواطنين . . هذه سيجارة توت المفضلة .

وهناك أدوات ومستحضرات تجميل وباروكات شعر قيل إنها من لوازم الملك وزوجته الملكة!

وفى محلات الملابس «بلوزات» وقمصان عليها رسوم لآثار الملك .

وفى محلات القمار والكازينوهات أوراق لعب وزهر «النرد» طاولة قالوا إن الملك الفرعونى لم يكن يلعب إلا بمثل هذا الزهر وتلك الأوراق!

حقائب وملابس وتحف وإسطوانات وقطع موسيقية وشرائط تسجيل لموسيقى قيل إن الملك كان يستريح إلى أنغامها!

وكئوس قيل إن الملك لم يكن يشرب الخمر إلا فيها .

بل إن المطاعم ابتكرت عشاء خاصا وقالت للراغبين :

ـ تناولوا عشاءكم على طريقة توت .

والأغرب من هذا كله أنهم صنعوا توابيت وعوامات للسباحة أطلقوا عليها اسم توت .

باختصار طبع توت الحياة فى العاصمة البريطانية بطابعه .

وربح التجار والمبتكرون كثيرا من وراء الملك وآثاره .

* * *

وفى قاعات السينما عرضت أفلام عن الفراعنة . . بعضها تسجيلى وبعضها روائى .

وفى قنوات التليفزيون برامج عن المعرض والملك توت ومصر القديمة والحديثة . . حتى أن مخرجا ذكيا قدم برنامجا طريفا اسمه «كيف تهرب من توت؟»

فإن هذه الآثار حاصرت الإنجليز بحيث أصبح من الضرورى أن تقدم إليهم وسيلة للفرار من هذه الآثار!

ولكن الصحافة، التى قدمت ملاحق كثيرة عن مصر، قدمت أيضا عرضا طريفا عن تأثير الكشف الأثرى على الموضات والأزياء عام ١٩٢٢ كما قدمت آراء غريبة عما ينتظر حدوثه فى العالم كله لو أن آثار توت اكتشفت هذه الأيام!

إن ما حدث عند اكتشاف المقبرة عام ١٩٢٢ تكرر بعد نصف قرن. ولا تزال هذه الآثار تفتن العالم!

* * *

افتتحت المعرض الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا العظمى.

تساءلت الملكة وهى تقف أمام أحد التماثيل لفرعون مصر وهو يمسك حربة قالت:

- ألاحظ أن التمثال الخشبى فيه انحناءة.. هذه أول مرة أرى فيها تمثالا لفرعون مصر وهو ينحنى.

أسرع الدكتور جمال مختار مدير هيئة الآثار والدكتور أحمد قدرى الذى خلفه فى منصبه يقولان لصاحبة الجلالة:

- فراعنة مصر لا ينحنون.. ربما كان الخطأ فى عدم استقرار قاعدة التمثال أو تأثير عوامل التعرية على الخشب.

ابتسمت صاحبة الجلالة...

وانحنت - فى رقة - أمام قناع الملك!

الاعتـــــراف

ملأت الآثار التى نهبت من مصر على امتداد ألفى سنة متاحف إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا والولايات المتحدة، كما تجمعت فى هذه الدول آثار أخذت قسرا من الدول المحتلة.

ونجحت الدول «المنهوبة» فى صياغة اتفاقية لإعادة، أو رد الممتلكات الثقافية إلى بلدانها الأصلية وافق عليها المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو فى اجتماعه بتاريخ ١٤ من نوفمبر عام ١٩٧٠.

ووجه مدير عام اليونسكو نداء للدول لإعادة التراث الثقافى الذى لا يمكن تعويضه إلى أصحابه.

وعرض الأمر على الجمعية العامة للأمم المتحدة فدعت - أكثر من مرة - إلى رد الأعمال الفنية والآثار والتحف والوثائق وسائر الكنوز الثقافية أو الفنية الأخرى التى تعتبرها الدول ذات قيمة روحية وثقافية أساسية لها إلى بلدانها.

وقعت على اتفاقية اليونسكو ستون دولة حتى الآن، بينها مصر. وقد انضمت إلى هذه الاتفاقية ألمانيا الغربية عام ١٩٧٤ والولايات المتحدة فى ديسمبر عام ٨٣ ورفضت الانضمام إلى هذه الاتفاقية كل من بريطانيا وفرنسا اللتين ترفضان إعادة الآثار. وتعللت الدولتان بأن الاتفاقية لا تضع تعويضا كاملا ومحددا للعمل الفنى!

وكانت من نتيجة هذه الاتفاقية، والضغوط التى قامت بها الدول النامية أن بدأت عملية إعادة بعض الآثار والأعمال الفنية المحدودة إلى أصحابها الأصليين.

وأشهر الأعمال الفنية التى ردت مخطوطات أدبية من العصور الوسطى أعادتها الدانمرك إلى أيسلندا يوم ٢١ من إبريل عام ١٩٧١. حملتها فرقاطة دانمركية وخرج

سكان أيسلندا، جميعا، ينتظرون عودة المخطوطات وأذيع الوصول والاستقبال على الهواء فى الإذاعة والتليفزيون!

وكانت أيسلندا مستعمرة دانمركية. فلما استقلت عام ١٩٤٤ ظلت ربع قرن تطالب بالمخطوطات حتى وافق البرلمان الدانمركى.

أعادت فرنسا للجزائر ٣٠٠ لوحة، وبلجيكا لزائير آلاف القطع، وأمريكا لجواتيمالا قطعة كانت محفوظة فى متحف بروكلين، وقطع أخرى لبنما، وسلمت نيوزيلندا قناعا أثريا إلى بابوا فى غينيا الجديدة، وهولندا وقعت اتفاقا مع إندونيسيا لإعادة قطع مهمة، وفرنسا قدمت للعراق بعض قوانين بابل، وردت جنوب أفريقيا إلى زيمبابوى تماثيل لعصافير، ومن معهد ويلكام فى إنجلترا أخذت اليمن مجموعة حِمْيَرية. . وأعيدت آثار إلى أثيوبيا وأكوادور وبيرو وكينيا. . إلخ.

والأمثلة كثيرة، فإن سرقة الآثار شائعة حتى أن الكاتب الفرنسى الكبير أندريه مالرو الذى تولى منصب وزير الثقافة انتهز ـ فى شبابه ـ فرصة قيامه بأبحاث أثرية فى كمبوديا عام ١٩٢٧ فسرق قطا من معبد وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ولكن محكمة الاستئناف فى سايجون خفضت العقوبة إلى الحبس سنة مع إيقاف التنفيذ!

ورأى بعض الوطنيين أن يستردوا آثار بلادهم بأنفسهم فسرق الأسكتلنديون قطعة حجرية أثرية من كنيسة وستمنستر فى قلب لندن ليلة عيد الميلاد عام ١٩٥٠ وأعادوها إلى بلادهم.

وسرق صحفى مكسيكى اسمه جوزيه لويس كاستانيدا مخطوطا مكسيكيا من ١٨ صفحة من المكتبة الوطنية فى فرنسا وسلمها إلى معهد المكسيك للأنثروبولوجيا والتاريخ.

أما مصر فحصلت على تمثال لآمون أعادته محكمة فرنسية عام ١٩٨١.

ولكن لا يمكن رد كل الآثار بإعادة سرقتها مرة أخرى، وليست العملية سهلة كما أن أغلب السرقات تمت فى أثناء الاحتلال وفى ظروف لا يمكن أن تتكرر.

وقالت الدول التى سرقت الآثار إنه لا يوجد ما يدعو لإعادتها، فإننا نعيش فى عصر يعتبر الفن بلا عنوان وملك للبشرية جميعا، وإن المتاحف الآن بلا أسوار إذ

يمكن تصوير كل ما فى متاحف العالم فى أفلام للفيديو تعرض فى كل مكان، وفى البيوت أيضا فتنتقل الآثار إليك وأنت فى مكانك.

وهذه النظرية تبرر السرقة وتحمى اللصوص ويمكن الرد عليها بإعادة الآثار لأصحابها وتكتفى الدول الكبرى بهذه الأفلام!

ومن ناحية أخرى فلابد أن تتكرر مطالبتنا بإعادة بعض القطع ذات الأهمية القومية فى حضارتنا مثل حجر رشيد وتمثال «الكاتب الجالس» و«سقف الأبراج» الزودياك المنزوع من معبد دندرة فى أثناء الحملة الفرنسية والمحفوظين بمتحف اللوفر وتمثال نفرتيتى بمتحف برلين الغربية.

والمطالبة لا تعنى ولا تقتضى الاستجابة!!

وقد نجح المستشار الدكتور إسكندر غطاس مساعد وزير العدل المصرى فى إقناع المؤتمر الدبلوماسى الذى عقد فى روما فى ٢٤ من يونيو عام ١٩٩٥ بإقرار اتفاقية لتوحيد القانون الخاص بإعادة الممتلكات الثقافية المسروقة أو المصورة بطريقة غير قانونية وذلك لحماية التراث الثقافى ولرد آثار مصر المسروقة..

وبقى أن تصدق الدول على هذه الاتفاقية!

* * *

بقيت الآثار المصرية التى نهبت على امتداد ألفى سنة من المومياوات والتوابيت والتماثيل والآثار وأوراق البردى فى أغلب متاحف العالم.

ولم تتمكن مصر من استرداد آثارها لأن بعضها صدر فى ظل تشريعات كانت تسمح بتصدير وإهداء وبيع الآثار أيضا.

ولم تستطع مصر إقامة آلاف الدعاوى للمطالبة بآثارها؛ إذ لا توجد أدلة قانونية يستند إليها فضلا عن أن ذلك يتكلف مئات الملايين من الجنيهات.

ورأت مصر أن تجرب أسلوب التفاوض لإعادة جزء من ذقن تمثال أبو الهول الذى نحت عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد، والتى أضيفت للتمثال بعد ١٣٠٠ سنة من بنائه فى عهد تحتمس الرابع.

وقد وجدت الذقن بين مخالب التمثال الضخمة، وقدمت للمتحف البريطانى حوالى عام ١٨١٨.

طلب وزير الثقافة المصرى عبدالحميد رضوان إعادة جزء من الذقن يوجد بمخازن المتحف البريطانى للحاجة إليه فى ترميم التمثال وبالذات لرأسه التى تزن ٩٠٠ طن.

قالت الحكومة البريطانية إن طلب مصر سيرفض إلا إذا أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن القطعة مسروقة!

ولم تذكر الحكومة البريطانية أبدا كيف حصلت على ذقن «أبو الهول» أو جزء منها!

عرضت مصر أن تقدم تمثال أنوبيس الذى يحتفظ المتحف البريطانى برأسه، ويريد جسده!!

خشى المتحف أن يعيد الذقن فتكون هذه «سابقة» لمصر وغيرها من الدول فتطالب بآثارها وقال إن قوانينه تمنع التنازل عن أية قطعة إلا إذا كانت مزدوجة وإنه مستعد لإقراضها وإعادتها لمصر مدة ١٠ سنوات على أن تحفظ بالمتحف المصرى.

قال وزير الثقافة إن هذا الجزء من الذقن الذى يرتفع نحو ثلاثة أقدام سيوضع فى تمثال «أبو الهول» نفسه، ولا يمكن إعادته بعد ذلك ولابد أن يكون «القرض» دائما.

قال المتحف إن الإعادة ستمد كل ١٠ سنوات.

استمرت المفاوضات التى بدأت عام ٨٢ حتى نوفمبر عام ١٩٨٤ عندما أعلن المتحف فى الصحف الموافقة.

وفى نوفمبر ١٩٨٥، أى بعد عام، أعلن السير دافيد ولسون مدير المتحف البريطانى أن ذلك الجزء من ذقن «أبو الهول» لم يعد إلى مصر ولن يعود.. وأنه ليس مطلوبا فى القاهرة!!

ولكن اكتشاف توت عنخ آمون غَيّرَ، تماما، اتجاه البحث عن الآثار المصرية. فبعد أن كانت مصر تعتبر أن من ينقب عن آثارها يستحق التعويض ونصف، أو

بعض، الآثار باعتباره يقدم «خدمة» للبلاد، أصبح الموقف عكس ذلك تماما وهو أن مصر دولة مضيفة تسمح للباحثين أن يبحثوا فى ترابها عن الآثار!

* * *

وبقيت آثار توت عنخ آمون وحدها تطوف قطع منها فرنسا وأمريكا واليابان ثم تعود ثانية إلى مصر التى نسيت تماما عملية السرقة، حتى فوجئت بصحيفة «الأوبزرفر» البريطانية تنشر فى صفحتها الأولى يوم أول نوفمبر عام ١٩٨٧ أن صالة كريستى الشهيرة للمزادات ستطرح للبيع ١٢٧ قطعة من الآثار المصرية بينها اللوحة الذهبية لتوت عنخ آمون.

وهذه اللوحة تبين حفل تتويج الملك توت وحوله الإلهان «أتوم» و«رع». طولها ٩ بوصات وعرضها ٣ بوصات وهى من الأثاث الجنائزى للملك الفرعونى وجزء من عرشه.

وقالت مؤسسة كريستى إنها لا تعرف كيف وجدت هذه اللوحة أو من أين أخذت أو انتزعت!

وأضافت أن البائعين هم ورثة جامع التحف الألمانى ولهلم هورن الذى ولد فى برلين عام ١٨٧٠، وقد اشترى هذا التحفة الأثرية فى الثلاثينيات من هذا القرن.. أى بعهد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. وكان هورن صديقا لهوارد كارتر!

وقالت الدكتورة انسلى جرين مستشارة دار كريستى فى علم المصريات إن ثمن اللوحة يمكن أن يصل إلى ١٥٠ ألف جنيه إسترلينى، فهى المرة الأولى التى تطرح فيها بعض آثار الملك الفرعونى بالمزاد العلنى.

وأضافت أن هذه القطعة سرقت من مصر!

تحركت وزارة الثقافة فى القاهرة. أبلغت البوليس الدولى وراجعت القوائم التى سجلها كارتر لمقتنيات المقبرة، فتبين أنه لم يسجل هذه اللوحة وبالتالى فلابد وأنها خرجت من مصر بطريقة غير قانونية.

وطلبت الوزارة إلى هيئة اليونسكو فى باريس بحث حقيقة اللوحة، وأبرقت إلى السفارة المصرية فى لندن لوقف البيع.

وكتبت السفارة المصرية إلى مؤسسة «كريستى» تحذرها من البيع لأن مصر تملك اللوحة والمزاد يعتبر غير قانونى، واحتجت السفارة على إجرائه.

تدخل المجلس العالمى للمتاحف، بناء على طلب اليونسكو، فوجد أن اللوحة مزيفة، قام بصنعها مزيف ألمانى معروف فى برلين خلال الثلاثينيات من هذا القرن.

وقال متحف برلين إن هذه القطعة مسجلة لدى المتحف فى «كتالوج» ضمن القطع المقلدة.

وأكد ذلك أيضا الأستاذ هارى جيمس مدير قسم مصر بالمتحف البريطانى الذى قال إن الخبراء البريطانيين تأكدوا تماما بعد فحصهم للوحة أنها مزورة!

سحبت اللوحة من «قاعة كريستى» ولم يعرف عنها شىء بعد ذلك، وأيضا لم يعرف شىء عن اللوحة الفرعونية الأصلية!

وهكذا فرضت لوحة مزورة اسم الملك توت عنخ آمون على الصحافة المصرية والعالمية.

* * *

بعد ثلاثة أشهر تقريبا أصبح اسم توت عنخ آمون موضوعا رئيسيا فى كل صحف العالم بنفس الصورة التى حدثت قبل ذلك بستين عاما: فقد نشرت صحيفة «التايمس» البريطانية يوم ٧ من مارس عام ٨٨ بعنوان عريض ضخم «مانشيت» فى الصفحة الأولى «كنوز أثرية لها علاقة بكشف توت عنخ آمون».

وقالت «التايمس» إنها كانت أول من نشر فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٢٢ عن اكتشاف آثار توت عنخ آمون وهى ملحمة تزخر بالكنوز الأثرية والخيال وإرادة الإنسان فضلا عن الأهمية العلمية الهائلة.

وقالت «التايمس» إنها تكشف الآن قصة مذهلة أخرى عن مزيد من الكنوز الأثرية أخفيت عن الأنظار طيلة الستين عاما الماضية فى منزل أسرة كارنارفون!

وأعلنت «التايمس» اكتشاف ٣٠٠ قطعة من الآثار المصرية فى قلعة «هايكلير» التى يملكها اللورد كارنارفون، منها وجه خشبى لجد توت عنخ آمون الملك

أمنحتب الثالث الذى توفى عام ١٣٠٣ قبل الميلاد، وكان يدعى أحيانا «المدهش» وكانت مصر حينئذ فى قمة ثروتها وفنها وازدهارها . ورقائق من الخزف الأزرق مختومة باسم والد أمنحتب يرجع تاريخها إلى ٣٢٠٠ عام، وعقد من الخزف منذ عام ١٧٠٠ قبل الميلاد، وزخرفة لمومياء فردت جناحيها لتلف جسد الميت وتمثال لقرابين، وعجل أبيس مصنوع من البرونز، وغطاء للمعصم لحمايته من السهم صنع من الجلد المزين، ورأس مزدوجة لصقر، وأبو الهول من الخزف المصرى الملون، وقدران من الخزف الأزرق مزينة برسم زهرة اللوتس باللون الأسود، وبقايا سيد قشطة وضفدعة وأسد ومجوهرات ضخمة وتمثالان من البرونز يمثلان الإله حورس الطفل ، وتاج أزرق وصندوق مجوهرات بمحتوياته كاملة من عقود العقيق الأحمر والجعارين .

وآثار مصرية أخرى كثيرة تكون الـ ٣٠٠ قطعة التى ذكرت الصحيفة البريطانية أنها وضعت فى القصر منذ العشرينيات دون أن يعلم اللورد أو أى من أفراد أسرته بوجودها .

والغريب فى الأمر أن اللورد كارنارفون مكتشف المقبرة مات قبل أن يعلم بوجود مومياء توت عنخ آمون، ومات ابنه دون أن يعرف بوجود هذه الآثار فى قصره، أو أنه احتفظ «باللعنة» دواما فى قصره . . وهو لا يدرى!

ورددت الصحيفة القصة التالية . .

* * *

مات اللورد بورشستر نجل اللورد كارنارفون فى سبتمبر عام ١٩٨٦ وخلفه ابنه حفيد مكتشف توت عنخ آمون .

ولد الحفيد عام ١٩٢٤ فى أثناء الصراع الدامى بين ورثة جده والحكومة المصرية على ملكية الآثار، وقد اشترك فى الحرب العالمية الثانية وأمضى ثلاثة أيام فى القاهرة فى أثناء الإجازة عام ١٩٤٣ .

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سقط رئيس وزراء بريطانيا المحافظ ونستون تشرشل فى الانتخابات وجاء حزب العمال، فظن الحفيد أن ملاك الأراضى لن

يستطيعوا الاحتفاظ بها إلا إذا زرعوها بأنفسهم، فأراد أن يعد نفسه كمزارع ليتولى زراعة أرضه فلا مستقبل لتأجيرها فالضرائب باهظة.

وهكذا آلت قلعة «هايكلير» إلى الحفيد.

والقلعة، كما هو معروف، أقامها المهندس المعمارى شارلز بارى عام ١٨٤٢ وقد بنى دار البرلمان البريطانى بعد ذلك.

وتقع القلعة وسط ضيعة مساحتها ٥٥٠٠ فدان، زرعت فيها أشجار الأرز لأول مرة فى بريطانيا.

ولهذا السبب، وخلافا لكثير من الضياع، ظلت «هايكلير» لا تمس.

ورأى الحفيد إعادة تنظيم البيت وطلائه وجرد الأثاث والفضيات وقطع الصينى واللوحات الزيتية التى تملأ كل الحجرات وعهد بذلك إلى مؤسسة «سوثبى» المنافسة لشركة «كريستى».

استعان اللورد بكبير الخدم السابق للأسرة واسمه روبرت تيلور وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ويعرف الكثير عن القصر ويتمتع بذاكرة قوية!

وقد التحق تيلور بخدمة اللورد عام ١٩٣٦، وجند فى الحرب العالمية الثانية وأصبح بطلا كقائد دبابة ثم عاد إلى القلعة فى يناير عام ١٩٤٦ وبقى بها حتى اعتزل الخدمة ثم عاد ليساعد اللورد كارنارفون الجديد فى تجديد القصر وجرد محتوياته.

أخذ الرجلان، اللورد وكبير الخدم، يتجولان فى يوليو ١٩٨٧ داخل القصر الكبير.

قال اللورد:

- يبدو أن ذلك هو كل شىء فى الجرد.

قال تيلور:

- نعم يا سيدى اللورد عدا الآثار المصرية.

قال اللورد:

- إنى أعرف كل شق فى القلعة وأعرف «هايكلير» أفضل من أى إنسان آخر فى العالم وأظن أنه لا يوجد عندنا شىء مصرى.

وأضاف :

ـ أنت تعلم أن أبى يرفض الحديث عن مصر إطلاقا .

قال تيلور :

ـ كل فرد فى «هايكلير» كان يعتقد خلال فترة عملى أن الأسرة قطعت علاقتها بمصر منذ عام ١٩٢٤ بعدما خسرت قضيتها ضد الحكومة المصرية بشأن طلب امتلاك نصف آثار توت عنخ آمون وكنا ـ نحن الخدم ـ نرى أباك خائفا من لعنة الفراعنة .

وأضاف كبير الخدم :

ـ هناك الدولابان السريان .

ومرة أخرى نظر اللورد إلى كبير خدمه متسائلا .

قال تيلور :

ـ لقد عرفت سر هذين الدولابين منذ سنين ووجدت أنهما يحويان آثارا قديمة وافترضت أن الأسرة على علم بها .

قاد كبير الخدم، قوى الذاكرة، اللورد إلى البابين اللذين يربطان حجرة الرسم بحجرة التدخين، وقد ظلا مغلقين لسنوات طويلة بمناضد وضعت خلفهما . وبين البابين مساحة طولها ثلاثة أقدام فيها دولابان يمتدان داخل الحائط، غطيا بأعشاب ويوحى حجمهما بأنهما يحتويان على كمية كبيرة من المواد .

وكان الدولابان مملوءين بالعلب ووبر القطن، وكلها مخبأة فى فتحات .

فتح تيلور الدولاب الأول وأخرج علبة سجائر مصرية .

وأخرج اللورد بعض القطع المعدنية والعقود الخرزية تبرق بلون أزرق وأخضر زاه مذهل .

تعرف اللورد على بعض الآثار وقال :

ـ كنت أعتقد أن كل قطعة من الآثار المصرية نقلت من القلعة منذ زمن طويل .

وطلب من تيلور الصمت لأن فريقا سينمائيا كان ـ مصادفة ـ يصور داخل القلعة ولأن هذه المجموعة من الآثار قد تكون لها علاقة بتوت عنخ آمون.

وفى ظل هذه الحالة من الانفعال اتصل بدار «سوثبى» وكذلك هارى جيمس المشرف على الآثار المصرية فى المتحف البريطانى لفحص هذه الآثار المصرية.

ظلت شركة «سوثبى» وخبراء المتحف البريطانى يجوبون القلعة، يفتشون غرفها، ويفحصون كل قطعة فنية من الأثاث لعلها تكون مصرية، خلال الشهور الثمانية التالية.

وبالفعل «اكتشفوا» آثارا كثيرة فى كل مكان.. تقريبا.

وجدوا بعضها فى حجرة التحميض الخاصة بالتصوير التى كان يستعملها اللورد مكتشف المقبرة.

وكان الحفيد يفحص «الكراكيب» فى حجرة التحميض هذه عندما وجد رأسا صغيرة من البرونز مثبتة عند قاعدة النافذة.

وتحت أنابيب التدفئة وجدوا الجعران المقدس فى مصر القديمة.

وفى حجرة الوثائق التى لم تستعمل منذ سنوات عثروا على زهرية كبيرة من المرمر.

وفى حجرة نائية متربة مليئة بالأسمال البالية كان يلعب فيها أحد أبناء العاملين «البنج بونج» رأوا قطعة من الحجر عليها نقوش بالكتابة الهيروغليفية.

وتتابع «اكتشاف» الآثار فى حجرات القلعة المهملة.

قال اللورد:

ـ كانت هناك قطع من الأخشاب متناثرة على الأرض لا نلاحظها عادة، وتحولت إلى أن أصبحت وجوها جنازية وصناديق للمجوهرات، ولم يفعل الدكتور ريفز، خبير ترميم الآثار فى المتحف البريطانى، شيئا سوى أنه ضم الشرائح جنبا إلى جنب فى المكان الذى وجدت فيه لنرى أنها صندوقا للمجوهرات!

وكان ريفز منفعلا للغاية كما لو أنه فاز فى سباق مهم فهذا مجاله وأرض سباقه.

وقـال:

ـ يمكن التعرف على كثير من القطع مما ورد فى كتابات هوارد كارتر بما فى ذلك مثلا علبة مجوهرات.

. . يقصد ريفز بذلك، القول بأن هذه الآثار ليست مسروقة منذ أشار إليها كارتر فى كتاباته عن حفائره قبل مقبرة توت عنخ آمون!

ظلت عملية البحث عن الآثار وحصرها وجردها وتسجيل قائمة بها مستمرة ثمانية شهور كاملة دون الإعلان عنها حتى أذاعت «التايمس» نبأ الاكتشاف الجديد لتعيد قصة الكشف الأول للمقبرة مما جعل اسم توت عنخ آمون يتردد مرة ثانية فى صحف وإذاعات العالم.

وظلت التايمس تروى القصة لمدة أسبوع. .

وتميز النشر، هذه المرة، بالحرص الشديد.

كتب عن بعض الآثار أنها تمثل عصورا وأزمنة وتواريخ لملوك عاشوا بعد توت عنخ آمون حتى تنفى تماما أن هذه الآثار وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون!

وقالت الصحيفة:

«اكتشفت جميع هذه القطع على يدى اللورد كارنارفون وهوارد كارتر» خلال عدة مواسم للتنقيب عن الآثار وذلك قبل كشفهما لمقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢، أو اشتراها اللورد لضمها إلى مجموعته، وكان اللورد وكارتر يشحنون هذه الآثار إلى «هايكلير» فى نهاية كل موسم. خلال السنوات من ١٩٠٧ حتى عام ١٩١٤ وقد وضعا كتابا عنوانه «خمس سنوات استكشاف فى طيبة».

وقالت التايمس:

«كان الكتمان والصمت أول ما خطر على بال اللورد كارنارفون عندما اكتشف القطع لأن أية آثار مصرية تعيد إلى الأذهان، على الفور، اسم توت عنخ آمون.

واعتقد اللورد أن المكتشفات لابد وأن تكون من مقبرة الملك الشاب.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شأنها أن تثير ضجة مع الحكومة المصرية حول المالك الحقيقى؛ فإن المصريين احتجوا فى ديسمبر عام ١٩٨٧ على بيع قطعة ذهبية فى صالة «كريستى» قيل إنها من المقبرة.

وعلى أية حال فقد بيّن خبراء المصريات - هارى جيمس المشرف على الآثار المصرية القديمة بالمتحف البريطانى ومساعده الدكتور نيكولاس ريفز - أن أيا من هذه القطع المهمة ليس لها علاقة مباشرة بمقبرة توت عنخ آمون على ما يبدو!

وقد نقل الخبراء محتويات الدولابين وغيرهما إلى لندن أولا حيث جرى فحصها ودراستها عن كثب ثم أعادوها إلى «هايكلير» حيث جرى مزيد من الدراسة حولها».

وقال هارى جيمس إن القطع من مقبرة جد توت عنخ آمون أمنحتب الثالث لها أهمية خاصة.

وحرصت الصحيفة على تأكيد أن أغلب الآثار من شرق الدلتا، وسَخَا، ومن مقبرة الملك أمنحتب الأول وأمه، وقرية القرنة وأنها جميعا اكتشفت خلال السنوات من ١٩٠٣ حتى ١٩١٤.. أى قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون!

ورغم هذه التأكيدات كلها فإن «التايمس» نفسها ألقت بذور الشك فى نفس القارئ.

قالت:

* مصدر الـ ٣٠٠ قطعة التى أعيد اكتشافها فى «هايكلير» ليس مؤكدا بعد.

* لم يعرف حتى الآن من الذى وضع القطع الأثرية فى الدولابين، وليس معروفا ما إذا كان الهدف إخفاءها أم لا.

ويقول الدكتور ريفز:

- من الصعب القول بمجرد النظر إلى الدولابين، إذا كان المفترض أنهما مخبأين أم لا، ولا أعتقد أن أحدا يعرف جميع أسرار «هايكلير».

ولم تقدم التايمس تفسيرا منطقيا يبرر عدم العثور على هذه الآثار المتناثرة فى كل مكان إلا بعد مرور ٦٤ سنة على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون عندما أصبح الحديث عن استعادة مصر لهذه الآثار أمرا صعبا أو مستحيلا.

ولماذا لم يعلن عنها اللورد أو كارتر قبل بدء البحث عن مقبرة توت عنخ آمون، ولمَ الحرص على إخفائها بهذه الصورة؟ والأهم من ذلك كله:

ـ لماذا ظل اللورد يخفى أمر هذه الآثار ثمانية شهور كاملة مستعينا بالمتحف البريطاني وخبرائه حتى يمكن نسبة هذه الآثار إلى عصور أخرى من خلال إعادة دراسة التاريخ المصرى وآثاره المكتشفة؟

وعلى أية حال فقد اعترفت «التايمس» بسرقة كارنارفون وكارتر لبعض آثار توت عنخ آمون.

قالت التايمس:

«آثار توت عنخ آمون التى ظهرت فجأة فى المتاحف الأمريكية والأوراق التى وجدت، بعد سنوات، فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك تبين أنها، أى القطع، نقلت من المقبرة بشكل غير رسمى».

وبررت الصحيفة البريطانية ذلك بقولها:

«هذا أمر لا يثير الدهشة، فقد جرت العادة فى تلك الأيام أن يقتسم علماء الآثار اكتشافاتهم مع الحكومة المصرية بنسبَة النصف، كما كان التقاط بعض القطع قبل هذه القسمة أمرا عاديا للغاية.

وكان هذا العرف هو الذى أدى إلى انتشار وتشتت الآثار المصرية القديمة بشكل عشوائى فى جميع أنحاء العالم»!

ويعتبر هذا اعترافا صريحا بالسرقة من الصحيفة التى حصلت على حق احتكار وامتياز نشر اكتشافات كارنارفون وكارتر!

* * *

قرر اللورد فتح قصره شهرين كل عام حتى يتجول الناس داخل القصر، لا ليروا المكتب والكرسى اللذين كانا يوما ملك نابليون وحجرة النوم التى كان يستخدمها اللورد الحالى وزوجته الأمريكية جين عند زفافهما؛ ولكن ليروا الكنوز المصرية التى يرجع تاريخها إلى ثلاثة أو أربعة آلاف عام، والتى ظهرت أخيرا لتؤكد

عملية السرقة والشكوك التى راودت رجال الآثار فى مصر بأن كارنارفون وكارتر من اللصوص!

* * *

لم تتوقف الصحف عن نشر أنباء توت عنخ آمون وآثاره المتنوعة!

عادت «التايمس»، بعد شهرين، تكتب، وفى الصفحة الأولى أيضا، عن اكتشاف الحبوب والبذور النباتية الخاصة بمراسم دفن الملك الفرعونى توت عنخ آمون فى عدة صناديق للحفظ بحدائق «كيو» الشهيرة فى إحدى ضواحى لندن.

قالت يوم ١٨ مايو عام ١٩٨٨ إن هذه الحبوب أحضرها كارتر معه إلى لندن عقب اكتشافه للمقبرة عام ١٩٢٢ وأودعها الحديقة.

وقام كارتر بتسجيل كل صنف من هذه الحبوب، بعناية، فى كتالوج ولكنها، بمرور الوقت، أهملت. وقد اكتشفها أحد الدارسين بجامعة لندن فقام، بتكليف من الجامعة، بإعادة ترتيبها وتجميعها.

وقالت الصحيفة: إن المسئولين عن الحدائق أكدوا أن الحبوب يرجع تاريخها إلى عام ١٣٢٥ قبل الميلاد وتملكها الحكومة المصرية وقد أعطتها هيئة الآثار المصرية لكارتر عام ١٩٣٢ لإجراء البحوث اللازمة عليها والتعرف على نوعها.

وكانت هذه أول مرة تعلن فيها هيئة بريطانية عن استعدادها لإعادة بعض آثار الملك توت!

وعلى أية حال وافقت هيئة الآثار على احتفاظ حدائق «كيو» بجزء من الحبوب للاستفادة منها فى الأغراض العلمية فى إنجلترا ومؤسساتها وإعادة باقى هذه المواد لمصر.

ولم تعد لمصر، حتى الآن، باقى الحبوب!

* * *

وفى ١٥ من يوليو عام ١٩٨٩ نشرت التايمس مرة أخرى، وفى الصفحة الأولى أيضا أن القلعة كشفت مرة أخرى مزيدا من الكنوز المصرية.

قالت الصحيفة إنه عثر على رأس من الألاباستر ارتفاعها ٣ بوصات للملك أمنحتب الثالث، جد توت عنخ آمون، تشبه تلك التى توجد فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .

. . وإن اللورد سيفتح فى قصره قاعة شاى ثالثة يجلس فيها الناس ليروا الآثار المصرية .

ومرة أخرى قال الدكتور نيكولاس ريفز إن كارتر سجل هذه القطعة فى أوراقه وكان الجميع يعتقدون أنها فقدت!

ولم يعرف، على وجه اليقين، هل عثر على هذه الرأس من قبل، أم أنها جزء من حملة الدعاية لزيارة قصر اللورد كارنارفون! الذى رأى أن يحتفظ «باللعنة» التى أصبحت مصدر إيراد ضخم جديد . . للحفيد!

وتجدد الحديث مرة أخرى عن توت عنخ آمون، وفى الصفحة الأولى من صحيفة التايمس . . أيضا .

نشرت الصحيفة يوم ١٥ من أكتوبر ١٩٩٠ أن الدكتور نيكولاس ريفز عرف مكان أوراق البردى التى اختفت من مقبرة توت عنخ آمون، ويعتقد أنها لا تزال داخل تجويف أثرى فى تمثالى الحارسين اللذين يقفان على جانبى الممر المؤدى إلى حجرة المدفن داخل المقبرة .

وقال إن بلزونى عندما اكتشف مقبرة سيتى الأول عام ١٨١٧ وجد، داخل تمثال خشبى ارتفاعه ٤ أقدام لفة من أوراق البردى .

وفى تمثال من مقبرة أمنحتب الثانى (١٤٢٧ ـ ١٤٠١ق . م) وجد تجويفا مماثلا فى ظهره بردية ملفوفة جيدا .

وفى تمثال لحارس بالحجم الطبيعى، يوجد بالمتحف البريطانى منذ عام ١٨٣٣ ، الأرجح أنه من مقبرة رمسيس التاسع (١١٣١ ـ ١١١٢ ق . م) نزعت طبقة ذهبية فكشفت عن تجويف يكفى لإخفاء وثيقة بردية طولها ٢٠ قدما .

وقال الدكتور ريفز إن تمثالى الحارسين بالحجم الطبيعى، فى مقبرة توت عنخ آمون وهما الآن فى المتحف المصرى، تخفى وظيفتهما الأصلية فهما يحرسان

داخلهما أوراق البردى ؛ لأن هناك عدم استواء واضح فى صدور التمثالين طلى بالذهب لإغلاق التجويف الذى يحتمل أنه يخفى أوراق البردى .

ومعنى ذلك أنه لابد من فض التجويفين لمعرفة ما إذا كانا يخفيان أوراق البردى أم لا؟

ومرة ثانية سيحتشد العالم فى مقبرة توت عنخ آمون فى وادى الملوك ليعرف ماذا يخفى فى مقبرته من أسرار ، وما الذى سيكشف عنه هذه المرة فى أوراق البردى ، إن وجدت ، من حقائق تاريخ صاحب الجلالة ومصر الفرعونية ، فإن هذا الملك يتجدد كل يوم ولا يريد أن يختفى اسمه خبرا من الصحف بين الحين والحين ، منذ اكتشف قبل ٦٨ سنة .

إنه يفرض اسمه علينا فى رحلاته أو من داخل قبره ونتبعه فى دهشة وفى ذهول ونحن نتساءل أى سحر فيه وهل بقى سر فيه؟!

* * *

إذا لم تكن هذه كلها أدلة حاسمة على سرقة ملك مصر توت عنخ آمون ، فهناك ، أخيراً ، الاعتراف ؛ وهو «سيد الأدلة» كما يقول رجال القانون .

أوصى كارتر أن يقوم بتنفيذ وصيته ، بعد وفاته ، هارى بيرتون المصور الذى التقط كل صور المقبرة ، أما وريثته الوحيدة فهى الآنسة ووكر ابنة شقيقته .

مات كارتر فى ٢ من مارس عام ١٩٣٩ ، ويسافر إنجلباك أمين المتحف المصرى إلى لندن لقضاء إجازته فيكتب إليه بيرتون بأنه وجد ضمن مقتنيات كارتر الشخصية ، فى بيته بلندن ، بعض آثار توت عنخ آمون ، وأنه مقتنع بأن المكتشف سرقها وهربها بطريقة غير قانونية إلى إنجلترا .

وإنجلباك كان مفتشا عاما لآثار الوجه القبلى عند اكتشاف المقبرة ، ولم يبلغه كارتر ليلة الاكتشاف . وشك إنجلباك فى أن كارتر سرق فى تلك الليلة وغيرها آثاراً من المقبرة .

ولم يقدم إنجلباك شكوى إلى السلطات المصرية المسئولة ، بل اكتفى بإخطار

ريجن السكرتير بدار المندوب السامى البريطانى الذى أبرق بذلك إلى وزارة الخارجية البريطانية فى ٧ من فبراير عام ١٩٢٣ .

ويعود إنجلباك إلى القاهرة فيتبعه بيرتون مُصرا على إعادة الآثار إلى المتحف المصرى .

ومرة ثانية يفضل إنجلباك إبلاغ السفارة البريطانية بالسرقة بدلا من المسئولين المصريين .

كتب فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٣٩ إلى السير مايلز لامبسون ـ الذى أصبح فيما بعد اللورد كيلرن ـ السفير البريطانى فى القاهرة الرسالة التالية :

«أجرؤ وأطلب مشورتكم ، وإن أمكن مساعدتكم ، فى أمر غير سار بالمرة أبلغنى به ، عندما كنت فى إجازة ، مستر هارى بيرتون الذى قام بتصوير مقبرة توت عنخ آمون لهوارد كارتر وهو منفذ وصيته ويوجد الآن بالقاهرة .

وهذا الموضوع لا يتعلق بى أو بمصلحة الآثار مباشرة ؛ لكن ، إذا أصبح معروفًا للمصريين ، الذين قاموا أخيراً بكل ما فى وسعهم دون جدوى لإثبات أن أحد الأوروبيين ، بل إنجليزى ، غير أمين أو على الأقل مهمل فى مسألة الآثار ـ فسوف يثير ذلك فضيحة مروعة وسيكون له أسوأ الأثر على المسئولين الإنجليز والفرنسيين فى مصلحة الآثار وفى مختلف أعمال التنقيب عنها .

ولا شك أنك تعرف أنه طبقا لعقد هوارد كارتر مع الحكومة المصرية فإن كل ما يوجد فى مقبرة توت عنخ آمون يصبح ملكا للحكومة المصرية .

وقد ظللت طول السنوات الخمس الأخيرة أشك فى أن هوارد كارتر لم يسلم كل ما عثر عليه من آثار فى المقبرة للمتحف المصرى غير أن شكوكى كانت لا تقوم إلا على أقاويل .

ورغم أنى أخبرت لاكو ، مدير مصلحة الآثار ، بما سمعت فقد اتفق معى فى أنه لا يمكن عمل أى شىء أو تقديم تقرير رسمى ، فقد تقام على المصلحة دعوى تشهير وقذف .

وفى إنجلترا هذا الصيف كتب لى بيرتون يقول إنه وجد بين مخلفات كارتر قطعتين تحملان اسم توت عنخ آمون . وسألنى المشورة بشأن إعادتهما إلى المتحف .

أجبته قائلا بأنى لن أمس هذه القطع فما بالك بإعادتها، كما أنى لن أكون مخلب قط فى فضح سرقات رجل إنجليزى وأفضل شىء هو إلقاء هذه الآثار فى نهر التيمس!

ولكنى سأقوم بالتشاور مع الأب دريوتون مدير مصلحة الآثار ومستر برنتون نائب أمين المتحف المصرى قبل اتخاذ قرار نهائى.

ومنذ عدة أيام دخل بيرتون المتحف المصرى دون أن تكون معه هذه الآثار وأبلغنى، وأبلغ برنتون، أنه بالإضافة إلى التمثالين هناك عدد كبير من التماثيل الصغيرة.

ولكن الأكثر أهمية أن كارتر نقل سرا إلى إنجلترا مسند رأس كبير من الزجاج التركواز - الأزرق يحمل ختم توت عنخ آمون، ويساوى آلاف الجنيهات.

ومن المؤكد أن إدخال مثل هذه الآثار من الجمارك المصرية مخاطرة لا يقدم عليها إنسان عاقل، ولا يقدم عليها بيرتون تحت أى ظرف.

واقترح بيرتون ضرورة أن تقوم مس ووكر ابنة أخت كارتر ووريثته الوحيدة بإهداء أو بيع القطع إلى متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك، الذى استخدم بيرتون، مدعية أن الحكومة المصرية مدينة لها بمبالغ كبيرة من المال مقابل الخدمات التى قدمت لها.

وليس لدى علم بذلك لكنى لا أوافق على تقديم القطع، فهى مسروقة، ولا يمكن اعتبارها جزءا من ممتلكات كارتر. وقد نصحنا بيرتون بأن يدع مس ووكر تعرف رأينا فورا بأنه ليس لها أى حق فى هذه الأشياء.

وقد أكدت أنى لن أحاول إدخال القطع فى سجل المتحف المصرى دون إبلاغ زملائنا المشرفين المصريين حتى ولو كان ذلك ممكنا.

واتفقنا أنا والأب دريوتون وبيرتون على أنه إذا تم تسليم القطع باسم مستعار للمصلحة فيمكننا إدخالها فى سجل المتحف باعتبار أنها «يحتمل أن تكون مسروقة من حفائر مقبرة توت عنخ آمون». وبعد أن تصبح بين يدى بيرتون فى مصر يمكننا تفسير الأمور دون فضيحة.

وحتى إذا وصلت للصحف فلن تكون سوى مثال آخر على عدم اكتراث كارتر،

أو نقول إن بيرتون عثر عليها فى منزل كارتر فى الأقصر الذى جاء هو ـ أى بيرتون ـ إلى مصر لفحص محتوياته .

ويمكننى أن أضيف أنه تم العثور على قطع أخرى أقل أهمية فى مناسبات أخرى سابقة وأمكننا إدخالها فى سجل المتحف بهذه الطريقة .

ويمكننى القول بأنه لا يمر شهر دون تلقى قطع أثرية بأسماء مستعارة من أشخاص يعتقدون أنها تحمل لعنة ويتم إدخالها تحت اسم «هبات من مجهول» .

وقد بحثت أنا وبيرتون كل وسائل إدخال القطع إلى مصر ، ويبدو أن الطريقة المأمونة الوحيدة هى الحقيبة الدبلوماسية للسفارة ، فإذا وافقتم على ذلك سنبلغ من يهمه الأمر» .

ويسلم إنجلباك للسفارة البريطانية قائمة بـ ١٨ قطعة أثرية من مقبرة توت عنخ آمون وجدت فى بيت كارتر وهى :

١ مسند رأس زجاجى أزرق مخضر .

١ «شوابى» Shawabbi كبير من الخزف الأخضر .

١ زوج «شوابتى» «لازوردى اللون» .

١ إناء صغير للشرب من الخزف الأزرق .

١ قدح صغير لمراسم الدفن من الخزف الأزرق .

١ تميمة للقدم من الخزف الأزرق .

٨ أظافر لها رءوس من الذهب .

٣ زينات من الذهب من عدة الحرب .

١ لسان معدنى .

* * *

كتب السير مايلز لامبسون فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٣٩ إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول :

- أنقل إليكم هنا نسخة من خطاب مستر إنجلباك أمين المتحف المصرى بالقاهرة بخصوص بعض القطع من مقبرة توت عنخ آمون التى وجدت بين ممتلكات مستر هوارد الراحل فى إنجلترا. وأضمن الرسالة أيضًا نسخة من خطاب مستر بيرتون أحد منفذى ورثة مستر هوارد كارتر يحتوى على قائمة بالقطع موضوع الحديث.

- هذه القطع التى لابد وأنها أخذت من المقبرة ونقلت إلى الخارج سرًا ينبغى أن تعاد إلى الحكومة المصرية.

ويبين مستر إنجلباك أن الاعتراف علنًا بحيازة مستر هوارد كارتر غير المشروعة لهذه القطع سيثير فضيحة خطيرة ويؤثر تأثيرًا عدائيًا على أعمال علماء الآثار الأجانب فى مصر. والمصريون بالفعل غارقون فى حملات معادية لعلماء الآثار الأجانب.

- هناك أيضًا مسألة الحيازة غير القانونية لعدد من الأشخاص والمتاحف فى أوروبا وأمريكا لآثار مصرية.

ومن الممكن أن يدفع الكشف، عن حيازة هوارد كارتر لقطع أثرية، المصريين إلى التمسك باستعادة الآثار، والتى هربت سرًا من مصر، إلى مؤسسات أجنبية أو فى حيازة أجانب.

ومن الممكن أيضا اتهام اللورد كارنارفون الراحل بتهريب آثار توت عنخ آمون إلى الخارج.

- واقتراح مستر إنجلباك هو أن تعاد القطع الأثرية إلى مصلحة الآثار تحت اسم مستعار وأن تدخل إلى مصر فى الحقيبة الدبلوماسية لوزارة الخارجية البريطانية لتفادى فحص الجمارك وتعرفها عليها.

ويميل مستر بيرتون إلى التفكير فى أن من الأفضل له أن يعيد القطع إلى مصلحة الآثار باعتبار أنه تم العثور عليها فى منزل مستر هوارد كارتر بالأقصر الذى يقوم بتصفيته، وبذلك يصبح الإعلان عن وجودها فيه أمرًا لا غبار عليه، ولكنه يتفق مع اقتراح مستر إنجلباك فى طريقة إعادتها إلى مصر.

- أبلغت مستر بيرتون حين زارنى يوم ٢٢ نوفمبر أنى أميل إلى أن أشرح بصراحة لرئيس الوزراء على ماهر أن قطع الآثار محل الجدل وجدت بين حاجيات

مستر هوارد كارتر وأنها لابد وصلت هناك بطريق الخطأ، وأننا نقترح إعادتها إلى مصلحة الآثار، غير أننى أحيل الأمر إليكم فى انتظار التعليمات.

ـ إذا نحونا هذا النحو مع على ماهر باشا فمن الممكن جدًا أن يصل الأمر إلى علم الجميع.

ـ والمسألة إذن هى هل نكون صرحاء نخاطر بفضيحة وبما قد يكون لها من آثار على الأعمال الأثرية فى مصر، أم علينا أن نلجأ إلى الحيلة كما اقترح مستر إنجلباك ومستر بيرتون؟

وخطورة الاتجاه الثانى أن عددًا من الأشخاص يعلمون بوجود القطع المسروقة ضمن ممتلكات مستر هوارد كارتر فى إنجلترا.

ومن الممكن أن تتسرب الحقيقة رغم السرية البالغة المفروضة على إعادة هذه القطع الأثرية إلى مصلحة الآثار. كما أننى ـ وقد أشركت فى الموضوع ـ أشعر أن سيادتكم ستكونون أكثر شعورا بالارتياح منى لعدم التورط فى عملية تدليس.

ـ وربما يكون الأفضل رفض أن نكون على علم بالموضوع وترك منفذى الوصية يتصرفون بالشكل الذى يراه الناس.

ـ ويمكن أن تقرروا استشارة خبراء الآثار المصرية فى لندن سرا رغم شكى فى حكمة ذلك.

وفى الوقت الراهن قد تكون مشورة سير فردريك كينيون مدير المتحف البريطانى مفيدة رغم أنه اعتزل إدارة المتحف البريطانى الآن؛ نظرا لأن له خبرة طويلة فى النزاعات الماضية بشأن تهريب الآثار المصرية القديمة.

ـ ومهما كان القرار فمن المرغوب فيه أن يوجه تحذير فى حينه للمنفذين وللأب دريوتون».

* * *

كانت الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت بين ألمانيا من ناحية، وبريطانيا وفرنسا وغيرهما من دول أوروبا من ناحية أخرى فى ٣ من سبتمبر عام ١٩٣٩، ومع ذلك

فإن وزارة الخارجية البريطانية فرغت جانبا من اهتمامها لقضية ١٨ قطعة من آثار توت عنخ آمون، سرقها كارتر من المقبرة وهربها إلى لندن ووجدت فى بيته، ويريد منفذ الوصية هارى بيرتون إعادتها إلى القاهرة فى الحقيبة الدبلوماسية للسفارة البريطانية حتى لا يتهم كارتر أو اللورد كارنارفون بسرقة هذه القطع وغيرها.

قال طومسون أول مسئول فى القسم المصرى بالخارجية البريطانية عرضت عليه هذه الأوراق:

«لا رأى إعادة هذه القطع إلى مصر وأميل شخصيا إلى إلقائها فى نهر التيمس أو إرسالها بشكل ما إلى متحف المتروبوليتان الأمريكى أو للمتحف البريطانى حيث تختفى من العالم بشكل فعال وإذا كان لابد من إعادتها فربما يمكن ذلك إذا قامت السفارة بتصرف ما لمنع فضيحة حتمية إذا ترك المديرون المنفذون يتصرفون بطريقتهم الخاصة.

ولا أحبذ فكرة إشراك الحكومة البريطانية فى الموضوع بإرسال القطع فى الحقيبة الدبلوماسية وعلى ذلك أميل إلى الموافقة على اقتراح سير مايلز لامبسون بضرورة أن يقوم بشرح الموضوع بصراحة لرئيس الوزراء».

وأيد المسئول الثانى رأى طومسون..

ورفض المسئول الثالث استشارة السير فردريك كينيون المدير السابق للمتحف البريطانى فى لندن.

أما السير دافيد كيللى الذى عمل فى القاهرة وأصبح وكيلاً مساعداً للخارجية البريطانية، فقال:

«لست واثقًا ما إذا كان من العدل وصف مستر هوارد كارتر بأنه لص.

كانت له شكاوى مالية جادة تجاه الحكومة المصرية (التى لم يكن لها فى الواقع نصيب فى الاكتشافات التى لفتت إلى حد كبير نظر السياح فإن المجموعات الأقدم من الآثار فى القاهرة مختلطة ببعضها ولا تلقى الاهتمام الكافى) وربما يكون قد أقنع نفسه بأنه إنما يحصل فقط على جزء من مستحقاته خاصة وأنه لم يحاول أبداً أن يبيع القطع الأثرية محل النزاع.

ولا أرى سببًا لإقحام الحكومة البريطانية نفسها فى هذا الموضوع . والطريقة الوحيدة لمعالجته هى فى نظرى أن يقوم سير مايلز لامبسون بإبلاغ مستر بيرتون بأن القطع المسروقة ينبغى إعادتها . وليس هناك محل لتسترنا على الجريمة بإساءة استخدام الحقيبة الرسمية الدبلوماسية بأى شكل ، كما أننى غير مستعد لأن أشير بأى شكل آخر من التصرف السرى حتى يختفى إلى الأبد أن هذه القطع القيمة تم تهريبها بشكل غير قانونى من مصر .

وبخصوص رئيس الوزراء المصرى أقر بضرورة أن يخول السفير بأن يبلغ «على ماهر» فى الوقت الذى يراه ضروريا بأن هذه القصة غير السارة قد وصلت علمه وأنه أصر فوراً على إعادة الكنوز إلى مصر .

ومع تقديرى التام لقلقكم بشأن إمكانية انتقادات معادية وغيرها من ردود الفعل السيئة حين ـ أو عندما ـ تعرف الحقائق فى مصر فإنى لا أرى محلاً لأن تقوم الحكومة البريطانية بتسهيل إعادة القطع سرا والتى أخذها مستر كارتر الراحل بشكل غير مشروع والتى تم العثور عليها بين حاجياته .

وفى هذه الظروف أرى أن هناك طريقًا واحدًا يمكن اتباعه وهو إبلاغ المديرين المنفذين لوصية المستر كارتر الراحل بأن القطع الأثرية محل الإشكال ينبغى إعادتها فى أقرب وقت ممكن إلى أصحابها الشرعيين» .

ويوافق وكيل الوزارة الدائم على ذلك .

* * *

وتكتب وزارة الخارجية فى ١٧ من ديسمبر ١٩٣٩ إلى السير مايلز لامبسون :

«بخصوص رئيس الوزراء المصرى فإنك مخول بإبلاغ على ماهر باشا ، فى الوقت الذى تراه ضروريًا أو مرغوبا بأن هذه القصة غير السارة وصلت إلى علمك وأنك نصحت المديرين المنفذين للوصية بترتيب إعادة القطع المسروقة» .

وهكذا تتخلى وزارة الخارجية البريطانية عن مسئولياتها فى إعادة الآثار إلى مصر .

وخوفًا من أن تعرف الحكومة المصرية عن طريق دريوتون مدير مصلحة الآثار أو

غيره بقصة العثور على هذه الآثار فإن الخارجية البريطانية تكتفى بلفت نظر هارى بيرتون إلى ضرورة إعادة الآثار إلى مصر بالطريقة التى يراها .

ولا يوجد فى الوثائق الرسمية ما يدل على أن السير مايلز لامبسون قد أبلغ على ماهر باشا نبأ الـ ١٨ قطعة أثرية ، فإن الأزمات السياسية بين رئيس وزراء مصر والسفير البريطانى تصاعدت بشدة ؛ فالسفير يريد أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا بينما اكتفى على ماهر بقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين !

وينتهى الخلاف بتوجيه إنذار بريطانى للملك فاروق لعزل على ماهر فيرغمه صاحب الجلالة على الاستقالة ، بعد أزمات متعددة مع السفير البريطانى ، فى ٢٣ من يونية عام ١٩٤٠ .

ويتبعه إنجلباك بعد ست سنوات .

ولم تعد الـ ١٨ قطعة الأثرية إلى مصر .

وبعـــد . .

روى هارى جيمس أمين قسم الآثار المصرية فى المتحف البريطانى فى كتابه عن كارتر ، أن عالم الآثار نيوبرى نصح ابنة شقيقة كارتر - فيليس ووكر - والتى عهد إليها بتنفيذ وصيته أن تكتب إلى الأب اتيين دريوتون مدير عام مصلحة الآثار المصرية يوم ٢٢ من مارس ١٩٤٠ تعرض عليه استرداد آثار المقبرة التى تركها خالها .

رد عليها دريوتون يوم ٣٠ من إبريل شاكرا كرمها ومعبرا عن فهمه بأن الهدية لن تتعرض لحملة صحفية معادية ضد كارتر ، ولن تؤخذ دليلا ضده .

وقال إنه عرف بحكاية هذه الآثار من هارى بيرتون ، وأنه استشار صاحب الجلالة ملك مصر فاروق ، الذى عرض الوساطة مع المتحف المصرى لتسليمه الآثار . وبطبيعة الحال فإن أحدا لن يجرؤ على التلميح بشىء فى مسألة يكون صاحب الجلالة طرفا فيها .

واقترح أن تسلم الآثار - مغلقة - إلى القنصلية المصرية التى ستصدر لها تعليمات بنقلها إلى صاحب الجلالة .

ويقول جيمس إن الآثار بقيت فى القنصلية المصرية حتى انتهت الحرب العالمية الثانية ، فكتبت فيليس ووكر إلى عالم الآثار نيوبرى بأن «الأشياء» - دون أن

تفصح عنها ـ عادت بالطائرة إلى مصر ، وأنها قدمت كهدية إلى المتحف من صاحب الجلالة .

كتب عالم الآثار آلان جاردنر إلى زميله نيوبرى يقول فى ٢١ من مارس ١٩٤٥ بأنه عرف كل شىء عن نقل «الأشياء» إلى السفارة المصرية وأنه نصح كارتر بذلك منذ زمن .

ولا يوجد فى سجلات المتحف المصرى ما يدل على هذه الهدية .

وقد يقال إن صاحب الجلالة لم يتسلم شيئا ، أو إنه احتفظ بهذه الآثار .

وفى الوقت ذاته فإن هذه الآثار لم توجد فى القصور الملكية بعد اعتزال فاروق عام ١٩٥٢ .

ولم تعلن بيوت المزادات عن بيعها فى أى وقت . ولم يعلن أحد الأثرياء من هواة الآثار عنها .

ومن هذا كله يتضح أن الـ ١٨ قطعة الأثرية لم تعد إلى مصر .

ولم يعرف أبدا ما إذا كانت هذه القطع قد بيعت إلى متحف المتروبوليتان أو غيره من المتاحف .

ولكن لأن ثمن إحداها يصل إلى آلاف الجنيهات فالأرجح أن الآنسة ووكر ابنة شقيقة كارتر لم تلق هذه القطعة وغيرها فى نهر التيمس فى إنجلترا ، بل اقتدت بخالها واللورد كارنارفون فى الحصول على الثمن المرتفع .

وبفرض أن ابنة شقيقته قد فكرت فى إعادة هذه الآثار لمصر ، أو أنها أعادتها فعلا فإن هذا لا ينفى عن خالها تهمة السرقة .

وتبقى هذه الوثائق كلها دليلا حاسما واعترافا بسرقة ملك مصر !

المحتويـــات

كتب للمؤلف

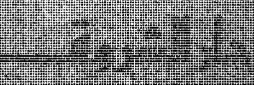
١ ـ حكايات صحفية	الناشر : أخبار اليوم
٢ ـ الزواج سنة ٢٠٠٠	الناشر : أخبار اليوم
٣ ـ تاريخ للبيع	الناشر : أخبار اليوم
٤ ـ ولا عجيب إلا الصين	الناشر : أخبار اليوم
٥ ـ دفاع عن الزوجات	الناشر : أخبار اليوم
٦ ـ سرقة واحة مصرية	الناشر : أخبار اليوم
٧ ـ الصحافة قصص ومغامرات	الناشر : أخبار اليوم
٨ ـ الشعب والحرب	الناشر : المكتب المصرى الحديث
٩ ـ التليفزيون	الناشر : المكتب المصرى الحديث
١٠ ـ التاريخ السرى لمصر	الناشر : المكتب المصرى الحديث
١١ ـ حرب البترول (المحاضر السرية لاجتماعات وزراء البترول العرب)	الناشر : مجلة الإذاعة
١٢ ـ عندما يموت الملك	الناشر : دار التعاون
١٣ ـ سنة من عمر مصر	الناشر : دار المعارف
١٤ ـ التاريخ السرى لمصر (طبعة أكبر بوثائق بريطانية وأمريكية)	الناشر : دار المعارف
١٥ ـ أصول الحكم	الناشر : دار المعارف
١٦ ـ الشيطان	الناشر : دار المعارف
١٧ ـ دنيا الصحافة	الناشر : دار الهلال
١٨ ـ أفندينا يبيع مصر	الناشر : مؤسسة الأهرام

١٩ ـ ٥ أيام هزت مصر	الناشر : مؤسسة الأهرام
٢٠ ـ الإنسان حيوان تليفزيونى	الناشر : مؤسسة الأهرام
٢١ ـ سرقة ملك مصر (طبعتان)	الناشر : مؤسسة الأهرام
٢٢ ـ صاحب الجلالة التليفزيون	الناشر : مكتبة غريب
٢٣ ـ إنهم يقتلون الأدباء	الناشر : مكتبة غريب
٢٤ ـ أقوال غير مأثورة	الناشر : مكتبة غريب
٢٥ ـ سعد زغلول مولد ثورة	الناشر : دار الشروق
٢٦ ـ من قتل حسن البنا؟	الناشر : دار الشروق
٢٧ ـ أوراق سقطت من التاريخ	الناشر : دار الشروق
٢٨ ـ سقط النظام فى أربعة أيام	الناشر : دار الشروق
٢٩ ـ زوج مجرب (طبعتان)	الناشر : دار الشروق
٣٠ ـ مصر والسودان والانفصال	الناشر : دار الشروق
٣١ ـ عندما تحكم المرأة	الناشر : دار الشروق

رقم الإيداع ٥١٣٦/٢٠٠٠
الترقيم الدولى 7 - 0624 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)




دار الشروق